

الروض الزاهر

في سيرة الملك الظاهر

تأليف القاضي

محيي الدين بن عبد الظاهر

٦٢٠ - ٦٩٢هـ / ١٢٢٣ - ١٢٩٢م

تحقيق ونشر

عبد العزيز الخويطر

الرياض

الروض الزاهر

الطبعة الأولى

١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

١

كتابة السير أمر عرفته الحقب الإسلامية ، وقد زاوله الكتّاب ، وقُبل ما كتبوه على أنه جزء من كتابة التاريخ ، بل إنه في بعض الحالات كان المحّ فيها ، وكان الإقبال عليه يتراوح الحماس له وفيه بين فترة وأخرى ، كثرة وقوة ، حسب ظروف تتناسب مع طبيعته أحياناً ، أو تتنافى أحياناً أخرى . وكان التأليف فيه يقوى لأهمية الشخصية المؤرخ لها ، ولقوة الكاتب ، ومدى إيمانه بالموضوع الذي يعالجه ، وإتقانه لفن الكتابة فيه ، أو يضعف لضعف في هذه النواحي . وكانت فترة عصر المماليك من الفترات التي كان لتأليف السير فيها حظ ميسور .

ولعل من الدوافع للاتجاه لمثل هذا النوع من كتابات التاريخ ما كان يمتاز به عصرٌ ما من أعمال بطولية ، تتطلب التمجيد والإظهار ، ويجد الكاتب – إذا لم يكن موعزاً إليه – أن ما يمكن أن يكتبه في هذا الصدد يدور حول أشخاص بينهم من يبزهم جميعاً ، فيسلط عليه الأضواء ويجعله محوراً تندرج ضمن أخباره أخبار الفترة أو الحقبة التي يعيشها الكاتب : والعصر الذي عاش فيه بيبرس برز فيه النزاع بين المسلمين والصليبيين ، وبين المسلمين والمغول ، ووصل فيه التحام القتال إلى ذروة الشدة ، وبرز أشخاص صاروا في المقدمة . وفي هذا الوقت بالذات ، بعد مدافعة المناكب ،

سطع نجم الملك الظاهر بيبرس ، فلم يكن إذاً من غير الطبيعي أن يفرد له سيرة ، تضم أخباره ، وأخبار عصره ، بل زاد العدد عن واحدة إلى ثانية ومختصر للأولى .

وسيرة بيبرس هذه جاءت ضافية ، فأعطت معلومات متكاملة ، ألقت ، إلى حد كبير ، ضوءاً ساطعاً على عصر بيبرس ، لولاها لكانت المعلومات عن هذه الحقبة مبتورة ، خاصة مع السيرة الخرافية التي ألصقت ببيبرس ، فتداولها الناس وتناقلوها وروّجوها ، وانتشرت انتشاراً غطى على سيرته الحقيقية . ولولا سيرة الملك الظاهر بيبرس ، التي بين أيدينا الآن « **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر** ، تأليف القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر » وسيرة بيبرس « **تاريخ الملك الظاهر** ، تأليف عز الدين بن شداد » ومختصر شافع بن علي : « **حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية** » لأصبحت المعلومات عن الظاهر بيبرس مقصورة على معلومات مقتضبة ، وردت ضمناً في بعض المؤلفات العامة ، أو نبذاً مفرقة في الموسوعات التاريخية تعطي عنه خطوطاً عامة وعريضة .

والذي يهم في هذا التمهيد هو كتاب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، وهو حلقة مهمة في سلسلة التاريخ الإسلامي والعربي ، يجدر به أن ينشر ، ليكون الوصول إليه سهلاً ، والاستفادة منه أعم .

وها هي مخطوطته أضعها هنا منشورة بين يدي القارىء ، وهي إحدى متعلقات رسالتي للدكتوراه ، التي قدمتها لجامعة لندن في عام ١٩٦٠ م ، رأيت أن تكون أوّل ما ينشر عن بيبرس من تلك الرسالة لأن ما أرجو أن أتمكن من نشره فيما بعد عنه يرتكز أغلبه على ما ورد في هذه المخطوطة :

٢

اعتمدت مخطوطة اسطنبول أصلاً ، إلاّ في الأجزاء المفقودة منها ، فقد استعيض عنها بمخطوطة المتحف البريطاني ، التي سوف يرمز لصفحاتها بحرف (ب) .

وقد اعتمدت شكل الآيات القرآنية مع الإشارة إلى السورة وموقع الآية منها ، أما الاقتباس الجزئي للآيات المدمج في جملة للمؤلف فغالباً أكتفي بشكل الجزء المقتبس فقط .

الفاصلة [ ] تدل على تكملة سقط لا مرجع لها ، اقتضاه مجرى الجملة ومعناها .

وقد وضعت أرقام ورقات المخطوطتين ، محافظة على تقسيم الصفحات في المخطوطتين ، وليسهل الرجوع إلى الصفحات فيما لو اختلفت الطبعات في المستقبل .

مقدمة

محيي الدين بن عبد الظاهر

نسبه وعمله :

القاضي محيي الدين ، أبو الفضل ، عبدالله بن رشيد الدين عبد الظاهر ابن نشوان بن عبد الظاهر السعدي المصري[1] هو مؤلف سيرة الملك الظاهر بيبرس المسماة « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » وقد ولد في القاهرة في عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م ومات في اليوم الثالث من رجب عام ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م[2] ، واشتهر بعمله في ديوان الإنشاء وبتأليفه سيرة الملك الظاهر بيبرس .

كان محيي الدين كاتباً في ديوان الإنشاء عندما تولى بيبرس الحكم ، ويبدو أن عمله في الديوان كان ، على الأقل ، من أيام الملك المظفر قطز فقد رافق حملته إلى سوريا ضد المغول[3] وسرعان ما حاز ثقة بيبرس بعد توليه الحكم ، وأول عمل هامّ قام به في خدمته كتابته ، على لسانه ، خطاباً أرسل من بيبرس إلى الملك بركه رئيس القبيلة الذهبية المغولية[4] . وكان

---

١ المقريزي ، السلوك ١ / ٧٨٧ والتغربردي ، النجوم ٨ / ٣٨ .
٢ النجوم ٨ / ٣٨ .
٣ يذكر محيي الدين في الروض أنه دخل عكا صحبة الأتابك في هذه الرحلة/ الورقة ١٠ .
٤ الروض/ ١٠ .

بيبرس حريصاً على ضم بركه إلى حزب الإسلام .

والسيرة تزخر بما اقتبسه المؤلف من الوثائق ، كاملاً أو مقتضباً ، وبعضها كان من إنشائه ، وبعضها يتعلق بسياسة الدولة الخارجية كخطابات العداء[1] أو الصداقة[2] ، وبعضها عن أمور داخلية كالحفلات بأنواعها[3] .

وطبيعة عمل المؤلف جعلته على اتصال دائم ببيبرس ، وازداد قربه منه حتّى خصّه ببعض الأمور المهمة في اعتبار ذلك الزمن ، ومن أمثلة ذلك أن بيبرس عندما انتصر في إحدى الغزوات ترك له نقل بشرى ذلك الانتصار إلى حاكم حماه[4] ، واختصه في وقت مبكر من توليه الملك بما هو أهم إذ أرسله في سفارة لأخذ اليمين من حاكم عكا على معاهدة كان قد استقر الرأي عليها[5] .

واستمر محيي الدين في مركزه بديوان الإنشاء ، طوال فترة حكم بيبرس ، وأثناء حكم ابنيه ، وعلى الأقل جزء من فترة حياة قلاوون ، لأنه في إحدى رحلاته إلى سوريا أبقى ابنه الملك الصالح نائباً عنه في مصر ، وأبقى معه محيي الدين للقيام بأمور الإنشاء ، وربما أمور أخرى أيضاً[6] . واحتفاظه بنشاطه هذا في ديوان الإنشاء كان رغم ما طرأ على نظره من

---

١ من ذلك خطاب بيبرس إلى ملك قبرص وكانت سفن بيبرس قد تحطمت على شاطىء جزيرته ، الروض ١٥٠ .

٢ يذكر المؤلف أنه كتب باسم بيبرس خطاباً إلى بركه ، الروض ١٠ .

٣ الروض ب ٥٣ .

٤ الروض ١٥١ .

٥ السلوك ١ / ٥٧١ .

٦ السلوك ١ / ٦٨٤ .

ضعف ، كما يشير إلى ذلك شافع [1] .

ولم تكن عائلة محيي الدين مجهولة في تاريخ الثقافة الإسلامية ، وإن كان محيي الدين أوّل فرد فيها دخل ديوان الإنشاء فلم يكن آخر واحد ، إذ إن ابنه فتح الدين محمد قد عرف عنه أنه دخل الديوان في أوائل عهد بيبرس [2] .

آراء معاصريه فيه

اعتبره معاصروه من أجود الكتّاب ، وأضفوا عليه فيما كتبوا من تراجم عصر المماليك من المدح الشيء الكثير ، فوصفه أحدهم بأنه « أحد البلغاء المذكورين ، له النظم الفائق ، والنثر الرائق » [3] ، ووصفه آخر بأنه « من سادات الكتّاب ، ورؤسائهم ، وفضلائهم » [4] ، ووصفه ثالث بأنه وأبناءه « هم بيت الفصاحة ورؤوس البلاغة » [5] ، وقد يكون لهذا الثناء من معاصريه ما يبرره إذا ما قورن بكتّاب عصره ، إلاّ أن إنتاجه إذا ما فحص منفرداً أو قورن بإنتاج زمن سابق فإنه لا يكاد يستحق مثل هذا الإطراء . والمقتطفات التي أوردها من شعره في سيرة بيبرس لا تكاد تصل

---

١ بمناسبة عقد قران أحد أبناء السلطان كان على محيي الدين أن يقرأ الخطبة ، ونظراً لأنه توقع أن يخرج السلطان للحفل قبل أن يطلع الفجر رتب مع شافع أن يقرأها بدلا منه . شافع ، المناقب ١٤٠ .

٢ يقول محيي الدين عن بيبرس في احدى رحلاته إلى الشام : « رسم لولد كاتب السيرة بكتابة كتب إلى النواب بتفويض نيابة الشام لعز الدين أيدمر » الروض ١٥٤ .

٣ حسن المحاضرة ١ / ٣٢٨ .

٤ النجوم الزاهرة ٨/٣٨ .

٥ صبح الأعشى ١٤/ ٧٠ .

إلى درجة عالية ، وإذا ما قورن بمعاصريه من الشعراء فإنه لا يعدّ بين المبرزين منهم . وعندما يبحث نثره مفصلاً فيما بعد عند تقدير القيمة الأدبية للسيرة فسوف يتبين أيضاً أن آراء معاصريه فيه كانت متناهية في حسن الظن .

لقد كان محيي الدين محبوباً بين معاصريه ، وكانوا معجبين كل الإعجاب بأسلوبه في الكتابة ، فحماه هذا من النقد الذي كان يوجه لغيره لنفس الأخطاء التي كان يقع فيها ، فالقلقشندي مثلاً ، وهو من المعجبين بمقدرة محيي الدين الكتابية لاحظ أنه خالف في كتابة « الألقاب » في أحد العهود ما كتبه في مرة سابقة ، ولكنه خفف هذا الخطأ بذكره أن محيي الدين حجة يرجع إليه في ذلك الفن[1] ، وهذا الخطأ نفسه لم يعذر القلقشندي ابن لقمان عليه عندما كتب عهد الخليفة لبيبرس فأخطأ في اللقب[2] . وليس من الواضح تماماً ما إذا كان أسلوب محيي الدين هو الذي أثّر على معاصريه ، أو ما كان يتمتع به هو وعائلته من احترام وتقدير ؛ أو كلاهما معاً ، فأسلوبه جديد . وقد يكون هذا مبعث الإعجاب ، وما فيه من أخطاء اغتفرت لأجل الكاتب ، إذ كان مصرياً عربياً قاضياً وكاتباً للسلطان ، وصاحب هذه الصفات يستطيع ، عند الحاجة ، أن يخدم مواطنيه ، ويحمي مصالحهم ، وعمله هذا يكسبه محبتهم واحترامهم وتقديرهم .

ومع إعجاب القلقشندي بمحيي الدين ، وغفرانه له ما لم يغفره لغيره ، فإنه لم يستطع على الأقل مرة واحدة أن يخفي دهشته من ركاكة أسلوب وثيقة إحدى الهدنات ، التي صدرت من ديوان الإنشاء ، في الوقت الذي كان الإشراف فيه لمحيي الدين ، أو أحد أفراد عائلته ، يقول : « والعجب

---

١ صبح الأعشى ١٠ / ١٦٠

٢ صبح الأعشى ١٠ / ٦٨

من صدور ذلك في زمن الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون ، وهما مَن هما من عظماء الملوك ، وكتابة الإنشاء يومئذ بيد بني عبد الظاهر الذين هم بيت الفصاحة ، ورؤوس البلاغة »[1] .

مؤلفاته :

كتب محيي الدين بجانب سيرة بيبرس كتاباً آخر عن حياة الملك المنصور قلاوون سماه « تشريف الأيام والعصور لسيرة السلطان الملك المنصور » ويوجد الآن منه ما يعتقد أنه الجزء الثاني من السيرة في المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٧٠٤[2] .

ويلاحظ اقتباس بعض المؤلفين لكتب له يبدو أنها كانت متداولة ، منها كتاب « الروضة البهية الزاهرة ، في خطط المعزية القاهرة » ، ويدل اسمه ، واقتباس المقريزي منه في خططه[3] على موضوعه الرئيسي ، وقد رجع إليه القلقشندي أيضاً[4] .

ومن كتبه في التاريخ « الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية » وهو عن فترة الأشرف ابن الملك المنصور قلاوون[5] .

وكان محيي الدين كاتباً مسؤولاً عن المراسلات ، وهذا جعله على اتصال مباشر « بحمام البريد » ، ودوره الهام حينئذ في المراسلات والاتصالات ،

---

١ صبح الأعشى ١٤ / ٧٠

٢ نشره الدكتور مراد كامل في سلسلة « تراثنا » القاهرة ١٩٦١

٣ المواعظ ، ١ / ٥ ، ٣٦٠

٤ صبح الأعشى ، ٣ / ٣٠٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٦٤ .

٥ نشره موبرج ، راجع تشريف الايام والعصور ١٥ .

ولعل عمله هذا ومعرفته بجوانبه كان السبب في تأليف الكتاب ، الذي يقول القلقشندي إن اسمه « تمائم الحمائم »[1] والسيوطي يسميه «تمام الحمام »[2].

ثقافته :

كان والد محيي الدين قاضياً[3] ، ويعرف قيمة العلم والتعلم ، ولا بد أنه حرص على تعليم ابنه وتثقيفه منذ الصغر ، كما هي العادة في تلك الأزمان ، وتدل على ذلك النبذة التي أوردها عنه الكتبي[4] عند كتابته عن حياة ابن محيي الدين ، ومنها يعرف أيضاً أن من بين الذين علّموا المؤلف جعفر الحمداني ، وعبد الله بن إسماعيل بن رمضان ، ويوسف بن المخيلي ، وغيرهم . أما تلاميذه فيذكر من بينهم البرزاني ، وابن سيد الناس ، وأثير الدين بن جماعة .

ويبدو من ثقافته أنه لم يكن مقتصراً في دراسته على المواد التي كان يدرسها أساتذته ، والتي كانت تقتصر على المنهج التقليدي ومواده ، ولا تعدو العلوم الدينية من فقه وتوحيد وفرائض وما يخدمها من علوم اللسان ، بل أضاف إليها باجتهاد منه بعض المواد الأخرى التي تختلف المعلومات فيها ، ولا تعد مما هو مطلوب من القاضي ، ومن بين تلك العلوم التاريخ ، ويمكن تتبع مصادر ثقافته في التاريخ من المعلومات التي أوردها مبثوثة في السيرة ، وبعضها مستقى من الطبري ، وابن عساكر وابن الأثير[5] وغيرهم . واهتمامه

---

١ صبح الأعشى ٢/ ٨٧ ، ١٤/ ٣٩٠ .
٢ حسن المحاضرة ٢/ ٢٢١ .
٣ الكتبي ، فوات الوفيات ٢/ ٢٧١ .
٤ الكتبي ، فوات الوفيات ٢/ ٢٧١ .
٥ الروض ، الورقة ٢٢ .

بالتاريخ ، وانجذابه إليه ، جعله يقدر بعض جوانبه الهامة ، وكان لبعض الوثائق التي لم تتداول قبل زمنه نصيب من تقديره[1] .

واختياره ليتولى منصب الكتابة في ديوان الإنشاء ، ثم رئاسته له ، يدل على اعتقاد معاصريه بطول باعه في اللغة العربية ، واتساع ثقافته فيها وفي أدبها ، ويعضد هذا ما حاول أن يعرضه في كتاباته من اقتناصه لبعض التعابير غير العادية ، وحرصه في بعض المناسبات على الاقتباس ، والتفنن فيه[2] . ومن بين الملاحظات التي تكشف عن ثقافته الأدبية أنه سلك مسلك القاضي الفاضل في طريقة الكتابة[3] واقتباساته منه[4] تدل على الأقل على إدراكه لمنزلته ، ومن الصعب تصور خلو أسلوب محيي الدين من التأثر به بعد دراسته لإنتاجه .

مخطوطة السيرة :

توجد مخطوطة « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » تأليف محيي الدين بن عبد الظاهر في إسطنبول ، في مكتبة الفاتح تحت الرقم ٤٣٦٧ ، وعدد ورقاتها ١٩٤ ، وفي كل ورقة صفحتان ، وفي كل صفحة ١٧ سطراً.

وقد كتبت المخطوطة بخط النسخ الواضح ، مما سهل قراءتها . وقد روعيت الصحة في وضع النقط والشكل على العموم ، ومع هذا فلم تخل هذه القاعدة من بعض الشذوذ الملحوظ .

---

١ الروض ، الورقة ٩٥ .

٢ يستشهد بشعر المتنبي والبحتري وغيرهما من الشعراء ، انظر الروض الورقات : ٤ ب ، ٥٨ ب ، ١٦٧ ب ، ١٧٥ ب .

٣ فوات الوفيات ٢ / ٢٧١ .

٤ الروض ، ١٨١ .

من كتابة المخطوطة يمكن القول بأنها كتبت في حدود أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن الهجري ، ولا يبدو أنها بخط المؤلف ، بدليل استعمال كلمة « كذا » للدلالة على استعمال مستغرب[1] ، والتصحيح في الهامش[2] ، وإدخال جمل في السطر في حين أن مكانها الأصلي في الهامش[3] .

نقص في المخطوطة :

لقد سقط من أوّل المخطوطة ما يقرب من ست ورقات ، وفقد من آخرها بعض الورقات أيضاً ، ولم يخل وسط المخطوطة من فقد بعض الورقات ، فهناك ورقة على الأقل قد سقطت بين صفحتي الورقة الثامنة ؛ وعدة ورقات بين صفحتي الورقة الخامسة والثلاثين ، وورقة على الأقل بين صفحتي الورقة الخامسة والسبعين ، وعدد من الورقات بين صفحتي الورقة المئة والثالثة والثلاثين ، وبعض الورقات بين صفحتي الورقة المئة والخامسة والثمانين .

وقد أكمل أغلب هذا النقص من الأجزاء المتكاملة في مخطوطة المتحف البريطاني المسجلة تحت الرقم : اضافة **٢٣,٣٣١**[4] . ويصل الجزء الموجود من صفحات هذه النسخة إلى ٩٨ ورقة فقط . وآخر ورقة فيها تقابل الورقة

---

١ الروض ٣٣ ، ب ٢ ، ٦ .

٢ الروض ، ٤١ حيث وضعت كلمة سلطان بدلا من أتابك .

٣ الروض ، ١٤٧ ، ١٥٣ .

٤ ADD 23, 331 وقد حققت السيدة الدكتورة/ سيدة فاطمة صادق الجزء الموجود من مخطوطة المتحف البريطاني ، وترجمته مع مقدمة ونبذة عن حياة بيبرس ، وأخذت على هذه الرسالة الدكتوراه من جامعة لندن . ونشرت رسالتها هذه في باكستان عام ١٩٥٦ ، مؤسسة جامعة أكسفورد للطباعة .

٩٥ أ من ورقات مخطوطة اسطنبول . أما النقص الذي لم يُتمكن من إتمامه من هذه المخطوطة فقد حُرص على إتمامه ، ما أمكن ، من كتب المؤرخين المتأخرين عن زمن محيي الدين ، ممن تبين أنه كان يقتبس منه[1] . وقد أفادت هذه الكتب في المقارنة والتأكد من صحة بعض الجمل والكلمات والأسماء ، وقد أشير إلى كل ذلك في مكانه .

أما ما تعذر إتمامه ، وهو قليل ، فقد ترك دون أن يكمل ، ونبه إلى ذلك في مكانه[2] .

الأدلة على أنها السيرة الأصلية :

الفحص الدقيق لهذه المخطوطة يثبت أنها مطابقة لأصل سيرة الملك الظاهر بيبرس ، التي ألفها كاتب الديوان محيي الدين بن عبد الظاهر ، وليست اختصاراً لها ، فمقدمة الكتاب توضح بأن المؤلف عازم أن يكتب بإسهاب : « خدمت الخزانة المعمورة بجمع هذه السيرة .... ، بإيداعها كل حسنة ، وتضمينها كل مكرمة ..... وها أنذا أذكر كل شيء منه في موضعه ، وأبينه في مكانه ، وأجلوه عن عين الناظر ومسمعه ، وأثبته في مكانه وأوقعه »[3] . وأسلوب المقدمة بما فيه من مترادفات هو أسلوب

١ هناك جملة قد سقطت من الورقة ١٨٣ فأكملت من النويري ، وهذا المؤرخ عرف بكثرة اقتباسه من الروض الزاهر ، وأكمل النقص الواقع في الورقة ١٨٥ بخطاب وجد في صبح الأعشى ١٤ / ١٣٩ يتمم باقي الخطاب الذي تظهر نهايته على الورقة ١٨٦ من مخطوطة اسطنبول .

٢ فمثلا تركت الفجوة التي بين صفحتي الورقة ٧٥ كما هي ، دون أن تعوض ، وتركت الورقات المفقودة في آخر المخطوطة وهما تحت عنوان : « نقل بيبرس إلى ضريحه المبارك » وربما احتوت على معلومات عن دفنه ، ولا يستبعد أن يكون هذا الجزء المفقود قد حوى بعض المراثي فيه .

٣ الروض الزاهر ب ٢ .

يقدم لكتاب مطوّل نوعاً ما[1] ، ومما يعضد أنه أصل السيرة ، لا اختصاراً لها ، أن المؤلف لم يشر في المقدمة إلى أي اختزال ، مع عدم توقع إهماله لو كان اختصاراً فعلاً .

هذه الدلائل إذا ما قورنت بما ورد في مقدمة مختصر شافع بن علي ، تثبت أن هذه المخطوطة ليست مختصراً لكتاب مطوّل .

قد تؤخذ بعض الاستشهادات الموجودة في الروض الزاهر على أنها ملامح توحي بأن الكتاب مختصر لسيرة أطول ، إلاّ أن هذه الاستشهادات تنهار أمام الفحص الدقيق ، ويستوجب الأمر استبعادها .

ويمكن أن تقسّم هذه الاستشهادات إلى نوعين :

الأول : يحيل المؤلف القارىء في جزء متأخر من الكتاب إلى معلومات سبقت ، وهي في الحقيقة لم تسبق ، أو يعد ببيانات لاحقة ، فلا يفي بهذا الوعد[2] ، وفي كلا هاتين الحالتين يفسر أنصار الاختصار أن المؤلف سبق فعلاً أن ذكر في صفحات سابقة ما أشار إليه في صفحات لاحقة ، أو العكس ، وأنه وفّى بإثبات المعلومات التي وعد بها إلاّ أن المختصر أهمله[3] . والأقرب إلى الواقع أن يكون المؤلف نسي أن يفي بما وعد به ، أو أن هذا دخل ضمن الصفحات المفقودة من المخطوطة ، والتي لم يتمكن من العثور على ما يكملها[4] .

---

١ الروض الزاهر ب ٢ .

٢ الروض ، ٩٧ .

٣ يلاحظ هنا أنه رغم أن هذا شيء يمكن أن يقع فيه المختصر إلا أن الإشارة إلى معلومات سابقة أو لاحقة قد تكون اطالة وقوع المختصر فيها أبعد من تركه ذكر معلومات مهمة .

٤ هذا إذا لم يكن قصد المؤلف أصلا لم يفهم على الوجهة التي أرادها .

الثاني : تتمثل الاستشهادات في هذا القسم في الأماكن التي يشير إليها المؤلف في السيرة بقوله : « قال مختصر السيرة . . . »[1] أو قال ابن القيسراني ، مختصر السيرة[2] ومع أن هذه الجمل ذكرت داخل أسطر السيرة ، إلاّ أنه يمكن تفسيرها بأنها كانت في الأصل ملاحظة مرسومة على الهامش ، وأدخلها ناسخ متأخر ضمن النص ، مثلما أدخل كلمة « كذا » في أماكن أخرى[3] ويلاحظ أنه في إحدى هذه الحالات وردت الجملة ناقصة ، وغير مفيدة ، وليس لها مقابل لدى النويري ، الذي أورد الفصل بأجمعه مقتبساً[4] .

وهناك دليل آخر على أن ما بين أيدينا إنما هو صورة كاملة لا مختصرة لسيرة بيبرس ، وهو أن بعض المعلومات يسبقها جملة « قال المؤلف »[5] أو « قال كاتب السيرة »[6] ، أو عبارة أدق في التدليل على هذا المعنى : « قال مؤلف السيرة القاضي محيي الدين »[7] أو « قال القاضي محيي الدين ، مؤلف السيرة »[8] ، ولا يقلل من قيمة هذا الدليل كون القول جاء بصيغة الماضي ، إذ إن المؤرخين العرب كثيراً ما يشيرون إلى تآليفهم بهذه الصيغة ، وتفادي ضمير المتكلم قصد به ألا يجبهوا القارئ به ، ولئلا يحس من عبارتهم تفخيمهم لأنفسهم ، وليس بغريب مثلاً أن نجد بعض الكتاب يعبر عن نفسه

١ الروض ، ١٤٧ .
٢ الروض ، ١٥٣ .
٣ الروض ، ب ٢ ، ٣٣ .
٤ الروض ، ١٥٣ ، والنهاية ٢٩/ ٨٥ .
٥ الروض ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٣ .
٦ الروض ، ٩٣ .
٧ الروض ، ٧٢ ، ٧٩ .
٨ الروض ، ٧٢ .

بقوله : « قال المؤرخ »[1] وقليلاً ما يستعمل محيي الدين كلمة « قلت » ، وإذا استعملها فلمبرر يمكن أن يرى من خلال الموضوع المقتبس ، وعادة ما يكون هذا المقتبس من القرآن الكريم أو الحديث .

ومن أمثلة التواضع أيضاً عنده أنه يقدم إحدى القصائد المعروفة له بقوله : « ونظم المملوك »[2] ، ويشير إلى نفسه في مكان آخر بقوله : « مؤلف السيرة ، محيي الدين »[3] والمعروف أن الاختصار لمؤلف من المؤلفات دليل الاحترام والتقدير للكتاب وكاتبه، ووصف كاتب المختصر لكاتب الأصل بمملوك أو مولى يتنافى مع هاتين الصفتين . أما إذا وصف المؤلف نفسه بذلك فهذا دليل على تواضعه أمام ولي نعمته .

إن تكرار هذه الكلمات ، وما يماثلها من العبارات ، التي تشير إلى شخص واحد ، دليل واضح على أن المخطوطة هي الصورة المطولة للسيرة ، وليس في المخطوطة كلها كلمات مشابهة تشير إلى مؤرخ آخر غير الحالتين المشيرتين إلى الاختصار[4] ، وقد سبق بحثهما ، وأعطي الرأي حيالهما .

ويضاف إلى ما سبق أن السيرة تحتوي على معلومات أشار بعض المؤرخين التالين لزمن محيي الدين أنهم اقتبسوها منه ، وقد روجع جميع ما بقي من هذه المعلومات فوجد مطابقاً لما ورد منه في المخطوطة دون زيادة[5] .

---

١ راجع مثلا النويري ، النهاية ، ٢٩ / ٩٤ .
٢ الروض ، ٣٩ ، ٤٠ .
٣ الروض ، ٥٣ .
٤ الروض ، ٥٣ .
٥ أما ما قد بدا من زيادة فمرده أن المقتبس استمر في السرد دون أن ينبه إلى انتهاء كلام محيي الدين مما أوهم أن الزيادة من كلامه .

وبعد : فليس هناك ما يدل على أن هناك سيرة مختصرة ، ألفها محيي الدين ، ولو كان هناك شيء لذكره شافع بن علي ، مختصر السيرة ، لذا فهذا الإغفال ، مع ما ذكره شافع من أسباب حدته إلى تأليف مختصر السيرة ، يدل دلالة واضحة على أن هذه المخطوطة هي الصيغة المطولة وليست مختصرة[1] .

زمن التأليف :

من قراءة المخطوطة يمكن القول بأن السيرة كتبت في زمن الملك الظاهر بيبرس ، فالمؤلف يستعمل كلمة « نصره الله »[2] حينما يتكلم عن بيبرس ، وكلمة « زيدت عظمته »[3] حينما يتكلم عن الملك بركه ، رئيس القبيلة الذهبية ، الذي عاصر بيبرس ، وقد توفي قبله ، ويكرر كلمة « مولانا » . والمؤلف نفسه يذكر أنه ألف السيرة خدمة لمكتبة السلطان : « خدمت الخزانة المعمورة بجمع هذه السيرة . . . »[4] . وأن بيبرس نفسه فيما بعد ، ساعد المؤلف ، فأملى عليه معلومات عن حياته الأولى[5] . ويشير شافع ، مختصر السيرة ، إلى شيء من هذا[6] . ومن هذا يتضح أن السيرة قد كتبت أثناء حياة الملك الظاهر بيبرس نفسه ، إلاّ أن المؤلف ربما أضاف زيادات عليها بعد وفاة بيبرس ، أثناء مراجعته لها .

ويبدو أن محيي الدين كان يدوّن معلوماته عن الحوادث مباشرة بعد

---

١ راجع شافع ، ٤ .
٢ الروض ، ٢ .
٣ الروض ، ٣٠ .
٤ الروض ، ب ٢ .
٥ الروض ، ب ١٠ .
٦ شافع ، ١٤٦ .

وقوعها ، أو حينما يتمكن من الحصول على ما سعى إلى معرفته منها ، هذا بالطبع فيما عدا المعلومات التي تتحدث عن الحقبة التي تسبق تولي بيبرس السلطة .

طريقته في الكتابة :

يبدو أن محيي الدين كان ، في أوّل الأمر ، محتاراً في الطريقة التي سوف يتبعها ، إلاّ أنه تدريجياً بدأ يستقر على طريقة منتظمة [١] ، وهي جعل الحوادث مرتبة حسب السنوات ، فكل سنة يدوّن حوادثها تحتها [٢] ، واحتفظ بطريقة تدوين الحوادث ضمن السنوات إلى أن مات بيبرس في عام ٧٧٦ هـ . وحاول في هذه الأثناء تدوين الحوادث بدقة ، ذاكراً اليوم والشهر وأحياناً الوقت من النهار [٣] . على أن إسقاط واحد من هذه لم يكن نادراً .

والمخطوطة لا تخلو من بعض الأخطاء ، التي قد تعزى للناسخ لا للمؤلف [٤] . وفي الوقت الذي يسير محيي الدين في كتابه على طريقة السنوات نجده أيضاً يقسم المعلومات إلى أقسام ، ويضعها تحت عناوين تشير إلى طبيعتها ، وأحياناً يدخل تحت العنوان ما ليس منه ، أو يذكر معلومات لا تبرر قيمتها ذكرها لتفاهتها [٥] .

---

١ أول سنة بدأ انتظام الحوادث فيها سنة ٦٦٢ هـ .
٢ ونادراً ما يخل بهذا الالتزام ، راجع مثلا الروض ، ٩٨ وفيها يذكر أن الحادثة وقعت في صفر ٦٦٦ ، و ٩٩ وفيها يذكر بدء السنة ٦٦٦ .
٣ الروض ، ١٥٦ .
٤ الروض ، ب ٦٠ .
٥ راجع الفصل المعنون « ذكر وصول رسل الأمير بركه » يبدأ فيه بأخبار عن وصول أبناء الملك المغيث ، ب ٦٥ والورقات ٢٨ — ٢٩ .

مصادر المؤلف :

كان المؤلف كاتباً للسلطان ، فمكنته هذه الوظيفة من جمع المعلومات اللازمة لتأليف هذه السيرة ، حيث إنه كان أحد القلائل الذين تركت وثائق الدولة في عهدتهم ، وأتيحت لهم الفرصة لمقابلة من شاركوا السلطان في الحكم ، ولمصاحبة السلطان في حملاته العديدة ، الحربية وغيرها . ويبدو أن الجزء الأكبر من المعلومات الموجودة في السيرة جمع عن أحد هذه المصادر الثلاثة ، وفي المقدمة يقول المؤلف عن نفسه : « وكان المملوك الأصغر مشاهدها سفراً وحضراً ، ومعاينة لا خبراً »[1] . ورغم أنه لا يشير دائماً إلى الطريقة التي وصلت إليه بها الأخبار ، إلاّ أنه بالإمكان التصوّر أنها وصلت إليه عن طريق قيامه بوظيفته ، فهو يصف الحادثة إذا وقعت أمامه ، وينقل الوثيقة إذا وقعت في يده ، أو على الأقل يبني معلوماته عليها ، وقد كان ، مثلاً ، شاهد عيان عندما اشترك بيبرس مع قواته في محاصرة أرسوف[2] ودوّن أخبار سفارته ، مرسلاً من السلطان إلى حاكم عكا[3] .

ومصادر محيي الدين التي أشار إليها يمكن تقسيمها إلى قسمين : **مصادر شفهية ، ومصادر كتابية :**

المصادر الشفهية :

مصادره في هذا عادة أشخاص بارزون في منزلتهم ، بينهم قضاة ،

---

١ الروض ، ب ٢ .

٢ الروض ، ٧٢ .

٣ الروض ، ١٢٣ .

وبينهم السلطان نفسه ، وفي بعض الحالات نبّه المؤلف إلى المعلومات التي استقاها من السلطان[1] . وذكر في إحدى المرات أن السلطان أملى عليه أخباراً عن رحلات سابقة له[2] . وشملت مصادره الأعضاء البارزين في حكومة بيبرس ممن لعبوا دوراً فيما كتبه محيي الدين في تاريخه من حوادث .

ويقدم محيي الدين المعلومات التي استقاها من أمثال هذه المصادر بالعبارات الآتية : « قال مؤلف السيرة ، حسبما أملاه السلطان من لفظه »[3] ، حكى السلطان ، قال[4] : « قال لي السلطان »[5] . « وهو ما خبرني به مولانا السلطان »[6] ، « ولقد قال السلطان »[7] ، « هذا ما أخبرني به الأتابك »[8] ، « قال مؤلف السيرة : حكى لي الملك المجاهد ، صاحب الجزيرة ، قال »[9] : « حكى الأمير افتخار الدين ، والي البصرة ، قال »[10] . ونادراً ما يبهم مصدره، فإذا فعل استعمل عبارات مثل : « وخبّرت »[11]، أو « فبلغني »[12] .

المصادر الكتابية :

يقتبس محيي الدين من المؤلفين السابقين عن الفترات السابقة لزمانه ، فيذكر أحياناً اسم المؤلف وكتابه ، ويقدم للمعلومات المقتبسة بقوله مثلاً :

---

١ الروض ، ٦ ، ١٨ وفيها يذكر المؤلف الأموال التي أنفقت على الخليفة ، وأمراء الموصل ، راجع أيضاً ١٠ .

٢ الروض ، ١٢٨ .

٣ الروض ، ١٢٨ .

٤ الروض ، ب ١٠ .

٥ الروض ، ١٨ .

٦ الروض ، ٦ .

٧ الروض ، ٣٨ .

٨ الروض ، ٤ .

٩ الروض ، ٨٢ — ٨٣ .

١٠ الروض ، ٢ .

١١ الروض ، ١٧٨ .

١٢ الروض ، ٧ .

« وقال البلاذري في كتابه : فتوح البلدان »[1] . فحكى الرملي في كتابه : فتوح الشام[2] ، فنذكر ما نقل ابن حمدون في كتابه : « التذكرة »[3] قال القاضي محيي الدين : نقلت من خط أبي زكريا ، يزيد بن إياس بن القاسم ، صاحب تاريخ الموصل ، قال[4] : « حكى ابن الأثير في تاريخه ، قال[5] ، « وقال ابن السمعاني في تاريخه »[6] ، « ذكر ذلك مؤيد الدين بن منقذ ، في كتاب الحصون »[7] ، وأحياناً يحذف اسم المؤلف كما في قوله : « قال مؤلف السيرة : رأيت ، في سيرة الحاكم ، مكتوباً يقول[8] ، وأحياناً يحذف اسم الكتاب ، كما في قوله : « وقال البلاذري عن مشائخه[9] » ، « نقل حديث الفقهاء ابن زولاق ، وعزاه إلى أخبار المسيحي »[10] .

وهناك حالات يبدو أن المؤلف فيها نقل من وثائق لم يعد لها وجود ، كوثيقة الوقف التي ذكرها عند حديثه عن تاريخ الأزهر ، بقوله : « على ما شرح في كتاب الوقف ، ورأيت منه نسخة عند نجم الدين بن الحي ، وانتقلت هذه النسخة الآن إلى قاضي القضاة تقي الدين بن رزين »[11]، ومثل هذه أيضاً ما ذكره عن القصير ، وأنه قلعة انطاكية[12] .

ومن هذا يتبين أن المؤلف ، عند اقتباسه من كتابات السابقين ، حرص على ذكر المؤلف ، أو كتابه على الأقل ، وقليلاً ما كان يكتفي بمثل

---

١ الروض ، ١١٤ .
٢ الروض ، ١١٤ .
٣ الروض ، ٢٦ .
٤ الروض ، ٦٠ .
٥ الروض ، ٢٢ .
٦ الروض ، ١٤٢ .
٧ الروض ، ١٤١ .
٨ الروض ، ٩٥ .
٩ الروض ، ١١٤ .
١٠ الروض ، ٩٥ .
١١ الروض ، ٩٥ .
١٢ الروض ، ٢٧ ، ٦٠ — ٦١ ، ١١٤ .

« قيل »[1] ، أو « قال بعضهم »[2] ، « وقال غيره »[3] ، أو « روي عن » . وتبدو هذه التعبيرات داخلة أساساً ضمن ما اقتبس . ومن عباراته الجديرة بالملاحظة في هذا المجال عبارة « أصحاب الأخبار » التي وردت في كتابه أكثر من مرة ، وهي رغم مدلول كلماتها إلاّ أنها تحتمل أكثر من تفسير .

أسلوبه في الكتابة :

ليس من السهل في أغلب الأحيان تحديد مسؤولية الناسخ تجاه لغة المخطوطة ولهذا قد يحاسب المؤلف على خطإ لم يرتكبه ، ومسؤوليته تقع في الحقيقة على الناسخ ، وعلى هذا فبعض الأحكام التي سوف تقرر هنا تدخل في نطاق هذا الاعتبار .

عرف محيي الدين بين معاصريه بأنه كاتب له أسلوب عال ومتميز ، ومن المسلم به أن الكتاب الذين جاؤوا بعده مباشرة لم يبلغوا في الكتابة شأوه ، كما قصر هو من قبل عن أن يصل إلى درجة القاضي الفاضل ، وهو من حاول أن يقتفي أثره في الكتابة ويقلده[4] . ومع أن محيي الدين كان مشهوراً بالكتابة في المواضيع الأدبية إلاّ أنه كان يدرك أن كتابة التاريخ تختلف عن الكتابة الأدبية ، أو الكتابة الرسمية ، بدليل ما أدخله على الوثائق الرسمية ، التي كان قد كتبها للديوان ، من تغيير عباراتها إلى الأسهل عندما أراد اقتباسها للسيرة ، فجردها من بعض المحسنات اللفظية[5] ، وكان هذا دأبه

---

١ الروض ، ٢٧ ، ١١٤ .
٢ الروض ، ١٣ .
٣ الروض ، ٢٦ .
٤ فوات الوفيات ، ٢٧١ .
٥ من هذا خطابه في وصف حملة الروم ، واستعماله له في الفصل الخاص بهذه الحملة في المخطوطة ، ١٨٥ .

أيضاً مع الوثائق التي كتبها غيره ، وأوجب الأمر اقتباسه لها[1] . ونتيجة لهذا التصرف نجد أن أسلوبه في السيرة خال إلى حد ما من المحسنات اللفظية التي تتصف بها كتاباته في مجالات أخرى . ولا شك أن الفرق بين الأسلوبين كبير[2] . وفي الصفحات التالية سوف يُقتصر على الصفات البارزة في كتابته للسيرة .

يتصف أسلوب المؤلف أحياناً بالسجع يحليه به ، حتى ولو تسبب ذلك في التدخل في سلاسة الجملة ، وفي أغلب الأحيان يحدث هذا دون ضرورة له[3] ، خاصة عندما يكون الموضوع من النوع الذي يطرب له ، كأن يكون الحديث مثلاً عن أعمال السلطان الباهرة[4] ويأتي السجع أحياناً سهلاً وطبيعياً ، ولكن في أكثر الأحيان متكلفاً مقتسراً ، والنوع المقتسر هذا ، والكتابة المحشوة بالمحسنات اللفظية تؤديان بالمؤلف إلى إنشاء جملة ، ليست فقط مقتسرة ، وغير طبيعية ، بل إما عديمة المعنى ، أو ذات نهاية لا تتفق مع بدء الجملة . وقد يكتب كلمة تذكره بآية في القرآن[5] أو بجملة في أحد الآثار الأدبية ، فيسارع إلى الاقتباس من الآية أو الأثر ، حتى ولو كانت الصلة تكاد لا ترى[6] ، وهذه الطريقة تدعو إلى الاستطراد ، وإدخال أفكار لا صلة لها بالموضوع ، ولا يكتفي أحياناً بآية واحدة من القرآن الكريم ، وإنما يعمد إلى اقتباس آيات متعددة لعرض فكرته ، مع فاصل بين الآيات من إنشائه ،

---

١ الروض ، ب ٥٥ وما بعدها ، وفيها يقتبس جزءاً من وثيقة .
٢ راجع الروض ١٨٥ وأصل الخطاب مذكور في صبح الأعشى .
٣ الروض ، ب ٧ ، ١٠ .
٤ الروض ، ٦٣ ، ١٦٢ .
٥ الروض ، ١٦٥ .
٦ الروض ، ١٠٤ ، ١٧٠ .

وهذا يتسبب في فصل سياق الجمل الأصلي مما يجعل القارئ يبذل جهداً مضنياً لفهمها في سياقها الجديد[1] .

ومن عيوبه الظاهرة أن الجمل في بعض الأحيان غير مترابطة ، مما يجعل القارئ أحياناً لا يجد الصلة بين جملة وأخرى بسهولة[2] ، وهناك من بين الأمثال التي يوردها ما لا تتوفر فيه سلاسة الأسلوب ، وقد حدث أن أصبح المعنى الحقيقي للجملة غير معروف في أكثر من حالة[3] ، والسبب في بروز مثل هذه العيوب بالذات أن محيي الدين يحاول أن يصوغ بعض الأمثلة العامية بصيغة عربية فصيحة[4] .

ومن علامات الضعف في أسلوبه عدم إتقانه لاستعمال الضمائر ، وحروف الجر ، وهذه الأخيرة بالذات أدت إلى انحراف المعنى إلى غير المقصود[5] أما الضمائر فبدلاً من أن يلتزم الضمير أثناء الجملة نجده أحياناً يبرز الاسم أو اللقب لمن سبقت الإشارة إليه بالضمير[6] ، أو يعيد الضمير دون أن يكون هناك داع لإعادته[7] ، أو يبدأ الجملة بالضمير المفرد ، ثم يأتي بعده بضمير الجمع[8] . حتى عندما يقتبس لا يبدو أنه يستطيع أن يتفادى التغيير من ضمير إلى آخر ، وفي حالة واحدة على الأقل نقل الضمير من المخاطب إلى الغائب[9] .

كل هذه الأمور تربك القارئ ، وقد تجعله يفهم الجملة فهماً بعيداً

---

١ ولمقارنة الأسلوب راجع تحليل بروفيسور جب لأسلوب ابن شداد في الصفحات ٩٦ – ١٠٢ في W. Z. K. M, Vien 1953 .

٢ الروض ، ٢ ، ٩٦ ، ١٥٢ .

٣ الروض ، م ٧٢ ، ١٤١ .

٤ الروض ، ٢٣ .

٥ الروض ، ١٥ ، ٢٣ .

٦ الروض ، ٤٨ .

٧ الروض ، ١٩ .

٨ الروض ، ١٩ .

٩ الروض ، ٤ .

عما قصده الكاتب في الأصل ؛ وعلى كل حال فهذه أمور في النهاية تقلل من قيمة كتاب محيي الدين الأدبية والتاريخية .

القيمة التاريخية :

إذا سلمنا أن هذه المخطوطة ، في حالة اكتمالها ، تمثل الصورة التامة لسيرة الملك الظاهر بيبرس ، التي ألفها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، فإنه بالإمكان اعتبارها محتوية على المعلومات المهمة التي تستحق التسجيل في نظر معاصريه . وقيمتها لا تقدر بهذا فقط ، وإنما تقدر أيضاً على أساس توفر بعض المميزات البارزة ، التي تجعلها مهمة بين كتب التراجم بصفة عامة وترجمة بيبرس بصفة خاصة .

هذه السيرة هي واحدة من ترجمتين وافيتين عن حياة بيبرس ، وهي الوحيدة من بين الاثنتين التي وصلت إلينا كاملة تقريباً ، وقد سبق أن أشرنا [1] إلى أن طبيعة عمل محيي الدين ، كاتباً في ديوان بيبرس ، أضفت عليه أهمية ، فقد اطلع على الوثائق الرسمية ، واستفاد منها في مؤلفه [2] ، وأتاح له هذا فرصة لمقابلة الرسميين ، وغيرهم ، ممن استقى منهم أنواعاً مختلفة من المعلومات المفيدة [3] ، ولحضور مجالس السلطان ، وسماع المناقشات المختلفة ، والسفر مع السلطان في حملاته ، هذه كلها ، مع معلوماته الشخصية التي حصل عليها عن طريق سفارته مثلاً [4] ، وضعته بمنزلة شاهد عيان

---

١ راجع ما سبق ص ٢٣ .

٢ اقتبس محيي الدين عدداً من الوثائق ، بعضها اقتبسها بكاملها ، ومن بينها ما كان من تأليفه ، وبعضها اقتبسها جزئياً بنصها أو بمعناها .

٣ الروض ، ٤ ، ١٨ ، ٢٢ .

٤ الروض ، ١٢٣ .

لحوادث فريدة ، كما ذكر هو نفسه في السيرة :

« وكان المملوك الأصغر مشاهدها سفراً وحضراً، ومعاينة لا خبراً »[1] .

ومع هذا فكونه كاتباً للسلطان قد ينقص من مدى الاعتماد على ما يكتب عند بعض الناقدين ، لأنه يقع تحت تأثير السلطان وهو يكتب سيرته ، ولهذا فأكثر العيوب الظاهرة في كتابه ناتجة عن صلته بالسلطان ، ويمكن تقسيم هذه العيوب إلى أربعة أنواع :

(١) معلومات يعتقد أن محيي الدين قد اخترعها : ومن أمثلتها ما ذكره محيي الدين عن مقتل السلطان السابق ، الملك المظفر ، قطز ، والظروف التي أدت إلى تولي بيبرس الحكم ، وقد أكد محيي الدين أن بيبرس نفذ القتل وحده ، وأنه لم يساعده أحد ، في حين أن شافع بن علي ، مختصر السيرة ، يذكر أن الذي ضرب الضربة الأولى هو سلاح دار قطز ، ولأنه كان وجلاً فلم تكن ضربته هذه قاتلة ، فأجهز بيبرس على قطز ، وأنهى قتله[2] . وقد حاول شافع أن يجد المعاذير لمحيي الدين في عدم ذكره الحقيقة في هذا فجعل مرد ذلك مرة « لحسب الوقت ، وغرض السلطان »[3] ، ومرة إلى أن ذلك : « خوفاً ورهباً »[4] والمتوقع من المؤلف ، ابتعاداً عن الحرج ، في مثل هذه الحالة ، أن لا يذكر شيئاً البتة عن هذه الحالة ، أو أن يدعي عدم معرفته بالحقيقة عنها . أما إشارة شافع إلى أن الوقت ، وغرض السلطان ، ثم خوف محيي الدين ، هي السبب في ذلك ، فربما دل على أن السلطان

....

١ الروض ، ٢ .
٢ شافع ، ٨ .
٣ شافع ، ٩
٤ شافع ، ١٣٦ .

نفسه كان حريصاً على أن ينفرد بسمعة إزاحة قطز من السلطة ، وسط « العساكر العظيمة »[1] ، خاصة وأن في مختصر شافع ما ربما كشف النقاب عن سبب الحرص على التأكيد بأن بيبرس قتل قطز بدون مساعدة ، إذ إنه جاء في أثناء الجدل حول تولي بيبرس السلطة أن الأتابك ذكر الأمراء بقانون الترك[2] ، فلا بد أنه سوف يشجع الذين يدعون أنهم ساعدوا بيبرس في القتل على المطالبة بحقهم فيه ، وعلى هذا فالاعتراف بأن لبيبرس شركاء في القتل يلحق به ضرراً بالغاً .

ومما يثير الانتقاد تجاه ما كتبه محيي الدين ما ذكره من أنه لم يكن هناك معارض لبيبرس عندما قتل قطز[3] ، في حين أن ابن شداد يذكر أن أحد الموالين لقطز هاجم بيبرس على أثر ذلك[4] .

ويذكر محيي الدين أيضاً ما يدل على أن الناس ابتهجوا بمقتل قطز ، وبتولي بيبرس الملك بعده[5] ، في حين أن معلومات في مصادر أخرى تدل على أن الناس قد أزعجهم مقتل قطز ، وتولي بيبرس ، لما عرف به البحرية من قبل ، من سوء السيرة[6] ، وفي تاريخ البحرية السابق لهذه الفترة ما يجعل الناس ينزعجون فعلاً من وقوع السلطة في أيدي البحرية ، ورئيسهم بيبرس .

ويغفل محيي الدين ، كذلك ، الأخبار التي تروي أن الأمراء لما اجتمعوا ،

---

١ الروض ، ٣ .
٢ قانون الترك ، كما ذكره شافع : « من قتل الملك كان هو الملك » ص ١٢ .
٣ الروض ، ٣ .
٤ ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر ، ٢٠٢ .
٥ الروض ، ٤ .
٦ النويري ، النهاية ، ٢٩ / ٢ .

لاختيار سلطان جديد ، كادوا أن يختاروا الرشيدي ، وأن الأتابك ، وكان محتجزاً في خيمة أخرى ، دخل فجأة على المجتمعين ، وأقنعهم باختيار بيبرس بدلاً من الرشيدي ، وكان خطر هذا أن الرشيدي ربما يستفيد فيما بعد من هذه الحادثة فيثير أمر أحقيّته للملك من جديد[1] .

(٢) **معلومات حذفها محيي الدين** ، وهي معلومات لا بد وأنه كان على علم بها ، وهذه إحدى العيوب التي يمكن أن تؤخذ على محيي الدين ، والتي سببها كونه كاتباً عند السلطان ، ولأهمية هذه الحقائق المحذوفة تعتبر السيرة ناقصة بدونها ، وأهم هذه الحقائق إهماله للمعلومات الخاصة بطفولة بيبرس ، وهي معلومات سجلها غيره من المؤرخين ، ومن الصعب أن نتصور أن محيي الدين لم يعرفها ، أو أنه أهملها خطأ ، أو صدفة ، والأقرب للتصور أن يكون أهملها رغبة في إجلال السلطان عن أن يذكر أنه كان مملوكاً في يوم من الأيام[2] .

وحذف هذه المعلومات التي كان المفروض أن تحتويها السيرة ، سبق أن لوحظ من قبل ، فشافع أشار في عدة أماكن من مؤلفه إلى نقص بعض الحقائق، التي هي في نظره مهمة ورئيسية، وأعطى مثلاً لذلك تجاهل محيي الدين لشجرة نسب الخليفة[3] .

(٣) التعميمات المبهمة لبعض الحقائق التي قد يشم منها ما يخدش

---

١ قد تفسر هذه الحادثة تصرف بيبرس فيما بعد ، عندما سجن الرشيدي ، وقيل قتله ، بعد أن كان مكرماً في أول عهد بيبرس . الروض ب ٩٥ . وانظر أيضاً عن موت الرشيدي مفرج الكروب ، ٢ / ٤٢٢ .

٢ شافع ، ٥ .

٣ شافع ، ٣١ .

السلطان : ففي معالجته لحملة الخليفة ضد المغول مثلاً[1] كانت الحقائق مبهمة ، خاصة عن الموضوع الذي اتهم فيه بعض المؤرخين المتأخرين بيبرس بأنه عرّض حياة الخليفة للخطر ، عندما انصاع لرأي بعض الأمراء ، فأرسله على رأس قوة صغيرة ، أصغر من القوة التي كان في الأصل وعده بها[2] . ولقد احتار شافع حيال ذلك ، ولم يجد سبباً يدعو لإرسال مثل هؤلاء الرجال وتلك الأموال في حملة لم يكن يرجى من ورائها ثمرة ، وقال عن محيي الدين في هذا أنه : « غمغم هنا ، ولم يذكر شيئاً عنه »[3] .

اتبع مثل هذا الإبهام أيضاً ، عندما ذكر أسباب الخلاف الذي حدث بين قطز وبيبرس ، وهو ما انتهى بموت قطز ، والجملة التي أوردها عن ذلك ، وهي : « لما توجه الملك المظفر ، والسلطان صحبته ، صار يظهر تكبراً ، وتغيرت نيته ، وفهم السلطان ذلك منه »[4] لا تعطي صورة محددة[5] .

(٤) **أخذ موافقة بيبرس على بعض ما يكتب** : يقول شافع إنه إذا كمل محيي الدين جزءاً جلس السلطان ، وطلب من محيي الدين أن يسمعه إياه ، ثم يخلع عليه الخلع ، وما يتبعها ، جزاء له[6] . وهذا قد يستدل منه بأن كتابة السيرة تمت تحت إشراف بيبرس ، وأن المؤلف قد وضع في موقف لا يستطيع معه إلاّ تسجيل ما يسرُّ السلطان ، ويعود على محيي الدين بالمكافأة .

ومع أن التسليم بهذا يبدو خطيراً لأول وهلة ، إلاّ أن مما يخفف من خطورته أن الأمور التي تهم بيبرس، ويمكن أن يتدخل في تغييرها في السيرة

١ الروض ، ب ١٨ .
٢ السلوك ، ١/ ٤٦٢ .
٣ شافع ، ١١ ، ٢٣ .
٤ الروض ، ٣ .
٥ شافع ، ٨ ، ١٣٦ .
٦ شافع ، ١٤٦ .

قليلة ، وقد أُعطي محيي الدين فرصة لتعديلها ، بعد وفاة بيبرس ، بما لم يكن يقدر عليه أثناء حياته .

(٥) عدم إتقانه لرسم الصورة لما يكتب عنه : وهو أمر يضاف إلى ما سبق من هفوات تعرضت لها كتابة هذه السيرة[١] . ومن أمثلة ذلك ما ذكره عن الرجلين اللذين قدما لبيبرس أوراقاً تتصل بقضية ذكراها[٢] . ومن الصعب الجزم بمقصود محيي الدين من صيغتها القائمة ، ويحتاج القارئ إلى خيال ثاقب لتكملة الصورة المعقولة لها ، فالقصة الأولى تبدو وكأنها تتحدث عن رجل قدم أوراقاً تؤكد وجود كنز ما ، وربما تحدد مكانه ، والثانية تذكر أن رجلاً كتب أوراقاً ، يستنتج مما حدث في المحكمة ، التي شكلها السلطان ، أنها احتوت على مظلمة قدمها للسلطان ، طالباً منه الإنصاف . هاتان القصتان يمكن أن تؤخذا على أنهما مختلفتان ، لولا ما ساقه المؤلف فيما بعد ، من أنهما جزءان لقصة واحدة .

وهذا العيب في أسلوب الكتابة عنده يحجب أحياناً معنى جملة ما ، وأهميتها ، مثال ذلك الجملة التالية : « وجهز صحبة بدر الدين الايدمري دهليزاً مخلعاً على البغال ، حتى يظهر للناس ما يخفي أفعالهم ، ويقضي بسكون النفوس »[٣] . والمؤلف ساق ذلك في عرض شرح نية الرشيدي على التقدم خلسة إلى الكرنك ، لاحتلالها ، معارضاً بذلك رغبة السلطان ، الذي كان يسعى لإضاعة الفرصة منه ، إلاّ أنه ليس من السهل إدراك أهمية إرسال دهليز مخلع على البغال ، وعلاقة ذلك بالموضوع ، وما ورد في آخر الجملة

١ سبق أن أرجعنا ذلك إلى أسلوبه في الكتابة .
٢ الروض ، ٣٨ .
٣ الروض ، م ٦٤ .

من أن هذا العمل قصد منه أن « يظهر للناس ما يخفي أفعالهم ويقضي بسكون النفوس » يزيد الأمر غموضاً ، ويقطع أي أمل في إيجاد معنى قاطع لهذه الجملة .

(٦) وضع بعض الحقائق في السيرة في غير مواضعها أو مع ما ليس له صلة بها : مما يجعل المرء يشعر بأنها وضعت بسبب خارجي[١] ، ولذا فمحاولة ربطها بما بعدها أو قبلها من جمل يعطي تفسيرات متعددة .

هذه العيوب التي عددناها تُنقص إلى حد ما من قيمة الفصول التي وردت فيها ، إلاّ أن بقية السيرة ، مما لم يرد فيه عيوب ، تبقى فائدته سليمة من الخدش ، مبرزة للحقائق ، بطريقة مرضية ، ومقدمة في نفس الوقت صورة واضحة ، وموثوقاً بها لحياة بيبرس وزمنه .

وبعد :

لقد قدر مؤرخو زمن المماليك كتابه حق قدره ، فاتخذوه مصدراً أساسياً لما اقتبسوه عن حياة بيبرس في كتبهم . وبلغ الأمر ببعضهم أن نقلوا منه أجزاء كاملة ، دون أن يغيروا فيها شيئاً ، وبالبعض الآخر أن اختصروها ، دون الابتعاد كثيراً عن الأصل . وقد زاد من أهمية السيرة قبول معاصري محيي الدين لها ، أما ما أورده بعض المؤرخين المتأخرين عن زمنه من معلومات لم تكن في السيرة فإنما زيدت في الغالب لأغراض خاصة ، ومن بين هؤلاء المؤرخين مثلاً المقريزي ، فقد وصف بيبرس بالصفات الحميدة التي وصفه بها معاصروه[٢] ، إلاّ أنه زاد بعض الحقائق التي تتحدث عن بعض هفواته

---

١ الروض ، ١٣٨ ، م ٦٤ .

٢ السلوك ، ١/ ٦٣٧ ، ٦٤١ .

أو تبدي عيوباً جديدة لم يذكرها مؤرخو زمنه[1] ، ولعل السبب في ذكرها كما رآه بعض المؤرخين[2] يعود إلى أن المقريزي يشاطر بعض مواطنيه حملتهم على بيبرس بسبب تعيينه قضاة للمذاهب الأربعة ، بدلاً مما كان متبعاً قبل حكمه ، وفي أوائله ، من اعتماد قاض شافعي واحد[3] .

وعدم الرضى عن بيبرس ، في هذا المجال ، ظهر جلياً بعد وفاته ، وجاء بعضه في صورة قصص ، أخذ الرواة يتناقلونها ، وأورد بعضها المقريزي ومنها أن بيبرس رأى الشافعي في المنام فقال له : « تهين مذهبي ، البلاد لي أو لك ؟ قد عزلتك وعزلت ذريتك إلى يوم الدين[4] . وفي مكان آخر أن بيبرس عندما سئل بعد موته : « ما فعل الله بك ؟ قال : عذبني عذاباً شديداً لجعلي القضاة أربعة ، وقال : فرقت كلمة المسلمين »[5] .

وعندما حان تدوين المقريزي لتاريخه كانت هذه القصص متداولة بين بعض الخاصة من الناس ، وجد أنه من المناسب أن تضم إلى ما دونه عن بيبرس مستقى من كتب التاريخ التي كتبها سابقوه .

وقد كانت فترة حياة بيبرس فترة حرجة في تاريخ تلك الفترة ، إذ إن المغول كانوا قد اكتسحوا معظم الأراضي الإسلامية واحتلوها ، ويطمحون

---

١ السلوك ، ١ / ٦٤٠ .

٢ فاطمة صادق ، بيبرس الأول ملك مصر ٢٠ .

٣ اعتبر الشافعية أن هذا موجها للحد من سيطرتهم (فاطمة صادق ٢٠) بينما ذكر محيي الدين أن السبب في هذا التعيين اتساع القاهرة . وذكر غيره من المؤرخين أسباباً أخرى فالنويري في النهاية ٢٩ ذكر حادثة بعينها ، راجع أيضاً حسن المحاضرة ٢ / ٩٩ مصر ١٣٢٧ .

٤ حسن المحاضرة ٢ / ١٠٠ مصر ١٣٢٧ .

٥ حسن المحاضرة ٢ / ١٠٠ والسلوك ١ / ٦٤٠ .

إلى الاستمرار في الزحف للاستيلاء على بقية الديار الإسلامية [1] ولم يكن بالإمكان التصدي لهجومهم إلاّ باتخاذ إجراءات جديدة ، قابلها عامة الناس بعدم الارتياح ، وبقيت فيما بعد في أذهانهم يذكرونها دون الظروف الملحة التي أوجبتها ، وسبب بقائها في أذهانهم يعود إلى صلتها بحياتهم ، لأنها إجراءات اتصلت بالنواحي المالية ، ولمست في الغالب فئات هامة في المجتمع ، مثل التجار وأصحاب الأملاك ، ولهذا نجد أن المؤرخين المتأخرين وجهوا النقد إلى بيبرس لفرضه الضرائب ، رغم أنه لا يبدو أنه فعل ذلك أثناء حكمه أكثر من مرة واحدة [2] . أما إسقاطه للضرائب التي فرضها مَن قبله من الملوك فقد نوه عنه مؤلفو سيرته ، وبعض مؤلفي عصر المماليك . ومع أن هذا قد شمل أكثر من نوع من هذه الضرائب إلاّ أنه لم يحظ بالعناية التي حظي بها فرض الضرائب .

ومن الأمور التي احتاجت إلى عناية كبيرة من بيبرس استتباب النظام ، وفي سبيل ذلك كان لا بد له أن يصطدم بسلطة قوّاد الجيش ، وهو عمل أحرج صلاح الدين من قبل ، وأدى التهاون فيه ، في آخر الأمر ، إلى القضاء على حكم آل أيوب . ووجد بيبرس أن سلطة القواد في نموّ مضطرد ، وأنه ما لم يبادر بالحد من تدخلهم في أمور الدولة فإنه لن يتمكن من إدارة شؤون مملكته ، فاستلزم منه هذا اتخاذ إجراءات صارمة ، وأحياناً مجحفة ، مع من توسم فيه الخطر على دولته ، حتّى الغدر لم يحجم عنه ، إذا رأى أن لا مناص له منه لحماية سلامتها . هذه السياسة والوسائل التي نفذها بها أعطت

---

١ والصليبيون كان بعضهم مستبشراً بحركة المغول ، وأملوا أن يكسبوا من تقدمهم ، والتعاون معهم ، مما أوقع المسلمين أمام عدوين .

٢ وحتى هذه المرة يقول ابن شداد ، ٣١ – ٣٢ إنه أبطل ما فرض وأعاد للناس ما أخذ منهم .

المؤرخين ركائز لتوجيه النقد إليه . وقد سكت المؤرخون أثناء حكم بيبرس عن ذكر بعض ما حدث ، إما لأنهم لم يتبين لهم حقيقة الأمر فيه ، أو خوفاً من عواقب الخوض فيه ، ولم تسنح لهم الفرصة إلاّ بعد وفاته ، فذكروا حوادث مغالّى فيها في الغالب، وبينوا عقابه لأعدائه ، وأقاربهم وأصدقائهم ، وكانت الظروف الاجتماعية والسياسية الّتي أوجبت هذا التصرف قد اختفت ، ولم يبق منها إلاّ هيكل عظمي يمثل نتفاً من الأخبار مبعثرة ، ومنفصلة عن إطارها الأصلي ، اتهم على أساسها بيبرس وخطئ .

ومع هذا فليست كل الحقائق التي لم يثبتها محيي الدين في سيرة بيبرس ، وأثبتها المؤرخون المتأخرون ينطبق عليها ما ذكر ، فبعض المعلومات التي وردت في كتب متأخرة لا تقل أهمية عما أورده محيي الدين ، وبعضها يكمل الصورة عن حياة بيبرس ، فمثلاً شافع بن علي يورد بعض الحقائق التي لم يوردها محيي الدين وهي ذات قيمة عظيمة ، ليس فقط فيما تضيفه إلى الصورة التي رسمها محيي الدين عن بيبرس ولكن في إبرازها لموقف محيي الدين تجاه الحقائق التي يوردها .

المصادر للمقدمة

عز الدين علي بن الأثير	الكامل في التاريخ	مصر	١٢٩٠ هـ
أوزنقرشيلي	عصمانلي دولتي تشكيلاتينا مدخل	اسطنبول	١٩٤١ م
احمد بن يحيى البلاذري	فتوح البلدان	القاهرة	١٣٥٠ هـ
وليم ببر	مصر وسوريا تحت حكم السلاطين الشراكسة		١٩٥٥ م
يوسف بن تغرى بردى	النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة		١٩٣٨ م
ياقوت الحموي	معجم البلدان	القاهرة	١٩٠٦ م
عبد الرحمن بن خلدون	كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر	القاهرة	١٨٦٧ م
ر. ب. دوزي	المعجم المفصل للملابس عند العرب	أمستردام	١٨٤٥ م
	ملحق للمعاجم العربية		١٩٢٧ م
محمد جمال الدين سرور	الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره	القاهرة	١٩٣٨ م
جلال الدين عبد الرحمن السيوطي	حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة	القاهرة	١٢٩٩ هـ
غرس الدين خليل بن شاهين	زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك	باريس	١٨٩٤ م
عز الدين بن شداد	الملك الظاهر بيبرس	أدرنه – المسجد السليماني رقم المخطوطة ٢٣٠٦	
محمد بن جرير الطبري	تاريخ الرسل والملوك	(طبعة بارت . . .)	
شافع بن علي بن عباس	حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية	مخطوطة في المكتبة الأهلية في باريس رقم ١٧٠٧	

عبد المنعم بن عبد الحق	مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع	ليدن	١٨٥٩ م
محيي الدين بن عبد الظاهر	تشريف الأيام والعصور لسيرة السلطان الملك المنصور		١٩٦١ م
جريجوريوس بن هرون (المعروف بابن العبري)	تاريخ مختصر الدول	بيروت	١٨٩٠ م
عمر بن العديم	زبدة الحلب في تاريخ حلب	نشر سامي الدهان	
العكبري	شرح ديوان المتنبي		
عبد الحي بن العماد	شذرات الذهب في أخبار من ذهب		١٣٥١ ﻫ
اسماعيل أبو الفدا	تقويم البلدان	باريس	١٨٤٠ م
محمد بن عبد الرحيم بن الفرات	تاريخ ابن الفرات	بيروت	١٩٤٢ م
مفضل بن أبي الفضيل	النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد	باريس	١٩٢٠ م
حمزة بن أسد القلانسي	ذيل تاريخ دمشق	لندن	١٩٣٢ م
أحمد القلقشندي	صبح الأعشى في فنون الانشاء	القاهرة	١٩١٣ – ١٩١٩ م
محمد بن حسين كاشغرى	كتاب ديوان لغات الترك	اسطنبول	١٣٣٣ م
محمد بن شاكر الكتبي	فوات الوفيات	القاهرة	١٢٨٣ ﻫ
م . كترومير	ترجمة جزء من السلوك للمقريزي	باريس	١٨٣٧ م
عماد الدين بن كثير	البداية والنهاية	مصر	١٣٥٨ ﻫ
هانز كندرمان	السفن عند العرب		١٩٣٤ م
ج . لوسترنج	١) أقاليم الخلافة الشرقية	كيمبرج	١٩٣٠ م
	٢) فلسطين تحت حكم المغول	لندن	١٨٩٠ م
ستانلي لين بول	تاريخ مصر في العصور الوسطى	لندن	١٩٢٥ م
أحمد بن علي المقريزي	١) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار	القاهرة	١٢٧٠ ﻫ

	٢) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك	القاهرة	١٩٣٦ م
أسعد بن مماتي	كتاب قوانين الدواوين	مصر	١٩٤٣ م
محمد بن مكرم بن منظور	لسان العرب	بيروت	١٩٥٥ م
أحمد النويري	نهاية الأرب في فنون الأدب	المكتبة الوطنية بباريس المخطوطة رقم ١٧٠٢	
محمد بن سالم بن واصل	مفرج الكروب في أخبار بني أيوب	المكتبة الوطنية بباريس المخطوطة رقم ٧٣٩ والمخطوطة رقم ١٧٠٣	
هنري ه . هورث	تاريخ المغول في القرن التاسع إلى التاسع عشر	لندن	١٨٨٨
موسى اليونيني	ذيل مرآة الزمان	حيدر أباد	١٩٥٤
حسن اليافعي	جامع التواريخ	المكتبة الوطنية بباريس المخطوطة رقم ١٥٤٣	

الرَّوضُ الزَّاهِر

[1] . . . . [ب / ١ ب] صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، صلاةً يجازى عنها الشكور .

وبعد : فإنه لما كانت السيرة طراز الدول ، ومرآةً يرى الناظر فيها أحوال الملوك الأول ، وشهادةً على ما يحسن كل منهم أو يسيء فيه من قول وعمل ؛ وبها يعلم الناس كيف تصرَّمت الأيام وتصرّفت ، وبماذا جرتْ وتوقفت ، وعلى ماذا أقبلت عليه من خير وشرّ وتقفّت ؛ فلم تخل دولة من الدول من مؤرخ يسطر أخبارها ، ويودِع الصحف آثارها ؛ وكانت الدولة الشريفة ، السلطانية ، الملكية ، الظاهريّة ، الركنية — لا زالت في جبهة الدول غرّة واضحة ، وفي عقد الممالك درّة لائحة ! — قد فضلها الله على غيرها ، وهيأ فيها من أسباب السعادة ما استدلّ كل أحد به على خيرها ؛ وقد جمع الله فيها من النصرة والمَعدلة والفتوحات ما لا جمعه لدولة مثلها ، [وسخّر] لها من السعادة ، وبلوغ الإرادة ما لا سخّر لدولة كانت من قبلها ، وجعلها [حديثاً يمشي به الناس ؟] . . . . [2] [يتقن كل بالايناس ؟] . . . [ب / ١٢] [ولم يخطر] بباله يجرد سيفاً لمجالدة ، ولا يربط فرساً إلاّ لهرب ، لا لمجاهدة ؛ ولم يبقَ أحد إليه بالنصر يشار ،

١ هذا هو بدء الجزء الموجود حالياً من مخطوطة المتحف البريطاني ، ويبدو أن هناك نقصاً مقداره صفحة تقريباً من أصل المخطوطة . أما بدء مخطوطة اسطنبول فسوف يأتي فيما بعد في الورقة ١٢ أ ب .

٢ نقص ما يقرب من سبعة أسطر .

ولا ملك يتوهم أن ستكون للمتقين عقبى الدار ؛ فبعث الله السلطان مقوّياً عزائم أهل الإيمان ، ومشجعاً هممهم ، ومثبتاً أقدامهم ، ورافعاً علمهم ؛ فكانت آراؤه من أكبر أسباب النصرة ، وإقدامه وقدومه من أعظم دواعي الفتوحات ، التي جاءت من تخاذُلِ الملوك على فترة ؛ وترتّب على ذلك كل نصرٍ عزيز ، وفتح وجيز ، وحرزٍ للأمة حَريز ؛ وكان ما سيُذكر في مكانه ، ويُستقصى في بيانه — وجب أن تُسطّر سيرتها لتبقى على ممرّ الأيام ، وتكتب حسناتها ، وإن كانت قد كتبتها الملائكة الكرام . وكان المملوك الأصغر مشاهدها سفراً وحضراً ، ومعاينةً لا خبراً ؛ والمطّلع على غوامض أسرارها ، وتسطير مبارها .

خدمت الخزانة المعمورة بجمع هذه السيرة . . . . . .[1] [بإيد]اعها كلَّ حسنةٍ ، وتضمينها كلَّ مكرمة ؛ لا يحتاج بيانها . . . . . . عياناً فنقلته، ومنه ما سألته [ب/٢ب] . . . .[2]
والسائس[3] الذي أجرى الأمور على أحسن الأوضاع .

وها أنذا أذكر كلّ شيء منه في موضعه ، وأبيّنه في مكانه ، وأجلوه عن عين الناظرِ ومسمعه ، وأُثبته في مكانه وأُوقّعه . والله وليُّ التدبير ، وإيّاه أسأل إجمال التأثير ، بمنّه وكرمه ، وهو حسبُنا ونِعْمَ الوَكيل !

هذا السلطان ، الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس بن عبد الله الصالحي النجمي ، تركي ، برلي الجنس ، تنقلت به إلى السعادةِ همّتُه العالية ، ووصلته إلى المواطن الشاميّة ، فاختصّ بالسلطان الشهيد الملك

---

١ نقص في الأصل .
٢ نقص أربعة أسطر تقريباً .
٣ في الأصل « والسؤس » .

الصالحِ نجم الدين أيوب بن الملك الكاملِ ناصر الدين محمد بن الملكِ العادلِ سيفِ الدين أبي بكر بن أيوب – رحمهم الله أجمعين ! – وهو الملك الذي فاق الملوكَ ، وسلك في المهابةِ والعفّة أحسنَ السلوك ؛ ولم يُرَ قبله ملك حاز ما حاز من الوقار ، ولا جُمِـعَ لغيره ما جُمِـعَ له من الفَخار ، ولا احتمى ملك بما احتمى به من الأنصار ؛ فتهذّب بأخلاقه ، وتعلم من شريف أعراقه ؛ واستفاد منه حُسن السجايا الملوكية وتعلّمها ، والتَهَم المزايا المرضية وتفهّمها ، وكان فيه استعدادٌ انطبع فيه تلألؤ تلك الأنوار المضيئة ، وقبول تلقّي عدوى كذا [1] تلك الأخلاق الرضيّة ؛ فسمت إلى ترقّي منازل الملك نفسه ، وصدق في طلب حياطة [ب/١٣] الخلائق حدسه ؛ وكانت السّلطنة في وجه أفعاله تلوح ، والفراسة بما سيجعلُه اللهُ منها تبوح . ولم يزل من أكبر جمداريّته [2] الخواص ، وأوليائه الذين لهم به أعظم اختصاص ، حتى انتقل السّلطان الشهيدُ إلى جوارِ ربّه ، وخصّه الله بشريفِ قُربه ؛ فأقام السلطان الملك الظاهر بين خشداشيّته [3] كالشمسِ بين الكواكبِ الزاهرة ، وكالأسد بين الأشبال الخادرة ، يتدرّب في غزوِ الكفّار ، ويُديم الجهادَ آناء الليلِ ، وأطرافَ النهار ، لأنّ وفاة الشهيد كانت بالمنصورة عندما قصد الفرنجُ الديار المصرية في سنة سبعٍ وأربعين وستمائة ، وذلك في ليلةِ الاثنين منتصف

---

١ لعل كلمة « كذا » هنا كانت في الأصل مكتوبة على الهامش لتدل على غرابة استعمال كلمة « عدوى » في هذا المجال ، ثم أدخلها في الجملة في تاريخ متأخر أحد الناسخين .

٢ جمى : كلمة فارسية تعني البقشة أو لفة الملابس والجمداري حامل اللفة . وفي اصطلاح تلك الفترة هو المسؤول عن ملابس السلطان ويحمل خلفه في المواكب ملابسه الاحتياطية . النجوم ٧ / ١٨٥ ، صبح ٥ / ٤٥٩ .

٣ خشداش أو خوجداش كلمة أصلها الفارسي خواجه تاش ، وتعني في عرف هذه الفترة المملوك الذي زامل آخر في خدمة السلطان أو الأمير . كاترمير ١ / ١ / ٤٤ .

شعبان من السنةِ المذكورة ؛ ففعل في الجهاد ما وصلت همّتُه إليه ، وجاهد في الكفار جهاداً أثابه اللهُ عليه .

واتّفق حضور الملك المعظم وجلوسه في دست المملكة ، وخدمَه مماليك والده كلّهم أتمّ خدمة ، وبذلوا له ما يستحقّه مثله من أولياءِ النّعمة ؛ اعتقاداً منهم أن ذلك فيه يفيد ، أو أنه يأتي برأيٍ سديد ، وفعلٍ رشيد ؛ فشرع في تقديم من معه من الأطراف والسّفلِ ، وأخذ [ب / ٣ ب] أمره في استعجال قادهُ إلى الوهل ؛ فصار يتوعدُ مماليكَ والده ، الذين رباهم كأولاده ، بقطعِ الأخباز ، ونهبِ الأموال ؛ وكُتبت مناشير [١] كثيرة ما سُمّي فيها اسم أحد ، إلاّ خليت مواضعُ الأسماء ليجعل مكانَ كلّ واحد من أمراء والده واحداً من غلمانه الأطراف الأوباش ؛ وصار يقدم قوماً لا خلاقَ لهم ، ومن جملتهم عبدٌ أسود ، نُوبيٌّ الجنس ، جعله أميرَ جانداره [٢] ، وأقطعه الإقطاعات العظيمة ، وأفاده النّعَمَ الجسيمة ؛ وغيره من العبيد الخدّام ، الذين هم كالأنعام ؛ ولم يرعَ لأمراء والده ومماليكه فضلَ التربية ، ولا حقوقَ الخدمة ، ولا ما قاسَوهُ معه في بلاد الشرق ، وصبرُوا عليه من ملازمة الفاقة ، ومداومة التعب ، ولا كَوْنَهُم حَمَوا رأسه عند وصوله

---

١ يقول القلقشندي عن المنشور أن « كتاب ذلك الزمان اصطلحوا على تسمية جميع ما يكتب في الاقطاعات من عاليها ودانيها للأمراء والجند والعربان والتركمان وغيرهم مناشير جمع منشور » ويبدو أنه من مستحدثات دولة المماليك . صبح ١٣ / ١٥٧ ، المواعظ ٢ / ٢١٧ .

٢ جاندار : بمعنى حامل السلاح ووظيفته أن يستأذن للأمراء بالدخول على السلطان ، ويدخل أمامهم ويطوف بالزفة حول السلطان في سفره . وهو المتسلم للزردخاناه ، « التي هي أرفع قدراً في الاعتقالات ، ولا تطول مدة المعتقل بها ، بل إما يعجل بتخلية سبيله أو إتلاف نفسه » وتحت إمرته البردداريه ، وطوائف الركابيه والخازنداريه . وإذا أراد السلطان تعزير أحد أو قتله كان ذلك على يده . ولها أميران مقدم ألف وطبلخاناه ، صبح ٤ / ١٩ .

إلى مصرَ من الأعداء ، ولا كونهم كسروا الفرنج في نوبة غزَّة ، وفتحوا له دمشق وطبرية ، وعسقلان .

ولم يفدْ كلُّ ذلك عندَه ، وشرع في فساد الأحوال ، وإعطاء من لا يستحق ، وإحرام[1] من يستحق ؛ ويتوعد من لا ذَنْبَ له ، ويُغري الناسَ بالناسِ ؛ وكان ذلك في وقتٍ لا يحتمل مثل هذه الأمور . واتفق ما قدَّره الله سبحانه [ب/١٤] وتعالى من هروب ريدا فرنس[2] وجماعة الفرنج ، وركوبِ الناسِ خلْفَه ؛ والملكُ المعظمُ لا تُحدثه نفسه بركوب فرسٍ لقتال ، بل إنه ركب في مركبٍ على صورة متفرج ؛ وكان الواجب عليه الركوب ، واجتماع الناس عليه ، وإظهار الشهامةِ والصرامة ، والإحسانِ إلى من رآه بذَل نفسه في سبيل الله ، واقتحم المهالك ، لأن الناس إذا رَأوا ملكَهُم قد ثبُت جأشُه ، وأعطى مَن أظهر شجاعة ، تشبّهوا من بعضهمُ البعض ، وقاتلوا ، هذا لله وللدّين ، وهذا للشكر والثناء ، وهذا للإقطاعات والعَطاء . فرحم الله المسلمين ، ونصرهم على عدوّ الدين ، وأسَرُوا ريدا فرنس ، وجماعةً من الفرنج . وبقيت دمياط في يدِ الكفر ، وهو لا يَرجِعُ عن ذلك التّخليط ، وزاد في تغْليثِ قلوب الناس . فلمّا رأى السلطانُ الملك الظاهر هذه الأمورَ القبيحة ، والأسباب التي هي من أكبرِ فَضيحة ؛ وبلغه سوءُ اعتماده في حق حريم والده السلطان الشهيد ، الذين كانوا عندَه في حصن كيفا[3] ، وما تجرَّأ[4] عليه من

---

١ كذا بدل « حرمان » .

٢ أي ملك فرنسا Roi de France .

٣ في الأصل بدون نقط ويقال كيبا أحياناً وهي بلدة ذات قلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . ياقوت ٣ / ٢٨٦ .

٤ في الأصل « تجري » .

الفتك بجَدَّتِه والدة السلطان الشهيد ، عندما أنكرت عليه أموراً لا تُرضي ، على ما ذُكر . وصار الملكُ المعظمُ يتنقصُ والدَه ، [م ب/٤ ب] ولا يرضى عن شيءٍ من فِعْله ، ولا يحلف الاّ بتربةِ الملكِ الكاملِ جدّه . وآل الأمرُ به إلى أن صار يبسط السجّادة ، ويقوم يُصلّي وهو على غيرِ طَهارة ، وتُدْخَلُ إليه الكيزانُ مملوءةً خمراً على أنه ماء ، ويشرب ذلك بحضورِ الناس ؛ ويكونُ جالساً صاحياً ، فيتفكّر ساعة ، ويشقّقُ ثيابَه بغيرِ سبب [1] — غار السلطان بخوشداشيته ، وعَلِمَ أن الملكَ المعظم المذكورَ لا يتأتّى منه خير ، ولا يجيءُ منه ملك يقيم منارَ بيتِه ، وتبقى كلمةُ السلطنةِ باقية في عَقِبه ؛ وأنه متى اطمأنّ ، وأمِنَ ، أهلك الحرثَ والنسل ، وبدَّدَ الشمل ؛ وأدى ذلك إلى انقراض الدولة الصالحيّة ، وهلاكِ أمرائها في الحُبُوس ، وأخذ أموالهم وإعطائها لغيرهم من شيعتِهِ الأوباش ؛ فوثبَ هو وجماعةٌ من خوشداشيته عليه ، وثبة الأسد المفترس ، وانصبّوا إليه انصبابَ السّيل المحتَبِسِ ؛ فكان ما قدَّره الله من انتقاله . وللوقتِ اجتمع الناسُ ، واتفقوا ، ولم يرق دم آخر ، وسكنتِ الفتنة ، وطابتِ القلوب . ولما رأى ريدافرنس ما جرى خاف على نفسه وسلّم دمياط ، ودخلت العساكرُ إلى القاهرة ، وانعكف الناسُ على خدمةِ السلطان ، وقامت له المهابة [م ب/١٥] في قلوب العالم .

[1] يذكر المقريزي سبباً مختلفاً عما ذكره المؤلف فيشير إلى أن المعظم قد وعد فارس الدين اقطاي قائد كتيبة البحرية عند ذهابه إلى حصن كيفا ليصحبه إلى مصر أن يعطيه لقب أمير ولكنه لم يبر بوعده . السلوك ١ / ٣٥٨ .

ذكر خروجه للعربان

لما دخلتِ العساكرُ إلى القاهرةِ من المنصورة بعد أن جرى ما ذكرناه ، مال عربان الصَّعيد إلى الفتنة ، ونهبِ البلادِ ، وحشدوا الحشودَ ؛ فجرّد عسكر إلى جهتهم ، وخرج السلطانُ في جملةٍ من خرج . وكانت حشود العربانِ ثلاثة عشر ألفاً من فارسٍ وراجلٍ ، والسلطانُ وجماعتُه في مائتي فارس — وذلك ما خبّرني به السلطانُ — فالتجأ السلطان إلى دَهْروط [1] ، فقام أهلُها بنُصرَتِه ، وأحسنوا في خدمته؛ وأقام إلى تكاملِ العسكرِ المذكورِ ، وهو مائتا فارس ؛ ثم ساقَ فأوقع بالعربانِ أشدَّ النّكال ، وأرملَ الحلائلَ ؛ وفتك بالرجال ، وهجم بنفسه على ابنِ حاتمٍ المقدّم فقتله ، وأحضرَ رأسه على رمحٍ ، فكسر شوكتَهُم ، وبدَّد زُمرتَهُم . ولمّا ردَّ الله إلى السلطان أمرَ المملكةِ أحسنَ إلى أهلِ دَهْرُوط ، وكتب لهم بالمسامحاتِ والعطايا ، ورعى لهم تلك الحُرمة ، ولم تَضع عنده تلك الخدمة .

ذكر ما فعله السلطان مع الملك المعز ،
وما فعله الملك المعز في حقه

لمّا جرى في المنصورة ما جرى [ب/٥ ب] اتفق الناسُ على أتابكية [2]

---

[1] دهروط : بليدة على شاطىء غربي النيل من ناحية الصعيد قرب البهنسا . ياقوت ٤ / ١١٣ .

[2] أتابك : مؤلف من لفظين تركيين وهما أطا بمعنى أب وبك بمعنى أمير . وكان السلاجقة =

الأمير عز الدين التّركماني الصالحي[1] ، وأن يكون الرأيُ والتدبيرُ لوالدة خليل ، ولد الملكِ الصّالح ، لأنها كانت تعرفُ أخلاقَهُ ، ومنازلَ أمرائه ومماليكه ، فأقامَ الأمر على ذلك مُدّةً ، فداخلتِ الأميرَ عزّ الدين الطّمعة في المملكة ، وتسمّى بالملكِ المُعِزّ ، وتسلْطَنَ ، ثم خافَ فرجع عن ذلك ، وبَقِيَ اللّقبُ له .

وصار يقدم جماعةً خلْفَ جماعةٍ ، ويُداري في الظاهر ، ولا يجسر إلاّ على إظهار التّبَعيّة ، والتّسمّي بالأتابكيّة . هذا والسّلطانُ والأمير فارسُ الدين أقطاي يشدّانِ منهُ غايةَ الشدّ ، ويرُدّانِ أعظم رَدّ ؛ ويمنعانه من كلّ متعرّضٍ ، ويحميانهِ من كلّ متغرّضٍ ؛ ويرْدَعانِ عنه كل صائلٍ ، ويُجاوِبانِ عنه كلّ قائلٍ ؛ وهما سيْفاهُ إذا صال ، وجَناحاه إذا جال ؛ ويداهُ إذا قارَعَ العِدى ، ومُثْبتاهُ إذا خارَ من الرَّدى ؛ وهو يُضمِرُ لهما ولخوشداشيتهما الغدر في قلبه ، ولا يخفى ذلك على السّلطان ؛ وأخَذَ في تحذيرِ الأمير فارسِ الدّينِ وتخويفه ؛ وكان الأميرُ فارسُ الدّين يدلُّ بشجاعته وبكرمه وإحسانه إلى الناس ، ومحبّتهم لهُ . فلمّا كان يومُ الأحدِ طلب الأمير فارس الدين فحضر ، وحضر السلطانُ الملك

= يطلقون لفظ أطا على كبير من أمرائهم يولونه الوصاية على سلطان قاصر أو أمير صغير وغالباً ما يتزوج الأطا أم القاصر فيصبح بمثابة الأب له . وصار معناها في وقت لاحق أب الأمراء أو مقدمهم وقائد الجيوش ورأس العساكر . صبح ٤ / ١٨ پوپر ٩١ .

[1] كتبت العبارة التالية في أعلى الصفحة من الهامش الأيسر ، بخط يختلف عن الخط الأصلي الذي كتبت به الصفحة : « قتل السلطان أيبك التركماني الصالحي ، صاحب مصر ، سنة خمسين وستمئة ، قتلته زوجته شجر الدر . . . أن يتزوج عليها ، وكانت حاكمة عليه ، فقتلتها مماليكه ، وسلطنوا ولده المنصور علي بن أيبك . وفي سنة سبع وخمسين وستمئة قبض الأمير قطز على ابن أستاذه الملك المنصور بن المعز ، وتسلطن ولقب بالملك المظفر » .

[ب/١٦] الظّاهرُ إلى القلعةِ[1] ، وكان الملكُ المعزّ قد قرَّر مع الأمير سيف الدين قطز ، مملوكِه ، وجماعةٍ من مماليكه وأمرائه، قتلَ فارس الدّين[2] ؛ فلما حضر السلطانُ معه لم يجسر أحدٌ عليه ، وعلموا أنه لا قِبَل لهم به ، وأن يقظتَهُ لا تجوزُ عليها المكائد ، ولا تُنصَبُ عليها حِبالُ المصائِد ؛ فلمْ يبقَ لأحدٍ منهم يدٌ يقبضُها على سيف ، ولا عقلٌ يدري به أين ولا كيفَ ؛ فقعَدُوا ساعةً ، فركب السلطانُ الظّاهرُ والأميرُ فارس الدّين ونزَلا ؛ فاجتمع السلطانُ بالأمير فارسِ الدين وحذّرهُ ، واجتمع الملكُ المعزُّ بمماليكه ، وتوعّدَهُم وجزّاهم ؛ ثم سيّر خلفَ الأميرِ فارس الدين يطلبُه لِمُهمٍّ قد اتّفق ، ورأي يستشيرُهُ فيه ؛ فحسِبَ السلطان الحسابَ ، وخوَّفه ، فأبى إلاّ الرّجوعَ ، ﴿ولِكُلّ أجَلٍ كِتاب﴾[3] . وعاد إلى القلعةِ ، وتمَّ السلطانُ على حالهِ مُحترِزاً على نفسه ؛ فلم يكن أكثر مما دخل الأمير فارس الدين إلى قاعة العمدِ بالقلعة ، وقام منها إلى قاعةٍ أخرى وإذا بالأميرِ سيفِ الدينِ قُطُزْ قد ضربه بالسّيفِ وهو غافلٌ ، وأعانه بقيّةُ الجماعةِ ، وقتلوه غدْراً في دهليزٍ ضيّقٍ ، وكُتِمَ الأمر إلى المغْرِبِ .

....

١ قلعة الجبل وتقع بين القاهرة والمقطم والفسطاط ، أنشأها صلاح الدين على يد الطواشي قراقوش عام ٥٧٢ هـ ويقال ان صلاح الدين مات قبل أن يتم بعض متعلقاتها كالسور فأهمل العمل بها إلى أن كانت سلطنة الكامل فأتمها وأنشأ بها الدور السلطانية في عام ٦٠٤ هـ صبح ٣/ ٣٨٢ ، والمواعظ ٢/ ٢٠١ ، ٢٠٣ .

٢ « وفي سنة ٦٤٨ هـ كثر ضرر المماليك البحرية بمصر ، ومالوا على الناس ، وقتلوا ونهبوا الأموال ، وسبوا الحريم ، وبالغوا في الفساد ، حتى لو ملك الفرنج ما فعلوا فعلهم » . السلوك ١/ ٣٨٠ وصار كبيرهم اقطاي ملجأ لهم ، ١/ ٣٨٤ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ .

٣ القرآن الكريم ، الرعد ٣٨ .

وبلغَ السلطانَ أن أمراً جرى في القلعة لم يُتحقّقْ ما هو ، فقطع بقتل الأمير فارس الدين ، ولوّقته ركب [ب/٦ ب] ، واجتمع اليه خوشداشيته ، وجماعة كبيرة ، وجعل كل أحدٍ يشير برأي ، ولا يتفق أحدٌ مع أحدٍ ، إلاّ انقسمت الآراء ، وتفرقت الأهواء ؛ وصارهذا قلبه في أهله وأولاده ، وهذا خاطره في اقطاعه أو ملكه ؛ وهذا يقول : « مالي ذنب أهرب منه » . وهذا يقول : « أنا فعلت مع الملك المُعزّ خيراً لا بد وأن يُكافيني عنه » . وأظلم اللّيل ، وضاقت المدة عن اعتماد حيَلهِ ، وعلم السلطان أنه إن أصبَح الصبح تفرّق من بقي إلاّ القليل ، ولم يجد إلى الخلاص من سبيل ؛ فساق في جماعةٍ من أهل النجدة ، يتبعونه في الرّخاء والشدة ، وأصبَح الصُّبحُ فلم يقعْ أحدٌ له على خبرٍ ، ولا رأى أحد له عيناً ولا أثر [1] . وأصبح كلّ متأخرٍ عنه يؤخذ ويُنهب ، وتُهتك حرمته وحريمه ويُسلب ؛ والحاضر يقيد ، والغائب يرسل خلفَه فيمسك ويخشب ؛ فامتلأت بهمُ الحبُوسُ والأجبابُ ، وتعاون عليهم من كانوا يعتمدون عليه من الأصحاب ؛ فكأنما كان السلطان — مد الله ظلّ سلطانه ! — سوراً حصيناً ، وحصناً مانعاً ، وسياجاً وافياً ، وحرزاً حريزاً ؛ فلمّا زال ظلّه — لا قلّصه الله ! — أحرقتهم شموسُ الحتوفِ ، وحلّ بهم كلُّ أمرٍ مَخوفٍ ؛ وطمع فيهم كل من كان لا [ب/١٧] يدفعُ عن نفسه ، وتجاسر عليهم كلُّ من كان لا يتجاسر أن يُكلّمَ أحداً منهم بكلمة . وصارت الأرض لا تسعُ الهاربَ ، ويودُّ كلّ منهم لو قُبِرَ حيّاً حتى يستريحَ من تلك الذّلة ، وذلك الخوف ؛ واستغنى بأموالهم كلُّ فقيرٍ ، وسكن أملاكهم ودورهم كلُّ طريدٍ ، ولم يظن أحد منهم أنهم تقومُ لهم قائمة ، وما سبب ذلك إلاّ تهاوُنَهم في

---

[1] كذا في الأصل .

مصالِحهم كما يُخادع الضَّبع إذا قيل له أمُّ عمروٍ نائمة .

وعند ذلك تسلطنَ الملكُ المعزّ .

ذكر وصول السلطان إلى الشام

لما وصل السلطان إلى الشام تلقّاهُ الملكُ الناصرُ صلاحُ الدّين ابن الملك العزيز ، صاحبِ دمشقَ وحلب ، وأكرمه وأكرم من وصل معه من الأمراء خوشداشيته . وتسلّل الهاربون من البحرية إلى السلطان ، فجمع شملهم ، وصارت لهم به صورة عظيمة ، وصار إليهم بالشجاعة يُشار ، ولمملكةِ الشامِ به أعظم افتخار ؛ فحسّنوا لهم قصدَ الديار المصرية ، فخرج عسكرُ الشام ؛ وهو لا يستطيعُ إقداماً ولا رجوعاً .

هذا والأمير عز الدين الأفرم الصّالحي وجماعة من خشداشيته في [ب/٧ ب] الصعيدِ قد فتحوا الكثيرَ من البلادِ ، واستولوا عليها ، وخطبوا للملكِ الناصر فيها ؛ وكتبوا إليه يعلمونه بهذه الأمور ويجسرونه ؛ والملك الظاهر وجماعة البحرية يعضّون أناملهم من الغيظ ، ويأكلون أيديهم من الغبينة ؛ ولا يمكنهم بجمعهم القليل مصادمة عسكر مصر ، ومعاداة عسكر الشام ، فصبروا بغير الاختيار ، وقعدوا وفي قلوبهم النار ، إلى أن وصل الشيخ نجم الدين عبد الله البادراي [١] ، رسول بغداد ، فأصلح بين

---

١ عبد الله بن محمد بن الحسن البغدادي كان رئيساً للقضاة . واعتاد الخليفة بعثه رسولا عنه . النجوم ٧ / ٥٧ .

الملك الناصر وبين الملك المُعِزّ ، ورجعت عساكر الشام وصحبتها الملك الظاهر وخوشداشيته ، فاشتغل الملك الناصر عنهم ، وفترت همتهم في الإحسان إليهم ، وصارت نقودُهم تنكسرُ الأشهر الكثيرة ؛ وضاقت بالسلطان الأحوال ، لأن الجميع كانوا من عيلته ، ولا يسعهُ الاختصاص عنهم ، حتى لقد بلغني أن الملك الناصر سأله في بعض الأيام أن يأخذَ مستحقه – وهو جملة كبيرة – ويأخذ خوشداشيته البعض ، فقال : « أعطوا خشداشيتي وخلوني أنا ، أو اعطونا جميعنا ! » .

وشاهد الملكُ الظّاهر أن تلك العهود تغيرت من الملك الناصر . وصار الملك المُعِزّ يهادي الملك [ب/١٨] الناصر ، ويُخوّفُه من السّلْطان وخوشداشيته ، ويكتبُ على ألسنتهم المكاتبات الباطلة ؛ ففهم ذلك الملك الظاهر ، وتحقق أنه إنْ لم يخرج من باب حيلة دخل عليه من أبواب . وكانت نابلس إقطاعه ، فطلب دستوراً يروح إليه ، فتوجه . وكانت جماعة من خوشداشيته مقطعين بغزة والساحل ، فأخذهم وتوجّه إلى الكرك ، وصحبته الأمير سيف الدين قلاوُن الألفي ، وعز الدين أوغان الركني وغيرهما . وصادَفهمُ في الطريق خلق من التجار ، ومن جملتهم تُجارُ الملكِ الناصر ، وصحبتهم متاجرُه ، فما مكّن السلطانُ أحداً يتعرضُ إلى شيءٍ من ذلك ، حتى أن أحد خوشداشيته الكبار تعرّض إلى بعضِ التّجار للملك الناصر فأنكر السلطان ذلك عليه ، وضربه بالسيف ورد المالَ لمن كانَ معهُ ؛ ولم يُمكّن أحداً من التعرُّضِ إلى شيءٍ من ذلك .

ذكر خروج السلطان إلى الكرك ، وانفصاله عن
الشام ، وقصد الديار المصرية مرتين ورجوعه

لما جرت للسلطان في الشام هذه الأمور سار إلى جهة الكرك ، هو والجماعة المذكورون ، فتلقاه صاحبها الملك المغيث[1] ، وتسامع خوشداشيته به ، وقصدوه من كل جهة ، هم [ب/٨ ب] وغيرهم ؛ فرتب السلطان أمور الكرك وجعل لصاحبها حرمة في قلوب الناس . ثم تجهز بعد مدة في جماعة من خوشداشيته وغيرهم ، وعدتهم سبعمئة فارس — منهم ثلاثمائة مقاتلة — وقصد الديار المصرية . وفعل ما لا[2] فعل غيره ، وهجم على الديار المصرية ، وفيها العساكر العظيمة ، ولم يعلم به إلاّ وقد تعدّى العريش[3] . فخرجت العساكر من مصر صحبة الأتابك فارس الدين أقطاي والأمير سيف الدين قطز ؛ فلما التقوا جال السلطان بين الصفوف ؛ وكان معه طبل باز ، امارة بينه وبين أصحابه ، فلم يبق مكان إلاّ وحس الطبل باز يسمع منه ، تارة يميناً ، وتارة يساراً ؛ وهجم إلى أن وصل السناجق[4] ، فقطعها ، وكسر الرماح ، ورمى النقاراتية ، وبدد الجموع ، وفعل ما لا فعله عنترة العبسي

١ هو عمر بن العادل بن الكامل بن أيوب . السلوك ١ / ٤٨١ .

٢ صحتها : « ما لم يفعله غيره » .

٣ بلدة على الحدود بين مصر وفلسطين حينئذ وعلى ساحل البحر الأبيض المتوسط وتقع وسط الرمال . ياقوت ٦ / ١٦٢ .

٤ السناجق ، جمع سنجق ، وهو لفظ تركي بمعنى الرمح ، والمراد هنا العلم لأن مثل هذه الرايات تحمل في أعلى الرماح ، وهي عادة رايات صفراء . صبح ٢ / ١٢٨ ، ٤ / ٨ ، ٥ / ٤٥٨ .

ولا غيره من أبطال الجاهلية والإسلام . ولما اشتفى قلبه بعض التشفي ، وشاهد كثرة العساكر رجع كما قال الشاعر :

« لا يركنن أحد إلى الإحجام يوم الوغى متخوفاً لحمام
فلقد أراني للرماح درية من عن يميني مرة وأمامي
حتى خضبت بما تحدر من دم أكناف سرجي أو عنان لجامي [ب/١٩ا]
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب جذع البصيرة قارح الأقدام »

وسار السلطان في ثلاثة أنفس بغير زاد ، إلا يأكلون الشعير ، ويستفون الدقيق . وأقام ثلاثة أيام ما أكل شيئاً ، ووجد قطعة سكر فلم يجد شيئاً يذيبها ، فجعلها في فمه وبلها بريقه . ولما وصل منزلة أعوج كاد يهلك عطشاً ، فأرسل الله سبحانه فيها مطراً غرقت الأرض ولم يكن مع السلطان ما يشرب به ، والأرض رمل لا يجتمع فيها ماء ، فوجد السلطان مكان حافر فرسه قد اجتمع فيه ماء ، فشرب منه ، ووجد يسير تبن في مكان لو كانت فيه جبال رمال أذهبتها الرياح ، كأن الله أرسله له ، رفقاً به ولطفاً ؛ فنزل السلطان وشكر الله ، وجعل ذلك في طرف قبائه ، وأطعم فرسه ؛ وكان ذلك سبب السلامة .

ولما استقر بالكرك توالى الناس من كل جانب ، وتوافدوا عليه من كل جهة ، فاجتمع عنده في أيام قلائل ألف وخمسمائة فارس من الأمراء وغيرهم مثل الأمير ركن الدين الصيرفي ، والأمير بدر الدين بلغاق الأشرفي ، وجماعة مثل الأمراء أولاد بركه خان وغيرهم ، وعز الدين الحموي الصالحي ، وجمال الدين هارون التيمري [ب/٩ ب] ، وعز الدين بن خان بردى ، وعلم الدين الكبش ، وسنقرجاه الغرسي ، وعز الدين الحواش ، وسيف الدين تتكيابجكا ، وسيف الدين بلجي ، وحسام الدين بن أطلس خان ،

وجمال الدين أقوش السلاحدار ، وحسام الدين الأصبهاني الصالحي ، وجماعة كبيرة . وصارت الجماعة بعد الجماعة يصلون إليه من القاهرة المحروسة ، فاحتمت عنده جماعة كبيرة ؛ فأحسن إلى جمعهم ، وتلقاهم بالإحسان ، وأخذهم ووصل بهم غزة ؛ ثم ركب السلطان على خيل البريد ، وساق إلى الكرك ، وحسن لصاحبها النزول ، والاختلاط بالعسكر ؛ فنزل صحبته وسارا[1] حتى وصلا غزة . وكان الأمير عز الدين الرومي الصالحي قد تخيل في مصر أموراً أوجبت مسيره إلى جهتهم ، فاجتمعوا كلهم وساروا .

وبلغ العساكر المصرية ، فخرجت صحبة الأتابك ، والأمير سيف الدين قطز ، فالتقوا على الصالحية ؛ وكان قد فقدت جماعة من الحلقة[2] ، فبينا السلطان فيما هو فيه من كر وفر ، إذا بالعساكر المصرية قد أقبلت ، والعساكر الكركية قد فرت وقفلت ، بعد ما كانت كرت ؛ فلم يمكن السلطان إلاّ اتباعها ، فساق وعليه واقية باقية من شجاعته ، وحصن حصين من بسالته [ب/١١٠] وكان الله — سبحانه ! — قد أخر هذا الفتوح ليكون لديه مصيره ، ولديه تقديره .

حكى السلطان قال : « لما توجهنا إلى غزة فسدت النيات وتغيرت ،

---

١ في الأصل « وسار » .

٢ ربما أطلق اسم الحلقة في الأصل على حرس السلطان لأنهم يشكلون حلقة حوله (كاترومير ١/١/٧ ، ٢٤٦) ، وان انطبق هذا على أوائل فترة الأيوبيين فإن مدلول الكلمة في زمن بيبرس قد اختلف كثيراً ، ففي عدة مناسبات ورد ذكرها دالا على أنها جزء من الجيش ، وأمراؤها يرأسون سبعين جندياً (ابن شداد ٢/٢٣٦ ، ٢٤١ — ٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦) ورغم أنها تأتي في المرتبة الثانية لفرقة البحرية إلا أنها لعبت دوراً هاماً في حملات بيبرس الحربية (راجع مثلا الروض ٧٢ أ) .

وحصل اتفاق جماعة على أنهم يلعبون بالسيف في بعضهم البعض ، فتضرعت إلى الله – تعالى ! – في أن لا ينصرنا ، وأن يهلك الجيش الذي ينوي الغدر والفساد ؛ وسألتُ الله أن يرمي الكسرة علينا ، وأن أكون أنا أسلم » . فكان ما قدره الله – تعالى ! – ورجع السلطان إلى الكرك سالماً ، وقد سكنت مهابته القلوب ، وضربت به الأمثال في حسن الدخول في الحروب والخروج منها .

ولما وصل إلى الكرك ما مكنه صاحبها من الدخول عليه ، وقال : « ينزل في الثنية هو وخُشداشيته » . فقال السلطان له : « ان كنت ما أصلح لخدمتك أنا التقي [1] استاذاً أخدمه » . فخاف الملك المغيث من هذا القول ، وطيب قلبه .

وأخذ السلطان في جمع من عنده من خشداشيته ، وذلك في سنة سبع وخمسين ، وأغار على الغوريات والساحليات ، حتى وصلت الغارة إلى قريب دمشق . وسير الملك الناصر عسكراً إلى غزة ؛ مقدمه الأمير مجير الدين بن أبي زكرى ، فهزمهم ، وأسر الأمراء ، ونهب ذلك العسكر ، وكانت عدته ألفي فارس ، والسلطان وجماعته [ب/ ١٠ ب] في ستمائة فارس ، منهم ثلاثمائة مقاتلة ، منها سبعون فارساً سنجقية . فحمل عسكر الشام على جماعة السلطان فانكسرت ميمنتهم والميسرة ، ولم يبق إلاّ السنجقية ، وهم سبعون فارساً ، فحملت على عسكر الشام فكسرته ، وقتل ابن درباس ، وأسر ابن أبي زكرى وغيره ؛ وأبيعت البطيقه [2] بفرس في غزة .

ووصل المنهزمون إلى دمشق ، فخرج الملك الناصر بنفسه إلى هذه الجماعة

---

١ بدلا من « ألقى أو أجد » .

٢ في الأصل « البطببقه » .

البحرية[1] ، ونزل ببركة زيزا[2] ، وطالت إقامته هناك ، حتى ملت منه تلك البراري والقفار ، وضجر منه سواد الليل وبياض النهار ، ولم يقدر على فرصة ينتهزها . ولا غنيمة يحرزها ؛ فتنوع في استمالة الملك الظاهر واستعطافه ، ووعده بالإحسان ، وضاعف له الاقطاعات ؛ وفهم السلطان تغير الملك المغيث ، وأنه ربما مالأ[3] عليه وعلى البحرية في الباطن ، وأنه يتقرب إلى الملك الناصر بإمساكهم ؛ وكذلك فعل بعد انفصال السلطان على ما سيذكر ؛ وبلغ السلطان ما العدو والتتار عليه من قصد بلاد الإسلام فحضر الملك الناصر ، فبالغ في السرور به ، والانتصار بحزبه ، وصالح صاحب الكرك على من عنده من البحرية ، فسلمهم ورجع [ب/١١١] الملك الناصر إلى دمشق ، والسلطان صحبته ، ومن قبض عليه صاحب الكرك من البحرية تحت الحوطة . وهذا دليل على أن السلطان هو مادة سعادة البحرية ، ومن خالفه ندم ، ومن بعد عنه حرم .

وتوالت أخبار العدو بقصد الشام ، وصار كل أحد لا تحدثه نفسه إلاّ بالهروب ، والسلطان يعرض نفسه على الملك الناصر ، ويقول : « لو جهزت معي عسكراً فيه ثلاثة آلاف فارس سقت إلى العدو ، إلى المكان الذي هم فيه » . وكان الخبر أنهم على بالس[4] ، وأنهم في ثمانية[5] آلاف فارس ، فلم

١ كان هدف الناصر مهاجمة الكرك وحصار الملك المغيث فيه لحمايته للبحرية وتقويته لهم ، ولم ينسحب الناصر إلا عندما رضي المغيث بتسليمهم وعندما علم بيبرس بهذا هرب من الكرك ، مفرج ٢/٣٩١ .

٢ زيزا : قرية كبيرة في البلقاء فيها بركة كبيرة ، ويقيم الحجاج فيها سوقاً كل عام . ياقوت ٤ / ٤٢٤ .

٣ في الأصل « ما لا » .

٤ بالس : مدينة في الشام بين حلب والرقة وقريبة من الفرات . ياقوت ٢ / ٤٦ .

٥ في الأصل « ثمانية ألف » .

يقبل ذلك منه ، ولم يزد الملك الناصر دعاء الناس إلاّ فراراً ، ولا نصحهم إلاّ نفاراً .

وخرج الملك الناصر فنزل إلى برزة[1] ، وجعل يتشاغل فيما لا يفيد ، ويضيع أوقاته بعمل شعر أو سماع قصيد ؛ وكان الواجب عليه في مثل تلك الحالة أنه يقسم أوقاته بين رماح تقوَّم ، وأجناد تستخدم ، وسيوف تُصقَل ، وجواشن تُعمَل ، وخيول تنقل ، وعساكر تجرد ، وسهام تسدد ، وطلائع تبعث إلى العدو ، وعيون تُسيّر في الرواح والغدو ، وأموال تنفق ، وأنعام تطلق ؛ فلما رأى مماليكه أن أحواله لا تسفر عن صلاح ، ولا تقبل على فلاح ، عزموا على إمساكه مراراً . [ب/١١ ب] .

وصار الملك الناصر يتوهم في جميع مماليكه السوء والغدر ؛ وتخيّل من كل أحد ، وحضر إلى السلطان من أوهمه منه ونفره عنه ؛ فخرج جريدة ، ووصل إلى نابلس . واتفق خروج المماليك الناصرية ، وجماعة من العسكر هاربين ، فوصلوا إلى غزة ، فوجد السلطان الشهرزورية ، فامتزج بهم وخالطهم ؛ وكان العسكر المصري الذي توجه نجدة للملك الناصر قد عزم الشهرزورية على اتلافه ، فأعلم السلطان الأمير جمال الدين النجيبي بذلك ، فرجع العسكر المصري ، وأقام السلطان بغزة . حتى سيّر إلى الديار المصرية الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري إلى الملك المظفر سيف الدين قطز — رحمه الله ! — فاستوثق منه ، وحضر إليه وصحبته جماعة من خوشداشيته ، فتحدث الملك المظفر معه في أمر الجهاد ، فقوى نفسه ، وثبت جأشه . واتفق ما اتفق من خروج الملك الناصر من الشام بالعساكر ،

---

[1] برزة من بلاد غوطة دمشق . ياقوت ٤/٤٢٤ .

ووصوله إلى قطيا[1] ، ورجوعه منها ، ووصول العساكر ، وخروج الملك المظفر إلى الصالحية[2] ، فتحدث مع السلطان في الركوب ، وقصد الشهرزورية ؛ وداخل الملك المظفر الخوف من قصد العسكر الشامي ، فركب [ب/١١٢] السلطان ومعه جماعة ، وسار ليله كله حتى أشرف على الشهرزورية بمن معه ؛ فداخلهم الرعب ، وفرّق شملهم ، وبدّد جمعهم ، وتلاحقوا[3] العساكر المصرية ، فكسبوا وغنموا . وقتل مقدمهم الأمير نور الدين حسن ابن بدل[4] . وأصلح حال عسكر الشام عند الملك المظفر — رحمه الله ! — .

ذكر الخروج لغزاة التتار — خذلهم الله ! —

لما ورد عسكر الشام إلى الديار المصرية أوقع الله في قلب الملك المظفر الخروج إلى الغزاة ؛ وصار يجتمع بالسلطان في هذا المعنى ، فيشير عليه بما فيه مصلحة الإسلام ؛ فخرج وصحبته العساكر ، وذلك في العشر الأوسط من شعبان سنة ثمان وخمسين وستمائة . وسار السلطان صحبته ، يركب بركوبه ، وينزل بنزوله ؛ ولم يبق وجهاً من وجوه الخدمة إلاّ بذلها السلطان له . وعبر على بلاد الفرنج ، واجتاز على عكا ؛ ودخل الملك الظاهر مختفياً

---

١ قطيا : قرية بجوار الفرمة تحيط بها الرمال وهي تقع في الطريق إلى مصر من الشام . ياقوت ١٣٢/٧ .

٢ الصالحية : قرية بناها الصالح أيوب لجنده في منطقة السانح على طرف المنطقة الرملية في الطريق بين مصر والشام . السلوك ٣٣٠/١ .

٣ كذا في الأصل بدلا من « تلاحقت » .

٤ في الأصل من غير نقط .

إلى عكا حتى رآها . ولقد دخلتُ اليها صحبة الأمير فارس الدين الأتابك ، وسمعتُ جماعة من الفرنج يقولون [١/ب] : « يا مسلم[١] ! أرونا فلانا » — يعنون السلطان .

ولما رحل العسكر مرحلتين من عكا ركب السلطان ومعه جماعة من الأمراء ، وساقوا بقية النهار والليل [ب/١٢ ب] وطلع السلطان إلى الجبل الذي يعلو عين جالوت[٢] ، وأقام طول ليله ، وهو ومن معه ، على ظهور خيلهم جميع الليل ، والتتار نازلون قريباً منهم . ورحل الملك المظفر والعسكر ، ولا علم عندهم بقرب العدو ، حتى وردت رسل الملك الظاهر ينذر الناس ، ويعلمهم بقرب العدو ، وينبه على عورات العدو ، ويقاللهم في أعينهم ، ويجسرهم على انتهاز الفرصة ، وكان ذلك أحد أسباب النصر ؛ ولولاه يسمح بنفسه ، ويقدم ، ويتقدم ويبيت ساهراً في الذب عن الحوزة لكان الحال — والعياذ بالله ! — مخوفاً ، [والبلاد فخراب][٣] ؛ لأن المسلمين كانوا يركبون على غِرَّة ، بسبب أن العدو كان قد أخفى خبره ، فسبق العدو خبره .

ولما وصلت العساكر إلى السلطان وقف في صدر العدو ، وصبر على نكاية صدمتهم الأولى ، فرأى العدو منهم شجاعة ما سمع بمثلها . ورآه المسلمون قد ثبت فيهم ، فجسروا على العدو ، وساقوا ، وساق الملك المظفر والأتابك مع السناجق ، فكان ما قدره الله من النصر الذي كان الملك الظاهر فيه السبب .

ولما طلع العدو إلى الجبل منهزماً طلع الملك الظاهر راجلا خلفه ، ووقف

---

١ بدء مخطوطة اسطنبول .

٢ مدينة صغيرة في فلسطين بين بيسان ونابلس . ياقوت ٦/٢٥٤ .

٣ وردت هذه الجملة في المخطوطة بعد : «قد أخفى خبره» .

قبالته طول النهار كله إلى الليل ، والناس تتسامع بوقوفه [ب/١١٣] ويطلعون إليه من كل جهة ، وهو [١/٢] يقاتل قتال من استقتل . وصارت الرجالة تطلع وتأخذ روس[١] من يقتله ويُقتل بين يديه ، وتحمل إلى الملك المظفر ، مثل كتبغا نوين وغيره ، فما انقضى النهار إلاّ وقد صارت جملة كبيرة[٢] من الروس قدام الملك المظفر .

ولما نزل الملك الظاهر لم يشغله ما قاساه من النصب حتى ركب ، وساق خلف العدو ، وتبعه الناس . ولم يزل سائقاً ليله ونهاره لا يصبر ، وهو يقتل ، ويأسر من سلم ، والعدو بين يديه منهزماً[٣] ؛ وما ثنى أعنة خيله إلى حارم[٤] . ولما وصل أفامية اجتمعوا أيضاً ، فكسرهم كسرة شنعة على أفامية[٥] ، في يوم الجمعة أيضاً . وغنمت الأموال ، والحريم ، والصغار ، والخيول .

وفي أثناء ذلك سير إلى دمشق من أمّنها وطمنها ، وعرّف الناس بالنصر على العدو المخذول ، وبصرهم بهم ، وأمر بالإيقاع بنوابهم وغلمانهم ، وعدم الالتفات اليهم ، وتحذيرهم من تمكين نواب العدو من اعتماد مضرة البلاد ، وفي أحد من الناس .

وسار الملك المظفر — رحمه الله — وسائر عسكره ، فوجدوا مولانا

---

١ كذا بدلا من رؤوس .
٢ في الأصل بدون نقط .
٣ كذا .
٤ حارم : حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية من أعمال حلب . المراصد ٣/٢٨١ .
٥ أفامية : مدينة كبيرة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص. ياقوت ١/٢٩٨، ٦/٣٣٤ .

السلطان – نصره الله ! – قد مهد لهم البلاد ، وسكن من بقي فيها من الرعايا ، وجسر الناس على التقدم ، ووصل الملك المظفر إلى دمشق [ب ١٣ ب] بغير تعب ولا نصب . ووصلت كتب مولانا السلطان إلى الملك المظفر إلى دمشق بما فعله ، وما فتحه ، وما مهده ، وأنه سير الأمير عماد الدين أبا بكر بن المجير إلى حلب ، وأنه ولي في البلاد ، وأنه لم يُبق قدامه أحد [٢/ب] في بلاد الشام ولا حلب ، وسيّر إلى حماه وحمص وغيرها من أمنها وطمأنها[1] . .

وكان هذا الفتوح كله بسيفه ، وهذا النصر جميعه من عند الله ومن[2] عنده ، والخوف الذي حلّ بالأعداء إنما هو من مهابته .

حكاية

حكى الأمير افتخار الدين ، والي بصرى ، قال :

« حضرت يوماً عند كتبغا ، وهو في مجلس عظيم ، كان من جملة من كان فيه المولى[3] الملك الأشرف ، صاحب حمص ، وقد التفت وقال له : « بأمر من أخذت حواصل شيرز ، وسيرتها إلى ولدى[4] هلاون ؟ » قال : « بأمر ملك البسيطة » – يعني هلاون . فقال له : « ما فعلته إلاّ من عندك جسارة ، وإلاّ أبنى[4] هلاوون ما يسيرني قط إلى جهة ويكتب لغيري

---

١ في الأصل « أطمانها » .

٢ هذا التعبير شرك . فيلاحظ .

٣ في المخطوطتين « الموك » ولعلها « المولى » أو « من الملوك » .

٤ كذا في المخطوطتين .

في مصلحة تتعلق بالبلاد ولا به، ولا يتحدث في أمر من الأمور إلاّ من جهتي، ولا يفعل أمراً إلاّ ويشاورني فيه؛ وإنما هذه جرأة منك، ودعوى شجاعة، ولكن قد سمعنا أن فلاناً – يعني [ب/ ١٤] السلطان – قد خرج من مصر، ومعه جماعة، فإن كنت شجاعاً – كما تزعم في نفسك – فاخرج والتقيه»[١].

وهذا في غاية ما يكون من استعظام السلطان، وتحقق شجاعته، وصرامته في قلوبهم؛ ولولا أن ذلك قد ثبت في قلوبهم لما ذكره كتبغا في هذا المحفل العظيم، في معرض التوبيخ للملك الأشرف؛ فمولانا السلطان أحق بهذا الفتوح دون سائر الناس، وأولى بأن يعزى إليه، وينسب إلى عزائمه، ويقرن باسمه، ويؤرخ في سيرته [٣/ ١]، ويدعى له لأجله؛ لأن كل الناس عتقاء سيفه، وما استراحوا إلاّ بتعبه، ولا أمنوا إلاّ بمخاطرته، ولا أقدموا وتقدموا إلاّ بطلبه واستدعائه، ولا ناموا إلاّ بسهره؛ فالله تعالى يحرس بطول بقائه الإسلام، ويجعل عليه واقية باقية على ممر الأيام والأعوام، بمحمد وآله، عليه الصلاة والسلام[٢].

ذكر مسير السلطان إلى الديار المصرية

ووفاة الملك المظفر

لما توجه الملك المظفر، والسلطان صحبته، صار يظهر تكبراً[٣]، وتغيرت

---

١ بمعنى القه أو قابله.

٢ هذا توسل إلى الله بالأشخاص والتوسل المشروع هو التوسل بأسماء الله وصفاته كما قال عز وجل: «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» الآية.

٣ يذكر بعض المؤرخين أن السبب في غضب بيبرس ان قطز كان قد وعده بأن يعينه والياً على حلب فلم يبر بوعده. السلوك ٤٣٥/١ والنجوم ٨٢/٧، ١٠١.

نيته ؛ وفهم السلطان ذلك منه . وطلب السلطان أن يفعل في الجهاد شيئاً يشكره الله والناس عليه ، والملك المظفر يمنعه لئلا ينفرد السلطان بالذكر الحسن [ب/١٤ ب] دونه . ولما كان يوم السبت سابع عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمئة ساق السلطان معه في الصيد ، وهو قريب القصير ، وقد واعد جماعة قليلة ؛ وساق إلى جانبه ، وتحدث معه ، وقبض على يده ، والسيف ، ثم تباعد عنه وضربه . وكان ما قدره الله من وفاته وانتقاله[1] .

وفعل السلطان الملك الظاهر ما فعله بنفسه ، وبلغ غرضه بمفرده وذلك بين العساكر العظيمة ، والاحتراز الشديد ، وما قدر أحد أن يتكلم ، ولا جسر أن يمد يده اليه[2] .

ذكر تفويض الممالك الشريفة للسلطان الملك [٣/ب] الظاهر — جعلها الله باقية في عقبه ! —

لما توفي الملك المظفر — رحمه الله ! — ساق السلطان في جماعة خشداشيته وأصحابه إلى القصير لابساً عدته ، ووصل إلى الدهليز ، وأخذ الأتابك وقعد به في الدهليز ، ونزل معه الناس ، ومنهم جماعة من المعزية وغيرهم ممن كان معتقلاً في الاسكندرية ، وخلصهم الملك المظفر ، والتقوه بغزة ، مثل الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي ، والأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي ،

---

١ يذكر بعض المؤرخين تفصيلا للحادث يختلف عما ورد هنا راجع مثلا السلوك ١/٤٣٥ ، والنجوم ٧/٨٣ ، وشافع ٩ ، ١٣٦ .

٢ يختلف بعض المؤرخين في تفاصيل مقتل قطز ، راجع مثلا : السلوك ١/٤٣٥ والنجوم ٧/٨٣ .

والأمير سيف الدين بهادر ، وجماعة أخرى ، فقعد السلطان جانباً عن الطراحة ، ووقع الحلف في [ب/١١٥] الحديث ، فقال الأتابك : «اسمعوا يا أصحابنا ! والله لو كان الملك المظفر حيّاً ، أو له ولد له في عنقنا يمين ، أوّل ما كنت أقاتلكم بسيفي ، وإنما الساعة قد فات فيه الفوت ، ولا شك أن الذي قتله ، وغرر بنفسه ، وفعل هذا الأمر العظيم ما فعله لغيره ، ولا بذل نفسه وخاطر بها ليكون الأمر والنهي لغيره ، فمن قتله فهو أحقّ بمكانه » . فقال السلطان : « أنا الذي فعلت هذا الأمر » . فوافق الجماعة على ذلك ؛ فقام السلطان وجلس في الطراحة ؛ وبقي الجماعة سكوتاً ؛ فقال لبعض الجماعة الأمراء : « احلفوا ! » فقال الأتابك للسلطان : « هؤلاء الجماعة أكثرهم بطالون ، وقد خرجوا من شدة وإنما السلطان يحلف لهم أنه يواسيهم بما تصل قدرته إليه ، في عاجل الوقت ، وبعد ذلك يحلفون للسلطان » . فأعجب هذا الحديث الجماعة ، وحلف السلطان لهم، وحلفوا [١/٤] بعد ذلك ، وحلف الناس إلى بعد العصر .

هذا ما أخبرني به الأتابك ، قال : « والتفتُ إلى السلطان فقلت : « المصلحة الركوب » . فقال السلطان : « نقعد حتّى تحضر بقية الأمراء المتأخرين في الطريق ونكمل حلفهم » . قال : قلت : « ان تأخر السلطان ارتأى الناس وتشاوروا ، ولكل أحد غرض وهوى ، والمصلحة ركوب السلطان وسوقه ، يعتقد [ب/١٥ ب] ناس أن السلطان سبق ، ويعتقد آخرون أنه تأخر والأمراء يقولون هو مع الحلقة ، والحلقة يقولون هو مع الأمراء ، وكل أحد يشتغل بحفظ قماشه وخيله ، ويقصد تعجيل الحضور إلى بيته لحفظه » . فلما سمع الساطان ذلك ركب في جماعة ، وساق ليله كله .

وتقدم الأمير عز الدين أيدمر الحلي إلى القلعة ، فتحدث مع النواب

بها ، واستمال قلوبهم ، وهم يعلمون دينه وأمانته ، وأنه لا يقول إلاّ الحق ، وأخبرهم بوفاة الملك المظفر ، وأن الناس اجتمعوا . وحلفوا للسلطان الملك الظاهر ركن الدين ؛ فرجعوا إلى قوله ، وركنوا إلى وفاء وعده ، فتسلم منهم القلعة والخزائن ، وحلف الناس الذين بالقلعة للسلطان ، وسيّر نسخة الايمان ، وطاب قلبه ، وساق ، ودخل القلعة ليلة الاثنين تاسع عشر ذي الحجة سنة ثمان وخمسين وستمئة .

وأصبح جالساً بالقلعة في دست المملكة ، وعظمة السلطنة . وطابت قلوب الرعايا بكون الله فوّض أمورهم إلى من يقوم بحقوق الجهاد ، ويأمر فيهم بالعدل والإحسان ؛ [٤/ب] وكان كما قال الشاعر :

« أتته[١] السعادة منقادة اليه[٢] تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلاّ له ، ولم يك يصلح إلاّ لها [ب/١٦ ا]
ولو رامها أحد غيره ، لزلزلت الأرض زلزالها

ذكر ما اعتمده السلطان عند ملكه الديار المصرية

ولما استقر السلطان بقلعته ، وجلس في ايوان ملكه ، حلف الناس على اختلاف طبقاتهم ، فما بقي أحد إلاّ حلف ؛ واستقام الأمر بغير منازع ، فأمر ونهى ، وبذل الأموال ، وأمر وأمّر ، وولّى وعزل ، وكتب إلى

---

١ في الأصل « أتتك » .
٢ في الأصل « إليك » .

صاحب الغرب ، وإلى صاحب اليمن ، وإلى جميع ملوك الشام ، بما قدره الله من سلامة سلطانه ، وطاعة أعوانه . وشرع في إقامة الدولة الصالحية على ما كانت عليه من نواميس ورسوم ، وولى في أموره غلمان الشهيد الملك الصالح ، ممن كان — رحمه الله ! — قد اختارهم وانتخبهم ؛ فعظمت حرمة بابه ، واستبشر الناس بأن الله ولّى عليهم من يعرف أمور المملكة ، وقوانينها ، ويحل الناس في منازلهم ؛ وبطل المحدثات ، وهي ألوف على ما سيأتي ذكره . وكتب بإقامة الشريعة المطهرة ، وأقام مدة ما اهتم بركوب ، ولا اشتغل إلاّ بترتيب الأمور ، واستخلاص الأولياء وكشف حال الأعداء ، وإحياء الرسوم الصالحية [٥/١] وتنويه ذكرها ، إلى أن عرف المفسد من المصلح .

وركب في شهر[١] صفر سنة تسع وخمسين وستمئة بشعار السلطنة[٢] وشق

---

١ النويري يذكر أنه ركب في سابع صفر . النهاية ٢٩/٢ .

٢ وهي علامة السلطنة التي تصاحب السلطان في المواكب وتشمل :

أ — الغاشية : وهي غطاء للسرج من الجلد ومخروز بالذهب حتى ليخاله الناظر ذهباً كله ، يحمله الركابدار أمام السلطان في المواكب ، وينقله من يد إلى يد طوال الطريق . صبح ١٢٧/٢ ، ٧/٤ .

ب — المظلة أو « الجتر » من الحرير الأصفر تحمل فوق رأس السلطان في المواكب . صبح ٧/٤ — ٨ .

جـ — الرقبة : وهي طوق من أطلس أصفر مزركشة بالذهب بحيث لا يرى الأطلس من تراكم الذهب عليه ، تجعل على رقبة الفرس في العيدين والميادين من أذني الفرس إلى نهاية عرفه . صبح ٧/٤ — ٨ ، ١٢٧/٢ .

د — الجفتاه : وهما اثنان من أوشاقية اصطبل السلطان قريبين في السن عليهما قباءان أصفران من حرير بطراز مزركش وعلى رأسهما قبعتان من زركش وتحتهما فرسان أشهبان برقبتين وعدة نظير ما السلطان راكب . صبح ٨/٤ .

المدينة [ب/١٦ ب] ، وطلع إلى القلعة ، ونثرت عليه الدنانير والدراهم ، ومشى الناس في خدمته ، وأفيضت [١] عليهم التشاريف [٢] ، وسكنت الدهماء ، وطابت قلوب خشداشيته .

---

١ في الأصل « افتضته » .

٢ التشاريف جمع تشريف وهو مظهر من مظاهر التكريم بمناسبة من المناسبات ، ويختلف نوعه حسب درجة المكرم ، يقول القلقشندي عن حقيقته ما معناه :

التشاريف على طبقات أعلاها ما هو مختص بالأمراء المقدمين من النواب وغيرهم ويتكون من الآتي :

« فوقاني أطلس أحمر ، بطرز زركش ، مفرى بسنجاب ، أصفر ، بدائره سجف من ظاهره مع غشاء قندي ، وتحته قباء أطلس أصفر ، وكلوتة زركش بكلاليب ذهب ، وشاش رفيع موصول به طرفان من حرير أبيض مرقوماً بألقاب السلطان مع نقوش باهرة من الحرير الملون . ومنطقة ذهب مركبة على حاشية حرير تشد في وسطه ، ويختلف حال المنطقة بحسب المراتب : فأعلاها أن يعمل من عمدها بواكير وسطاً ومحبسين ، مرصعة بالبلخش والزمرد واللؤلؤ ، ثم ما كان ببيكارية واحدة مرصعة ، ثم ما كان ببيكارية واحدة من غير ترصيع ، فإن كان لتشريف لتقليد ولاية مفخمة زيد سيفاً محلى بذهب وفرساً ملجماً بكنبوش زركش . . . » صبح ٤/٥٢ – ٥٣ .

ودون الأعلى ، وتختص بأصاغر الأمراء المئين ، ومن يلحق بهم ، وكذلك أصحاب الوظائف المختصة بذلك كالجوكندار والولاة ومن يجري مجراهم ويتكون بعضها من الآتي :

« أقبية طرد وحش من عمل الإسكندرية ومصر والشام جوخ جاخات مكتوبة بألقاب السلطان ، وجاخات صور وحوش أو طيور صغار ، وجاخات ملونة مموجة بقصب مذهب يفصل بين جاخاته نقوش يركب على القباء طراز مزركش وعليه السنجاب والقندس ، وتحته قباء من الطرح السكندري المفرج وكلوتة زركش بكلاليب وشاش ، وحياصة ذهب تارة تكون ببيكارية وتارة لا تكون .

وهذه لأصاغر أمراء المئين ومن لحق بهم وكذلك أصحاب الوظائف المختصة بذلك كالجوكندار والولاة ومن يجري مجراهم . صبح ٤ / ٥٣ .

أما المناسبات التي يتم فيها الانعام بالتشاريف فأهمها :

أ – عند تولية أمير أو صاحب منصب يلبس تشريفاً يناسب الوظيفة التي عين فيها حسب رتبته . =

ذكر ما اعتمده في حق خوشداشيته

قد تقدم أنه مادة سعادتهم في كل وقت ، لأنه هو الذي حماهم من الملك المعظم في المنصورة ، ولولاه ما أبقى منهم[1] أحداً ؛ وهو الذي جعل لهم الحرمة في الديار المصرية[1] في الأيام المعزية . ولما توجه إلى الشام زالت تلك النعمة عنهم ، ولما حضروا إلى دمشق وصل أرزاقهم ، وحُملت اليهم الخلع والأموال ، وأكلوا الخبز بسيفه . ولما انفصل وسار إلى جهة الكرك وتوجهوا إليه ، قامت حرمتهم به ، وحصل لهم الافتقاد والانعام بسببه ؛ ولما انفصلوا عن جهة الكرك حصل لهم بتأخرهم عنه الأذى ، ولمن تبعه منهم السعادة .

ومن أكبر الأدلة على مروءة هذا السلطان أنه أقام في الغربة مدة سبع سنين ، وكابد القلة ، وهو لا يفارق خوشداشيته . وكان كلما رآهم تضيق

= ب – في عيد الفطر يخلع على جميع أرباب الوظائف من الأمراء وأرباب الأقلام كالاستادار والدوادار وأمير سلاح والوزير وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش ونحوهم ، كل منهم بما يناسبه .

جـ – في كل عيد يعد السلطان خلعة على أنها لملبوسه من خلع أكابر المئين ، ولا يلبسها ، ولكن يختص بها أحد أكابر المئين يخلعها عليه .

د – في احتفالات الميادين يخلع على أكابر الأمراء كل ميدان يختص بأمير أو أكثر يلبس فيه خلعة من المفرج الذهب .

هـ – في دوران المحمل في شوال يخلع على أرباب الوظائف بالمحمل كالقاضي والناظر والمحتسب والشاهد والمقدمين والأدلة وناظر الكسوة ومباشريها ومن في معناهم. صبح ٤ / ٥٣ – ٥٤ .

١ كتبت الكلمات « في الديار المصرية » و « منهم » على هامش الصفحة ، وأشير إلى مكانها من النص .

صدورهم يضيق صدره، وينتقل بهم من جهة إلى جهة، والملوك تتلقاه ويكاتبونه من الشام ومصر . وأكبر قصده [٥/ب] سلامتهم ، لأنه كان يعرف ما لا [ب/١١٧ ا] يعرفون . ولما أعطاه الله الملك لم يشغله شيء عن الإحسان إلى كبيرهم وصغيرهم ، وقدمهم بعد أن اعتقد كل منهم أنهم لا تقوم لهم قائمة أبداً ، وجمع شملهم بعد أن كانوا تهججوا في البلاد ، واستخفوا حتى أن أحداً منهم ما كان يجسر يذكر لفظة « التركية » ولا « الجندية » . فلما منّ الله بإقبال دولة السلطان جمع منهم الشريد ، وقرّب البعيد ، وقدم المتأخر ، وولى المعزول ، ورد عليهم ما كان غُصب من أملاكهم وأموالهم ونعمهم ، وأمّر من يستحق الأمرة ، وقدم عليهم من يصلح للتقدمة ، وجعل لهم ديواناً مفرداً . وصاروا من المختصين به ، والحافظين لقلعته في غيبته وحضوره . وما اقتنع بذلك ، حتى تفقد أولاد من مات في هذه المدة من خوشداشيته ومماليكهم وغلمانهم وأتباعهم ، وقرر لهم المقررات .

ذكر فصول يجب تقديمها هنا

وهو ما خص الله هذا السلطان به من حسن السجايا والأخلاق والمزايا ؛ فمن ذلك :

شجاعته :

قد اتفق الناس أنه ما ركب فارس[1] فرساً في زمانه[2] أشطر منه ولا أفرس،

---

١ في الأصل « فرس » .

٢ كتبت الكلمات « فرساً في زمانه » على هامش الصفحة وأشير إلى مكانها من النص .

ولا أخبر بمواقع الحروب ، والدخول فيها ، والخروج منها ؛ ومواقف جهاده تشهد بصحة هذه الدعوى ، وكذلك قدومه [ب/١٧ ب] في المرتين إلى الديار المصرية، وخروجه منها سالماً ، وكذلك [٦/ ١] أخذه الملك بسيفه لا بأحد .

عفوه وحلمه :

قد آتاه الله العفو والحلم اللذين لو وقعا في زمن من تقدم مثل الأحنف ابن قيس لاستكثر منه ، وأكبر شاهد على ذلك قضية الأمير علم الدين الحلبي ، وما فعله معه ، وكيف عفا عنه ، وولاه نيابة السلطنة في حلب ، وما جرى منه فيها أيضاً ، وحضوره أيضاً إلى دمشق ، وانفصاله منها على غير الصورة المرضية ، وانزعاج الناس لذلك ، والإفراج عما وقعت الحوطة له عليه ، وهو جملة كبيرة في المرة الأولى والمرة الثانية . وبعد هذا كله أحسن اليه ، وأقطعه إقطاعاً بستين فارساً ، واستدام الإحسان اليه ، ولا أظهر له يوماً من الأيام عتباً .

وكذلك أكثر خوشداشيته ما منهم إلاّ من فارقه وقت الحاجة اليه ، ومنهم من سعى في مضرّته ، ولم يؤاخذ أحداً منهم ، ولا عاتبه . ومن ذلك أنه لما جرى في الأيام المعزية ما جرى من انتزاح البحرية ، لم يبق إلاّ من أخذ لمولانا السلطان إما من اقطاعه ، وإما من اسطبلاته وإما من بيوته ، وإما من أصحابه ، ولما أعطاه الله الملك ما واخذ[1] أحداً [ب/١٨ ا] ولا أظهر شيئاً من ذلك .

ومن ذلك أنه لما توجه إلى الشام بلغه عن جماعة من الناصرية ما أوجب

---

١ كذا بدلا من آخذ .

انتقامه منهم ، فأمسكهم ، وسير من اعتقلهم بقلعة الجبل ، وأمر أن لا يتعرض أحد إلى شيء من أموالهم ، ولا دوابهم ، ولا غلمانهم ، وحفظ الجميع [٦/ب] لهم إلى أن خلصوا ؛ وكتب إلى النواب بالإنفاق عليهم ، وعلى نوابهم ، ودوابهم ، مدة اعتقالهم ؛ فأقاموا كذلك حتّى عاد السلطان من الشام في سنة ستين ، فأفرج عنهم ، واقطعهم وأحسن اليهم .

كرمه وعطاؤه :

قد علم كل أحد ما حصل له في الأيام المعزية والناصرية ، والكرك ومصر ، وما كان له من الإقطاعات ، وما حمل اليه من الأموال الجزيلة والنعم الوافرة ، وأنه لم يتَنَبُه من جميع ذلك إلاّ قباء وسيف وفرس . ولما ملك أفاض الخلع ، ووالى الانعام ، ووهب الحصون ، مثل تل باشر [1] والصبيبة [2] وغيرهما ، بما تشتمل عليه من ذخائر وحواصل .

ويكفي ما فعله مع مولانا الخليفة ، وانفقه عليه ، وعلى عسكره ؛ وجهز به الملوك المتَوَاصلة ، الواصلين إليه ، وهو ما خبرني به مولانا السلطان ، قال : « الذي أنفقته [3] عليهم ألف ألف وستين ألف دينار ذهباً ، كل هذا رعاية [ب/١٨ ب] لحق الله ورغبة في تعظيم شعائره » .

---

١ تل باشر ، قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينها وبين حلب يومان وأهلها نصارى أرمن ، ولها ربض وأسواق، وهي عامرة آهلة ، ياقوت ٤٠٢/٢ .

٢ الصبيبة : اسم لقلعة بانياس وهي من الحصون المنيعة ، أبو الفداء تقويم ٢٤٩ .

٣ في ب « أنفقه » .

عدله :

كان الناس هلكوا من الظلم ، وطلب التقويم[1] والتصقيع[2] منهم ، وكذلك الخمس والزكاة المعجلة ، والجوالي[3] المعجلة ، والتبرع ، والراجل ونفدت الأموال للرقاصين والجوانية ، وأصحاب الأرباع . ولما أقبلت هذه الدولة أبطل الله المظالم على يدي هذا السلطان[4] ، وجملتها ستمئة ألف [٧/ا] دينار ، حسبما يشهد بذلك جرائد الديوان ؛ وكتب بذلك المسامحات ، وقرئت على المنابر ، وابتهل الناس بالدعاء ، واستقرت الأحوال .

ثم أنه نصب دار العدل على ما كانت عليه ، وأقام فيها الأمير فارس الدين الأتابك ينصف بين الناس .

ذكر انصافه :

ما رُفعت إليه مظلمة إلاّ كشفها ، ولا نُبِّه على قضية إلاّ بحث عنها وعرفها ؛ فمن ذلك أن أحد الأمراء الذين هم في اعتقاله أودع في صندوق له جملة كبيرة من المال عند بعض الفقهاء في مدرسة ، وكان عند الفقيه المذكور صبي يقرأ عليه ، فأغفله ليلة وسرق الصندوق وخرج به ، فأمسك ،

---

١ التقويم أن تقوم الدار فيؤخذ عن كل دينار درهم . أبو الفداء ، تقويم ٢٤٩ .

٢ التصقيع : أخذ أجرة شهرين من الأملاك في كل سنة .

٣ الجوالي وهي ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة . صبح ٤٦٢/٣ .

٤ كان قطز قبل سفره في عام ١٢٥٩/٦٥٨ لقتال التتار قد فرض التقويم والتصقيع وديناراً على كل مصري في مصر وثلث دينار على الأتراك من غير الجند فأبطله بيبرس فيما بعد . السلوك ٤٣٧/١ .

وأتي به إلى والي القاهرة . وكشف الحال ، فاطلع على ذلك ، فطالع به مولانا السلطان [ب/١١٩] ، فأمر بإحضار الصندوق والفقيه ، وفتح الصندوق ، وسأله مولانا السلطان : « هذا المال لمن » ؟ فصدقه الفقيه ــ وكانت فيه جملة كبيرة ــ فقال مولانا السلطان للفقيه : « خذ هذا المال ، واحفظه لصاحبه ، وفّى الله أمانتك ! » . فتسلمه الفقيه وخرج وهو يدعو .

ومن ذلك أنه أُنهي اليه أن مالاً للصاحب شرف الدين الفائزي مودعاً عند الرشيد حسين بن بصاصه وغيره ، فأمر باحضارهم ، فحضروا والمال بين يدي السلطان ، فقال بعض الحاضرين : « يطلب منهم فائدة [٧/ب] هذا المال في طول هذه المدة » . فبلغني أن مولانا السلطان أخذ من وسط هذا المال شيئاً ، وقرئت تواريخه . وأسماء الملوك في السكك ، فلم يوجد فيها شيء عليه اسم الملك المنصور ، ولا الملك المظفر ، ولا اسم مولانا السلطان . فقال : « هذا مال ما بيع فيه ولا اشتري ، ولا تُصرف فيه . ولو كان كذلك لكانت فيه هذه النقود » . وطلب الرشيد المذكور منه براءة شرعية ، تسلم بها المال المذكور ، وبرأ ذمته منه فيما بعد ؛ فأجابه السلطان إلى بغيته ، وطلب قاضي القضاة والشهود ، وفعل له ما برأ ساحته ، وأحسن عاقبته [ب/١١٩ب] .

حسن معاملته :

مذ ولاه الله الأمر ما زال يخرج أمره إلى النواب بأن لا يؤخذ لأحد شيء إلاّ بثمنه . ولما سافر إلى الشام في سنة تسع وخمسين وستمئة اشترى النواب أصنافاً لمولانا الخليفة ، وللسلطان، بجمل كبيرة [1] ، تولى الأمير عز

[1] أو « كثيرة » لأنها غير منقوطة .

الدين الحلي ، والصاحب بهاء الدين إيفاء أصحابها ثمنها ؛ فما كتب كتاباً في هذه السفرة لهما إلاّ وفيه ايفاء الديون ، وبراءة الذمة .

وحضر في أيام سلطنته من ادعى أنه كان له عنده شيء في حال الأمرة فطلب منهم شهادة ، فلم يحضر أحد شهادة ، فحلفهم ، وأعطاهم ، وأبرأ ذمته .

حسن وفائه :

من جملة ذلك أخذه لثأر أخيه الأمير فارس الدين أقطاي من الملك المظفر ؛ ووفّى [١/٨] ما كان على فارس الدين أقطاي من الديون ، وعمّر له تربة قريب باب القلعة ، ووقف عليها وقفاً يقوم بكلفها .

ومن ذلك إحسانه إلى دور الملك الناصر وأهله ، ودور أخيه الملك الظاهر ، وإلى جميع أبناء الملوك وأتباعهم ؛ فإنهم ؛ وصلوا في الأيام المظفرية ، عندما جرى في الشام ما جرى من العدو ، ومفارقتهم الأوطان والأوطار ، وحلولهم دار الغربة ، وزوال عز السلطنة ، وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، وَنِعمَةٍ كانوا فيها فَاكِهِينَ ﴾[1] . واتفق وصولهم والملك [ب/١٢٠] المظفر مشتغل بالغزو ، فضاعت مصالحهم : فلما صار الأمر إلى السلطان أطلق لهم النفقات والإقامات ، وسيأتي ذكر ذلك مفصلاً في مكانه ، وجبر ولده ، وولد أخيه بالركوب معه في الموكب . وعم إحسانه الدار الكركية ، والدار العادلية ، والأدر القطبية ، والدار الأشرفية ، والدار المسعودية .

١ القرآن الكريم ، الدخان ٢٦ .

ذكر فصل يدل على كلف[1] هذه الدولة ومبارها

ما حط من المظالم[2] عن الرعية : المقرر للنقدية في دولته[3] ألف ألف دينار ، في كل سنة ستمائة[4] ألف دينار وثلاثمائة [[5]] مركب من الغلة .

المنفق في البيوتات السلطانية ، وهي :

الخزائن ، والحوائج[6] خاناه والطبلخاناه[7] ، والسلاح[8] خـاناه ،

١ « كلف دولته من اقطاع النقدية ووجوه البر » شافع ١٢ .

٢ « مما سومح به في دولته مما كن يستأدى ظلماً » شافع ١٢ .

٣ « في كل سنة » ب .

٤ « ما ينفق فيمن استخدم من النقدية في السنة ستمئة ألف ألف دينار وثلاثمائة أردب » شافع ١٢ .

٥ يبدأ هنا نقص في مخطوطة اسطنبول ، كمل من مخطوطة المتحف البريطاني .

٦ أو بيت الحوائج ، لها جهة تحت يد الوزير ، منها يصرف اللحم الراتب للمطبخ السلطاني ، والدور السلطانية ، ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية ، وسائر الجند والمتعممين وغيرهم من أرباب الرواتب وكذلك توابل الطعام للمطبخ السلطاني ، والدور السلطانية ، والزيت للوقود ، والحبوب ، وغير ذلك من الأصناف المتعددة ، ولها مباشرون منفردون بها ، يضبطون أسباب أرباب المستحقات ومقادير استحقاقهم . صبح ٤/١٢ — ١٣ .

٧ الطبلخاناه : ومعناها بيت الطبل ، وتشتمل على طبول متعددة وأبواق وزمر ، وآلات أخرى ، ويحكم عليها أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم ، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب ، وتكون صحبة الطلب في الأسفار والحروب ، ولها مهتار متسلم لحواصلها يعرف بمهتار الطبلخاناه ، وله رجال تحت يده ما بين دبندار ، وهو ضارب الطبل ، ومنفر ، وهو ضارب البوق ، وكوسى ، وهو ضارب الصنوج النحاس بعضها ببعض .

٨ السلاح خاناه : ومعناها بيت السلاح ، وربما قيل الزردخاناه ، لما فيها من الدروع الزرد ، وتشتمل على أنواع السلاح من السيوف والقسي العربية والنشاب والرماح والدروع المتخذة من الزرد الماتع والقرقلات المتخذة من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر وغير ذلك من الأطبار وسائر السلاح . وفي كل سنة يحمل إليها ما يعمل بخزائن السلاح من =

والركبخاناه[1] ، والفرشخاناه[2] ، خمسمائة ألف دينار .

المقرر على بيت المال ، في جامكيات المماليك البحرية ، خارجاً عن النقدية ثلاثمائة ألف دينار وثمانون ألف دينار[3] .

المقرر على الديوان وبيت ماله لنفقات أدر الملوك وأولاد الملوك في السنة أربعون ألف دينار .

المقرر لأرباب الرواتب وجامكيات المستخدمين بالباب والأعمال ، وما ينفق في الفقراء مائة ألف دينار وسبعون [ب/٢٠ ب] ألف وعشرون ديناراً[4] .

وعشرون ألف أردب غلة ، الذي يحتاجه لخاصه ومماليكه ، في كل سنة برسم المخابز وعليق خيله مائة وعشرون ألف أردب .

له كل يوم برسم ملبوسه بدلة واحدة كاملة ، يلبسها ذلك اليوم ويخلعها ، ولا يعود يلبسها ، وينعم بها .

= الأسلحة يجعل على رؤوس الحمالين ، ويزف إلى خزائن السلاح بالقلعة ، ويكون يوماً مشهوداً . وفيها من الصناع المقيمين بها لإصلاح العدد وتجديدها جماعات كثيرة ولها غلمان وفراشون .

١ الركابخاناه : وتشتمل على عدد الخيل من السروج واللجم والكنابيش وعبي المراكيب والعبي الاصطبليات والاجلال والمخالي . صبح ١٢/٤ .

٢ الفراشخاناه : وتشتمل على أنواع الفرش من البسط والخيام ولها مهتار تحت يده جماعة من الغلمان مستكثرة مرصدون للخدمة في السفر والحضر ، يعبر عنهم بالفراشين ، ولهم مهارة في نصب الخيام ، وبإمكان أحدهم نصب الخيمة العظيمة وحده ، ولهم قدرة على شد الأحمال على البغال في المواكب ، يبلغ الحمل خمسة عشر ذراعاً . صبح ١١/٤ .

٣ يذكر شافع انها درهم ١٢ .

٤ « وسبعون ألف درهم » شافع ١٢ .

الذي تقرر برسم الصدقات في شهر رمضان ، إطعام خمسة آلاف[1] نفس ، في كل ليلة .

صدقة السر في دولته ، من أوقافه المرصدة لذلك ، في السنة ما يناهز ستمئة كسوة ، خارجاً عما يطلقه الله على يديه من الكساوى في كل سنة — وهي جملة من القماش ؛ ومن الخبز ألف قنطار ؛ ومن العبيد الذين يعتقهم في شهر رمضان ، وعدتهم ثلاثون عبداً .

ولو حصر ذلك لامتلأت به الأوراق ، وإنما هذه جملة يستدل بها[2] على كثرة المنفق .

ونذكر شيئاً يعلم به كثرة ما ينفق في الحوائج خاناه وغيرها ، إذا كانت عدة الأصناف لا تحصى[3] :

وهو السكر البياض ، برسم الشراب خاناه[4] . والمطابخ ، ألف قنطار لسنة واحدة ؛ ورسم المعاجين وغيرها خمسمئة قنطار لسنة واحدة .

ثمن الزبادى الغضار الحرف خارجاً عن النحاس ، والصيني ، والقاشاني كل سنة [ب/ ١٢١] ألف وخمسمائة دينار .

---

١ في الأصل « خمسة ألف » .
٢ في الأصل « به » .
٣ في الأصل « لا تحسن » .
٤ الشرابخاناه : وتشتمل على أنواع الأشربة المرصدة لخاص السلطان ، والمشروب الخاص من السكر والاقسما وغير ذلك وفيها يكون السكر المخصوص بالمشروب . وبها الأواني النفيسة من الصيني الفاخر من اللازوردي وغيره مما تساوي السكرجة الواحدة الطفيفة منه ألف درهم مما حوله . صبح ٤ / ١٠ .

المنفق في أيامه على الشواني[1] ، والحراريق[2] ، والطرائد[3] ، والسلالير[4] وغيرها . مائة ألف دينار لسنة واحدة .

ومن جملة إحسانه ما أبقاه على الأتابك من الاقطاعات في الشام ومصر ، والعدة ثلاثمائة وخمسون طواشيا .

وقدكان يستكثر إقطاعات فخر الدين عثمان بن قزل ، في الأيام الكاملية ، واستكثر منه أنه حمل مرة إلى الأهراء الكاملية ألف أردب شعيراً ، والذي حُمل من الديوان الأتابكي إلى القلاع السلطانية ، معونة ، ما قيمته خمسمائة ألف درهم وثمانية[5] آلاف درهم ، وهو قمح[6] ثمانمئة واحدى وعشرون غرارة، شعيراً ثلاثمائة وسبعون غرارة ، وجملة من الفول والحبوب والزيت والأغنام في سنة واحدة .

هذا ورأيت الأتابك مستقراً[7] على حاله من الأغنام والشموع ، والأصناف

---

١ الشواني جمع شيني : سفن حربية هامة ، ومن أعمالها حملتها على قبرص وعندما تكسرت سعى بيبرس في تعويض أسطوله عنها بشوان أخرى صنعها من خشب أربعين جميزة كانت في جزيرة الروضة على شاطىء النيل يتنزه تحتها أهل مصر حين وفائه ، وفي زمن الربيع ، ووصفها محي الدين بأنها خيل البحر ، وستور الثغور . حسن المحاضرة ١١/٢٦٦ الروض ١٢/أ .

٢ الحراريق جمع حراقة ، سفن نقل في أوقات السلم وفي وقت الحروب ترمى من فوقها مواد النفط ملتهبة ويمكنها الإقلاع في البحار والأنهار ، كترومير ١/١/١٤٣٧ .

٣ طراريد : مفردها طريدة : سفن لحمل الخيل وتحمل الواحدة عادة أربعين فرساً، كترمير ١/١/١٤ ، وكندرمان ٥٦ .

٤ سلالير : شبيهة بالحراقة : كندرمان ٤١ .

٥ في الأصل « ثمانية ألف » .

٦ في الأصل « ثمانية أحد » .

٧ في الأصل « مستقر » .

وغيرهما مما يحمل اليه في كل يوم ، وكل ذلك من نعمته[1] :

« ألم ترنا نهدي إلى الله ماله — وإن كان عنا ذا غنىً فهو قابله [٨/ب]
كالبحر يمطره السحاب ، وما له — فضل عليه لأنه من مائه »

إقامته لحرمة الشريعة المطهرة

ولي فيها القاضي تاج الدين ، فأحسن فيها السيرة ، وعمر الأوقاف ، [ب / ٢١ ب] وفوّض اليه الأحباس والاوقاف والمساجد .

وكان السلطان قد مات له مملوك من مدة ، ودفن قريباً من تربة الشيخ أبي السعود – رحمه الله تعالى ! – ورأى السلطان احتياج الفقراء إلى الارتفاق بالماء ، فشرع في عمل بئر هناك ، وحفرت إلى أن وصل الحفر إلى الابليز ، ثم اتفق ما ذكر من توجه للسلطان إلى الشام عند قتل الأمير فارس الدين ، فحضر من عمر البئر ؛ وكملها على ما ادعاه ، وهو جمال الدين محمود ، أحد الأجناد ، وحصل منه في بعض الأيام سوء كلام بسبب استعمال البئر ، فانزعجت منه خواطر الفقراء ، فبلغ ذلك السلطان ، وتذكر القصة ، وطلب من تعدّى وعمر البئر ، فحضر محمود المذكور ، وطلب الشرع ؛ فلما كان يوم الثلاثاء تاسع شهر رجب سنة ستين وستمئة حضرت ورقة من النواب في دار العدل ، كُتبت بالإشارة الأتابكية إلى السلطان مضمونها طلب الخصم الشرع ؛ فرسم للأتابك بأخذ قاضي القضاة والحضور إلى دار

---

١ نهاية الجزء المأخوذ من المخطوطة « ب » .

العدل بالقلعة ، فحضروا ، وحضرت جماعة دار العدل وفقهاء المذاهب الأربعة [٩ /أ] وخرج السلطان فقرئت عليه القصص وأمر[١] ونهى [ب/١٢٢] إلى أن حضر الخصم، فقال الأتابك للسلطان: « مولانا يقوم معه إلى الشرع »، فقام السلطان وحل سيفه من وسطه، وأعطاه لسلاح داره[٢] وتساوى مع خصمه بين يدي قاضي القضاة وقوفا ، وهو جالس ، فأمرهما قاضي القضاة بالجلوس ، فجلسا ! وشرح السلطان الحال ، وتكلم الخصم ، وحصل التجاذب ، فثبت في أثناء ذلك الحق للسلطان ، وسأل الأتابك أئمة المذاهب الأربعة ، فذكروا أن الحق للسلطان ، وأن البئر له وأن بعض البناء والعدة للخصم ؛ والتزم السلطان بقيمة ذلك ، وأوقف ذلك لله تعالى ، ورسم أن يعين له أوقاف تقوم بكلفه ،من علوفة وجامكيات ، وأن يكتب اسمه عليه . وأراح خواطر الفقراء من ذلك الأذى الذي أتبعت به تلك الصدقة ، وذلك المن الذي غدت آمالهم به محققة[٣] .

وانفصل المجلس ، فسير السلطان الخلع للأتابك ، لأنه متولي دار العدل ، ومباشر هذه الحكومة ، والمترجم عن السلطان بالعربية[٤] ، وخلع

---

١ في « ب » فأمر .

٢ السلاحدار هو الذي كان يتحدث على السلاحدارية من المماليك السلطانية والسلاحخاناه السلطانية ويناول السلطان آلة الحرب والسلاح في أيام القتال وفي أيام الأعياد وغيرها. صبح ٤/١٨ ، النجوم ٧/٨٢ .

٣ لا يستبعد أن يكون بيبرس قد شجع على هذه المحاكمة ، لتعطي درساً غير مباشر لكبار أمراء الترك الذين في خدمته ، والذين يشعرون انهم بمنزلة بيبرس نفسه ، فلا يعتقدون ، إذا وضع نفسه تحت المحاكمة ، أنهم بمنجى منها .

٤ ما ذكر هنا لا يعني أن بيبرس لا يعرف العربية ، أو لا يستطيع أن يتكلمها ، وإنما قصد أن يعرف كبار أمرائه ، ممن لا يعرف العربية ما كان يدور من مناقشة ، يتساوى فيها بيبرس مع خصمه، ويعلو فيها صوت الحق، ويؤيد هذا ما ذكره ابن واصل عن مقابلة =

على قاضي القضاة ، وعلى غلامه الذي حضر بسبب ذلك ، وعلى الخصم .

ثم حضر من ادّعى في البئر بعد ذلك دعوى أخرى ، فحمل الأمر في بت الحال [ب/ ٢٢ ب] على الشرع الشريف .

ولما شاهد الناس ذلك من السلطان ، وتسامعوا به ، خاف الناس من الحيف ، وصار كل أحد ينصف من نفسه ، ويقول : « إذا كان السلطان حضر إلى الشرع ، كيف [٩ / ب] يمكن الامتناع من الحق ! » وانكف الناس غاية الكف . وهذه سياسة حسنة ، ومكرمة جميلة ، كتب الله له بذلك الأجر ، ومنحه منه ومن خلقه أحسن الذكر .

ذكر إحسانه إلى من خدمه ، وربي في نعمته

من جملة مماليكه الأمير بدر الدين بيليك الخزندار ؛ رباه ، وجرب دينه وأمانته ، فما رأى منه إلاّ خيراً ونصحاً ، فأمّره، وقدمه على عساكره فكفاه أمر تدبيرها ، وأحسن في توزيع الاقطاعات ، واستجلب قلوب الناس ، فزوجه بنت الملك الرحيم ، صاحب الموصل ، وعُقد العقد بغزة في شوال سنة تسع وخمسين وستمئة ؛ وحضر السلطان العقد بالمهر ؛ ولما

= بيبرس مع شرف الدين ، شيخ الشيوخ ، رسول الملك المنصور إليه : «وأول خطابه (بيبرس) كان بترجمة فارس الدين الأتابك ، ثم تحدث معه بغير ترجمان ، فقال الملك الظاهر (بيبرس) لشيخ الشيوخ : ما حدثتك بترجمان إلا لأطلع الأمراء الحاضرين على أن في نفسي من هذا الأمر ، بحيث لا يحصل طمع » . مفرج (مخطوطة ١٧٠٢ المكتبة الأهلية بباريس) ورقة ٤١١ .

وصل إلى الشام في هذه السنة ملكه حصن الصبيبة وبانياس [1] وأعمالها تمليكاً صحيحاً ، وأقطعه زيادة خمسين فارساً في الشام ، وسلم ذلك إلى نوابه ، ولما وصل إلى مصر عمل عرسه .

ذكر من وصل إليه في سنة ستين وستمئة

وصل السيد أبو العباس أحمد ، نجل [ب/ ١٢٣] الخلفاء الراشدين ، قريب مولانا الخليفة ، فتلقاه السلطان بنفسه ، وأنزله في القلعة ، في المكان الذي كان الإمام المستنصر بالله قد نزل به ، وأطلق له الرواتب وسير اليه ما [١/١٠] يحتاجه من الآدر .

ووصل إلى أبوابه الأمير سيف الدين ميكلان بن مجلي، صاحب حول [2] مرك وأولاده ؛ فأحسن إليهم، وكتب له منشوراً بأربل [3]، وأعطاه الطبلخاناه، وجعل له حاشية كحاشية ملك [4] .

ووصل إلى أبوابه ملوك التكرور [5] حجاجاً ، فأحسن اليهم ، وكتب

١ بانياس : اسم لبلدة صغيرة ذات أشجار محمضات وغيرها وأنهار ، وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب . تقويم البلدان ٢٤٩ .

٢ كذا في الأصل .

٣ قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء واسع بسيط ولقلعتها خندق عميق وهي في طرف من المدينة، وهي على تل عال من التراب عظيم واسع الرأس ، وهي شبيهة بقلعة حلب إلا أنها أكبر وأوسع رقعة وهي بين الزابين وتعد من أعمال الموصل وبينها مسيرة يومين. ياقوت ١/١٧٢ .

٤ في ب « وجعل له حاشية ملك » .

٥ التكرور : تقع بلاد التكرور في افريقيا شرقي ما يسمى حينئذ كوكو وغربي كانم التي =

إلى ملكهم الكبير بمدينة كانم ، يذكر انه مهتم بمن يرد من جهته من الحجاج .

ومن جملة من شمله الإحسان الأمير شهاب الدين أبو بكر بن الشايب جهزه إلى الشرق . فوردت كتبه في شعبان سنة ستين انه استولى على الجزيرة ، وحلف من بها للسلطان ، وهو متصرف فيها .

ووصل الأمير جلال الدين الكلالي ، صاحب أربل ، فأحسن إليه ؛ ووصل إلى خدمته الأمير شرف الدين بن مهنا ، والأمير نور الدين زامل بن علي ، فأحسن إليهم .

ووصل كتاب الأشكرى[1] ، وهو يقسم : « انه متى احتاجت سلطنة الملك الظاهر إلى مساعدة ، ساعدت بكل ما تقدر سلطنتي عليه » . وسيّر السلطان هدية إلى الانبرور ، من جملتها الزراف ، وجماعة من التتار الأسارى . بخيولهم التترية وعدتهم .

وكتب إلى بركه ، كبير ملوك التتار ، كتاباً ، كتبته عنه ، يغريه[2] بهلاؤن ، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء [ب/ ٢٣ ب] ، ويقيم الدليل عليه أنه يجب عليه جهاد التتار ، لأنه تواترت الأخبار باسلامه . ويترتب على ذلك جهاد الكفار ، ولو كانوا أهله ، فإن النبي — صلى الله عليه [١٠/ ب] وسلم ! —

= غربي بلاد النوبة . وقد زحف عليهم في وقت من الأوقات أهل مالي واستولوا على بلادهم ويقال انهم أسلموا في أوائل القرن الخامس الهجري وحج ملكهم في زمن بيبرس واسمه منسالي بن مارس جاطه . ياقوت ٣٩٩/٢ . صبح ٢٨٦/٥ ، ابن خلدون ٤٣٣/٥ .

١ الأشكري أو اليشكري تحريف للاسم لسكريس وهو اسم الحاكم السابق الشمال الغربي لآسيا الصغرى وقد دأب مؤلف السيرة على إطلاقه على مخائيل باليولوقس الثامن إمبراطور بيزنطا في زمن بيبرس . مفضل ٤٥٦/١ حاشية .

٢ في ب « يعزيه » .

قاتل عشيرته الأقربين ، وجاهد قريشاً ، وأمر أن يقاتل الناس حتى يقولوا : « لا إله إلاّ الله » ، وليس الإسلام قولاً باللسان والجهاد أحد ما له من الأركان، « وقد توالت الأخبار بأن هلاون لأجل زوجته ، وكونها نصرانية ، أقام دين الصليب ، وقدم مراعاة دين زوجته على دينك ، وأسكن الجاثليق الكافر مواطن الخلفاء ايثاراً لزوجته عليك » . وفي هذا الكتاب اغراء كثير ؛ ووصف ما السلطان عليه من الجهاد ، وبعث الكتاب صحبة من يثق به من تجار العلاّن [1] .

ذكر ما جدد في أيامه من العمائر المباركة

عمارة الحرم الشريف النبوي :

اهتم بعمارته ، وجهز الأموال والأصناف صحبة عَلَم الدين الغوري .

ووصلت الكتب في سنة تسع وخمسين بأن القبة التي بالصخرة الشريفة قد تداعت أركانها ، وكاد ينهدم بنيانها ، فجهزت لها الصناع والآلات من دمشق ، ووصلت الكتب في سنة ستين بأنه نجز بناؤها .

وقف الخليل – عليه [ب/ ١٢٤] الصلاة والسلام ! –

كانت عدة ضياع من أوقاف الخليل – عليه الصلاة والسلام ! – قد

١ العلان أو اللان : « بلاد واسعة في طرف ارمينية قرب باب الأبواب مجاورين للخزر ، والعامة يغلطون فيهم فيقولون علان وهم نصارى تجلب منهم عبيد أجلاد » ياقوت ٣١٦/٧ ، ابن خلدون ٣٦٩/٣ .

دخلت في الأقطاع ، فأمر بارتجاعها ، وعوض الأمراء عنها ؛ ثم وقف وحبس القرية المعروفة بإذنا عليه وقفاً صحيحاً شرعياً [١/١١] وأثبته عند الحكام ، وسير نسخ كتاب الوقف لتكون نسخة عند شيخ المقام ، ونسخة في مودع الحكم العزيز بدمشق .

المدرسة السعيدة بين القصرين :

كان الابتداء بعمارتها في ثامن شهر ربيع الآخر سنة ستين ، وتنجز بابها ودهليزها وايوانها وكتاب السبيل في أواخر شعبان من السنة المذكورة ؛ ولم يشرع في بنائها حتى رتّب أمور أوقافها ، وكتب إلى الأمير جمال الدين ابن يغمور بأن لا يستعمل فيها أحداً إلاّ بأجرته .

ذكر بناء حصن الجزيرة :

كان السلطان الشهيد الملك الصالح قد اختارها ، وانفق فيها الأموال ، وجاءت من أحصن الحصون ، فهدمها الملك المعز لا لغرض ، ولا لمصلحة ، وأباح رخامها ، وأصنافها للناس ؛ فرسم السلطان للأمير جمال الدين بن يغمور بالشروع في عمارتها ، فأصلح قاعاتها المستهدمة ، ورتب فيها الجاندارية ، وأعادها إلى ما كانت عليه من الحرمة ، وفُرّقت الأبراج على الأمراء ، ورسم أن يكون برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاون الألفي ، وثانيه للأمير [ب / ٢٤ ب] عز الدين الحلّي ، والأمير عز الدين أوغان[١] البرج الثالث ، والأمير بدر الدين بيسري الشمسي برج الزاوية الغربي ، والأمراء برجا برجا ، وتكون اصطبلاتهم والبيوتات فيها ، وتسلم المفاتيح لهم .

---

١ « ايغان » النهاية مخطوطة ٢٩/٤ .

عمارة القناطر بجسر شبرمنت :

جسر شبرمنت أكثر ما كانت الجيزية تشرق منه [١١/ ب] ، فبنى قناطر في هذا الجسر ، تلتقي صدمة الماء الأولى[١] ، ويفتح عند تصريف الماء .

ذكر عمارة مشهد النصر بعين جالوت :

لما جرى ما يسره الله من النصر على التتار بعين جالوت ، وكان ذلك الموضع شريفاً ، وقد ذكره الله في كتابه العزيز في قصة طالوت وجالوت[٢] . ورأى السلطان شرف هذه البقعة ، وأن الله ادخر هذا الفتح العزيز لها ، رغب في ابتناء مشهد هناك ، يُعلم به قدر منحة الله ، وما سفك بذلك المكان من دماء الأعداء ، وكتب بذلك إلى النواب بالشام .

حث على عمارة أسوار الاسكندرية ، وحفر خنادقها ، واصلاح الواهي منها ، ورتب جملة لذلك تنفق [فيه][٣] في كل شهر .

وبنى لثغر رشيد مرقباً لكشف مراكب العدو المخذول .

رسم بعمل فم بحر دمياط ، وردمه بالقرابيص ، ورتب جماعة الحجارين لتضييقه [ب/ ١٢٥] ليمنع السفن العظيمة من الدخول فيه .

بلغه أن بحر أشموم ربى البحر فيه طيناً عظيماً حتى صار خوضاً، فنفذ[٤] الأمير سيف الدين الرشيدي لمباشرة هذه المصلحة العامة ، التي عادة الملوك

---

١ « الأول » النهاية مخطوطة ٢٩/٤ .

٢ القرآن الكريم ٢/٢٤٧ ، ٢٤٩ — ٢٥١ .

٣ من ب .

٤ من ب .

يباشرونها ، فتوجه الأمير المذكور . وحضر الولاة إلى خدمته . وحفر ما يجب حفره . وغرّق المراكب ، ورد الماء اليه .

وأمر هذا البحر من أكبر المهمات ؛ وذلك لأنه لما وردت الفرنج في سنة خمس عشرة ، وفي سنة سبع وأربعين وستمائة ما انتفع المسلمون [١٢ / ا] بشيء كانتفاعهم بهذا البحر ، وهو بمشيئة الله أحد أسباب النصر [1] .

الاهتمام بالشواني المنصورة :

لما رد الله الملك إلى السلطان وجد من كان قبله قد أهمل أمور الشواني ، وهي خيل البحر ، وستور الثغور ، وما برحت الملوك تهتم بهذا الأمر ، وتقطع رجالها الاقطاعات ؛ فوجد الأمراء قد أخذوا جماعة من رجالها في الحراريق وغيرها ، فأعادها إلى ما كانت عليه في الأيام الكاملية ، والصالحية ، واحترز على الحراج [2] ، ومنع من التصرف في أعواد العمل ، وأمر بعمارة شواني للثغرين ، ونزل بنفسه إلى الصناعة ، ورتب ما يجب ترتيبه في مصالح الشواني ، وأحضر شواني الثغور إلى مصر ، وكانت فوق [٢٥/ب] الأربعين قطعة ، وعدة كثيرة من الحراريق ، والطرايد ، والسلالير .

وفي يوم الأحد تاسع عشر شهر رجب سنة تسع وخمسين ركب الخليفة ومولانا السلطان من القلعة ، ونزلا جميعاً إلى مصر ، ثم ركبا الحراريق وتفرجا ، وطلعا إلى قلعة الجزيرة ، وجلسا بمقعد البانياسي ولعبت الشواني ، ثم عاد إلى القلعة .

---

١ « النصر » ب .

٢ « خراج » المواعظ ٢/١١٠ .

عمائر القلاع المحروسة :

كان التتار [١٢/ ب] – خذلهم الله تعالى ! – لما استولوا على الشام شرعوا في تخريب الحصون والأسوار ، فهدموا أسوار قلعة دمشق ، وقلعة الصلت [١] ، وقلعة عجاون [٢] ، وقلعة صرخد [٣] ، وقلعة بصرى ، وقلعة بعلبك ، وقلعة الصبيبة ، وقلعة شيزر [٤] ، وقلعة شميميس فلما تولى السلطان ، وأقامه الله ركناً للدين ، اهتم بعمارة هذه الحصون ، وتكميل بنائها المتهدم [٥] ، لأنها معاقل الإسلام ، فبنيت جميعها في أيامه ، ونظفت خنادقها ، ووسّعت بدناتها ، وحملت اليها العدد ، وجُرِّد اليها المماليك والأجناد .

ذكر عناية الله به في ظفره بكل من ينوي له سوءاً

مذ ملكه الله الملك ما نوى له أحد سوءاً إلاّ أطلعه الله عليه ، وسبب ذلك العدل الذي تطول [ب/١٢٦] به المدد، وتدوم الدول ، ويمكن الله

---

١ الصلت بليدة وقلعة من جند الأردن وهي في جبل الغور الشرقي جنوبي عجلون على مرحلة منها ، هي تقابل أريحا مشرفة على الغور . تقويم ٢٤٥ .

٢ عجلون : وهي على صغرها حصن حصين مبنية على جبل عوف بناها أسامة بن منقذ أحد أمراء صلاح الدين في سلطنة العادل أبي بكر وانه كان مكانها راهب اسمه عجلون فسميت به. صبح ١٢/١٠٥ .

٣ صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة. ياقوت ٥/٣٤٩ .

٤ شيزر : قلعة تشتمل على كورة بالشام بالقرب من المعرة بينها وبين حماة يوم في وسطها نهر الأردن عليه قنطرة في وسط المدينة ، تعد في كورة حمص وهي قديمة. ياقوت ٥/٣٢٤.

٥ في الأصل « المهتدم » .

من الأعداء ، ومن خالف الله تعالى بعصيان ولي الأمر ، فيعفو تارة ثم ينتقم تارة ، ثم يعفو ويطلق ، ويتناسى ما جرى حتى كأنه لم يكن .

ومن جملة ذلك أن الملك المظفر كان ولّى نيابة السلطنة بالشام للأمير علم الدين الحلبي الصالحي النجمي — رحمه الله تعالى ! — فلما جرى للملك المظفر ما قدره الله ، كتم الأمير علم الدين الصورة ، ولم يعلمهم بأن الملك قد [١٣/ أ] صار لمن هو به أحق، واستحاف الناس لنفسه ، وتسمى بالملك المجاهد ، وركب بشعار السلطنة ، وبلغ السلطان ذلك فكتب اليه يقبح عليه هذا الأمر ، فوردت أجوبته يغالط فيها ، وسير اليه جمال الدين المحمدي يستميله ، ويسترده عن تعاطي ما لا يتم له ، وسيّر اليه صحبته مائة ألف وعشرين ألف درهم نقرة، وحوائص، وخلعاً، وملابس بألفي دينار عيناً . ثم انه رأى اختلاف الناس عليه ، فجلس مجلساً عاماً ، فيه الناس ، وأشهدهم أنه قد نزل عن الأمر الذي كان استحلف الناس عليه ، وأنه من جملة النواب ؛ ثم رجع عن ذلك الرأي وركب بشعار السلطنة ، على ما كان أولاً ، فخرج الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار [1] إلى ظاهر المدينة، ونادى [ب/ ٢٦ ب] باسم السلطان ، وتبعه جماعة ، وساق إلى جهة السواد ، وسيّر [2] جماعة لقتالهم ، فانهزم أصحاب الحلبي ، ثم رأى اتفاق الناس عليه فخرج من

---

١ البندق : مفرده بندقة يقال انها فارسية ، وان كان الجوهري لم يشر إلى ذلك في الصحاح ، وقال : البندق الذي يرمى به ، ثم هو منقول عن البندق الذي يؤكل وهو الجلوز . وقال أبو حنيفة في كتاب النبات : الجلوز عربي وهو البندق ، والبندق فارسي ، والبندقدار هو الذي يحمل جراوة البندق خلف السلطان أو الأمير . وقد جرت العادة أنه إذا كان الحاكم له عناية برمي البندق أقام لرماته حاكماً من الأمراء الذين لهم عناية برميه. صبح ٥/٤٥٨ ، ٢٦٩/١٢ .

٢ «وندب الحلبي» النهاية ٨ .

دمشق هارباً ، وقصد قلعة بعلبك ، وبلغ الخبر للأمير علاء الدين فساق إلى أن دخل دمشق ، وحلف الناس للسلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس .

ولما بلغه أن الأمير علم الدين الحلبي في بعلبك ، سير اليه من أحضره تحت الحوطة ، وبلغ السلطان الخبر ، فجدد المناشير للناس جميعهم ، وقرر السلطان حديث الأموال والقلعة للأمير علاء الدين طيبرس الحاج الوزيري ، وتقدم بحضور الأمير علم الدين الحلبي ، [١٣ / ب] ولم يؤاخذ السلطان أحداً بما جرى في الأيام الماضية ، ولا عاتب كبيراً ولا صغيراً ، وكاتب أمراء العربان ، وطيب قلوبهم .

ورتب البريد في جميع الطرقات حتى صار الخبر يصل إلى دمشق في أربعة أيام ، ويعود في أربعة أيام ، ولا تبطيء أجوبة الكتب أكثر من كتابتها بدمشق ومصر . وهذه همة عالية ، فإنه يرتب بذلك أمور الشام والقلاع ، وأكثر ممالكه ، في كل جمعة مرة أو مرتين ، ويُقطع ويَقطَع ، ويولي ويعزل في جميع الشام وحلب ، وهو في مصر ولا تخفى عليه أخبار الشام والساحل وحلب، وغير ذلك [ب/ ١٢٧] من بلاد الفرنجية . ولعل الملوك الذين مضوا كان أحدهم يقيم القاصد في بابه مدة لا يجد من يأخذ كتابه ، وإذا أُخذ ، يقيم مدة حتى يُكتب ومدة حتى يعلم عليه ، ويُسيَّر ؛ وفي أثناء هذا تضيع مهمات . وإذا وردت الكتب على الملك الظاهر تقرأ عليه جميعها ، ولو حُسب ما أنفق في دولته على البريد كان خزانة ملك . وهذه أمنية كان[1] الخلفاء تتمناها ؛ قال بعضهم : « تمنيت بريداً صادقاً سريعاً ، لا يخفيني شيئاً من المتجددات ، ولا تنطوي[2] عني حالة من الحالات » .

---

١ كذا في الأصل بدلا من كانت .

٢ لعلها « ولا يطوي » .

ولما وصل الأمير علم الدين الحلبي مقيداً ، سيّر السلطان الأمير بدر الدين الشمسي بيسرى[1] الصالحي تلقاه ، ودخل من باب القرافة ، ولم يعلم به أحد ، واعتقل بالقلعة، ثم انه في بعض الأيام طلبه ، وأفرج عنه ؛ وصار السلطان [١٤/أ] يعطيه الخلع بعد الخلع ، ولم يزل كذلك حتى سيره إلى حلب – على ما سيذكر[2] .

ورتب دار العدل بدمشق لانصاف الضعيف من القوي، وجهز الغلال إلى الشام للتقاوى ، واهتم بعمارة القلاع ، وارسال الذخائر [اليها][3] .

ذكر أحوال حلب في الأيام الظاهرية

وأما حلب ، فإن الملك المظفر – رحمه الله ! – كان ولى فيها الملك المظفر علاء الدين ابن صاحب الموصل ، وسماه بالملك السعيد ، لاشتراكه [ب /٢٧ ب] معه في الاسم، وتوجه اليها ، فحصلت منه أمور انكرت عليه . وكان الملك المظفر سيف الدين قطز قد اقطع جماعة من العزيزية والناصرية في حلب وبلادها ، فلما بلغتهم وفاة الملك المظفر حسدوه على المنصب ، واجتمعوا عليه ، وقبضوه ، وقدموا عليهم الأمير حسام الدين الجوكندار[4] العزيزي ، خوشداشهم فكتب السلطان له تقليداً بالمملكة الحلبية .

---

١ في ب « بيسرى الشمسي » .

٢ راجع الورقة الآتية ١٤ ب (ص ٩٧).

٣ من ب .

٤ الجوكندار : مركب من كلمتين إحداهما جوكان وهو المحجن أو الصولجان الذي تضرب به الكرة . والجوكاندار هو الذي يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة . صبح ٥/٤٥٨ .

ولما بلغ التتار ذلك تجمعوا من كل جهة ، وحصل الاختلاف بين العزيزية والناصرية ، وساروا واجتمعوا بصاحب حماه وحمص ، وكانت الوقعة العظيمة التي أهلكت شجعان التتار ، وهي وقعة حمص ، التي بددت جمعهم العظيم ، وقتل فيها أكابرهم على يد الملك الأشرف والملك المنصور [١٤/ ب] ، وجماعة العزيزية والناصرية . ووقفتُ على كتاب ورد إلى السلطان باسماء التتار الذين كانوا تجمعوا ، وهم : عليجق وقجر ، كلغانوس ، وبلاغا ، وفوارغا ، وعلل الد اللكتي[1] . وقتلت في هذه الوقعة أبطالهم ، وكماتهم ، وحماتهم ، وانهزموا والنصر ينشدهم :

« فإن كان أعجبكم عـامكم فعودوا إلى حمص في قابل
فإن الحسام الصقيل الذي قتلتم به في يد القاتل » [ب/ ١٢٨]

واختلف العزيزية والناصرية ، فحضروا إلى الساحل ، فأعطى السلطان بعضهم اقطاعات ، وحضر الباقون إلى مصر .

وكان الأمير شمس الدين أقوش البرلي مقطعاً مدينة نابلس ، من الأيام المظفرية ، وزاده السلطان بيسان ، وأعطى مملوكه قجقار جماعة ، وتوجه إلى دمشق ، فحصلت أسباب أوجبت إمساك الأمير بهاء الدين بغدى الأشرفي ، فخرج الأمير شمس الدين أقوش البرلي[2] هو وجماعة من الأشرفية والعزيزية والناصرية ، ونزلوا بالمرج ، وتوجهوا إلى حلب .

وكان السلطان قد ولى الأمير علم الدين الحلبي المذكور نيابة السلطنة بحلب ، قبل حدوث هذه الواقعة ، وأمّر جماعة وهم : الأمير شرف الدين

---

١ غير واضحة المعنى .
٢ خرج غاضباً كما يقول النويري . النهاية ٩ .

قيران الفخري ، وجُعل استادار[1] ، والأمير بدر الدين جماق ، وجُعل أميرجاندار ، وعلاء الدين أيدكين الشهابي ، وجُعل مستد[2] الدواوين[3] . فجهز الأمير علم الدين [١٥/أ] وسافر كما يسافر الملوك .

ولما بلغ السلطان حديث البرلي ، كان قد جرد عسكراً قدم عليه الأمير فخر الدين الحمصي ، وأمره بالتوجه إلى الشام ، وعسكرا وقدم عليهم الأمير جمال الدين المحمدي للتوجه لمضايقة الكرك . وفي السابع عشر من شعبان سنة تسع وخمسين ، وردت مكاتبة الأمير علم الدين الحلبي يذكر [ب / ٢٨ ب] انه ساق جريدة، ودخل حلب ، الرابعة من نهار السبت ثالث شعبان ، ودخلت بقية الحلقة والأمراء الشاميين والمصريين في يوم الأحد . وحضر جماعة من العزيزية والناصرية يطلبون الأمانات[4] .

وكتب السلطان منشور الأمرة على جميع العربان للأمير شرف الدين عيسى ابن مهنا ، وأطلق السلطان للعربان الغلات من بلد حلب .

واتفق أن جماعة من العسكر ساقوا خلف العزيزية والناصرية ، ولم يصبروا لمن خلفهم ، فحصل لهم طمع ، وبعد ذلك غلت الأسعار ، حتى

---

١ أو أستاذ دار الصحبة : وهو لقب لمتولي أمر مطبخ السلطان وسمي به لملازمته بابه سفراً وحضراً ، ويشرف على الشراب والطعام ، ويمشي أمام السلطان ويحكم في غلمانه وباب داره ، ويقف على السماط ، وله تصرف مطلق في طلب ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى . وجرت العادة أن يكونوا أربعة أحدهم مقدم ألف . صبح ٤/٢٠ – ٢١ ، ٥/٤٥٧ .

٢ شاد : النهاية ٩ .

٣ مشد الدواوين : وهو رفيق للوزير متحدث في استخلاص الأموال ، وما في معنى ذلك وعادة ما يكون أمير عشرة . صبح ٤/٢٢ .

٤ لعلها « الأمان » .

عدمت الأقوات ، فتوجه العسكر إلى دمشق ، وبقي الأمير علم الدين ، فحدثت أمور أوجبت انفصاله عن حلب .

ذكر حضور مولانا الخليفة إلى الديار المصرية ،
وأخذ البيعة له ، وما جرى له في العشر الآخر [1]
من جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وستمائة

ورد كتاب الأمير علاء الدين البندقدار [١٥/ ب]، والأمير علاء الدين طيبرس ، مضمونه أنه وصل إلى جهة دمشق ، في أوّل الغوطة ، رجل ادعى أنه أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر ، ومعه جماعة من عرب خفاجة في قريب الخمسين فارساً [2] ، وأن الأمير سيف الدين قليج البغدادي عرف أمراء العرب المذكورين [ب/٢٩ ا] وقال « بهؤلاء يحصل القصد من العراق » . فكتب السلطان بخدمته ، وتعظيم حرمته ، وأن يُسيّر صحبته حجاب ؛ فوصل يوم الخميس تاسع رجب سنة تسع وخمسين وستمائة . وخرج السلطان للقائه ، وجميع أهل المدينتين ، وسائر الخلق ؛ وكان يوماً مشهوداً ، وشق المدينة ، وهو لابس شعار بني العباس ، وطلع القلعة راكباً ، ونزل في المكان الذي أخلي له ، وهو مكان حسن [3] الاشراف .

وفي يوم الاثنين ، ثالث عشر رجب ، أحضر السلطان الفقهاء والأئمة

---

١ صحتها الأواخر .
٢ في الأصل « فارس » .
٣ في ب « حسن للإشراف » .

العلماء ، والأمراء ، والصوفية ، والتجار ، وجميع الناس بقاعة العمد ، وحضر الشيخ عز الدين عبد السلام ، وحضر الخليفة — رضي الله عنه ! — والسلطان ، وتأدب السلطان معه في الجلوس ، فلم يفرش له طراحة ، ولم يحط له كرسي ولا منبر ، وسئل العربان الذين معه ، وخادم من البغاددة ، فأخبروا أنه الإمام المذكور ، فشهدت [1] جماعة الاستفاضة — وهم : القاضي جمال الدين يحيى ، نائب الحكم العزيز بمصر المحروسة ، والفقيه علم الدين بن رشيق ، والقاضي صدر الدين [١٦/ا] موهوب الجزري [2]، ونجيب الدين الحراني ، وسديد الدين التزمنّتي ، نائب الحكم بالقاهرة — أنه الإمام أحمد بن الإمام بن الظاهر بن الإمام الناصر ، وشهدوا عند قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب [ب/ ٢٩ ب] بن الأعز خلف بذلك، فأسجل على نفسه بالثبوت ؛ وقام [3] قاضي القضاة في ذلك المحفل قائماً على قدميه ، واشهد على نفسه بالثبوت بحضور السلطان ؛ وسمي بالإمام المستنصر بالله ، اسم أخيه — رحمه الله تعالى ! — وبايعه مولانا السلطان على كتاب الله ، وسنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم ! — وعلى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها ، وصرفها في مستحقها . وبعد ذلك قلد مولانا الخليفة مولانا السلطان البلاد الإسلامية ، وما سيفتحه من أيدي الكفار — على ما سيذكر في التقليد الشريف ؛ ثم بايعه الناس على اختلاف طبقاتهم . وكتب السلطان إلى البلاد بأخذ البيعة [له] [4] ، وأن يخطب

---

١ في ب « فعند ذلك شهدت » .

٢ في ب « الحرري » .

٣ في ب « فقام » .

٤ من ب .

باسمه على المنابر ، وتنقش الصلة[1] باسمه[2] .

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب المذكور ، خطب الخليفة بالناس ، في جامع القلعة ، واهتم السلطان بذلك ، ونثرت جمل من الذهب والفضة ، وحصل له توقف في الخطبة .

وفي يوم الاثنين رابع شعبان ، ركب السلطان إلى خيمة ضربت في البستان الكبير ، وسائر الناس في خدمته، وحُملت الخلع [١٦/ ب] صحبة الأمير مظهر الدين وشاح الخفاجي ، وخادم الخليفة . ودخل السلطان [ب/ ١٣٠] إلىخيمة أخرى ، ولبس وخرج ، وهو كالبدر إذا طلع في الليلة الظلماء ، وعليه عمامة سوداء مذهبة مزركشة ، ودراعة بنفسجية ، وطوق ، وعدة[3] ، وسيوف تقلد منها [واحدا] وحُملت [البقية][4] خلفه ؛ ولواءان ، وسهمان كبيران[5] ، وترس[6] ، وغير ذلك مما جرت العادة به . وقدم[7] له فرس أشهب ، في رقبته مشدة سوداء ، وعليه كنبوش أسود وطلب الأمراء واحداً واحداً وخلع عليهم ، وكذلك قاضي القضاة تاج الدين ، والصاحب بهاء الدين ، وصاحب ديوان الإنشاء فخر الدين بن لقمان ، منشئ التقليد الشريف ، وطلع على المنبر الشريف ، المجلل بالأطلس الأصفر ، وقرأه على الناس كافة ، ونسخته :

---

١ « السكة » شافع ١٥ .

٢ « باسمهما » السلوك ١/٤٥٠ .

٣ في ب « عدة سيوف تقلد » .

٤ السلوك ١/٤٥٢ .

٥ في الأصل « كباراً » .

٦ في الأصل « وترساً » .

٧ في ب « فقدم » .

« الحمد لله الذي اصطفى[1] الإسلام بملابس الشرف ، وأظهر بهجة درره ، وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف[2] ، وشيد ما وهى من علائه ، حتى أنسى ذكر ما سلف ، وقيض لنصره ملوكاً اتفق على طاعتهم[3] من اختلف .

أحمده على نعمه التي رتعت[4] الأعين منها في الروض الأنف ، وألطافه التي وقف[5] الشكر عليها فليس له عنها منصرف . وأشهد أن لا إله إلاّ الله ، وحده لا شريك له ، شهادة توجب من المخاوف أمنا ، وتسهل من الأمور [ب/ ٣٠ ب] ما كان حزنا . وأشهد أن محمداً عبده[6] الذي جبر من الدين وهنا ، [١٧/أ] ورسوله الذي أظهر من المكارم فنوناً لا فنا . — صلى الله عليه وعلى آله الذين أضحت مناقبهم باقية لا تفنى ، وأصحابه الذين أحسنوا[7] في الدين[8] ، فاستحقوا الزيادة من الحسنى ، [وسلم تسليماً كثيراً][9] .

وبعد : فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره ، وأحقهم أن يصبح القلم راكعاً وساجداً في تسطير[10] مناقبه وبره ، من سعى فأضحى بسعيه[11] الحميد متقدماً ،

---

١ السلوك ٤٥٣/١ . في الأصل « اصطفى ملابس » ، في النهاية ٥ « أصفى على الإسلام ملابس » .

٢ « من صدف من عن الحق صدف » شافع ١٦ .

٣ « اتفق عليهم » النهاية ٦ .

٤ « تسرح عليهم » النهاية ٦ .

٥ كذا في النهاية ٦ ، وفي السلوك ٤٥٣/١ أما في الأصل فهي « وقفت » .

٦ « عبده ورسوله » في النهاية ٦ .

٧ « الذين صحبوه » في النهاية ٦ .

٨ كذا في النهاية أيضاً ، أما في السلوك فهي « الدنيا » .

٩ من النهاية ٦ .

١٠ كتبت كلمة « تسطير » على الهامش ، وأشير إلى مكانها من الصفحة .

١١ « سعيه الجميل » النهاية ٦ .

ودعا [1] إلى طاعته فأجاب من كان منجداً ومتهماً ، وما بدت يد من [2] المكرمات إلاّ كان لها زنداً ومعصماً ، ولا استباح حمى وغى إلاّ أضرمه ناراً وأجراه دما.

ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني — شرفه الله واعلاه ! — ذكره [3] الديوان العزيز النبوي الإمامي المستنصري — أعز الله سلطانه ! — تنويهاً بشرف [4] قدره واعترافاً بصنعه الذي تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره ، وكيف لا ؟ وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهبت [5] ما كان لها من محاسن وإحسان ؛ وأعتب [6] دهرها المسيء لها فأعتب ، وأرضى عنها زمنها [7] وقد كان صال عليها [ب/ ١٣١] صولة مغضب ، فأعاده لها سلماً بعد أن كان عليها حرباً ، وصرف اليها [8] اهتمامه فرجع كل متضايق [9] من أمورها رحباً ؛ ومنح أمير المؤمنين [10] عند القدوم عليه حنواً وعطفاً، وأظهر من الولاء رغبة في ثواب الله ما لا يخفى ؛ وأبدى من الاهتمام [11] بأمر

---

١ في الأصل « دعى » .

٢ « في المكرمات » شافع ١٦ .

٣ ذكر في الديوان شافع ١٧ . في النهاية ٦ « ذكرها » .

٤ « بشريف » شافع ١٧ .

٥ كذا في النهاية ٦ وفي السلوك ١/٤٥٤ أما في الأصل فهي « أذهب » .

٦ « عتب » في النهاية ٦ ، وفي صبح « استعتب » ١٠/١١٢ .

٧ « زمانها » في ب .

٨ « لها » النهاية ٦ .

٩ « مضيق » النهاية ٦ .

١٠ يبدأ من هنا بعض النقص في مخطوطة اسطنبول واعتمد في تكملة النقص على مخطوطة المتحف البريطاني . انظر ٣٣/أ وص ١٠٨ الآتية .

١١ « الاحتفال » النهاية ٦ .

[الشريعة[1] و] البيعة أمراً لو رامه غيره لامتنع عليه ولو تمسك بحبله متمسك لانقطع به قبل الوصول اليه ؛ لكن الله ادخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه ، ويخفف بها يوم القيامة حسابه — والسعيد من خُفف حسابه ؛ فهذه منقبة أبى الله إلاّ أن يخلدها في صحيفة[2] صنعه ، ومكرمة قضت لهذا البيت الشريف بجمعه[3] ، بعد أن حصل الاياس من جمعه .

وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعترف[4] أنه لولا اهتمامك [بأمره][5] لاتسع الخرق على الراقع ؛ وقد قلدك الديار المصرية ، والبلاد والديار بكرية[6] والحجازية ، واليمنية ، والفراتية ؛ وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً ، وفوض أمر جندها ورعاياها اليك ، حين أصبحت بالمكارم فرداً ، وما جعل[7] منها بلداً من البلاد ، ولا حصناً من الحصون مستثنى[8] ، ولا جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى [ب/ ٣١ ب] .

فَلاحِظْ أمور الأمة ، فقد أصبحت لها[9] حاملاً ، وخلّص نفسك من التبعات اليوم ، ففي غد تكون مسؤولاً لا سائلاً ، ودع الاغترار بأمر الدنيا فما نال أحد منها طائلاً وما رآها[10] أحد بعين الحق إلاّ رآها خيالاً زائلا ؛

---

١ السلوك ١/٤٥٤ .
٢ « صحف » النهاية ٦ .
٣ « يجمع شمله » النهاية ٦ .
٤ النهاية ٦ وفي شافع ١٧ أما في المخطوطة فهي « ويعرف » .
٥ النهاية ٦ .
٦ « والديار الجزيرية والبكرية » النهاية ٦ .
٧ كذا في النهاية ، أما في المخطوطة فهي « ولا جعل » وفي صبح « ولم يجعل » ١٠/١١٣ .
٨ « يستثنى » السلوك ١/٤٥٥ .
٩ « لثقلها » النهاية ٦ .
١٠ « لحظها » النهاية ٦ .

فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة ، وقدم لنفسه زاد التقوى فتقدمة[1] غير التقوى مردودة لا مقبولة ، وابسط يدك بالإحسان والعدل ، فقد أمر[2] الله بالعدل والإحسان[3] ، [وكرر ذكره][4] في مواضع من القرآن ؛ وكفر به عن المرء ذنوباً كتبت[5] عليه وآثاماً ، وجعل يوماً واحداً منه[6] كعبادة العابد ستين عاماً ، وما سلك أحد سبيل العدل إلاّ واجتنيت ثماره من أفنان ، ورجع الأمر به بعد تداعي أركانه وهو مشيد الأركان ، وتحصن به من حوادث زمانه — والسعيد من تحصن من حوادث الزمان . وكانت أيامه في الأيام أبهى من الأعياد ، وأحسن في العيون من الغرر في أوجه الجياد ، وأحلى من العقود إذا حلي بها عطل[7] الأجياد .

وهذه الأقاليم المنوطة بك[8] تحتاج إلى نواب ، وحكام ، وأصحاب رأي من أصحاب[9] السيوف والأقلام؛ فإذا استعنت[10] بأحد منهم في أمورك فنقّب[11] عليه تنقيباً ، واجعل عليه في تصرفاته [ب/١٣٢] رقيباً ؛ وسل

---

١ « فتقدمته » النهاية ٦ .

٢ « أمرك » شافع ١٧ .

٣ « وحث على الإحسان » السلوك ١/٤٥٥ .

٤ السلوك ١/٤٥٥ .

٥ « ذنوباً كانت كتبت عليه ليالي وأياماً » شافع /١٨ .

٦ « فيه » صبح ١١٣/١٠ ؛ وفي السلوك « منها » ١/٤٥٥ .

٧ « عاطل » السلوك ١/٤٥٥ .

٨ « بنظرك » النهاية ٦ .

٩ « أرباب » النهاية ٦ .

١٠ « استغثت » النهاية ٦ .

١١ « نقب » النهاية ٦ .

عن أحواله ، ففي يوم القيامة تكون عنه مسؤولاً ، وبما أجرم[1] مطاوباً ، ولا تول منهم إلاّ من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوبا ، وأمرهم بالأناة في الأمور والرفق ، ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق ؛ وأن يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغر الباسم ، والوجه الطلق ، وأن لا يعاملوا أحداً على الإحسان ، والاساءة ، الاّ بما يستحق ؛ وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعية[2] إخواناً ، وأن يوسعوهم براً وإحسانا ، وأن لا يستحلوا حرماتهم إذا استحلّ الزمان لهم حرمانا ، والمسلم أخو المسلم ، ولو كان أميراً عليه أو سلطاناً ؛ فالسعيد من نسج ولاته في الخير على منواله ، واستنوا بسنته في تصرفاته وأحواله ، وتحملوا عنه ما تعجز قدرته عن حمل أثقاله .

ومما يؤمرون به أن يمحى ما أحدث من سيء السنن ، وجدد من المظالم التي هي [على الخلائق][3] من أعظم المحن ؛ وأن يشترى بإبطالها المحامد [فان[4] المحامد] رخيصة بأغلى[5] ثمن ؛ ومهما جبي منها من الأموال فإنما هي باقية[6] في الذمم حاصلة، وأجياد الخزائن ان اضحت[7] بها حالية فإنما على الحقيقة منها عاطلة؛ وهل أشقى ممن احتقب إثماً، واكتسب بالمساعي الذميمة ذماً ، وجعل السواد الأعظم يوم القيامة خصماً، وتحمل ظلم [ب / ٣٢ ب] الناس فيما صدر عنه من أعمال ، ﴿ وَقد خابَ مَن حَمَلَ ظُلماً ﴾[8] .

---

١ « اجترم » شافع ١٩ .
٢ « الرعايا » السلوك ١/٤٥٥ .
٣ من النهاية ٦ .
٤ من النهاية ٦ والسلوك ١/٤٥٥ .
٥ « أغلى ثمن » شافع ١٩ .
٦ « فإنها باقية ، وان كانت حاصلة » النهاية ٦ .
٧ « وان » السلوك ١/٤٥٦ .
٨ القرآن الكريم ، طه ١١١ .

وحقيق بالمقام الشريف ، السلطاني ، الملكي ، الظاهري ، الركني ، أن تكون ظلامات الأنام[1] مردودة بعدله ، وعزائمه[2] تخفف ثقلاً لا طاقة لهم بحمله[3] ؛ فقد أضحى على الإحسان قادراً ، وصنعت له الأيام ما لم تصنعه لغيره ممن تقدم من الملوك، وان جاء آخراً . فاحمد[4] الله على أن وصل إلى جنابك[5] امام هدى[6] أوجب لك مزية التعظيم[7] ، ونبه[8] الخلائق على ما خصك الله به من هذا الفضل العظيم[9] . وهذه أمور يجب أن تلاحظ وترعى ، وأن يوالى عليها حمد الله، فإن الحمد يجب عليها عقلاً وشرعاً ؛ وقد تبين[10] أنك صرت في الأمور أصلاً وصار غيرك فرعاً .

ومما يجب أيضاً[11] تقديم ذكره ، أمر الجهاد ، الذي أضحى على الأمة فرضاً ، وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيضاً ؛ وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعد لهم عنده المقام الكريم ، وخصهم بالجنة التي ﴿لا لغوٌ فِيها وَلا تَأثِيم﴾[12]. وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضاء

---

١ « الأيام » شافع ١٩ .

٢ « وطاعته » صبح ١١٤ .

٣ « له » النهاية ٦ .

٤ « فالحمد لله » شافع ٢٠ .

٥ « جانبك » السلوك ٤٥٦/١ .

٦ « وأوجب » النهاية ٦ وفي صبح « يوجب » ١١٥/١٠ .

٧ « التقديم » صبح ١١٥/١٠ .

٨ كذا في السلوك ٤٥٦/١ وفي المخطوطة « وينبه » وفي النهاية « وتنبيه » ٦ .

٩ « العميم » النهاية ٦ .

١٠ « تبين لك » صبح ١١٥/١٠ .

١١ « تقديم ذكره أيضاً » شافع ٢٠ .

١٢ القرآن الكريم ، الطور ٢٣ .

أسرعت في سواد الحساد ، وعُرفت منك عزمة هي أمضى مما تجنه ضمائر الأغماد ، واشتهرت لك مواقف في القتال هي أشهر [1] وأشهى إلى القلوب من الأعياد ؛ وبك صان الله [ب/ ١٣٣] حمى الإسلام من أن يبتذل ، وبعزمك [2] حفظ على المسلمين نظام هذه الدول ؛ وسيفك أثر في قلوب الكافرين قروحاً لا تندمل ، وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأول ؛ فايقظ لنصرة الإسلام جفناً ما كان غافياً ولا هاجعاً ، وكن في مجاهدة أعداء الله إماما متبوعاً لا تابعاً ، وأيّد كلمة التوحيد ، فما تجد في تأييدها إلاّ مطيعاً سامعاً .

ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها ، تبتسم [3] له [4] الثغور ، واحتفال يبدل ما دجى من ظلماتها بالنور ، واجعل أمرها على الأمور مقدماً ، وشيد منها كل [5] ما غادره العدو [6] متهدماً ، فهذه حصون بها يحصل [7] الانتفاع [8] وهي على العدو داعية افتراق [9] لا اجتماع ؛ وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له [10] مجاوراً ، والعدو له ملتفتاً ناظراً ، لا سيما ثغور الديار المصرية ، فإن العدو

---

١ « هي أنهى إلى القلوب » النهاية ٧ .
٢ « وبحظمتك وعزمك » شافع ٢٠ .
٣ « تبسم » صبح ١١٥/١٠ .
٤ « لها » النهاية ٧ .
٥ نهاية الجزء المأخوذ من مخطوطة المتحف البريطاني .
٦ « متداعياً متهدماً » النهاية ٧ .
٧ « يحصل بها » شافع ٢١ .
٨ « وبها تحسم الأطماع » النهاية ٧ .
٩ « افتراق الاجتماع » شافع ٢١ وفي « ب » .
١٠ « اليه » النهاية ٧ .

وصل إليها رابحاً ، وراح[1] خاسراً ، واستأصلهم الله فيها[2] حتى ما أقال منهم عاثراً .

وكذلك الاسطول الذي ترى[3] خيله كالاهلة ، وركائبه سائقة[4] بغير سائق مستقلة ؛ وهو أخو الجيش السليماني ، فإن ذاك غدت الرياح له[5] حاملة ، وهذا تكفلت بحمله المياه السائلة ؛ وإذا لحظها الطرف جارية[6] في [ب/٣٣ ب] البحر كانت كالأعلام ، وإذا شبهها قال : « هذه ليال تقلع بالأيام »[7] .

وقد سنى لك الله من السعادة كل مطلب[8] ، وآتاك من أصالة الرأي الذي يريك[9] المغيب ؛ وبسط بعد القبض منك الأمل[10] ، ونشط بالسعادة ما كان من كسل[11] ؛ وهداك إلى مناهج الحق — وما زلت مهتديا اليها — وألزمك[12] المراشد[13] فلا تحتاج إلى تنبيه عليها . والله يمدك بأسباب نصره ، ويوزعك

---

١ « رجع » النهاية ٧ .
٢ « فيما مضى حتى » النهاية ٧
٣ « تزجي » السلوك ١/٤٥٧ .
٤ « سابقة » السلوك ١/٤٥٧ وفي شافع « سائرة » .
٥ « غدت له الرياض » النهاية ٧ .
٦ « سائرة » النهاية ٧ .
٧ « في أيام » النهاية ٧ .
٨ « كل طالب » شافع ٢١ .
٩ « الذي يزيل من العتب كل معتب » شافع ٢١ .
١٠ « للأمل » ب .
١١ « قد كسل » النهاية ٧ .
١٢ « الهمك » النهاية ٧ .
١٣ « الراشد » ب .

شكر نعمه، فإن النعمة[1] تستثمر[2] بشكره[3] [ان شاء الله تعالى][4] . »

وركب السلطان ، وشق المدينة ، بعد أن زينت ، وكان لبسه [الخلعة ، والطوق الذهب ، والقيد الذهب][5] والطالع السنبك . وحمل التقليد الأمير جمال الدين النجيبي ، استاذ الدار ، والصاحب بهاء الدين في بعض الطريق . وبسط أكثر الطريق تيابا[6] [١/١٨] مشى عليها بفرسه، ووصل إلى قلعته ، والخلائق تبتهل بالادعية له ، بخلود أيامه ، واعزاز نصره ، وأن يجعلها خلع الرضا منه ، وعنواناً لخلع الجنات .

وكان كما قال الشاعر :

« خلع خلعن من العداة قلوبهم ... وملأن بالاشراق أبصار الملا
لما طلعت بها بهرت فلم يطق ... طرف اليك من الشعاع تأملا
وبدا عليك الطوق رصع دره ... فرأيت بدراً بالنجوم مكللا »

وشرع السلطان في الاستخدام لمولانا الخليفة ، فكتب [ب / ١٣٤] للأمير سابق الدين بوزبا[7] ، أتابك العسكر ، بألف فارس ؛ والطواشي بهاء الدين صندل ، الشرابي ، بخمسمائة فارس ؛ والأمير ناصر الدين بن صيرم الخزندار ، بمائتي فارس ؛ والأمير الشريف نجم الدين ، استاذ الدار

---

١ « النعم » النهاية ٧ .
٢ « تستتم » شافع ٢١ .
٣ « بمنه وكرمه » النهاية ٧ .
٤ صبح ١١٦/١٠ .
٥ السلوك ٤٥٧/١ .
٦ « ثياب » في الأصل .
٧ « بوزبا » في الأصل وفي مفضل « أبورتا » .

بخمسمائة فارس ؛ وسيف الدين بلبان الشمسي ، الدوادار ، بخمسمائة فارس ؛ وكذلك جماعة من العربان أمّرهم ، وحملت اليهم الطبلخاناه ، والسناجق ، وانفقت فيهم الأموال بعدة شهور واشترى السلطان مائة مملوك جمدارية ، وسلاحدارية[1] ، وأعطى كلا منهم ثلاثة[2] أرؤس خيلاً ، وجملاً لعدته ؛ فلم يبق[3] ممن تدعو الحاجة اليه : من صاحب ديوان ، ولا كاتب انشاء ، ولا ديوان ، ولا أئمة ، ولا غلمان ، إلاّ استخدموا ، حتى الحكماء والجرائحية . وصارت بيوته أكبر البيوت ، لما جمعت من الخيول ، والأسلحة ، والجنائب . ولما تكامل ذلك تقدم[4] [١٨/ ب] بالاستخدام ، وبخروج العساكر .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة تسع وخمسين وستمئة ، ركب الخليفة ، والسلطان صحبته ، في السادسة من النهار ، وساقا ، فنزل كل منهما[5] في دهليزه . واستمرت النفقة في الاجناد الخليفية . ويوم العيد ركب السلطان صحبة الخليفة ، تحت المظلة ، وصليا العيد . وفي هذه[6] [ب/ ٣٤ ب] الليالي حضر الخليفة إلى خيمة السلطان بالمنزلة وألبسه الفتوه[7] ؛ وحضرت جماعة يعتبر حضورهم في ذلك .

وفي يوم السبت سادس شوال رحلا متوجهين إلى الشام ، فلما وصلا

---

١ « سلحدار » في الأصل .
٢ « ثلثه » في الأصل .
٣ « ولم يبقى احد » ب
٤ « تقدم السلطان » ب .
٥ في الأصل « منهم » .
٦ لعلها « وفي احدى هذه » .
٧ « سراويل الفتوه » مفرج ٢/٣٩٦ .

إلى الكسوه[1] خرج عسكر الشام ، ونزل السلطان بالقلعة ، ونزل الخليفة في جبل الصالحية ، في تربة الملك الناصر . وجرد الأمير سيف الدين الرشيدي ، والأمير شمس الدين سنقر الرومي إلى جهة حلب ، وأمرهم بالمسير إلى الفرات ، وأنهم متى ورد عليهم كتاب الخليفة يحضر إلى خدمته ، إلى العراق ، من يستدعيه منهم .

وركب السلطان فودع الخليفة ، وسير اليه الملوك المواصلة . وورد كتاب الخليفة بأنه وصل إلى الحديثة[2] وعانا[3] ، وولى فيهما ، ولم يحترز الخليفة ، ولا طلب العسكر الذي كان توجه إلى الفرات مع الأمير سيف الدين الرشيدي ؛ فكان ما قدره الله من انتقاله إلى جواره ، مجاهداً في سبيل الله .

قال لي السلطان : « الذي أنفقته على الخليفة ، والملوك المواصلة ألف ألف دينار وستون ألف دينار عيناً ؛ والاقدار لا تعاند ، وما النصر إلاّ [١٩/ا] من عند الله، وإذا أراد الله شيئاً أمضاه ، ﴿ وَعَسَى أن تَكرَهوا شَيئاً وَهوَ خَيرٌ [ب / ١٣٥] لَكُم ﴾[4] .

---

١ قرية ، أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر . ياقوت ٢٥٢/٧ .
٢ الحديثة : وتعرف بحديثة النورة ، وهي على فراسخ من الأنبار ، وبها قلعة حصينة في وسط الفرات ، والماء يحيط بها . ياقوت ٢٣٥/٣ .
٣ عانا : بين الرقة وهيت من أعمال الجزيرة ، مشرفة على الفرات قرب حديثة النورة ، ياقوت ٢/٦ .
٤ القرآن الكريم ، البقرة ، ٢١٦ .

ذكر ما اعتمده السلطان في حركته إلى الشام

سنة تسع وخمسين وستمائة ، وصلح الفرنج

قد ذكرنا توجه السلطان صحبة الخليفة ، وجرت أمور في أثناء ذلك ، منها : أنه لما توجه الأمير علم الدين الحلبي عائداً إلى دمشق بقيت حلب خالية ، فحضر البرلي وجماعته [اليها] ؛ وسير الحلبي رسولاً منه إلى السلطان يبذل له الطاعة ، فأبى السلطان إلاّ حضوره إلى الخدمة . ووصل السلطان إلى دمشق ، فجرد العساكر — على ما ذكرناه[1] — ولما بلغ البرلي ذلك انفصل عن حلب ، وسار العسكر ، فوصل إلى حلب ؛ ورحل منها ، ولم يزل سائقاً إلى الفرات وعاد فأغار على بلاد أنطاكية ، وكسب العسكر ، وغنم ، وحرق للعدو غلالاً ، ومراكب ؛ وعاد العسكر .

وكان السلطان قد رسم بتقليد[2] بنيابة حلب للأمير علاء الدين البندقدار ، فكُتب ؛ وأقام بها والبلاد في أشد ما تكون من غلاء الأسعار ، وعدم الأقوات ، فتضرر العسكر من عدم الأقوات ولم تمكنه الإقامة .

ووصلت كتب البرلي يسأل الصلح ، وسير الأمير علم الدين جلم الأشرفي ، ومعه كفنه[3] وسيفه ، ويقولون [١٩/ ب] أنهم اندفعوا قدام العسكر طاعة ؛ فكتب اليهم بأطابة قلوبهم . ووصل الأمير علاء الدين [ب/ ٣٥ ب] إلى حماه ، فأقام بها . وورد كتاب البرلي يعتذر من رجوعه ،

---

١ راجع ما سبق الورقة ب ١٨ ب .

٢ كذا في ب أما في الأصل فهي « بتقليد نيابة » .

٣ « جعبته » مفرج ٢/ ٣٩٧ .

وأنه ما رجع الا طائعاً ، وأن الأمير علاء الدين انفصل عن حلب اختياراً منه ، ولو أقام لما قصده أحد . وتوالت كتبه بالاعتذار ، واستأذن في توجهه إلى الموصل ، والسلطان يغلظ له وقتاً ، ويلين وقتاً آخر .

وجرد السلطان العساكر صحبة الأمير شمس الدين سنقر الرومي لنجدة الموصل ، وأنفق فيهم المال . وبلغ البرلي الخبر فسار إلى جهة سنجار ، والتقى التتار ، وكان ما قدره الله من خذلانه ، وذلك أنه سار وأهل البلاد يدعون عليه لما فعله معهم ، من نهب الأموال ، واخراب البيوت ، والنصر لا يكون إلاّ باطابة القلوب ، والابتهال بالأدعية ، وبسط العدل ، ولا أفلح من ظلم ، ولا نُصر من دُعي عليه . ووصل العسكر المنصور إلى دمشق ، واستصحب عسكرها ، وسار إلى جهة حلب .

ومن ذلك : حضور الملوك إلى السلطان بدمشق ومصر :

الملك الصالح صاحب الموصل :

وردت الكتب من دمشق بحضور الملك الصالح ، المذكور ، بأهله وأولاده وغلمانه ، فكتب السلطان إلى نواب دمشق بالمبالغة في خدمتهم ، وعبيت لهم الإقامة من دمشق [ب/١٣٦] إلى مصر ؛ فوصل في شعبان سنة تسع وخمسين وستمئة، وتلقاه السلطان [١٢٠/أ] وأُنزل في آدر أخليت له . ووصل بعده بمدة أيام الخبر بوصول أخيه الملك المجاهد ، صاحب الجزيرة ، فاعتمد السلطان في خدمته ما اعتمده في حق أخيه في الشام ومصر ، من التلقي والخدمة . وأما الملك المظفر ، صاحب سنجار ، أخوهما ، فإنه كان اعتقله العزيزية — كما ذكرنا[1] — في بعض قلاع حلب ، فبعث السلطان

---

١ راجع ما سبق ، الورقة ١٤ أ (ص ٩٦).

أطلقه ، وكتب الكتب برد ما أخذ له ، وغلّظ على الأمراء بسبب ذلك ، ووصل إلى الديار المصرية ، فأحسن السلطان اليه ؛ ولما أن وصل أخواه استأذن في تلقيهما ، وخرج واجتمع بهما[1] .

وصار الافتقاد لا ينقطع عنهم ، ولا الخيول ، والحوائص ، والخلع ، لهم ولأصحابهم ، عند لعب الكرة ؛ وعُيِّنت جماعة من البحرية برسم خدمتهم ، وتصريف مهمّاتهم .

ثم رسم الساطان بكتابة تقاليدهم ببلادهم [التي فُوضت إلى السلطان][2] من مولانا الخليفة ؛ فكتب تقليد الموصل وبلادها وقلاعها للملك الصالح ركن الدين اسماعيل ، وهي : الموصل وولاياتها ورساتيقها ، ونصيبين[3] وولاياتها ، بالوصا والجزيرة ؛ مدينة بوازيج[4] وما يتعلق [ب / ٣٦ ب] بها — الزيادة عقر[5] ، شوش[6] ، ودارا[7] وأعمالها — القلاع العمادية[8] وبلادها ،

---

١ « ولما وصل استأذن أخواه في تلقيه ، فخرجوا واجتمع بهما » مفرج ٢/٣٩٧ .

٢ كتبت هذه الجملة على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٣ نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل من الموصل إلى الشام ، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ وبينها وبين الموصل ستة أيام ، ياقوت ٨/٢٩٢ .

٤ بوازيج : ويقال لها بوازيج الملك . وهي مدينة بين تكريت وبين إربل . تقويم البلدان ٢٨٧ .

٥ في الأصل « عفر شوش » وعقر : وتعرف بعقر الحميدية وهي قلعة حصينة في جبال الموصل وسكانها من الأكراد ، ياقوت ٥/١٩٥ .

٦ شوش : قلعة كبيرة وعالية . قرب عقر الحميدية ورغم كبر حجمها الا انه يقال انها أقل أهمية منها ، ياقوت ٥/٣٠٧ .

٧ دارا : مدينة في سفح جبل بين نصيبين وماردين وتتبع الجزيرة . ياقوت ٤/٦٠٥ .

٨ يصف ياقوت احداها بأنها حصينة وتقع شمال الموصل. بناها عماد الدين زنكي عام ٥٣٧ هـ ٥/٢١٤ .

كواشي[1] وبلدها ؛ أهرور[2] وبلدها ؛ جلصورا[3] وبلدها ، كِنَكور[4] وبلدها وكتبت بلاد الجزيرة وأعمالها للملك المجاهد سيف الدين اسحاق – وزيادة حمرين – وكتبت للمالك المظفر سنجار وأعمالها . وكتب لعلاء الملك ، ولد الملك الصالح المذكور [٢٠/ ب] تقليداً بقلعة الهيثم . ولما خرج السلطان متوجهاً إلى الشام، وخيّم بظاهر القاهرة ، سُيّرت هذه التقاليد إليهم، وصحبتهما الأحمال الكوسات ، والسناجق ، والأموال برسم التجهيز[5] ، واعفوا من الحضور والخدمة عليها .

وساروا صحبة السلطان إلى الشام ، فسلطنهم – وذلك أنه أحضرهم مجلسه ؛ وجهز لهم خيل النوبة ، والعصائب ، والجمدارية ولبسوا الخلع ، وقبلوا الأرض ، وخرجوا ، والمولى الأتابك في خدمتهم بشعار السلطنة ؛ وأعطاهم في لعب الكرة شيئاً كثيراً ؛ وتوجهوا صحبة الخليفة ، فاتفق انفصالهم منه في أثناء الطريق لأسباب جرت .

وتوجه كل منهم إلى مملكته ، فأما الملك الصالح فتوجه إلى الموصل ، وأقام بها، ونواب السلطان معه؛ فاتفق اجتماع التتار على الموصل [ب/١٣٧] ومحاصرتهم لها . وأما أخواه فإنهما خافا من مهاجمة العدو ، فوصلا

---

١ كواشي : قلعة حصينة في الجبال التي في شرقي الموصل ليس اليها طريق الا لراجل واحد . وكانت قديماً تسمى أردمشت ، ياقوت ٢٨٩/٧ .

٢ أهرور : حصن منيع من أعمال الموصل شماليها بينهما ثلاثون فرسخاً، ياقوت ٤٦٢/٨ .

٣ في الأصل « جصورا . وجلصورا اسم قلعة » فيجبال الهكارية بأرض الموصل ، ياقوت ١٢٥/٣ .

٤ كنكور : قلعة حصينة عامرة قرب جزيرة ابن عمر معدودة في قلاع ناحية الزوزان وهي لصاحب الموصل . ياقوت ٢٨٦/٧ .

٥ « برسم التجهز » في ب .

إلى الشام، وأذن لهما السلطان[1] في الحضور وسألا انجاد أخيهما ، فأجابهما ، وجرد الأمير شمس الدين سنقر الرومي ، وجماعة من البحرية والحلقة ، فسافر في رابع جمادى الأولى وكتب إلى دمشق بخروج عسكرها صحبة الأمير علاء الدين الحاج طيبرس ، ورحل عسكر مصر ، وعسكر الشام من دمشق ، في عاشر جمادى الآخرة .

حضور الملكين[2] صاحب حمص وصاحب حماه [٢١/١]

لما وصل السلطان إلى دمشق وصل إلى خدمته الملك المنصور ، صاحب حماه ، والملك الأشرف ، صاحب حمص ؛ فتلقاهما بالاكرام وأنعم عليهما بخيل النوبة ، والعصائب ، وشعائر المملكة . وركب كل منهما[3] بمفرده ، والأمراء مترجلون في خدمتهما ؛ وكتب لهما[4] بالتقاليد وزيد الملك الأشرف تل باشر ، والملك المنصور بلاد الاسماعيلية ، وتوجها إلى بلادهما .

ذكر الصلح مع الفرنج

لما توجه السلطان إلى جهة الشام سيّر سيرجوان دبلين ، كنديافا ، يبذل

---

١ « لهم » في الأصل .
٢ « الملك بن » في المخطوطتين .
٣ « منهم » في الأصل .
٤ « لهم » في الأصل .

الطاعة ، وحمل الإقامات . وكان السلطان وجماعة من الأمراء قد بعثوا [ب ٣٧ ب] شيئاً عظيماً من الشعير والدقيق في البحر ، من جهة دمياط إلى يافا ؛ ولما وصل السلطان إلى العوجا سير كندياقا يسأل الأمان للحضور إلى الدهليز ، فساق الأتابك اليه فأخذه وحضر به فأكرمه السلطان ، وكتب له منشوراً ببلاده ، ورده مسلماً إلى مدينته .

ولما استقرت الأخبار عند الفرنجية بقدوم الركاب الشريف بعثوا الإقامات العظيمة ، وبعثوا رسلهم يهنون السلطان بالسلامة . ولما وصل إلى دمشق حضر رسول من جهة عكا يسأله أماناً للرسل ، المتوجهين من البيوت كلها ، فكتب إلى والي بانياس بتمكينهم [٢١/ب] فحضر أكابر الفرنج ، والتمسوا الصلح ، فتوقف السلطان عليهم ، وطلب منهم أموراً كثيرة ، فلما امتنعوا زجرهم السلطان وأهانهم . وكان العسكر قد توجه للغارة على بلادهم من من جهة بعلبك ، فسألوا في رجوعه ، واتفق غلاء الأسعار بالشام ، وان كثرة الجلب انما يكون من بلاد الفرنج ، فتقرر الصلح عـلى ما كان الأمر عليه إلى آخر الأيام الناصرية ، واطلاق الأسارى من حين انفصال الأيام المذكورة إلى وقت الهدنة ، وتوجهت الرسل معهم لأخذ العهود عليهم . وكذلك [ب/ ١٣٨] تقررت الهدنة لصاحب يافا ، ومتملك بيروت على حكم الأيام الناصرية إلى آخرها . وأمنت السبل ، وكثر الجلب .

وشرع السلطان في جمع الأسارى ، وسيرهم حفظاً للعهد ، إلى مدينة نابلس ، والفرنج يكاسرون في أمر الأسارى من يوم إلى يوم ؛ ولما طال ذلك رسم السلطان بنقل الأسارى إلى دمشق ، واستعمالهم في العمائر . وتعلل الفرنج بالعوض عن زرعين ، فأجابهم السلطان : « انكم أخذتم العوض

عنها في الأيام الناصرية ، من مرج عيون [1] ، وقايضتم صاحب تبنين [2] بمواضع ، والمقايضة في أيديكم ، فكيف تطلبون العوض مرتين ؟ فإن كنتم باقين على العهد ، وإلاّ فما لنا شغل إلاّ الجهاد » . فرردت كتبهم يتنصلون ، وبقي الحال موقوفاً .

ذكر ما فعله في الشام [٢٢/١]

لما دخل السلطان إلى دمشق جهز الخليفة — كما ذكرناه [3] — والملوك — حسبما شرحناه [3] — وحضر اليه أمراء العربان ، فأعطاهم ، ووصل أرزاقهم ، وسلم لهم بخفر البلاد ، وألزمهم حفظها إلى حدود العراق وفوض إلى الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيري نيابة السلطنة بالشام وولى القاضي شمس الدين أحمد بن خلكان ، على ما ذكرناه .

ولعب [ب / ٣٨ ب] السلطان في ميدان دمشق ، فرأيت في خدمته جماعة من الملوك ، وهم : الملك الصالح ، صاحب الموصل ؛ الملك المجاهد ، صاحب الجزيرة ؛ الملك المظفر ، صاحب سنجار ، الملك علاء الملك ؛ الملك الأشرف ، صاحب حمص ، عمه الملك الزاهر [4] بن أسد الدين ؛ الملك المنصور ، صاحب حماه ، وأخوه الملك الأمجد تقي الدين بن الملك

---

١ مرج عيون : وتقع في سواحل الشام ، ياقوت ١٦/٨ .

٢ تبنين : بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور ، ياقوت ٣٦٤/٢.

٣ راجع ما سبق ، ورقة ١٨ ب (ص ١١٣) .

٤ « الملك الزاهر أسد الدين » النهاية ١٠ .

العادل أبي بكر ، الملك المنصور والملك السعيد والملك المسعود أولاد الصالح اسماعيل ؛ الملك الأمجد وإخوته أولاد الملك الناصر داود ؛ الملك الأشرف ابن اقسيس[1] ، الملك القاهر بن المعظم ، وجماعة كبيرة منهم ؛ وهذا ما لا رآه مالك آخر . حكى ابن الأثير في تاريخه[2]، قال : « ركب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب — رحمه الله ! — في بعض الأيام ، فعضده رجل كان في خدمته من السلاجقة ، وعدل ثيابه رجل من بيت أتابك ، فرآه رجل فقال : « ما بقيت تبالي بالموت بعدها يا بن أيوب ، سلجوقي يعضدك وأتابكي يعدّل ثيابك » [٢٢/ب] فأين هذا القائل يشاهد السلطان، وهؤلاء الملوك في خدمته ؟

ذكر الغارة على العرب والفرنج

لما وصل السلطان إلى الشام جرد الأمير [ب/ ١٣٩] جمال الدين المحمدي، وجرد معه جماعة من العسكر المنصور ، ورسم له بالإغارة على بلاد الفرنج ؛ فساقوا ، ونهبوا وكسبوا وعادوا سالمين . وجرد جماعة من البحرية ، وكتم الخبر ؛ وكان السلطان بلغه أن جماعة من عرب زبيد قد كثر فسادهم ، وأنهم مخالطو الفرنج ، ويدلونهم على عورات المسلمين ؛ فساق الجماعة اليهم ، فانتهبوا أموالهم ، وذبحوا منهم جماعة ، وكفى الناس شرهم[3] .

---

١ « ابن ولد اقسيس » النهاية ١٠ .
٢ ذكرها ابن الأثير في الكامل في حوادث عام ٥٨٧ هـ ، ٣٣/١٢ .
٣ « وكفى الله الإسلام شرهم » النهاية ١١ .

ذكر عود السلطان إلى الديار المصرية

ولما استقرت هذه الأمور بالشام عاد الركاب الشريف إلى الديار المصرية ، وذلك في يوم السبت سابع [1] عشر ذي الحجة سنة تسع وخمسين ، ووصل إلى مستقر ملكه ، وطلع بدست المملكة كما ينتقل البدر في منازله ، ويطلع في بروج شرفه ، فعم غلمانه وأتباعه بالخلع والاحسان .

ذكر أخذ الشوبك [٢٣/١]

جهز السلطان الأمير بدر الدين الأيدمري ، وبعث صحبته جماعة ، وما أعلم أحداً ممن جرده بتوجههم إلى أي جهة ، وسار فوصل إلى الشوبك ، وبذل الأموال والخلع ، فلما كان يوم الأحد وقت العصر تُسُلِّمت ؛ ووصل الخبر بتسليمها [2] في سادس وعشرين الشهر [ب/ ٣٩ ب] وولى فيها سيف الدين بلبان المختصي ، واستخدم فيها النقباء والجنادرة ، وأفرد لخاص القلعة ما كان في الأيام الصالحية .

---

١ « في تاسع ذي الحجة » شافع ٢٤ .

٢ يذكر ابن واصل ان استسلامها كان في آخر ذي الحجة عام ٦٥٩ . مفرج ٢/٤٠٠ .

ذكر الصلح مع صاحب الكرك

كان السلطان لما ملكه الله قد ترددت بينه وبين الملك المغيث . صاحبها ، عدة رسائل ؛ وكان الملك المغيث قد سير في الباطن إلى جماعة من الشهرزورية ، واستمالهم اليه ، وهربوا إلى الكرك ؛ وكان السلطان قد سير عسكراً مقدمه الأمير شجاع الدين طغريل الشبلي [1] إلى جهة الشوبك فأغاروا على البلاد مرة بعد مرة ، وعسكر السلطان يردهم ، ويصدهم ، ولما كثر ذلك جرد السلطان الأمير جمال الدين المحمدي ، وتوجه إلى الكرك يحاصرها ، فنزل عليها ، وضايقها ، ثم رحل عنها إلى جهة حلب ، على ما ذكرناه [2] .

ولقد قال السلطان : « والله ما قصدته بسوء حتى ابتدأ به ، وسيّر إلى بلادي أفسد الشهرَزورية ، واستعان بهم على فساد » . وشرع السلطان في تجهيز عسكر آخر ، فوردت [٢٣/ ب] رسل صاحبها إلى الخليفة يسأله الشفاعة ، فكتب إلى السلطان وشفع [3] ، وعاود فقبل شفاعته ، ولم يسير أحداً ، وسير الخليفة رسولاً صحبة [ب/ ١٤٠] رسول السلطان . ولما خرج السلطان إلى جهة الشام وردت الرسل من جهته ، ولم يتقرر حال ، والوافدون من جهته تتواصل ، وأهل البلاد يطلبون رضى السلطان .

وكان الملك المغيث قد سيّر ولده إلى هلاون ، وعاد إلى دمشق ، واتفق دخول الملك المظفر اليها ، فأحضره إلى مصر ، فاعتقل بها ؛ ولما ضاق الحال

---

١ يذكر ابن واصل ان مقدم عساكر بيبرس كان سيف الدين الشبلي وأن مقدم جيش المغيث هو شجاع الدين طغريل . مفرج ٢/٤٠٠ .

٢ راجع ما سبق ٢٢ ب (ص ١٢٠) .

٣ « فشفع » في ب .

على الملك المغيث ، وقلّت حيلته ، ورأى الأمر عليه قد صعب ، شرع في استعطاف السلطان ، فأبقى السلطان عليه الكرك وبلادها ، وأطلق الملك العزيز ولده ، وأقطعه دبيان[1] بمنشور شريف ، وحلف السلطان لوالده . ثم بعد ذلك سير السلطان له سنجقاً ، وشعار السلطنة ، فقبّل عقب السنجق ، وركب بشعار السلطنة . واستأمن الشهرزورية إلى السلطان ، فعفا عنهم ، وأمّر بعضهم .

ذكر تحليف الناس لولي العهد

ثم ان السلطان باشر عرض العساكر بنفسه ؛ وحلف الناس لولي العهد الملك السعيد ناصر الدين خاقان بركه خان – جمع الله به الشمل ، وَأَتَمَّ نِعمَتَهُ عَلَيهِ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيهِ مِن قَبل ! فحلف الناس بآمال منبسطة [٢٤ / ا] وطاعة غير مشترطة ، وعهود بالوفاء مغتبطة[2]. وسُيرت نسخ الأيمان إلى القلاع [ب / ٤٠ ب] ، فحلف الناس جميعهم .

ذكر متجددات

في نصف رجب سنة ستين وستمئة وردت جماعة من البغاددة ، مماليك الخليفة الذين كانوا تأخروا في بلاد العراق بعد قتل الخليفة ، ومقدمهم

١ إحدى قرى الأردن تجاه البلقاء . لوسترانج ٤٣٨ .

٢ « مقسطة » مفرج ٢/٤٤٠ .

الأمير شمس الدين سلار ، فالتقاهم السلطان بالإحسان ، وأعطى الأمير شمس الدين سلار خمسين فارساً في الشام ، نصف مدينة نابلس ، ثم غيره له ، وأعطاه طبلخاناه بمصر ؛ فلما شاهد إحسان السلطان كتب إلى من تأخر من خوشداشيته ، وإلى أصحابه من خفاجه ، يعلمهم بالحال كما قال الله تعالى[1] : « يا لَيتَ قَومي يَعلَمونَ بِما غَفَرَ لي رَبي وَجَعَلني مِنَ المُكرمين »[2] .

وكان قد جرى من الأمير سيف الدين قليج البغدادي المستنصري أمر أوجب اعتقاله ، بعد أن كان السلطان اعطاه الاقطاعات العظيمة ، له ولولده ، فلما كان في بعض الأيام افتكره السلطان وعلم أنه لعظم ذنبه لم يجسر أحد من الأمراء يشفع فيه عنده ، وأن الأسباب انقطعت عنه ، فأطلقه بغير شفيع ، وجعله يلعب معه الكرة ، وشاهده البغاددة الواصلون على هذه الحالة ، فدعوا للسلطان وشكروا حلمه [٢٤ / ب] .

وفي شعبان سنة ستين وستمئة [ب/ ٤١ ا] ، وصل الأمير سيف الدين الكرزي ، والقاضي أصيل الدين خواجا إمام ، رسولا[3] السلطان اللذان[4] كانا توجها إلى الأنبرور ، وصحبتهما كتابه ، ويذكران[5] انه اهتم بهما اهتماماً عظيماً ، وأحضرهما ساعة الوصول قبل أن يستريحا ، وأن الانبرور تجمل لهما[6] تجملا عظيماً ، وعرضت عليه الهدية ، فأعجبته الزرافة إعجاباً

---

١ كتبت كلمة « تعالى » على الهامش ، وأشير إلى مكانها من النص .

٢ القرآن الكريم ، يس ٢٦ .

٣ « رسل » في الأصل .

٤ « الذين » في الأصل .

٥ « ويذكرون » في الأصل .

٦ « تحمل لهما تحملا » ، في الأصل .

عظيماً ، وشاهد التتار المسيرين اليه ، وقرىء[1] عليه كتاب السلطان وهو يردده ، ويتفهمه ؛ وجهز رسولا وهدية تحضر صحبة رسله فيما بعد . ولما وصل رسل السلطان المذكورون كان في جملتهم نفران من البحرية أمر السلطان بتأديبهما ، لأنه بلغه سوء اعتمادهما ، وسيرهما إلى قلعة الجزيرة يعملان فيها .

وكذلك الأمير شرف الدين الجاكي ، والشريف عماد الدين الهاشمي ، وصلا من عند صاحب الروم عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ، وصحبتهما الأمير ناصر الدين نصر الله بن كوخ رسلان ، أمير[2] حاجب ، والصدر صدر الدين الأخلاطي[3] ، رسولان منه ، ومعهما كتابه[4] إلى السلطان يتنزل فيه تنزلاً عظيماً ، وأنه نزل للسلطان عن نصف بلاده ؛ وسير دروجاً فيها علائم بما يقطع من البلاد لمن يختاره السلطان ، ويؤمره ، ويكتب له من جهته منشوراً قرين منشور [ب / ٤١ ب] صاحب الروم .

فلما وصل الرسل [٢٥ / ا] أكرمهم السلطان، وسكّن جأشهم ، وشرع في تجهيز جيش نجدة لصاحب الروم، وأمر بكتب المناشير ، وعين الأمير ناصر الدين أغلمش ، السلاح دار الصالحي ، لتقدمة العسكر ، وعين له ثلاثمئة فارس ، وأقطعه في الروم .

ووصلت تذكرة على يد الأمير ناصر الدين المذكور ، نسختها بالعربية بمقتضى الوقت والحال .

---

١ « قرى » في الأصل .
٢ كذا في النهاية ١٣ ومفرج ٢/٤٠١ أما في الأصل فهي : « أمير حاجب » .
٣ « الخلاطي » النهاية ١٣ .
٤ كذا في النهاية ١٣ أما في الأصل فهي : « كتابان » .

« حصل من جهة حضرة جلال السلطنة — أجلّها الله ! — للجناب [1] المحروس ، الاسفهسلار [2] ، الأجل ، الكبير ، العالم ، العادل ، المؤيد ، المنصور ، المظفر ، المجاهد ، المثاغر ، المعاون ، المساعد ، المفاخر ، ناصر الدين ، نصرة الإسلام ، عدة الملك ، عمدة الممالك ، ذخيرة الحضرة كهف الجيوش ، قائد العساكر ، نصرة الغزاة ، سيد الأمراء والحجاب ، صاحب السيف والقلم ، عضد الملوك والسلاطين ، ايناقتلغ ملكا [3] وقادار خاص ، سوباشي سيد الأمراء والخواص ، ملك الحجاب ، ناصر الدين ، حاكماً مطلقاً ، وسلم اليه المناشير ، وشرف بما يليق به ، ورسم له بالسنجق [4] والمنديل واليد كجاري العادة وسُير إلى خدمة الجناب العالي ، المولوي ، الملكي ، الظاهري — خلد الله سلطانه ! — واقسمنا بالله — سبحانه وتعالى — وابتدينا بوالله والله [ب/٤٢ا] والله ، وتالله وتالله وتالله ، وبالله وبالله وبالله [5] ، الطالب ، الغالب ، الضار ، النافع ، المدرك ، المهلك، الحي ، القيوم ، الذي أرسل مائة ألف نبي [٢٥/ب] [و] أربعة وعشرين ألف نبي إلى الخلائق كافة ، وبالحلال والحرام — يعني الطلاق — أنه مهما أمر به مولانا السلطان الملك الظاهر — خلد الله [6] سلطانه ! — بحضور الأمير ناصر الدين، هو مقرر على ما يتقرر ، من غير تبديل ولا تغيير ، على جماعة الأمراء وغيرهم ، لا يتطرق إلى ذلك كلام أحد ، ولا يسمع في ذلك قول قائل [7] ولا ينقضه .

١ كذا في مفرج ٢/٤٠١ وفي الأصل « الجناب » .
٢ ومعناه مقدم العسكر : وأسفه بالفارسية بمعنى المقدم وسلار بالتركية بمعنى العسكر . صبح ٦/٨ .
٣ « ادبا فيلع للكاوقادار » في الأصل .
٤ « بالصنجق » ب .
٥ « بالله وبالله » كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .
٦ « ملكه » مفرج ٢/٤٠١ .
٧ « قايل ولا ينقصه » في الأصل .

وهذه اليمين يميني ، وقد حلفت بها مُهِمّاً من المدن والاقطاعات والملكية ، وغير ذلك ؛ مهما قرر ورسم يكون مقرراً على الوجه الذي يؤمر به ؛ ولا يعزل أحد من الجماعة المذكورون[1] وكل من أحضر من الديوان العالي ، المولوي ، السلطاني ، الملكي الظاهري ، مثالاً أو توقيعاً ، يمتثل ذلك بعد اليوم . وصار البيتان واحداً ، والمحبة الكلية تؤكد ذلك ؛ و ﴿ اللهُ عَلَى ما نَقُولُ وَكيل ﴾[2] .

كتب في أواخر جمادى الآخرة سنة ستين وستمائة .

وكتب السلطان للأمير ناصر الدين ، الرسول المذكور ، منشوراً بثلاثمئة طواش[3] ، وأقطعه آمد[4] وأعمالها ، وتقرر سفره صحبة العسكر [ب / ٤٢ ب] المتوجه ، وأن يتوجه صدر الدين ، الرسول الآخر ، صحبة رسل السلطان في البحر ، إلى السلطان عز الدين ، واعلامه بأن السلطان قد أجاب داعيه ، ولبّى مناديه ؛ ووقع الاهتمام في كتب المناشير ، وتجريد الأمراء من حلب والشام .

وفي شهر رجب من هذه السنة وصل الأمير [٢٦/أ] عماد[5] الدين ولد الأمير مظفر الدين صاحب صهيون[6] ، رسولاً من جهة أخيه الأمير سيف الدين ، وصحبته الهدايا الحسنة ، فأحسن اليه السلطان وكتب

---

١ « المذكورون ويرعاهم بعين رعايته » مفرج ٢/٤٠١ .
٢ القرآن الكريم ، يوسف ٦٦ .
٣ « بثلاثمئة فارس » النهاية ١٣ .
٤ أعظم مدن ديار بكر وهو بلد قديم وحصين ويحيط به دجلة كالهلال . ياقوت ١/١٩٢ .
٥ «علم الدين » النهاية ١٣ .
٦ صهيون : حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام لكنه ليس بمشرف على البحر ٥/٤٠٢ .

له منشور في بلاد حلب بثلاثين[1] فارساً[2] ، وكتب له منشوراً آخر في البلاد الرومية بمائة طواش .

وفي هذا التاريخ وصل كتاب صاحب الروم ، يذكر فيه أن العدو لما بلغهم اتفاقه مع السلطان خافوا من هيبته ، فولوا هاربين ؛ وأنه سير إلى قونية[3] يحاصرها ليأخذ من بها من أصحاب أخيه .

وفي هذا التاريخ وصل كتاب السلطان الملك المنصور ، صاحب حماة ، وصحبته قصاد وصلوا اليه من التتار ، وعلى أيديهم فرمان الملك المنصور ، فشكر [ه] السلطان على ذلك ، واعتقل القصاد .

وفي هذا التاريخ وصلت كتب الأمير عز الدين[4] ، أمير جاندار ، مقدم العسكر المتوجه إلى جهة الصعيد للعربان [ب/١٤٣] ، بتبديد شملهم؛ وسبب ذلك سوء اعتمادهم ، وتعديهم على الأمير عز الدين الحواش ، والي قوص[5] ، وقتله ؛ وأنه أراح المسلمين من فسادهم ، ﴿ واللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾[6] .

وفي شعبان من هذه السنة توالى وصول جماعة ممن كان صحبة البرلي ،

---

١ « بثلثين » في الأصل .

٢ « طوليشيا » شافع ٢٦ .

٣ ثاني قاعدة لمملكة السلاجقة ببلاد الروم تطيف بها الجبال من كل جانب ، وتبعد عنها من جهة الشمال . صبح ٣٥٢/٥ .

٤ « علاء الدين الخزندار » النهاية ١٣ .

٥ مدينة عظيمة واسعة ، قصبة صعيد مصر بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوماً وهي شرقي النيل . ياقوت ١٨١/٧ .

٦ القرآن الكريم ، البقرة ٢٠٥ .

من العزيزية والناصرية ، وأحسن إليهم السلطان ، ولم يؤاخذ أحداً منهم بشيء مما جرى .

ووصل الأمير فارس الدين أقوش المسعودي ، الذي كان توجه رسولاً إلى الأشكري ؛ وكان قد سير الأشكري إلى [٢٦/ ب] السلطان يلتمس منه بطركاً للنصارى الملكيين ، فعين الرشيد الكحال لذلك ، وسير اليه صحبة الأمير فارس الدين المذكور ، فأكرمه وأكرم من صحبته من جماعة الأساقفة ، وأعطاه . ولما وصل البطرك المذكور أحضر هدية كبيرة ، من جملتها مصوغ من فضة ، وقماش ، وذهب ، وما تحصل له من مال ، فرد السلطان ذلك عليه .

وكان قد صادف وصولهم إلى الأشكري فتح القسطنطينية ، فركب يوماً ليفرج فارس الدين المذكور فيها ، وفي عمائرها ، ثم عبر على مكان فقال : « جامع ، وقد أبقيته ليكون ثوابه للسلطان » . فلما سمع السلطان هذا الخبر فرح به ، وأعجبه كون الله — سبحانه وتعالى ! — هيأ هذه الحسنة في أيامه [ب / ٤٣ ب] ، وجعل شعار الإسلام يقام في بلاد الكفر بهيبته وأمر لوقته بتجهيز الحصر العبداني ، والقناديل المذهبة ، والستور المرقومة ، والمباخر ، والسجادات ، والمسك ، وماء الورد ، والعنبر ، والعود .

وإذ قد جرى ذكر هذا المسجد فنذكر ما نقل ابن حمدون في كتابه « التذكرة » [في] سبب بنائه ، قال : « في سنة ست وتسعين وقع الصلح مع الروم على أن يُبنى بها مسجد[١] جامع ، فبُني ، ولما طالت مدته جعلوه جبا »[٢] . وقال غيره ان الصلح كان قد تقرر على أن يبنى مسجد قدر جلد

١ « مسجداً » في الأصل .
٢ « حبساً » في ب وفي النهاية ١٤ .

بعير ، وتقررت العهود على ذلك ؛ فلما استقرالحال عمد المسلمون إلى جلد بعير ، فقدوه [٢٧ / ا] سيوراً، ومدوها، فأنكر الروم ذلك، فقال المسلمون : « ان هذا جلد البعير ، ما زدنا عليه شيئاً ، وعليه كان الاتفاق » . فسكتوا وقيل ان بانيه مسلمة بن عبد الملك في أيام أخيه الوليد ، وقد كان يزيد بن معاوية ، في سنة إحدى وخمسين من الهجرة ، غزا القسطنطينية ، ومعه أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله — صلى الله عليه وسلم ! — فلماحضرته الوفاة وصّى أنه يترك تحت أرجل الخيل حتى تدوسه خيل المجاهدين ؛ فَفُعِل ذلك ؛ وقيل انه دفن تحت سورها ، والروم إلى الآن [ب/ ١٤٤] يستسقون المطر — إذا انحبس عليهم الغيث — بقبره ، ويدعون الله تعالى به[١] .

---

١ نظراً لمخالفة هذا لمعتقد السلف الصالح فقد استعنت بأحد الفاضلين فعلق عليه بالشرح الآتي :
هذا القبر ينسب إلى الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري خالد بن زيد بن كليب ، الذي استشهد ، رضي الله عنه ، هناك ، في الغزوة التي قادها يزيد بن معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٨ هـ . وبعد فتح القسطنطينية ، وتعاقب الزمن، شيد على قبره مسجد، وعظمت الفتنة بهذا القبر ، فصار يقصد للتبرك، ويفعل عنده من الأمور التعبدية ما هومشاكل لما يفعله الروم النصارى ، مصداق لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من كان قبلكم ، حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى ، قال : فمن » هذا وقد ذكر ابن كثير في تاريخه مثل ما ذكره المؤلف من بناء الروم مسجداً على قبر أبي أيوب، ومعلوم أن ذلك قبل فتح المسلمين القسطنطينية .
ولا يمتري مسلم بصير بأمر دينه في أن تشييد المساجد ، والبناء على القبور وقصدها للعبادة عندها ، من البدع المحرمة في ديننا نحن المسلمين، وأنه تقليد للنصارى ، وأما قصد صاحب القبر لدعائه من دون الله كما يفعله كثير من الجهلة المنتسبين إلى الإسلام ، فإن هذا من عمل الوثنيين ، وفاعل ذلك مشرك الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه لما قال عز وجل: «انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار» وقد تضافرت الأدلة الشرعية على تحريم البناء على القبور والانكار الشديد على قصدها للعبادة ، وقد روى البخاري في غير موضع ومسلم والنسائي عن عائشة، رضي الله عنها ان أم سلم ذكرت لرسول الله =

وقد كان الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله ! — لما صالح ملكها أراد أن يعمر هذا الجامع ، ويخطب له فيه ، وسير ابن البرار في هذا السبب ، فما أجابه الروم ، ولا مكنوه منه ، وأخر الله تعالى ذلك ليكون أجره للسلطان ، وفخره لدولته ، وذكر الله فيه بطريقه . وهذا عمل صالح للسلطان لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَلا يَطَأُونَ مَوطِئاً يَغيظُ الكُفّارَ ، وَلا يَنالونَ مِن

= صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة ، وما فيها من الصور ، فقال : أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله . وروى البخاري ومسلم والنسائي عن عائشة أيضاً رضي الله عنها قالت : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً . وروى الإمام أحمد بسند جيد وأبو حاتم في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » . وروى مالك في الموطأ والبزار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » وروى مسلم عن جندب بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول : « اني ابرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، فإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ، ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور انبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني انهاكم عن ذلك » . وروى أهل السنن عن ابن عباس رضي الله عنه قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » وروى مسلم عن أبي الهياج الاسدي قال: قال لي علي رضي الله عنه : « ألا ابعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » .

هذا ومن المصادفات، وقيام الحجة من الله على المبتدع في دينه أن أبا أيوب الأنصاري نفسه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبر بذلك أبو أيوب ، وهو في نزع الموت تأثماً من كتمان العلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » وفي لفظ : « جعله الله في الجنة » كما روى ذلك الإمام أحمد من ثلاثة طرق .

عَدُوٍّ نَيلاً ، إلاّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صالح ﴾ .[1]

وفي هذه السنة توالت التجار من اليمن في سنة واحدة مرتين ، وسبب ذلك عدل السلطان . وقد كان التجار سافروا إلى اليمن ، وعزموا على الإقامة ، فلما بلغهم عدل السلطان سافروا في غير أوانِ السفر ، ووصلوا ناس بعد ناس . وهذا [٢٧ / ب] ما لا سُمع بمثله . ومن هيبة السلطان أن التجار وصلوا بأموال عظيمة في براري عيذاب[2] عندما هرب العربان قدام العساكر ، وخاوّها من وال ، وذلك عندما جرى على عز الدين الحواش[3] ما ذكر ، ولم يتعرض أحد إلى شيء من أموال التجار .

ذكر نزول العساكر على انطاكية ورجوعهم عنها

قد ذكرنا تقدم العساكر [ب/ ٤٤ ب] السلطانية إلى جهة حلب ؛ ولما استقرت بالبلاد الحلبية صلحت الأمور ، وحفظت الغلات . وكان البرنس صاحب انطاكية مستمراً على ما هو عليه من التخوف من المهابة السلطانية ، فحصل التقدم للعساكر بالاغارة على بلاده ، فتوجهت العساكر اليها صحبة الأمير شمس الدين سنقر الرومي ؛ وكان من جملة من صحبته صاحب حمص ، وصاحب حماه ، والأمراء كلهم ، فنازلتها ، وأخذت الميناء ،

---

١ القرآن الكريم ، التوبة ١٢٠ .

٢ عيذاب : بليدة على ضفة بحر القلزم وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد ، عرف ميناؤها بغزارة الماء وأمن اللحاق بالشعب المرجانية . صبح ٣/٤٦٨ ،وياقوت ٦/٢٤٦ .

٣ راجع ما سبق ٢٦ أ (ص ١٢٨) .

وأحرقت المراكب ، وأخذت حواصلها ، وحاصرت السويداء وأخذتها ، وقتلت ، وأسرت ، وجاهدت أحسن جهاد ، وعادت ودخلت القاهرة في يوم الخميس تاسع وعشرين شهر رمضان سنة ستين صحبة الأمير المذكور ، وصحبته الأسرى وهم مائتان نيف[1] وخمسون أسيراً ، فأحسن السلطان إلى المقدم المذكور [٢٨ / ا] والأمراء، وسير الخلع إلى الملوك المذكورين إلى بلادهم .

وفي محرم سنة إحدى وستين خرج إلى الصيد بأوسيم[2] ، وصحبته الملك السعيد والأمراء ، فتصيد ، ورمى البندق ، وخلع على الأمراء جميعهم الخلع الفاخرة الكاملة ، وعمّ بما سير اليهم من الأغنام وغير ذلك . وانتقل إلى البركة للصيد أيضاً ، فجرى على عادته في الإحسان [ب/ ١٤٥] إلى من صُحبتَه من الأمراء والخواص .

ذكر حضور الأمير شمس الدين البرلي ، وما جرى له

قد ذكرنا[3] أحوال الأمير شمس الدين أقوش البرلي العزيزي ، وما جرى له في بلاد حلب ، ولم يزل السلطان يرغبه ، ويرهبه ، ويضيق عليه

---

١ « مئتان وخمسون » شافع ٢٧ .

٢ أوسيم كورة في جنوبي مصر قال البكري تخرج من انفسطاط وتصير إلى الجيزة وهي في الضفة الغربية من النيل وبقرب الفسطاط على رأس ميل منها قرية يقال لها وسيم، ياقوت ٤٢٢/٨ .

٣ راجع ما سبق الورقة ١٩ (ص ١١٣) .

المجال ، ويبسط له الآمال ، إلى أن سأل الدخول في الطاعة ؛ فأجابه السلطان إلى سؤاله ، فوصل إلى دمشق ، وكتب السلطان بالإحسان اليه ، ورتب له الإقامات في جميع الطرقات إلى مصر ، وكان متمرضاً من جراحة في رجله [ف] سيّر له الأدوية . وسير اليه الأمير بدر الدين بكتاش ، أمير سلاح ، أحد أمرائه ، لتلقيه ؛ واهتم به اهتماماً عظيماً .

وفي ثاني ذي الحجة سنة ستين وصل إلى القاهرة ، وركب السلطان لتلقيه ، وسير اليه من المال والخلع والقماش والخيول والبيوتات شيئاً لعله يكون خزانة ملك، ولم يترك شيئاً مما يحتاجه الأمراء [٢٨ / ب] إلاّ وسيره اليه ، وأعطى كل من وصل معه من الأمراء وغيرهم [كلا] على قدر منزلته ، فاستغنى في وقت واحد ، وحصل له ما ملأ خزانته ، واسطبلاته ، ومناخاته ، ودوره ، وفاض على غلمانه . ثم بعد ذلك كتب له منشوراً بستين فارساً ، وأعطاه طبلخاناه [ب/ ٤٥ ب] وكذلك الأمراء الواصلون صحبته أمّرهم ، وأحسن اليهم . ولما استقر كتب إلى السلطان يطلب منه زيادة في الشام أو في نابلس ، أو بلاد الصلت ، أو بلاد بعلبك ، أو في حران ، وينزل عن البيرة[1] ، ويقول ان قدرته تعجز[2] عنها ، فشكره السلطان ، ولم يقبل البيرة منه ، وقال : « أنا أرجو لك الزيادة » .

وصار السلطان يقربه ، وهو مسايره إذا ركب ، ومشيره إذا جلس ، ولسانه إذا قال ، ويده إذا صال ؛ وساهمه في كل شيء حتى فيما يكون بين يديه مما يُستطرف ، ولم يفارقه في صيد ولا غيره ، ولم يزل يسأل حتى

١ البيرة : بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع . ياقوت ٢/٣٣٠ .

٢ « تعجز عن حفظها » النهاية ١٤ أ .

قبل منه البيرة ، وأعطاه الرها[1] وغيرها ، وأمر مماليكه ، وسافر في الخدمة إلى الطور ، والسلطان يفتقده طول الطريق بأنواع الإحسان ، ولم يزل كذلك حتى جرى منه ما أوجب التغير عليه ، وأمسكه ، وذلك في شهر رجب سنة إحدى وستين ؛ وأحسن إلى أهله وولده ، وقرر لهم الرواتب واستمر باقطاعاتهم في مصر .

ذكر وصول جماعة التتار الوافدين [١/٢٩]

إلى الباب الشريف

لم يزل السلطان مهتماً بأمر الأعداء ، ومحترزاً من مكائدهم ، وآخذاً بالحزم في [ب/١٤٦] أمورهم[2]، وقصاده لا تنقطع من بغداد، وخلاط[3] وغيرهما من بلاد الشرق والعجم ، وهو يغرم عليهم الأموال الكثيرة ، لأن من يسافر في هذا المهم ، ويسخو بنفسه لا بد أن يأخذ مثل ديته ؛ ولولا ذلك ما غرر أحد بنفسه . فلما أرشد الله السلطان لهذه المصلحة ترددت القصاد ، وتعرفت بمن يطاعها على البواطن ؛ وكاتبهم السلطان ، وسير اليهم التحف ، وسيروا يعرفون أن هلاون — خزاه الله ! — جمع جمعاً كثيراً ، ولم يعلم قصده ؛ فاحترز السلطان ، وسير الكشافة من خواصه ، وجرد معهم جماعة

---

١ الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ . ياقوت ٣/٣٤٠ .

٢ «أمرهم» في ب .

٣ خلاط أو أخلاط : في مستوى من الأرض وهي في قدر دمشق بينها وبين هلازجرد سبعة فراسخ قال ابن سعيد : وأجل مدينة بأرمينية خلاط . تقويم ٣٩٥ .

من الترك الخفاف بالخيول المسومة والجنائب ؛ وسير الكشافة جمال الدين الرومي ، السلاح دار من الخواص ، ومعه خيول منها حجرة من خيل خفاجة سابقة ، وغيرها من الخيل كل فرس بألف دينار وأكثر ؛ ثم الأمير علاء الدين اقسنقر الناصري كذلك ، حتى أخذ السلطان الأخبار ، وأمسك من وسط التتار ناساً أخذ الأخبار منهم . وكانوا مسلمين ، فأطلقهم ؛ وكتب إلى الشام بإردافهم بجماعة ، وارسال أمراء العربان معهم ، فساقوا إلى حدود العراق .

ولما توالت الأخبار بحركة هلاون عمل السلطان بالحزم ، وتقدم إلى أهل [ب ٤٦ ب] دمشق بالحضور بأهاليهم ، لتخف ظهورهم ، وترخص الأسعار ، ويؤمن نفاق من له ميل [٢٩ / ب] إلى جهة العدو؛ فحضرت جماعة كبيرة ، وكتب السلطان بتخفيرهم من ولاية إلى ولاية ، إلى باب القاهرة وأن لا يؤخذ منهم حق طريق، ولا زكاة، ولا غيرها ، ولا يتعرض إلى ما معهم من متجر ، وقماش ، ولا يفتش لهم محائر ، ولا شدات ؛ فوصلوا إلى القاهرة سالمين . وكتب إلى النواب بحلب بحريق الأعشاب ، وسير جماعة إلى بلاد آمد ، ومواضع الأعشاب التي جرت عادة هلاون بنزولها لما وصل إلى حلب ، وكانت محمية لحريق الأعشاب ؛ وتوجهوا وأحرقوا تلك المروج ، مسيرة عشرة أيام إلى أن صارت جميعها رماداً وفعل في إحراق أعشاب بلاد خلاط [1] كذلك ، وقطع السبيل احترازاً ، ثم سير كشافة أخرى مثل الأولى ، وصحبتهم العربان .

وفي أثناء هذه الحال بلغته أمور عن الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري ، النائب بدمشق ، أنكرها ، فسير الأمير عز الدين الدمياطي والأمير علاء

---

١ « اخلاط » مفرج ٢/٤٠٦ .

الدين أيدغدي الحاج الركني ، فأمسكوه خارج دمشق وأحضروه إلى القاهرة ، وتسلم الأمير علاء الدين المذكور دمشق ، ينظر فيها إلى حين حضور نائب مستقل، وذلك في يوم الأربعاء [ب/ ١٤٧] رابع ذي القعدة سنة ستين وستمئة ، ووصل الخبر في يوم الأحد بعد الظهر .

وسيّر الحاج علاء الدين الكشافة جماعة بعد جماعة ، فلما كان بتاريخ . . . . . .[١] وصل كتاب الحاج علاء الدين [٣٠/ا] بأن الكشافة وجدوا جماعة كبيرة من التتار مستأمنين وافدين إلى الباب الشريف لأنهم من أصحاب الملك بركه ، وكانوا نجدة عند هلاون . فلما وقع بينهما كتب الملك بركه اليهم بالحضور اليه ، وان لم يقدروا على ذلك يتجاوزون إلى عسكر الديار المصرية ، ويذكرون ان العداوة قد استحكمت بينهما ، وأن ولد هلاون قتل في المصاف ، وأنهم فوق المائتي[٢] فارس ؛ فكتب السلطان إلى نواب الشام باكرامهم ، والإقامة بهم ، وحمل الخلع اليهم وإلى نسائهم ؛ وأحسن إلى مقدميهم الأربعة ، وسير الاقامات من مصر ، من الأغنام والسكر والشعير والحوائج خاناه ووصلوا في يوم الخميس رابع وعشرين ذي الحجة ، وخرج السلطان للقائهم يوم السبت السادس والعشرين منه ؛ ولم يبق أحد من أهل القاهرة ومصر حتى خرج ، وكان يوماً عظيماً ؛ ورأوا من كثرة العساكر ، وكثرة العالم شيئاً بهر عقولهم . وكان السلطان قد رسم بعمارة آدر ومساكن [ب٤٧ / ب] لهم قريب اللوق .

وفي يوم السبت سادس [و][٣] عشرين الشهر عملت لهم دعوة عظيمة

---

١ بياض في الأصل ، وفي مفرج ، وفي هذا التاريخ ٤٠٦/٢ .

٢ « فوق الثلاثمائة » مفرج ٤٠٦/٢ .

٣ من ب .

في اللوق ، وحملت اليهم الخلع ، وسيقت الخيول ، وفرقت فيهم الأموال ، ولعبوا الكرة مع السلطان ، ثم أمّر كبراءهم بمائة فارس فما دونها ، وباقيهم نزلهم في جملة بحريته ومماليكه ، وصار كل منهم كأمير مستقل ، له الأجناد والغلمان ، واسبغت عليهم النعم ظاهرة وباطنة ، وافردت لهم جهات يستخرج منها مرتبهم ، وحسن اسلام [٣٠/ب] جميعهم . وبلغ التتار ذلك ، فتوافدوا جماعة بعد جماعة ، والسلطان يعتمد معهم هذا الإحسان ، ويفرقهم كل جماعة بين أضعافها من المماليك السلطانية .

ثم ان السلطان نظر في مصلحة عامة للإسلام ، وهي انفاذ رسل إلى الملك بركه — زيدت عظمته — فسير الفقيه مجد الدين ، والأمير سيف الدين كشربك ، ومعهما نفران من التتار الواصلين أصحاب صراغان[1] ، وكتب على أيديهم الكتب بأحوال الإسلام ، ومبايعة الخليفة — عليه السلام ! — وأمر بعمل نسبته الطاهرة إلى النبي — صلى الله عليه وسلم ! — فكُتبت وأذهبت ، وسيرها إلى الملك بركه ، وسير ثبوت نسبه مسجولا على قاضي [ب/ ١٤٨] القضاة تاج الدين .

ولما تجهزت هذه الكتب أحضر السلطان الأمراء والمفاردة[2] ، وغيرهم ، وقرأ الكتاب على الجميع ، واستشارهم في ذلك ، فاستصوبوا رأيه . ووصل بعد ذلك كتاب الملك الأشكري يذكر وصول هؤلاء الرسل اليه ، وأنه جهزهم صحبة رسله خدمة .

١ في الأصل صراغان .

٢ المفاردة لعلهم قسم من جند السلطان التابعين له دون تعلق ببقية الأمراء ولهم ديوان يسمى ديوان المفرد وهو جليل وجهاته عديدة ، وتحوي بلداناً كثيرة . زبدة كشف الممالك ١٠٧ .

ذكر إنفاذ الرسل إلى الملك بركه

ولما وصلت جماعة التتار الذين وصلوا أولاً إلى السلطان ، واستطلع منهم الحال ، وعرف أحوال الملك بركه ، ومقامه ، والطريق اليه ، جهز الرسل اليه – على ما ذكرناه – وسير صحبتهم نفرين من التتار المذكورين ، من غلمان الملك وأصحابه ، وممن يعرف البلاد ، وكتب على [٣١/ا] أيدي الرسل كتاباً فيه شيء عظيم من الاستمالة والحث على الجهاد ، ووصف العساكر الإسلامية وكثرتهم [١] ، وعدة أجناسهم ، ومن فيها من جيل وتركمان وعشائر أكراد ، وقبائل عربان ، ومن أطاعها من الملوك الإسلامية والفرنجية ، ومن خالفها ووافقها ، ومن هاداها [٢] وهادنها ؛ وأن جميعها في طاعته ؛ وسامعة [٣] لاشارته ؛ إلى غير ذلك من الاغراء بهلاون – خزاه الله ! – وتهوين أمره ، والاشلاء عليه ، وتقبيح الغفلة عنه ، وافهامه [ب/ ٤٨ ب] أن كل ما يفعله عناد له . ويُعلم فيه بوصول جماعة التتار الذين وصلوا ، وادعوا أنهم من أصحابه وأن الإحسان اليهم إنما هو من أجله .

وسير في هذه الرسالة ، صحبة النفرين المغل ، الأمير كشربك ، وهو رجل تركي ، كان جمدار خوارزم شاه ، له معرفة بالبلاد ، والالسنة ، والفقيه مجد الدين الروذراودي . وجهزهم السلطان وركبهم في الطرائد ، وأعطاهم زوادة شهور كثيرة ، وقرىء الكتاب مرتين : أحدهما بحضور

---

١ كذا في ب وفي النهاية ١٥ ، أما في الأصل فهي «كره» .

٢ كذا في النهاية ١٥ وفي مفرج ٤٠٩/٢ أما في الأصل فهي « هداها » .

٣ « سامعا » في ب .

الأمراء كلهم في الأيوان ، ثم حضر مولانا الخليفة ، وبويع بحضورهم ، وبايعه الرسل[1] ؛ ثم حضروا خطبته المباركة ، واجتمعوا به ، وحملهم السلطان من المشافهة ما فيه صلاح الإسلام ؛ وعرفهم أصحابهم التتار أحوال عساكره ، وكثرتها ، وما هو بصدده من جهاد ، وما يبذله من نصرة الدين ، وقتال الأعداء المشركين ، وأنه محب في الملك بركه ، وداع له بالنصر على الأعداء ، وموافق له على ما فيه صلاح العالم .

فتوجها في المحرم من سنة [٣١أ/ ب] احدى وستين ، ووصلوا بلاد الأشكري فأحسن اليهم ، وصادف وصولهم رسل الملك بركه إلى الملك الأشكري ، فسيرهم صحبتهم ؛ ورجع الفقيه مجد الدين [ب/ ١٤٩] ، لمرض حصل له ، صحبة رسولي[2] الملك بركه : الأمير جلال الدين ، والشيخ نور الدين علي ، وسافر الأمير سيف الدين كشرتلك[3] ورفقته . ووصلت كتب الملك الأشكري بأن رسل السلطان توجهوا سالمين وربما وصلوا إلى جهة الملك بركه صحبة رسله .

ذكر تفويض سلطنة الشام إلى الأمير جمال الدين النجيبي الصالحي

ولما تسلم الأمير علاء الدين الركني تدبير دمشق اختار السلطان الأمير

---

١ كذا في ب أما في الأصل فهي المرسل .

٢ « رسل » في الأصل .

٣ « كشربك » في ب .

جمال الدين أقوش[1] النجيبي الصالحي ، وعينه لنيابة السلطنة بها ، وتقدم للصاحب[2] عز الدين العزيز بن وداعه ، وزير الشام – وكان قد جرت بينه وبين الأمير علاء الدين طيبرس مفاوضات أوجبت حضوره إلى مصر ، صحبة الركاب الشريف – بالعود إلى وزارته ، ومباشرة ما هو معذوق به . وكتب على أيديهما تذكرة تشتمل على كل شيء من الكليات والجزئيات[3] ، وأحوال الحصون ، وذخائرها ، يستعين من يتولى الأمور بالنظر فيها ، والاستمداد منها ؛ وفيها من الأمور الملوكية ، والأسباب الدينية ، وأحوال الأموال ، وعرض الرجال ، ما لو كتب بمفرده لكان كتاباً ينتفع به في [ب / ٤٩ ب] تدبير الملك؛ وخلع السلطان عليهما ، واعطاهما الاقطاعات [٣٢/ ا] في الشام ، وتوجها .

ذكر البيعة للإمام الحاكم بامر الله أبي العباس أحمد

أمير المؤمنين – صلوات الله عليه ورضوانه –

كان قد وصل هذا الإمام إلى الديار المصرية ، فأكرمه السلطان والتقاه وخدمه ، وأنزله بقلعته ، وأدرّ عليه النفقات ، وكذلك جميع من معه . ولما كان يوم الخميس ثاني[4] محرم ، سنة إحدى وستين وستمائة ، جلس السلطان مجلساً عاماً فيه جميع الناس ، وجماعة التتار الوافدين ، ورسل

---

١ « أقش » في ب .
٢ كذا في ب أما في الأصل فهي « الصاحب » .
٣ « الجزيات » في الأصل .
٤ « ثامن محرم » شافع ٢٨ وفي النويري « الثامن من المحرم » ١٩ .

السلطان المتوجهون إلى الملك بركه ، وحضر الإمام الحاكم — سلام الله عليه ! — راكباً إلى الايوان الكبير بقلعة الجبل المحروس ، وبسط له إلى جانب السلطان ، وذلك بعد ثبوت نسبه الشريف . وأمر السلطان بعمل شجرة نسب له ، فعملتها ، وقرأتُها بين يديه على الناس ، وبعد ذلك أقبل مولانا السلطان عليه ، وبايعه على كتاب الله وسنة رسول الله[1] ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجهاد أعداء الله ، وأخذ أموال الله بحقها ، وصرفها في مستحقها، والوفاء بالعهود ، وإقامة الحدود ، وما يجب على [ب/ ١٥٠] الأئمة فعله من أمور الدين ، وحراسة المسلمين . وعند ذلك أقبل على السلطان ، وقلده أمور البلاد والعباد ، ووكل اليه تدبير الخلق ، وجعله قسيمه في القيام بالحق ، وفوّض اليه سائر الأمور، وعذق به صلاح [٣٢/ ب] الجمهور . ثم أخذ الناس على اختلاف طبقاتهم في مبايعته[2] ، فلم يبق ملك ولا أمير ، ولا وزير ولا قاض ولا مشير[3] ، ولا جندي ولا فقيه ، إلاّ وبايعه . وتمت هذه البيعة المباركة ؛ وحصل الحديث معه في انفاذ الرسل[4] إلى الملك بركه ، فوافق على ذلك ، وانفصل المجلس .

ولما كان يوم الجمعة ثاني هذا اليوم ، اجتمع الناس ، وحضر الرسل إلى الملك بركه ، وخطب الخليفة ، وصلى بالناس .

---

١ « صلى الله عليه وسلم » في ب .

٢ « في مبايعتهم » في ب .

٣ المشير كان قد [illegible] من المعدودين في المملكة إذا حصل مهم استحضر الحاكم كبار مملكته ويكون المشير [illegible] الحاكم رأيه ، فإذا بدأ النقاش في الموضوع المطروح يدافع المشير عن رأي الحا[illegible]ـه فإذا ما عورض صار مظهر المعارضة لرأي المشير حتى لا يبتذل رأي الحاكم أو يجبهم القوم احتراماً فيضيع القصد من الاجتماع والاستشارة . الزبدة ١٠٦ .

٤ « رسل » في ب

وهذه الخطبة المباركة[1] :

« الحمد لله الذي أقام لآل العباس ركناً وظهيراً ، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً . أحمده[2] على السراء والضراء[3]، واستنصره على دفع الأعداء ؛ وأشهد أن لا إله إلاّ الله ، وحده ، لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله — صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه ! — نجوم الاهتداء ، وأئمة الاقتداء ، الأربعة الخلفاء ؛ وعلى العباس عمه ، وكاشف غمه ، أبي السادة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ؛ وعلى بقية الصحابة والتابعين [لهم][4] بإحسان إلى يوم الدين [ب/ ٥٠ ب] .

أيها الناس ! اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام ، والجهاد محتوم على جميع الأنام ؛ ولا يقوم علم الجهاد إلاّ باجتماع كلمة العباد ، ولا سبيت الحرم إلاّ بانتهاك المحارم ، ولا سفكت الدماء إلاّ بارتكاب المآثم ؛ فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دخلوا[5] دار السلام ، واستباحوا الدماء والأموال ، وقتلوا الرجال والأبطال والأطفال [٣٣/ا] وهتكوا[6] حرم الخلافة والحريم ، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم ، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل ، وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل ؛ فكم من

---

١ كتبت الجملة الآتية على الهامش « حاشية : الخطبة لشرف الدين بن المقدسي » .

٢ « نحمده » شافع ٢٨ .

٣ واستعينه على شكر ما أسبغه من النعماء شافع ٢٨ وفى مفرج « وأستعينه [illegible] شكر ما أسبغ به من النعماء » ٢/٤١٠ .

٤ من السلوك ١/٤٧٨ .

٥ « مدينة السلام » شافع ٢٩ .

٦ « حرم الخليفة » مفرج ٢/٤١٠ والسلوك ١/٤٧٨ .

شيخ خضبت شيبته بدمائه ، وكم [من][1] طفل بكى[2] فلم يرحم لبكائه ؛ فشمروا عن ساق الاجتهاد ، في احياء فرض الجهاد ، ﴿واتقوا اللهَ ما استَطَعتم ، واسمَعوا وأطيعوا ، وأنفِقوا خَيراً لأنفُسِكُم ، ومَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فأُولئِكَ هُمُ المُفلحونَ﴾[3] . فلم يبق معذرة في القعود عن أعداء الدين ، والمحاماة عن المسلمين .

وهذا السلطان الملك الظاهر ، السيد ، الأجل ، العالم ، العادل ، المجاهد ، المرابط[4] ، ركن الدنيا والدين قد قام بنصر[5] الإمامة عند قلة انصار ، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا [ب / ١٥١] خلال الديار ، فأصبحت البيعة باهتمامه[6] منتظمة العقود ، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود ، فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة[7] ، وأخلصوا نياتكم تنصروا ، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا ؛ ولا يروعنكم ما جرى ، فالحرب سجال ، والعاقبة للمتقين ، والدهر يومان ، والآخر[8] للمؤمنين .

جمع الله على التقوى أمركم ، وأعز بالإيمان نصركم ، واستغفر الله العظيم لي ولكم ، ولسائر المسلمين ؛ فاستغفروه انه هو الغفور الرحيم » .

---

١ كذا في شافع وفي مفرج ٢/٤١١ .
٢ « بكا » في الأصل .
٣ القرآن الكريم ، التغابن ١٦ .
٤ « المؤيد » في شافع بدلا من « المرابط » ٢٩ .
٥ « بنصرة » مفرج ٢/٤١١ .
٦ « بهمته » مفرج ٢/٤١١ .
٧ « النعم » شافع ٣٠ .
٨ « والأجر » في ب ومفرج ٢/٤١١ و « الأحرى » في السلوك ١/٤٧٨ و « الاحر » في شافع ٣٠ .

الخطبة الثانية :

« الحمد لله حمداً يقوم بشكر نعمائه [٣٣/ ب] ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله ، وحده ، لا شريك له ، عدة عند لقائه ؛ وأشهد أن محمداً سيد رسله وأنبيائه — صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ! — عدد ما خلق في أرضه وسمائه .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، ان أحسن ما وعظ به الإنسان كلام الملك الديان : ﴿ يَا أيّها الذينَ آمنوا أطيعُوا اللهَ ، وَأطيعوا الرَّسُولَ ، وَأولي الأمرِ مِنكم ، فَإن تَنازَعتُم في شَيء فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسولِ ، إنْ كُنتُم تُؤمِنون باللهِ وَاليَوم الآخِرِ ذلكَ خَيرٌ وأحسَنُ تَأويلا ﴾[1] .

نفعنا الله بكتابه ، وأجزل لنا ولكم من ثوابه ، وغفر لي ولكم [ب/ ٥١ ب] وللمسلمين أجمعين » .

وكتب بدعوته إلى الآفاق ، وتعلل بذكرها الرفاق ؛ وكتب الله للسلطان هذه الحسنة ، التي يجدها يَوم يَنفَدُ كُلُّ شَيءٍ وَما عِندَ اللهِ باق[2] . وكتب السلطان إلى الملك بركه يعلمه بذلك .

ولما كان ليلة الأربعاء ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة سأل مولانا[3] السلطان مولانا الخليفة — سلام الله عليه ! — هل لبس الفتوة[4] أحد من أهل بيته الطاهرين ، أو من أوليائهم المتقين ، فقال : « لا ! » والتمس من السلطان

١ القرآن الكريم ، النساء ٥٩ .
٢ راجع « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » القرآن الكريم النحل ٩٦ .
٣ « مولانا » كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .
٤ « هل لبس الفتوة من أحد من » في الأصل .

أن يصل سببه بهذا المقصود ، ويتيحه[1] هذا الأمر الذي من بيته بدأ واليه يعود . فلم يمكن السلطان إلاّ طاعته المفترضة ، وأن يمنحه ما كان ابن عمه – رضي الله عنه ! – افترضه[2] كذا[3] [؟] وأن يحلي بالجوهر منضده ، ويقلد بالسيف مجرده ، ويُعطي القوس باريها ، ويُسلم الصهوة لراقيها ؛ ويكون في ذلك كمجيّب الحلة [٣٤/ا] للابسها، ومقتدح الجذوة لقابسها . ولبس في الليلة المذكورة بحضور من يعتبر حضوره في مثل ذلك ؛ وباشر ذلك المولى الأتابك فارس الدين أقطاي بطريق الوكالة المعتبرة عن السلطان .

« أنا للإمام[4] المستنصر بالله ، أمير المؤمنين ، ولد الإمام الظاهر ، وأبوه لجده الناصر[5] [ب/١٥٢] رضوان الله عليهم ! – لعبد الجبار ، لعلي بن دغيم[6] ، لعبيد[7] الله بن الفير[8] ، لعمر بن الرصاص، لأبي بكر بن الجحيش ، لحسن بن الساربار[9] لبقاء بن الطباخ ، لنفيس[10] العلوي ، لأبي هاشم[11] بن

---

١ « وسجه » في الأصل .

٢ « أقرضه » اليونيني : الذيل ٦٦١/٢ .

٣ لعل الناسخ أدخل كلمة « كذا » في النص عند النقل دالا بها على عدم تأكده من كلمة : « افترضه » راجع أيضاً نص المخطوطة ب/٢ ب .

٤ كذا في مفرج ٤١٢/٢ وفي السلوك « عن الإمام » ٤٩٦/١ وفي الأصل « أنا الإمام » .

٥ الناصر لدين الله . مفرج ٤١٢/٢ .

٦ « ابن زعيم » مفضل ٤٢٧ .

٧ « لعبد الله بن العين » مفرج ٤١٢/٢ وفي شافع « لعبد الله » ٣١ .

٨ « الفير » السلوك ٤٩٦/١ .

٩ « الشرابدار » مفضل ٤٢٧ .

١٠ « لنعس » مفرج ٤١٢/٢ .

١١ « لأبي القاسم بن حنه » ٤١٢/٢ وفي مفضل « لأبي القاسم بن حنا » ٤٢٧ وفي شافع « لأبي القاسم بن حيان » ٣١ .

أبي حية ، لمعز[1] بن أنس ، لأبي علي الصوفي ، لمهنا العلوي ، للقائد[2] عيسى ، للأمير وهران ، لروزبه[3] الفارسي ، للملك[4] أبي كنجيار ، لأبي الحسن النجار ، لفضل الفرقاشي[5] ، للقائد شبل بن المكدم[6] ، لأبي الفضل القرشي ، للأمير حسان ، لجوشن الفزاري ، للأمير هلال النبهاني ، لأبي مسلم الخراساني ، لأبي العز[7] النقيب ، لعوف الغساني[8] ، للحافظ الكندي ، لأبي علي النوبي ، لسلمان الفارسي[9] ، صاحب رسول الله — صلى الله عليه وسلم ! — الذي قال له — صلى الله عليه وسلم ! — سلمان من أهل البيت ، للإمام الطاهر[10] التقي النقي علي — سلام الله عليه ! — » .

وحمل إليه السلطان من الملابس الشريفة لأجل ذلك مما يليق بجلاله .

وفي الليلة الثانية حضر رسل الملك بركه إلى القلعة ، وألبسهم مولانا الخليفة — سلام الله عليه ! — بتفويض الوكالة للأتابك ، وحمل اليهم من الملابس ما يليق بمثلهم [٣٤/ ب] . وفي يوم الجمعة ثامن وعشرين شعبان

---

١ كذا في مفرج ٤١٢/٢ ومفضل ٤٢٧ أما في الأصل فهو لعمر بن النز وفي شافع « البز » ٣١ .
٢ كذا في ب أما في الأصل فهي « القائد » .
٣ « لرؤبة » السلوك ٤٩٦/١ .
٤ « للملك أبي كاليجار » السلوك ٤٩٦/١ وفي شافع « للماكي أبي ملكي خيار » ٣١ .
٥ « الرقامي » مفضل ٤٢٧ « والرقاشي » مفرج ٤١٢/٢ .
٦ « شبل أبي المكارم » مفضل ٤٢٧ و « المكرم » شافع ٣١ .
٧ « أبي العز المطيع النقيب » شافع ٣١ .
٨ « القنابي » في الأصل .
٩ « لسلمان الفارسي للإمام الطاهر » شافع ٣١ .
١٠ « الطاهر التقي علي بن أبي طالب » شافع ٣١ .

خطب مولانا الخليفة أيضاً بحضور رسل [ب/ ٥٢ ب] الملك بركه ، ودعا للسلطان ، وللملك بركه ، وصلى بالناس ، واجتمع بالسلطان وبالرسل في مهمات الإسلام .

ذكر مسير السلطان إلى جهة الطور

في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وستين وستمئة عزم السلطان علي التوجه إلى الشام ، فتجهز الناس ، وخرج من قلعته في سابع [1] شهر ربيع الآخر ، وأقام على باب القاهرة مخيماً إلى حين تجهز الناس . وسافر في حادي عشر [2] الشهر المذكور ، فوصل إلى محروسة غزة ، وهو يديم الصيد في الطريق ، وضرب حلقة بالعريش بثلاثة آلاف فارس ، كلهم خواصه ، وكان في هذه الحلقة من الصيد شيء كثير . وتقطر الأمير شمس الدين سنقر الرومي ، فساق السلطان اليه ، ونزل عنده ، وجعل رأسه علىٰ ركبته ، وأخرج من خريطته مومياء ، فسقاه ، وسار به إلى خيمته . وكذلك الأمير سيف الدين قلاون الألفي تقطر أيضاً ، فاعتمد معه هذا الاعتماد .

ووصل إلى غزة ، فوجد فيها والدة الملك المغيث ، فأحسن اليها ، وأنعم عليها واعطاها شيئاً كثيراً . وحصل الحديث في حضور ولدها وتقررت الأمور على ما لم يعلمه أحد ، وأعاد عليها العطاء [ب/ ١٥٣] والإنعام، وعلى كل من حضر معها حتى أنه حمل في جملة ذلك من الصيد خمسة

١ سابع عشر ربيع في ب .
٢ كذا في ب وفي النهاية ١٩ أما في الأصل فهي « حادي الشهر » .

عشر [٣٥ / ا] حملاً . وتوجهت والدة الملك المغيث ، وصحبتها الأمير شرف الدين الجاكي المهمندار ، برسم الاقامات ، وتجهيزها للملك المغيث إذا حضر .

ونظر السلطان في أمر أمراء التركمان ، وخلع عليهم ، وأحضر أمراء العائد ، وجرم ، وثعلبة ، وضمنهم البلاد ، والزمهم بالعداد[1] ، وشرط عليهم البريد ، وإحضار الخيل برسمه . ورأى أعمال الحيلة البعيدة المرامي في أمر العدو المخذول ، وكتب إلى ملك شيراز[2] ، وملك اللور[3] وإلى خفاجه ، يستجيشهم على هلاون ، ويعرفهم بما وصلت به الأخبار من جهة الروم في البر والبحر من كسر بركه له مرة بعد مرة .

وسار من غزة فنزل الطور في ثاني عشر جمادى الأولى . وسير الملك الأشرف ، صاحب حمص ، يلتمس الاذن له في الحضور إلى الخدمة فأذن له ، فحضر في نصف الشهر ، فتلقاه السلطان ، واحسن اليه ؛ وسير اليه سبعين غزالاً جملة واحـــدة ، وقال : « صيد هذا اليوم جعلته لك » .

وأما الملك المغيث فانه صارت رسله تتوالى إلى السلطان ، وهو يعطيهم وينعم اليهم . وخرج من الكرك ، وأقام مدة [ب / ٥٣ ب] في الطريق ؛ وأظهر السلطان من الاحتفال به شيئاً كثيراً ، وخدعه أعظم خديعة وأتى

---

١ العداد وهو ما يجبى من العرب والتركمان على مواشيهم وأنعامهم . كاترومير ١/١/١٨٩ .
٢ كذا في مفرج ٢/٤١٣ وليس عليها أو تحتها نقط في الأصل .
٣ اللور : كورة واسعة بين خوزستان وأصبهان معدودة في عمل خوزستان والرجيل يسكن هذا الموضع واللورخصيب تغلب عليه الجبال على حد قول الإصطخري ، ويقال له لورستان ، ياقوت ٧/٣٢٧ ، ٣٤٢ .

بيوت الخداع من أبوابها ، وكتم أمره عَن كل أحد ، ولم يستشر في أمره غير نفسه .

« ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا »

ولما وصل الملك المغيث إلى بيسان ركب السلطان لتلقيه يوم السبت[1] سابع[2] وعشرين جمادى الأولى ، وسار في أحسن زي ، فالتقى الملك المغيث ، وسار إلى جانب السلطان ولما وصل إلى باب الدهليز ترجّل ، ودخل الخيمة المنصورة[3] ، ودُخل به إلى خركاة[4] ، واحتيط عليه ، وعلى أصحابه ، وشفى السلطان غيظه[5] .

وكان السلطان قد استدعى قبل ذلك قاضي القضاة بدمشق ، والعلماء وأظهر أن ذلك لِـمُـلك ومبايعة[6] ، ولم يطلع أحد على غير ذلك؛ فلما وقعت الحوطة على الملك المغيث أحضر السلطان الملوك والأمراء والقاضي والشهود والأجناد ورسل الفرنجية وأخرج كتباً من جهة العدو المخذول اليه . وقال لأتابك : السلطان يسلم عليكم ويقول : « ما أخذت الملك المغيث إلاّ بهذا السبب » . وقرئت هذه الكتب وانصرف الملك الأشرف والجماعة كلهم ؛ وقال للقاضي ولجماعة العلماء [ب/١٥٤] : « ما طلبتكم إلاّ بهذا السبب » .

---

١ من هنا يبدأ بعض النقص في الأصل وقد أكمل من ب . راجع ما سيأتي ص ١٧٠ هامش .

٢ « سادس عشرين جمادى » السلوك ١/٤٨٢ .

٣ « المنصوبة له » مفرج ٢/٤١٤ .

٤ الخركاه بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشى بالجوخ ونحوه تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد ، صبح ٢/١٣١ .

٥ راجع تفصيلا عن هذا في شافع ٢٩ — ٣٠ .

٦ الشاهد يقول عنه القلقشندي أنه الذي يشهد بمتعلقات الديوان نفياً وإثباتاً . صبح ٥/٤٦٦ ويقول ابن مماتي ان من لوازمه أن يضبط كل شيء مما هو شاهد فيه . القوانين ٣٠٤ .

وكتب مكتوب بصورة الحال ، وكتب فيه القاضي والجماعة . ثم تجهز الملك الأشرف ، وركب السلطان لوداعه .

ـ وفي اليوم المذكور الذي أمسك فيه الملك المغيث جلس السلطان بعد انفضاض المجلس وأمر بالكتب إلى الكرك ، يعد من فيها بالإحسان ويحذرهم عواقب الطغيان وسير الأمير بدر الدين بيسري الشمسي . والأمير عز الدين الظاهري ، استاذ الدار العالية ، إلى جهة الكرك ، وجهز الخلع والأموال ليُلحقها بهما . وجهز الملك المغيث عشية إلى الديار المصرية ، صحبة من يوصله إليها ، وأطلق أهله ، وحاشيته ؛ وسير حريمه إلى مصر ، وأطلق لهم الرواتب .

وفي ذلك اليوم تحدث مع رسل الفرنجية – على ما سيشرح [١] – وانفصلوا عن غير رضىً إلى عكا .

ذكر الأمور التي أوجبت الانحراف على الفرنج ، وأخذ بلادهم

قد تقدم في أوائل هذه السيرة حديث الصلح مع الفرنج [٢] ؛ ولما رأوا إحسان السلطان شرعوا يحيدون عن الحق ، ويطلبون زرعين ، والسلطان يجاوبهم : « بأنكم أخذتم عوضها في الأيام الناصرية عشر ضياع من مرج عيون

---

١ راجع ما سيأتي ب ٥٥ (ص ١٥٢ وما بعدها) .
٢ راجع ما سبق ٢١ (ص ١١٧) .

[ب/ ٥٤ ب] ، وقايضتم بها صاحب تبنين » . وصارت كتبهم ترد : « بأن شلوحا سرقونا من جهة الأطرون[1] ، وتارة من جهة بانياس » . والسلطان يأمر برد ظلاماتهم . ووصلت كتب النواب يشكون منهم وأنهم اعتمدوا أموراً تفسخ الهدنة .

ولما سار السلطان إلى وسط بلادهم وَرَدَ رسل منهم ، يهنون بالسلامة ، ويقولون : « ما عرفنا بوصول السلطان » . فكان الجواب : « إن من يريد [أن][2] يتولى أمراً ينبغي أن يكون فيه يقظة ، ومن خفي عنه خروج هذه العساكر ، وجهل ما علمته الوحوش في الفلاة ، والحيتان في المياه ، من كثرة هذه العساكر التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلاّ ويكنس منه التراب الذي أثارته حوافر خيل هذه العساكر ، ولعل وقع سنابكها قد أصم أسماع من وراء البحر من الفرنج ، وفي موغان من التتار ، إذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون ؛ فأي شيء تعلمون ؟ وانفصل الرسل على هذا الحال .

ووصلت نواب يافا ، ونواب أرسوف[3] بهدية ، أخذت منهم تطييباً لهم ، وتسكيناً لقلوبهم . هذا والسلطان يأمر بأن لا ينزل [ب/ ١٥٥] أحد لهم في زرع ، ولا يُسيب فرس ، ولا يؤذي لهم ورقة خضراء ، ولا يتعرض إلى شيء من مواشيهم ، ولا فلاحيهم ؛ ورفق بهم أتم رفق ، انتظاراً لرجوعهم عن الغي . وكانت كتبهم قبل توجه السلطان مضمونها طلب فسخ الهدنة ، والندم عليها ؛ وصارت عند قرب السلطان ترد كتبهم

---

١ أطرون : بلد من نواحي فلسطين . ياقوت ١/٢٨٦ .

٢ من مفرج ٢/٤١٥ .

٣ أرسوف مدينة على الساحل بين قيسارية ويافا . ياقوت ١/١٩٢ .

بأنهم باقون على العهد مستمسكون بأذيال المواثيق .

وكان مقدم الاسبتار قد كتب عدة كتب ، منها جواب عن مشافهة على لسان افرير صافاج ، كمندور الديوية بقبرس مضمونها : « انكم نقضتم العهد بأمور منها : « ان شرط الهدنة لا يجدّد بناء ، وقد شرع بيت الاسبتار في بناء ربض[1] على أرسوف » . فكان جوابهم : « اننا لم نبن هذا الربض إلاّ لحماية الصعاليك من متحرمة المسلمين ، ولأمور قد بلغتنا سوف تسمعونها — يعني أخبار التتار — فكان الجواب اليه : « أما تجديد الربض لحفظ الصعاليك ؛ فالبلاد ما تحفظ بالأسوار ، ولا تحفظ الرعية بالخنادق ، ولا تحفظ إلاّ بأحد أمرين : إما بالسيوف والعزائم ، وإما بحسن الجيرة ، وبذل الإحسان ، وكف الأذى ؛ ومن يخاف من اللصوص لِمَ لا يخاف من غيرهم؟ وأما أمر التتار ، فقد [ب/٥٥ ب] علم كل أحد أنا عندما تحصنتم بالأسوار والخنادق خرجنا إلى التتار ، وما جعلنا حصوننا إلاّ خيولنا ، ولا خنادقنا إلاّ سيوفنا ، ولا أسوارنا إلاّ رجالنا » .

ولم تزل رسلهم تتردد في هذا ومثله إلى أن فرغ السلطان من شغله الذي كان في نفسه ، وهو حديث الملك المغيث ، فلما كان اليوم [الذي] أمسكه فيه ، أحضر رسل بيوت الفرنجية ، وقال : « ما تقولون ؟ » قالوا : « نتمسك بالهدنة التي بيننا » . فكان الجواب :

« لِمَ لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان ، وانفاق الأموال التي لو جرت لكانت بحاراً ؛ ونحن[2] ما آذينا لكم زرعاً ولا غيره[3] ، وأنتم

---

١ منها بناء سور على ربض أرسوف » شافع ٣٣ .
٢ « لما حضرنا إلى هاهنا » مفرج ٢/٤١٥ .
٣ « ولا نهب لكم مال ولا ماشية ولا أسر لكم أسير » مفرج ٢/٤١٥ .

منعتم الجلب والميرة عن العسكر[1] ، وسيرتم الينا إلى دمشق نسخة يمين حلفنا عليها ، وسيرنا نسخة يمين[2] لم تحلفوا عليها ، وعملتم أنتم نسخة يمين حلفتم عليها ، وشرط اليمين الأولى متعلق بالثانية ؛ وسيرنا الأسارى إلى نابلس ، ومنها إلى دمشق ، وما سيرتم أنتم أحداً إلاّ كل بيت يحيل على الآخر[3] ، وسيرنا كمال الدين بن شيث رسولاً يعلمكم بوصول الأسرى ، فلم تبعثوا أحداً ، ولم ترحموا أهل ملتكم الأسرى ، وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم ؛ كل ذلك حتى لا [ب/ ١٥٦] تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم ، وأموال التجار شرطتم القيام بما أخذتموه لهم ، ثم قلتم : « ما أخذت في بلادنا » ، وإنما قلتم : « [كان][4] أخذها في أنطرطوس ، [وحمل المال إلى خزانة الديوية والأسرى[5] في بيت الديوية » ؛ فإن كانت أنطرسوس][6] ما هي لكم ، فالله يحقق ذلك ! . ثم انا سيرنا رسلاً إلى جهة الروم ، وكتبنا إليكم بتسفيرهم في البحر ، فأشرتم عليهم بالسفر إلى قبرس[7] ، فأخذوا وقيدوا ، وضيق عليهم ، وأتلف أحدهم ، على ما ذكر[8] ، مع إحساننا إلى رسلكم[9] ، وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذى ، وما زالت الحرب قائمة ،

---

١ « عند توجهها قاصدة الشام » شافع ٣٤ « وفي مفرج » وحرمتم خروج شيء من الغلات والأغنام وغير ذلك ، ومن انفرد من غلمان العسكر اسرتوه » مفرج ٢/٤١٥ .

٢ « من عندنا » مفرج ٢/٤١٦ .

٣ « وما سيرنا الأسارى إلا وفاء بالعهد ، وإقامة الحجة عليكم » مفرج ٢/٤١٦ .

٤ مفرج ٢/٤١٦ .

٥ « والأميرة » في الأصل .

٦ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٧ « فسافروا بكتابكم وأمانكم » مفرج ٢/٤١٦ .

٨ « فإن كان هذا برضاكم فقبيح أن تعتمدوا هذا الاعتماد » مفرج ٢/٤١٦ .

٩ « وتجاركم ، والوفاء أحد اركان الملك » مفرج ٢/٤١٦ .

والرسل تتردد[1] ؛ وان كان هذا بغير رضاكم ، فهذا نقص في حرمتكم إذا كان صاحب جزيرة من ملتكم يخرق [حرمتكم ، ولا يفي بعهدكم ، ولا يحفظ ذمامكم ، ولا يقبل شفاعتكم ، فأي حرمة تبقى لكم ؟ وأي ذمام يوثق به منكم ؟ وأي شفاعة تقبل عند المسلمين والفرنجية ؟][2] . وهل كانت الملوك تقي[3] النفوس والأموال إلاّ لحفظ الحرمة ؟ وصاحب قبرس[4] أكثر تعلقاته في عكا والساحل ، وله عندكم المراكب والتجار[5] ؛ وما هو منفرد بنفسه ، عنده الديوية ، وجميع البيوت ، والنواب مقيمون عنده ، وعنده كندياقا[6] ؛ فلو كنتم لا تؤثرون ذلك ، كنتم قمتم جميعكم عليه ، واحتطتم على كل ما يتعلق[7] به ، وكتبتم إلى ملوك الفرنجية ، وإلى الباب بما فعله ؛ وكان الواجب على اللكاط[8] احرامه .

---

١ « وما القدرة على الرسول بشيء ، يسكن غيظاً » مفرج ٢/٤١٦ .
٢ مفرج ٢/٤١٦ .
٣ « تفي » مفرج ٢/٤١٦ ولعلها « تفني » .
٤ « وما صاحب جزيرة قبرس ملك عظيم ، ولا صاحب حصن منيع ، ولا قائد جيش كثير ، ولا هو خارج عنكم بل » مفرج ٢/٤١٦ .
٥ « والأموال والرسل » مفرج ٢/٤١٦ .
٦ « وغيره » مفرج ٢/٤١٦ .
٧ « وأصحابه واسترحتم من هذه الفضيحة » مفرج ٢/٤١٦ .
٨ « واذا قلتم صاحب قبرص لا يسمع منكم ، ولا يعطيكم ، فإذا لم يسمع منكم صاحب قبرص ، وهو من أهل ملتكم ، فمن يسمع منكم ؟ وهل لهذه التقدمة إلا الأمر والنهي ؟ ولا سيما أنتم تقولون ان أموركم دينية ومن ردها عصى المعبود ، ويغضب عليه المسيح ، فكيف لا يعصى المعبود ويغضب على (كذا) صاحب قبرص ، وقد رد أمركم ، وأغرى بكم ، وقبح قولكم ، وكنا لو اشتهينا أخذنا حقنا منه ، وإنما الحق عندكم ، نحن نطالب منكم ، وأنتم تطلبون منه » مفرج ٢/٤١٦ .

وقال السلطان :

« أنتم في أيام الصالح إسماعيل أخذتُم صفد والشقيف [ب/ ٥٦ ب] على أنكم تنجدونه على السلطان الشهيد الملك الصالح ، وخرجتم جميعكم في خدمته ونجدته ، وجرى ما جرى من خذلانه ، وقتلكم وأسركم ، وأسر ملوككم ، ومقدميكم ؛ وكل أحد يتحقق ما جرى عليكم من ذهاب الأرواح والأموال . وانتقضت تلك الدولة وانقضت ، ولم يؤاخذكم السلطان الشهيد عند فتحه البلاد ، وأحسن اليكم ، فقابلتم ذلك بأنكم رحتم إلى الريدافرنس ، وساعدتموه ، واتيتم صحبته إلى مصر حتى جرى عليكم ما جرى من القتل والأسر ؛ فأي مرة وفيتم فيها لمملكة مصر ، أم أي حركة أفلحتم فيها ؟ وبالجملة فأنتم أخذتم هذه البلاد من الصالح إسماعيل لاعانة مملكة الشام ، وإطاعة ملكها ونصرته[1] ، وقد صارت مملكة الشام وغيرها لي ، وما أنا محتاج إلى نصرتكم ولا إلى نجدتكم[2] ، فتردون ما أخذتم للإسلام بهذا الطريق وتفكون أسرى المسلمين جميعهم ، وغير ذلك لا أقبله » .

فلما سمعوا هذه المقالة ﴿بُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[3]، وقالوا: «نحن لا ننقض الهدنة ، ونطلب مراحم السلطان في استصحابها ، واستدامتها ، ونحن نزيل شكوى النواب جميعها ، ونفك الأسرى » . فقال [ب/ ١٥٧] السلطان : « كان هذا قبل خروجي في هذا الشتاء وهذه الأمطار ، ووصول العساكر إلى هنا » .

وانفصلوا على هذه الصورة ، وأمر أنهم لا يبيتون في الوطاق ، ورسم

---

١ والخروج في خدمته ، وإنفاق الأموال في نجدته » مفرج ٢/٤١٦ .

٢ « ولم يبق لي عدو أخاف » مفرج ٢/٤١٦ .

٣ القرآن الكريم ٢/٢٥٨ .

بهدم كنيسة الناصرة ، وهي أكبر مواطن العبادات التي لهم ، ويقولون ان منها خرج دين النصرانية ؛ فوجه الأمير عز الدين ، أمير جاندار إليها ، وهدمها إلى الأرض ، فلم يجسر أحد من سائر الفرنجية أن يخرج من باب عكا ، ولم يتكلم بكلمة واحدة .

ثم جرد الأمير بدر الدين الأيدمري ، وصحبته جماعة ، فتوجهوا إلى جهة عكا ، وهجموا إلى أبوابها . ثم توجه الأمير المذكور مرة أخرى ، فأغار على المواشي ، واستباح منها شيئاً كثيراً ، وحضر بجميع ذلك إلى المخيم المنصور .

واستمر جلوس السلطان كل يوم على باب الدهليز ، وعلى الصفة التي عمرها هناك ، وكتب اسمه عليها ؛ وهي مبنية بالحجر المنحوت ؛ لا يحتجب عن أحد ، ومن وقف أحضره ، وأخذ قصته ، وأنصفه . وهو لا يشتغل بغير أمر ، ونهي ، وعطاء وتدبير في أمر الكرك ، وإرسال خلع ومال ، واستجلاب أهلها .

ووصلت رسل دار الدعوة [ب/ ٥٧ ب] ، ومعهم الهدايا ؛ ووصل ولدا الصاحبين ، مقدمي الدعوة ، فأحسن السلطان اليهما ، وتوجها .

ولم يخل السلطان وقتاً من تأمير جماعة في الشام والساحل ؛ ومن جملة من أمّر الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار ، أعطاه اقطاعاً جيداً في مصر ، وطبلخاناه ؛ وكذلك الأمير سيف الدين الكاملي ؛ والأمير شمس الدين سنقر الخزندار العمادي ، أمرهما بالشام ، وأعطاهما الطبلخاناه وكذلك الأمير حسام الدين العينتابي ، أمره في بلاد حلب ، وأعطاه طبلخاناه ؛ وكتب للأمير جمال الدين ايدغدي العزيزي بزيادة جماعة جيدة ، وخاص في الشام ، وهي ثلاثون فارساً .

ووجد أهل البلاد والأهواء قد عاثوا ، وتسلطوا على الرعية ، ولزمتهم ديات بذلك مجهولة الصرف ؛ وفيهم عيون الفرنج ؛ ووجدهم فلاحي البلاد ، لا يمكن اتلافهم ، فقدر عليهم جنايات يقومون بها لبيت المال عن ديات من قتل وليس له وارث ، وعما نهبوه من مال جُهل مالكه ؛ فحملت جُمل كبيرة من البلاد الساحلية ، والجبال النابلسية ؛ وانكسرت شوكتهم .

وركب السلطان مراراً إلى قبر دحية الكلبي ، صاحب رسول الله — صلى الله عليه وسلم ! — وزاره، ورأى في طريقه قبر [ب/ ١٥٨] أبي هريرة في يبنى [١] .

ذكر مسير السلطان إلى عكا

لما كانت ليلة السبت رابع جمادى الآخرة ركب السلطان ، وجرد من كل عشرة فارساً واحداً صحبته ؛ واستناب الأمير شجاع الدين الشبلي ، أمير مهمندار ، في الدهليز ، وساق من منزلة الطور نصف الليل ، فلما أصبح وقف قريب عكا ، في الوادي الذي يقاربها ، ومنه يشرف عليها ، وأمر الناس بلبس السلاح ، ورتب العسكر ؛ ولم يزل سائقاً إلى أن طاف بها من جهة البر . وسير جماعة إلى برج كان قريباً منها فيه جماعة ، فحاصره ، وللوقت أخذت فيه النقوب . وكان توجه السلطان اليها في هذه الجماعة إنما هو لكشفها ؛ وكان الفرنج يقولون إن أحداً لا يجسر على أن يقرب منها . ولم يزل كذلك إلى قريب المغرب ، والفرنج ينظرون من أبواب المدينة ،

١ يبنى : مدينة صغيرة قرب الرملي . ياقوت ٨/٤٩٦ .

وتل الفضول . ثم رجع إلى الدهليز قريب البرج المذكور عند المساء .

ولما أصبح ركب ، وركب الناس في خدمته ، وساق اليها ؛ وكان الفرنج — خذلهم الله ! — قد حفروا خنادق حول تل الفضول ، وجعلوها معاثر في الطريق . ووقف الفرنج صفوفاً على التل المذكور ؛ ولما أخذت العساكر أهبة القتال ، والسلطان [ب/ ٥٨ ب] بنفسه يسوق ميمنة وميسرة ، ويرتب الناس ، حتى أنه مما كان يذكر اسم الله — سبحانه وتعالى ! — ويأمر الناس بالتهليل والتكبير ، ويندب اليه من المصالح ، تشوش صوته ، وللوقت ردمت الخنادق بحوافر الخيل ، وأيدي الرجالة من غلمان العساكر والفقراء المجاهدين . وطلع الناس إلى تل الفضول ، وانهزمت الفرنج إلى المدينة ؛ وحرق الناس ما حول عكا من الأبراج والأسوار ، وقطعوا الأشجار ، وحرقوا الثمار ، فلا يرى الناس إلاّ دخاناً ، أو عجاجاً ، وسيوفاً لامعة ، وأسنة قاطعة . وساق العسكر إلى أبواب عكا ، يقتلون ويأسرون ، ففي ساعة واحدة قتل جماعة من كنودهم وفرسانهم وخيالتهم ، وأسرت جماعة بخيولهم ، وجُرح أكابرهم ، وحف بهم البلاء ، وطمع فيهم الناس ، ورموهم[1] الخنادق بخيولهم ، وفيهم جماعة من الديوية والاسبتار ، وهرب من بقي من الفرنج إلى الأبواب من جهة الأسوار ، ونزلوا لحفظ الأبواب ، و [هم][2] يزعقون بصوت واحد : « الباب ! الباب ! » خوفاً من الهجوم عليهم ؛ والسلطان واقف على رأس التل مما يلي عكا ، يُنعم ويَعِد ، وحضر اليه رجل اسمه حسن[3]، من أصحاب بن أطلس خان [ب/ ١٥٩] ،

---

١ « في الخنادق » مفرج ٤١٨/٢ .

٢ مفرج ٤١٨/٢ .

٣ « كذا في مفرج ٤١٨/٢ وفي الأصل « حلس » .

بفارس طعنه ورماه ، وقامت الضجة لأجل رميه من الفرنج ، فأسره[1] ، وأعطاه السلطان منديله بأربعين فارساً . وضرب السلطان مشورة من أي جهة يأخذها وعرف أحوالها ؛ وحمل الأمراء واحد[2] ثم واحد إلى الأبواب ، فجرح في ذلك النهار من أعيان الأمراء الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي في ركبته جرحاً خفيفاً . ثم حمل الناس حملة واحدة إلى أن رموا الفرنج في الخنادق ، وهلكت جماعة منهم في الأبواب . وكان أوّل ما وقف السلطان ساق الأمير علي الشهرزوري عند اللقاء اقتلع رمحاً من يد أحد الخيالة ، أخذه وساق ؛ وكان مما أحضر تسعة حصن ببركصطواناتها[3] .

وثنى بعد ذلك عنان فرسه امهالاً وإهمالاً ، وسار إلى عسكره المنصور ، فجلس ، وأحسن إلى من جاهد ، وفرق كتب البشائر على من عمل صالحاً في ذلك اليوم ؛ ولم يزل منتصباً كذلك إلى قريب العصر ، [ثم] لبس عدته ، وساق إلى البرج الذي كان النقابون علقوه ، فوقف حتى رُمي ، وأخرج منه بأمانه أربعة خيالة اخوة ، ونيف وثلاثون راجلاً . ولما جُرح الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي ، ساق اليه السلطان وسلم عليه ، وسير [ب / ٥٩ ب] اليه تشريفاً من ملابسه الخاص .

وبات ، وأصبح راجعاً ، وعبر على بلادهم ، وكشفها مكاناً مكاناً ؛ وعبر على كنيسة الناصرة ، وكان فيما قبل[4] قد سيّر اليها الأمير عز الدين الأفرم ، أمير جاندار ، علّقها وخرّبها ، وهدمها إلى الأرض ولما رجع

١ « فأمره » مفرج ٢/٤١٨ .
٢ كذا .
٣ ببرك أصطواناتها » مفرج ٢/٤١٨
٤ راجع ما سبق ب ٥٧ أ (ص ١٥٧) .

نزل وجلس على المصطبة التي أمر ببنائها قبالة الطور ، وأحضر الشموع [1] بالمنجنيقات ، ونصب عليها خيمة ، وأحضر الصاحب فخر الدين ، وزير الصحبة ، وجماعة كتاب الدَّرج الشريف ، وهم سبعة : الصاحب فخر الدين بن لقمان ، والصدر بدر الدين حسن بن الموصلي ، والصدر كمال الدين أحمد بن العجمي — رحمه الله ! — والصدر فتح الدين بن القيسراني ، والصدر شهاب الدين أحمد بن عبيد الله ، والصدر برهان الدين ؛ وكتاب الجيش ، وهم : الصاحب فتح الدين بن سناء الملك ، والشريف الطاهر شرف الدين المطرسي ؛ والقاضي جمال الدين الحنفي ، وبقية كتاب الجيش ؛ والسديد مستوفي الصحبة ؛ وجعل الأمير سيف الدين الزيني ، أمير علم ، جالساً عند ديوان الجيش ، لكتابة المناشير ، وتجهيز الطبلخاناه ، والأتابك بين يدي السلطان . واستدعى من دشاراته [2] خمسمائة فرس برسم الطبلخاناه ، وخيول [ب / ١٦٠] الأمراء ؛ واحضرت الخلع الكثيرة بين يديه ، وأمر سلاحداريته بأن يستريحوا بالنوبة ويحضروا . ولم تزل المثالات والمناشير تُكتب ، وهو يُعلّم ، وأعطى تلك الليلة الحراس الهنود جملة ، وكُتب بين يديه تلك الليلة ستة وخمسون منشوراً كباراً بخُطب وطغر ، لأمراء كبار ، والصاحب فخر الدين يُعلّم ، وصاحب ديوان الخزائن فتح الدين بن سناء الملك حاضر ، وهو صاحب ديوان الجيوش المنصورة ، يُعلّم ؛ والأمير بدر الدين الخزندار واقف يعلم ، والمستوفي ينزل ، حتى كملت بين يديه .

وأصبح فخلا بنفسه ، وجهز الطبلخاناه ، والصناجق ، والخيل ، والخلع ، إلى الأمراء ، وجعل الأمير ناصر الدين القيمري ، نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية .

---

١ « وأوقد الشموع » النهاية ٦٥ .

٢ « الجشارات » السلوك ١/٤٩٠ .

ورحل السلطان من الطور يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الآخرة ، ثم جرد جماعة صحبته ، وجماعة إلى الصالحية ، توجه صحبتهم الأمير عز الدين ، أمير جاندار . وفي يوم الجمعة وصل إلى البيت المقدس ، وزار مواضع الزيارة ، وطلع على القبة التي على الصخرة من خارجها ، هو وشيخ الحرم ، وشاهد ما ذكر أنه محتاج إلى العمارة ، ورأى ذلك بنفسه ، وطاف ورأى تلك البقاع الشريفة ، ثم صلى الجمعة وتصدق ونظر في أمر الأوقاف [ب / ٦٠ ب] ، وتحرير ريعها ومصروفها ، وكتب بحماية أوقافه ، وأنه مهما طلب من الشام برسم العمائر يُسير سريعاً .

ونادى بأن أحداً لا ينزل في زرع بحيث ضرب الأتابك أحد مماليكه على شيء يسير من حشيش أطعمه لفرسه . وسار السلطان إلى جهة الكرك ، ولما نزل راجعاً في العوجا طارت حبارج أخذها الناس باليد ، وتفاءل السلطان بإمساكها .

ذكر فتوح الكرك

لما كان يوم الخميس ثالث[1] عشر جمادى الآخرة نزل السلطان على الكرك ، وصحبته العساكر ، وأحضرت السلاليم الخشب من جهة الصلت وغيرها ؛ وكان السلطان قد استصحب من الديار المصرية جماعة من الحجارين

١ في مفرج الكروب (٤١٩/٢) وفي السلوك (٤٩١/١) . « ثالث وعشرون » وهي أقرب إلى الصحة لأن المؤلف نفسه سبق أن ذكر ان الرابع من هذا الشهر يوافق السبت وأن الثالث عشر يوافق الاثنين ومن هذا يتبين أن الثالث عشر المذكور في الأصل زلة قلم .

والبنائين ، والنجارين ، والصناع ، على أنه يبني الطور ، وأحضر جماعة من دمشق وغيرها ، وسيروا إلى عين جالوت وأشاع السلطان أن ذلك لبناء جامع ، وكان ذلك كله لأجل الكرك ، وعزم على الطلوع اليها بنفسه ، فخاف أهل الكرك ، ونزل أولاد الملك المغيث ، وقاضي المدينة ، وخطيبها ، وجماعة من أهلها ، ومعهم مفاتيح الحصن والمدينة ، وطلبوا العفو ، فحلف لهم السلطان على ما طلبوه ، وأعطاهم حتى أرضاهم وسير [ب / ٦١ ا] الأمير عز الدين أيدمر ، استاذ الدار ، والصاحب فخر الدين بن الصاحب بهاء الدين لتسلم الحصن ، فطلعا في ليلة الجمعة ، وقت المغرب وتسلماه .

وفي بكرة الجمعة دعي للسلطان على أسوارها ، ونصبت سناجقه على أبراجها ، وأصبح السلطان مد الخوان ، وكتب بإحضار الرماة ، وركب في الساعة الثالثة من نهار الجمعة المذكورة ، وطلع إلى الحصن المحروس ، ودخل اليها ، ورسم بأن لا يؤذى أحد من أهلها ، وعفا عما مضى من ذنوب أهل الكرك ، واساءتهم اليه وإلى البحرية في الأيام المغيثية ، وجلس في القاعة الناصرية ، وشكر الله على ما وهبه من هذه الموهبة السنية ، وطلب ديوانها ، وكتاب الإنشاء ، ورتب أمر جيشها ، وسأل عن رجالها ، فقيل : لهم عدة شهور لم يُعطوا شيئاً ، وأعطاهم جامكية ثلاثة شهور من خزانته .

واهتم ببلادها ، وعيّن لها خاصاً ، وأطلق جامكيات أهلها ، وما غيّر حالة ، وزاد الاسفهسلارية ، والقراغلامية ، وأعطى أولاد الملك المغيث جميع ما حواه الحصن من مال ، وقماش ، وأثاث ، وكذلك سائر غلمانهم ، وكذلك جميع الأمراء والمفاردة ، والأجناد ، لم يتعرض لأحد منهم إلى شيء ، ونزل[1] الجميع في ذلك النهار ، وصلى [ب / ٦١ ب] السلطان بها

١ «ونزلوا الجميع» في الأصل .

الجمعة ، وخطب الخطيب ، ودعا للسلطان ؛ ورتب أمر الكرك وبلادها ، ونزل وقت المغرب .

وأصبح يوم الأحد فسيّر إلى الملك العزيز ، ولد الملك المغيث ، الخلع والقماش ؛ وكذلك الطواشي بهاء الدين صندل ، والأمير شهاب الدين صعلوك ، أتابكه ، أحسن اليهما ، وكتب كتب البشائر ، وكتب بحمل الغلال والذخائر والأصناف اليها .

وأصبح يوم الاثنين ركب ، وطلع اليها ، وأحضر ديوان الإنشاء ، وديوان الجيوش ، وديوان الاستيفاء ، وديوان الكرك ، وكتب المناشير لعربانها ومن بها ، وكانت تزيد على ثلاثمئة منشور ، وفي وقت واحد كتبت الأمثلة ، ونُزّلت ، وعلم السلطان عليها ، وكُتبت المناشير وعُلم عليها ، وسلمت لأصحابها بعد تحليفهم بين يدي السلطان ، كل هذا في بعض يوم ، وكتبت تواقيع لأهل مناصب دينية ، وديوانية . وأجرى أرزاق الناس على ما كانت عليه ، وجرد بها جماعة من البحرية ، والظاهرية واستناب الأمير عز الدين أيدمر ، أستاذ الدار ، بالكرك ، وكتب له تقليد بذلك ، وأضاف اليه النظر على الشوبك وأعمالها ؛ وحلف مقدمي المدينة ، وكذلك نصاراها [ب / ١٦٢] حلفهم بالإنجيل؛ وقال لأهل الكرك : « اعلموا أنكم اسأتم إلي في الأيام الماضية ، وقد اغتفرت لكم ذلك لكونكم ما كاتبتوني ، ولا خامرتم على صاحبكم ، وقد ازددتم بذلك محبة إليّ ، فتناسوا الحقود ، والضغائن ، ولا تقيموا فتنة فيما بينكم » . وأحضر الأمير عبية[1] وغيره من بني مهدي وبني عقبة ، وقال : « يا عبيّة ! أنا كنت بالأمس أحسن اليك ، وأسامحك بما جرى منك ومن غيرك لأجل الكرك حتى حصلت ،

---

١ « عتبه » مفرج ٢/٤٢٠ .

والآن والله ما يروح لأحد خيط إلاّ آخذه منك ، وأمسك رقبتك عليه ؛ وأهل[1] هذه البلاد ما يشرب أهلها إلاّ من صهاريج من ماء المطر ، ومتى شرب العربان منها ، وسقوا خيولهم فرغت سريعاً ، فيعطش أهل القرية[2] وتخرب » .

ورسم بأن أحداً من العربان لا يشرب ، ولا يسقي خيله من صهريج . وضمنهم خفر البلاد إلى الحجاز ، وطاف على القلعة والمدينة من خارجها وباطنها . ورسم بعمارة ما يحتاج إلى العمارة ، وكتب تذكرة بالمهمات ، وحمل اليها الزردخاناه التي كانت معه والمال والأغنام والشعير ، وغيره من سائر الأصناف والقماش ، وسبعين ألف دينار عيناً ، ومائة وخمسين ألف درهم نقرة ، وأعطى [ب / ٦٢ ب] الأمير عز الدين، استاذ الدار ، ثلاثين ألف درهم ، وجملة من القماش ، ونزل إلى المخيم ، ثم أصبح وطلع إليها .

وفي يوم الأربعاء توجه مسافراً إلى القاهرة فدخلها في سابع عشر رجب ، وزُينت المدينة أحسن زينة ؛ وشق السلطان المدينة ، وفرش له القماش الأطلس ، والعتابي ، والنسيج ، وخلع على الأمراء والمفاردة والمقدمين ، وجميع حاشيته وغلمانه، والمملوك كاتب السيرة . وكانت هذه السفرة من أعظم السفرات المسفرات عن السعادة المتضاعفة ، والنعمة المترادفة ، ولم يسمع أن ملكاً ساق في هذه الجيوش العظيمة إلى أبواب عكا وطعن في أسوارها ، وهدم ، وحرق ، وأخذ مثل الكرك ، ودبر أمورها وملك البلاد الساحلية ، واستخدم عليها ألوفاً من العساكر ، واستخدمهم جيشاً عظيماً للإسلام ،

---

١ يبدو أن « أهل » هنا زائدة .

٢ فيبعدون عنها إلى غيرها فتخرب مفرج ٢/٤٢٠ .

في مدة قريبة ، وهي من يوم خروجه من مصر إلى يوم دخوله اليها خمسة وتسعون يوماً ؛ وكيف لا ؟ والسعد قرينه ، ولطف الله يعينه .

ذكر السبب في امساك الأمراء

الرشيدي والبرلي والدمياطي

لما فوّض الله إلى السلطان أمر المملكة ساهم الأمير سيف الدين الرشيدي في كل [ب/ ١٦٣] شيء ، وأنفد كلمته، وأطلق له في كل جمعة خوانين من عنده ، يُمدّان له ، حتى ماء الورد إلى غير ذلك ، ورتب في كل شهر كلوتتين زركشا كل كلوته بخمسين ديناراً عيناً ، وكلهبندها [1] بأربعين ديناراً؛ وكل هذه زيادة على الإقطاعات العظيمة ، والمرتبات الكثيرة ، وعلى الانعام ، حتى جامكيات البزدارية [2] ، والفهادين ، وعليق خيلهم ؛ واشتغل الرشيدي بالشرب ، وحمى حاشيته أشياء كثيرة من البلاد وصارت تصدر منه أمور لا تسر ، والسلطان يكاسر عنها .

وأما الأمير عز الدين الدمياطي ، فإن السلطان أعطاه وزاده ، ومن جملة ما كان بيده نصف مدينة غزة زيادة [3] . ورأى أنه رجل كبير لا يتقدم أحد عليه ، وكتب له توقيعاً أنه إذا سافر في جميع المملكة لا يمنع شيئاً يطلبه في الشام من غزة إلى الفرات [4] .

١ «كلبندها» السلوك ١/٤٩٤ وفي النهاية «كلبنداها ، كل كلبند بأربعين ديناراً» .

٢ «البازدارية» النهاية ٢٠ .

٣ «زيادة على ما كان في يده» مفرج ٢/٤٢١ .

٤ «وأما الأمير شمس الدين البرلي فقد تقدم حديثه» مفرج ٢/٤٢١ .

ولما سافر السلطان إلى جهة الطور أحسن إلى هؤلاء الأمراء إحساناً كثيراً .

وبلغ السلطان أن نية الرشيدي قد فسدت وتغيرت ، فجعل عليه عيوناً تحفظ كل ما يجري منه ، ولما جرى ما جرى من طلب صاحب الكرك وصل الأمير شاركوه ، أستاذ داره[1] يقول : « ان كتاباً من الرشيدي وقاصداً حضر إلى [ب/ ٦٣ ب] عندي يقول[2]: « لا تحضر إلى السلطان فإنه يريد أن يمسكك » . وقد أمسكت القاصد . فكان جواب السلطان : « إن كان الملك المغيث قد حلف للرشيدي فلا يحضر ، وإن كان حلف لي فيحضر » . ولم يظهر السلطان للرشيدي شيئاً من ذلك . وسير السلطان الأمير بدر الدين بيسري الشمسي إلى جهة الكرك – على ما سيذكر[3] – فسير الأمير بدر الدين المذكور إلى السلطان يقول : « انني أمسكت كتاباً من الرشيدي إلى الكرك يقول لا يسلموا الكرك ، ويحسن لهم التوقف عن التسليم ، ويعرض عليهم الاتفاق معهم[4] ، على أنه يحضر اليهم هو ويتسلمها ، ويحفظها لهم ، ويكون هو عوناً لهم ، ويتفق معهم على إفساد الحال كله . فكتم السلطان هذا كله ، وأمر الأمير بدر الدين بيسري بالاحتراز والتحفظ .

ولما توجه السلطان إلى الكرك جعل على الرشيدي عيوناً ، فبلغ السلطان أنه لما نزل على الكفرين ونمرين طلب أنه يركب في مماليكه وأصحابه ، ويسبق إلى الكرك يدخلها هجماً ، فركب السلطان اليه ، ونزل عنده ، ولاطفه ، ومازحه ، وما أظهر له شيئاً من ذلك ؛ وركب السلطان وركب الرشيدي ،

---

١ « أمير جاندار الملك المغيث » النهاية ٢١ .
٢ « ويقول للملك المغيث » مفرج ٢/٤٢١ .
٣ راجع ما سيأتي الورقة ب ٦٤ أ (ص ١٦٨) .
٤ « معه » النهاية ٢١ .

ففاتت الحيلة . وجرد السلطان الأمير بدر الدين الأيدمري ، ومعه جماعة كبيرة [ب / ١٦٤] ، وأمرهم بالتقدم لحفظ الطرقات على الرشيدي لئلا يسبق إلى الكرك ، فحفظ عليه الطرقات . وجهز صحبة بدر الدين الأيدمري دهليزاً مخلعاً على البغال حتى يظهر للناس ما يخفي أفعالهم ، ويقضي بسكون النفوس ونزل السلطان بركة زيزا، فبلغه أن الرشيدي عازم على شيء من ذلك، وأنه ربما يركب ويسوق إلى الكرك، فعمل السلطان معه خديعة حسنة، وذلك أنه سير اليه أحد خواصه يبشره بأن الكرك قد تسلمت ، فلما سمع الرشيدي ذلك أظهر فرحاً ، وخلع على المبشر ، ووقف عن فعله وبطلت حركاته . وساق السلطان إلى الكرك ، واتفق ما قدره الله من فتوحها على ما ذكرناه [١] ، وترتيب قواعدها ؛ والسلطان لا يزيد الرشيدي إلاّ الإحسان والتقريب ؛ ولما وصلت الخيل من جهة العربان تقادم طلب منه ، فسير له خيلاً من أجودها .

ونزل السلطان غزة راجعاً فقام ليسبغ الوضوء سحراً على عادته وتفرقت الخاصكية للوضوء ، والتهيؤ لصلاة الجماعة على العادة ، وقام السلطان يتركع قبل الأذان ، وإذا بالرشيدي قد أقبل في مقدار ثلاثمائة فارس مستعدة من مماليكه ، والدمياطي والبرلي [ب/ ٦٤ ب]، فما احتفل السلطان بهم، ولا قطع صلاته ؛ وسلم ، ولبس سيفه ، ولم يجد أحداً حاضراً إلاّ الأمير شمس الدين سنقر الرومي ، فقال له السلطان : « ما الذي رأيت ؟ » قال : « جماعة ما جاؤوا في خير » . وبعدَ هذا حضر الأمير سيف الدين قلاوون الألفي بغير سيف ، إلاّ في وسطه تركاشة لأجل الصيد ؛ فأنكر السلطان ذلك منه ، ففهم ، وراح وشد سيفه ، وركب فرساً جيداً ، ووقف ،

---

١ راجع ما سبق ب ٦٠ – ٦١ (ص ١٦٢) .

وتراجعت الخاصكية والجماعة وركب السلطان ، فأتى الرشيدي فوقف قريباً من السلطان ، في مكان ما جرت عادته[1] بالوقوف فيه ؛ فحضر الأمير عز الدين أوغان[2] الركني ، فقال للرشيدي : « أراك في هذا المكان ، ما هذا مكانك يا سيف الدين » ؛ وأظهر أنه في مزح ، وما زال به حتى ساق من ذلك المكان ، وساق الدمياطي والبرلي ، وتفرقوا .

وكانت جرت من الدمياطي قضية أخرى ، وهي أن السلطان لما ملك الكرك ، ونزّل أولاد الملك المغيث أعطاهم السلطان خلعاً وأقمشة وإنعاماً كثيراً ، وأنزلهم في المنظرة التي في الوادي ، تحت الكرك ، قريباً من منزلة السلطان ، [ف] سير لهم الدمياطي ضوءًا وجماعة يبيتون حولهم ، بغير مرسوم ، إلاّ ابتداء من نفسه ، ثم حضر في [ب/ ١٦٥] الليل اليهم جماعة من مماليكه بالسيوف ، ملثمين ، وكسروا الصناديق ، وأخذوا القماش الذي كان السلطان أعطاهم اعتقاداً منهم أن تقوم فتنة في الليل ، وشوشة في العسكر ، ولا يعلم أحد أنهم مماليك الدمياطي ، وإذا عوتب الدمياطي في ذلك ، قال : « أنا سيرت حتى يحفظونهم[3] ، وسيرت الضوء » . فكشف الله ذلك ، وظهر القماش عند مماليكه الخواص ؛ فاطلع السلطان على القضية ، فتحدث معه الأمير شجاع الدين ، المهمندار ، فما سلمهم ، ولا أنصف منهم ، وقال : « أنا أغرم عنهم ما عدم » . وأحضر بعض القماش ، وقرر أن يقوم بدراهم عن بقية ذلك والسلطان ساكت ، لا يتكلم بكلمة ، إلا يحتمل هذا ويحترز على نفسه ؛ إلى أن دخل إلى مصر ، واستقر بها ، وأصبح

---

١ « في بالوقوف » ب .

٢ « ايغان » النهاية ٢١ .

٣ كذا وفي مفرج « من يحفظهم » ٢/٤٢٢ .

فطلب الرشيدي ، فاعتقله ، وطلع الأمراء إلى الخدمة في اليوم الثاني ، فأمسك الدمياطي والبرلي ، وحسم هذه المادة ، وأحسن إلى مماليكهم ، وخواصهم ، وأقرهم على أخبازهم ، ولم يغير على أحد منهم شيئاً ، ولا تعرض إلى بيوت الأمراء ، وزاد الأمراء الناصحين له على اقطاعاتهم ، وأمّر من يستحق الإمرة .

ذكر وصول رسل الأمير بركه [ب/ ٦٥ ب]

ثم وصل ولد الملك المغيث، وهو الولد الأكبر ، وإخوته وحرمه فأمّره السلطان بمئة فارس ، وخلع عليه ، وأعطاه طبلخاناه ، وأطلق لإخوته ، وحرم والده جميعهم كل ما يحتاجونه لهم ولغلمانهم ولمعارفهم ، وعمتهم [٣٥/ ب][1] الصدقات الشريفة للكبير والصغير ، وكذلك جميع المفاردة الكركية ، عوضهم عن مغلهم الذي كان في الكرك ، وأعطاهم الاقطاعات . وكان حضر اليه الأمير سيف الدين الزرزاري في رسالة بسبب تسليم الكرك[2] ، فرآه السلطان في بعض الأيام فطلبه وأعطاه ألف دينار عيناً ، طلب بها أملاكاً ، فكوتب عليها مكاتبة شرعية .

ولما وصل السلطان قريباً من غزة ، وهو عائد من الكرك ، وصل اليه البريد من الأمير عز الدين الحلي ، نائب السلطنة بالديار المصرية ، يذكر وصول الكتب من الاسكندرية ، بوصول رسل الملك بركة ، وهم : الأمير جلال الدين بن القاضي ، والشيخ نور الدين علي ، ومعهما جماعة ؛ ويخبره

---

١ هذه نهاية الجزء المأخوذ من ب راجع ب/٥٣ ب وما سبق ص ١٥٠هامش .
٢ « تسليم الملوك » مفرج ٢/٤٢٢ .

بوصول رسل الملك الأشكري ، ووصول مقدم الجنوية ، ورسل السلطان عز الدين ، صاحب الروم ؛ فكتب السلطان بالإحسان اليهم جميعهم .

ولما استقر السلطان في قلعته [ب/١٦٦] اجتمع بهم بحضور الأمراء، والناس ، وقرىء كتابه الذي على يد الأمير جلال الدين ، وكتابه الذي على يد الشيخ نور الدين ، ومضمونهما السلام والشكر ، وطلب الانجاد على هلاون ، والإعلام بما هو عليه من مخالفة شنكزخان ، وشريعة أهله ، وأن كل ما فعله من إتلاف[1] النفوس بطريق العدوان منه ، « وأنني قد قمت أنا واخوتي الأربعة لحربه[2] من سائر الجهات ، لإقامة منار الإسلام ، وإعادة مواطن الهدى [١/٣٦] إلى ما كانت عليه من العمارة ، وذكر الله والأذان والقراءة والصلاة ، وأخذ ثأر الأئمة والأمة » . ويلتمس انفاذ جماعة من العسكر إلى جهة الفرات لإمساك الطريق على هلاون ، ويوصي على السلطان عز الدين ، صاحب الروم ، ويستمد مساعدته ، وانفصل هذا .

وحمل إلى الرسل من الانعام ما لا يحصى ، ورسم بتجهيز الهدية إلى الملك بركه من كل شيء على اختلافه ، وعمل لهم في اللوق دعوة ، واستمر تفقدهما في كل يومي سبت وثلاثاء[3] — يومي لعب الكرة — بأصناف الانعام والأقمشة .

وكتب المملوك جوابه في قطع النصف في سبعين ورقة بغدادية ؛ فيه الآيات من كتاب الله تعالى ، وأحاديث [ب/ ٦٦ ب] رسول الله — صلى الله عليه وسلم ! — في الترغيب في الجهاد ، وما ورد في مصر من الأحاديث

---

١ « تلاف » في الأصل .

٢ « بحربه » ب .

٣ « ثلثاً » في الأصل .

والآيات وفي قتال المشركين والاقتداء بالنبي – صلى الله عليه وسلم ! – في الجهاد ؛ وفيه [من][1] ذكر مواطن العبادات ، ومواضع الزيارة ، في سائر البلاد التي دُعي له فيها ، شيء كثير ؛ وجمع هذا الكتاب من الترغيب والترهيب ، والاستمالة ، والإغراء ، والتعاظم عليه ، وإظهار الميل اليه ، ووصف كثرة جنود الديار المصرية ، وما هي عليه ، وزيادة عساكرها عن المعتاد ، وأنها كلها موافقة في نصرة الإسلام .

وقرأت الكتاب على السلطان بحضور جماعة الأمراء ، وهو يزيد فيه وكذلك الأتابك ممليه . ولما تكامل هذا الكتاب ، وتجهزت الهدية المباركة ، وهي :

« ختمة شريفة [٣٦/ ب] ذُكر أنها خط عثمان بن عفان ، رَضي الله عنه ! – بغلاف أطلس أحمر مزركش ، ضمن درج أدم مبطن بعتابي ، وكرسي لها عاج وأبنوس مخرم ، بسقط فضة ، وقفل فضة ؛ خروق بندقي كوامل عدة كبيرة ؛ نمزلوقات للصلاة[2] وسجادات ألواناً متنوعة ؛ أكسية لواتية الوانا عدة ؛ من الأديم الدسوت ، والأنطاع [ب/ ١٦٧] المسردقة ، وسفر الشمعدانات ، جملة كبيرة ؛ سيوف قلجورية باسقاط فضة ؛ دبابيس بنصب حديد مذهبة وغيرها ؛ خود فرنجية بأطراف[3] فضة ؛ طوارق مدهونة ؛ فوانيس بأغشية بندقي ؛ منجنيقات للشمع مدهونة ، بأغشية ؛ فوانيس فضة بأغشية بندقي ؛ صاروقات برسم الرماح ؛ للفوانيس الفضة كفايتها مشاعل جفتاه ، وقواعدها كفت ؛ جملة لجم كفت برؤوس مخروزة

---

١ مفرج ٢/٤٢٣ .
٢ كذا في مفرج ٢/٤٢٣ وفي الأصل « الصلاة » .
٣ « بأطواق » ب .

بشريط محلاة بفضة ؛ وكوابح [1] فضة مطلاة ؛ وأثفار محلاة ؛ وألباب سروج [2] خوارزمية ، ونمازينات برسمها ؛ جراوات برغالي مخروزة بشريط ، واسقاط فضة ؛ قسي حلق دمشقية ؛ أوتار حرير ؛ قسي بندق بأوتارها ؛ اجراخ ؛ جلود للقرود [3] البلق ؛ شمعدانات مطعمة بفضة ؛ رماح قني ؛ أسنة حديد عربية ؛ نشاب بديع الصنعة في صناديق مجلدة ؛ قدور برام ؛ قناديل كبار مذهبة ؛ رنك سلاسل فضة مطلاة ؛ خدام ؛ جواري طباخات ؛ نغانغ [4] عجيبة عدة ؛ خيل جياد سبّق ؛ عبي عربية كفايتها ؛ هجن نوبية نادرة ؛ دواب فُرَّه لا تلحق ؛ نسانيس معلمة ؛ أكوار للهجن كفايتها ؛ مقاود [٣٧/ ا] بسلاسل ؛ اجلال قص للدواب ؛ وملاليط [ب/ ٦٧ ب] خطاي للنسانيس ؛ زراف جل كله قص ممغور مصور » .

وسير من ذلك كله عدد كثير ، وغير ذلك أشياء مستطرفة وتحف مستغربة ، ولطائف لا يوجد مثلها في خزانة ملك كبير ؛ وصحبتها غلمان ، ومن يقوم بهذه الحيوانات . وسلم جميع ذلك لرسل السلطان ، واهتم به اهتماماً كثيراً ، كل هذا لمصلحة الإسلام .

وجهز الأمير فارس الدين أقوش المسعودي ، والشريف عماد الدين الهاشمي ، رسولين إلى الملك بركه ، وأصحبهما هذه الهدية ، وألبس رسله الفتوة من مولانا الخليفة — سلام الله عليه ! — واحضرهما خطبته والصلاة خلفه ، والاجتماع به للحث على إقامة فريضة الجهاد ؛ وحملهما من الوصايا

---

١ كذا في الأصل .
٢ « شروج » ب .
٣ « القرود » ب .
٤ بعابع : جامع التواريخ لليافعي ١٧٩ .

للملك بركه ، والمشافهة ، والشكر لمساعي السلطان ، وما هو بصدده من إقامة الشريعة ، وسد الذريعة ، ورفع منار الدين ، وجهاد المشركين ، وملازمة العفاف ، ومعاملة الرعية بالعدل والإنصاف وما جمعه من العساكر والجنود التي ليس لها أوّل ولا آخر ، ما يعيدانه على الملك بركه . وجهز لهما طريدة عظيمة جمعت من أصناف الحيوانات المسيرة هدية ، وما فيها من الأشياء الفاخرة، وجهز لهما عدة [ب/١٦٨] كثيرة من الرماة والزراقين، والجرخية، وحمل معهم مؤونة سنة . وتقدم بأن يزار بهم مواطن العبادات ، وكتب السلطان بأن يدعى له بمكة – [٣٧/ ب] شرفها الله ! – والمدينة المنورة – على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ! – والبيت المقدس ، وأن يدعى له بعده في الخطبة ، وسير إلى مكة – شرفها الله تعالى ! – عمرة شريفة – كتبتُها – يعتمر له بها . وسافروا في سابع عشر رمضان سنة إحدى وستين [وستمئة] ، وقد شاهدوا من عظمة السلطان ما بهر عقولهم .

ذكر توجه السلطان إلى الإسكندرية

في سادس شوال سنة إحدى وستين وستمئة توجه السلطان إلى الصيد ، فعدى من الجيزية ، وصحبته خواص دولته الزاهرة ، وأوليائه المتناصرة ، ووصل إلى تروجة أقام[1] بها أياماً ، ثم دخل البرية يتصيد ، ويضرب حلقة صيد ، فحصل له من ذلك شيء كثير ؛ واهتم بأمر المياه ، والتساوي في وردها ، فولى أمرها أحد حجابه شجاع الدين الزاهدي ، وأحضر من

---

١ كذا بدلا من « فأقام » .

الاسكندرية الرجال لحفر الآبار ونزحها من الأكدار .

ولما قضى وطره من الصيد ورجع ، وقد سفك من دماء الوحوش ما عادته يسفكه من دماء أعداء الدين ، عاد إلى تروجة[1] ، وتوجه [ب ٦٨ ب] منها إلى الاسكندرية ، وكان الصاحب الوزير بهاء الدين قد سبق إلى الاسكندرية ، فأحسن إلى أهلها ، وحصّل جملاً كثيرة للخزانة العالية ، ومن جملة ما حمل خمسة وتسعين [كذا] لفة قماشاً ، وحصّل [٣٨ / ١] من الأموال ما لا يحصى كثرة ، ولم يضرب أحداً .

وضرب السلطان خيمته خارج المدينة ، ونادى بأن لا يقيم في الثغر جندي ، ولا ينزل أحد في دار ، فحصل للناس بذلك رفق ، واستقر الناس في أوطانهم . وفي يوم الأربعاء[2] مستهل ذي القعدة دخل السلطان الاسكندرية من باب رشيد ، وتلقاه أهل المدينة ، واستدعى الخزائن والأمتعة ، وشرع في تعبية ما يعبيه الأمراء ، على قدر مراتبهم ، ورسم بمكتوب برد مال السهمين[3] ، وصلة أرزاق الفقراء . وكان أهل الاسكندرية قد كثر ألمهم بسبب استخراج ربع دينار على كل قنطار يباع ، فحطه عنهم وأبطله عن الرعية ، ولعب الكرة ، فخلع على الأمراء ، وأعطى الأتابك ثلاثة[4] آلاف دينار ، وأعطى الأمراء مثل ذلك وأقل من هذه الجملة على طبقاتهم إلى مائة دينار .

وركب السلطان لزيارة الشيخ الصالح القباري ، وحضر شخص ،

---

١ تروجة : قرية بمصر من كورة البحيرة من أعمال الاسكندرية أكثر ما يزرع بها الكمون ، وقيل اسمها ترنجة . ياقوت ٢/٣٨٤ .

٢ لاحظ عدم تطابق الأيام مع التواريخ في هذا الشهر في هذه الصفحة وما يليها .

٣ مال السهمين : السلطان الكامل الأيوبي خصص سهمين أحدهما للفقراء والثاني للمحتاجين تدفعان من الزكاة . السلوك ١/٢٦٠ .

٤ « ثلاثة ألف » في الأصل .

وقال : « إن الشيخ استؤذن على حضور السلطان اليه ، والطلوع إلى قصره [ب/ ١٦٩] فأذن » . ثم حضر آخر ، وقال : « لا سبيل إلى الطلوع ، ولا إلى كلامه إلاّ من أسفل البستان » ، وأتى لزيارة الشيخ الشاطبي ، وعاد في البحر إلى سرير سلطانه .

وكان قد حضر شخص يقال له ابن البوري ، وادعى أن بالثغر أموالاً ضائعة ، وأعطاه بها أوراقاً . وكذلك رجل آخر يعرف بالمكرم بن الزيات ، كتب أوراقاً ، فاستدعى السلطان ، في يوم الثلاثاء[1] ، سابع ذي القعدة [٣٨/ ب] الأتابك والصاحب والقاضي والفقهاء، وقرئت الأوراق وصار السلطان كلما فتح له باب مظلمة سده ، ويعود على المذكورين بالانكار ؛ ولقد قال السلطان : « اعلموا أنني تركت لله ، ستمئة[2] ألف دينار من التصقيع والتقويم ، والراجل والعبد والجارية وتقويم النحل[3] ، وعوضني الله من الجهات الحلال أكثر منه ، وطلبت جرائد الحساب ، فزادت بعد حط المظالم جملة ، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً » . وأمر بإشهار ابن البوري .

وجلس السلطان يوم الخميس تاسع[4] ذي القعدة بدار العدل ، وبسط المعدلة ، وأمر بعد ذلك بتطهير الثغر من الخواطي الفرنجيات . وفي يوم الاثنين الثالث[5] عشر من ذي القعدة توجه السلطان سائراً إلى مستقر ملكه

---

١ « الثلاثاء سادس » في الأصل .

٢ كذا في ب أما في الأصل فهي « لله سبحانه ألف » .

٣ « النخل » ب

٤ كذا في النهاية ٢٢ أيضاً أما في الأصل فهي « ثامن » .

٥ « حادي عشر ذي القعدة » في الأصل .

[ب ٦٩/ب] ونزل تروجة، وأمر عربانها بالسباق بالخيل ، فاجتمع من عربها لا غير ألفا فارس، واجتمع اليها جملة من خيل العسكر وكان مداها من المرقب إلى التل ، قريب تروجة . ووقف السلطان بالتل ، وأوقف الرماح ، وعليها الثياب الأطلس والعتابي ، وفيها المال ، فلم يكن غير ساعة وإذا بالخيل قد أقبلت كأنها العقبان ، فأخذ كل راكب خصل السباق ؛ ولم تطمح عينه إلى شيء من الخيل .

وفي يوم الأربعاء ثامن [1] ذي القعدة وردت الكتب من جهة البيرة ، وحلب ، بأن جماعة مستأمنة واردة إلى الباب العزيز فوق الألف وثلاثمائة فارس من المغل والبهادرية [٣٩/ا] فكتب السلطان بالإحسان اليهم .

ولما حل السلطان بر مصر زاد النيل ، واستمرت زيادته :

«لا عجب للنيل ان زاد من بعد انتقاص كان منه الحذار
فمقدم السلطان وافى به وإنما السحب تمد البحار»

ولما وصل السلطان من الاسكندرية إلى مقر ملكه أعاد الفكرة في قضاء الثغر المحروس ، ورأى توليته لرجل غريب ، فوقع الاختيار على الفقيه العالم برهان الدين المالكي ، وهو رجل زاهد عابد ، يأوي في مسجد بمصر ، فقلده القضاء [ب/ ١٧٠] بالاسكندرية ، وتوجه اليها . وفوض الخطابة للقاضي زين الدين بن أبي الفرج الذي كان حاكماً ، وصلح الحال بهذا التدبير .

وفي أواخر ذي القعدة من هذه السنة نزل السلطان إلى القاهرة فعاد الأمير سيف الدين قلاون الألفي ، والأمير علاء الدين الحاج ايدغدي الركني ،

---

١ «سابع ذي القعدة» في الأصل .

والأمير حسام الدين بن بركه خان[1] . وفي ليلة الأربعاء الخامس من ذي الحجة منها توفي الأمير حسام الدين بن بركه خان ، ونزل السلطان وحضر جنازته ، ومشى فيها .

ذكر وصول التتار المستأمنين

قد تقدم ذكر اهتمام السلطان بوصول التتار[2] ، وتجهيز الاقامات لهم . وفي يوم الخميس السادس[3] من ذي الحجة وصلوا، فركب السلطان [٣٩/ب] لتلقيهم والملائكة والملوك به محيطة ، والملة الإسلامية به محوطة . ولما قرب التتار ، وشاهدوا السلطان ، وهو كالبدر ليلة كماله ، والاسد بين أشباله ، نزلوا وقبلوا الأرض .

قال كاتب السيرة : « الواجب الدعاء للملك نصر الإسلام ، وأعزه بعد الاهتضام، فإنه فرق بين ملك تقبل ملوك التتار الأرض بين يديه وهو راكب ، وبين ملك كانت التتار [ب/ ٧٠ ب] تطلب منه حضور الحرم في المشارب، وبين ملك تهادنه ملوك الإسلام ، والكفر تطلب منه الرضى والغفران ،

---

١ حسام الدين بركه خان هو ابن دولة خان الخوارزمي ووالد زوجة بيبرس (ابن شداد ١٩٤) وورود اسم بركه هنا هو سبب وقوع بعض المؤرخين المعاصرين في اللبس عندما اعتقدوا أن حسام الدين هو ابن بركه رئيس القبيلة الذهبية المغولية (هورث ١٢١/٢) وان بيبرس قد تزوج ابنة رئيس القبيلة الذهبية (لين پول ٢٦٦) (وجمال الدين سرور في الظاهر بيبرس ١١٣ والدكتور حسن إبراهيم حسن في مقدمته له ٤) .

٢ راجع ما سبق الورقة ٣٠ أ (ص ١٣٧) .

٣ السادس والعشرين ، النهاية ٢٢ .

وملوك تهادي ملوك الكفر تطلب منهم الأمن والأمان ، وبين ملك تسلم من الكفر البلاد والحصون ، وبين ملوك سلموا للكفر من البلاد والقلاع والحرم والأولاد والأموال كل مصون » .

وكان قد عمرت لهم مساكن باللوق فأنزلوا بها ، وفي يوم السبت لبسوا الخلع ؛ واتفق أن السلطان نزل إلى عند[1] حسام الدين بن بركه خان ، ووافوه عند باب الجامع الصالح ، وشاهدوا على باب زويلة رأس كتبغا نوين ، مقدم عسكر التتار ، المقتول بعين جالوت ، وغيره من أكابر التتار المعلقة على علو الباب ، فنظم المملوك :

« يا مليكاً له الحسام المبيد	وكريماً[2] له العطاء[3] المفيد
لك سيف به الغوي شقي	ونوال به الولي سعيد
شاهد الناس منك يا ملك الأر	ض أموراً بها[4] يلين الحديد [١/٤٠]
شاهدوا منك إذ ركبت من الصا	لح[5] نصراً به يموت الحسود
فرؤوس على الشراريف[6] قتلى	ورؤوس على التراب سجود
حين وافى التتار في خلع منـ	ـك ، وكل صنائع وعبيد [ب/١٧١]
ورأوا منهم رؤوساً على السو	ر بحكم الرماح أمست تميد
هذه قد عصت وهذي أطاعت	هكذا هكذا تكون السعود

---

١ « إلى قبر » السلوك ١/٥٠١ .
٢ كذا في ب وفي الأصل « كريم » .
٣ « العطايا » في الأصل .
٤ « لها » شافع ٤٣ .
٥ « جامع الصالح » في الأصل .
٦ « على الشرائف » شافع ٤٣ .

دمت ترقى لك الجباه[1] صعيدا كل يوم لها اليه صعود »

وأقاموا في الإحسان يتقلبون ، وكل منهم يقول لما يشاهد من الخير : ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ! ﴾[2] .

ووصلت الكتب بقدوم جماعة أخرى كبيرة منهم ، فاحتفل السلطان بهم ، وركب لتلقيهم ، ثم ورد جماعة أخرى ، فاعتمد معهم هذا الاعتماد . وكان الواصل إلى الخدمة ، في هذه الثلاث مرار ، من أمرائهم الأكابر : كرمون أغا ، وهو الذي فتح بلاد الترك جميعها ، وامتعا[3] أغا ، ونوكا أغا ، وجبراك أغا ، وقنان أغا ، وطبشور ، وتاسفيه ، وبهتو[4] ، وصجتى ، وخوجلا واجقرقا ، وارقرق ، وصلاغيه ، ومصدم[5] ، واجتمعوا بمن كان وصل قبلهم من أمراء التتار ، وهم صراغان أغا ، ومن كان معه ، وصار كل منهم لوقته أميراً . ثم ان السلطان عرض عليهم الإسلام ، فأسلموا على يده الشريفة وطهروا جميعهم؛ فنظم المملوك في ذلك : [٤٠/ ب] .

« يا مالك الدنيا الذي أضحى صلاحاً للأمم
يا من محا بالعدل ما للظلم فينا من ظلم [ب / ٧١ ب]
يا من تساق لـه التتا ر غنيمة مثل الغنم
خافوا سيوفك ، انها ستسوقهم نحو النقم
فأتوا لبابك كلهم يأوون منه إلى حرم

---

١ « الحباه » في الأصل .
٢ « القرآن الكريم » يس ٢٦ .
٣ كذا في النهاية ٢٢ وفي الأصل « وامتماغا » .
٤ كذا في الأصل .
٥ كذا في الأصل .

أمنوا به مما يُخا ف من البلايـا والسقم
جعلوا جنابك جُنة ، وثرى خيولك مُستلم
بسطوا يميناً للهدا ية طالما خضبت بدم
أعطيتهم ما للمؤ لفة القلوب من القسم
لا زلت يا ملك الزما ن لك الملوك من الخدم »

وفي هذه السنة تقدم بهاء الدين ، أمير آخور[1] ، أحد ترابي السلطان وخواصه ، بضرب أحد منادية سوق الخيل ، لأمر جرى منه فيما يتعلق بالاسطبلات وما يشترى لها من الخيل ، فضُرب ، وحُمِل إلى بيته ، فمات ؛ فعز هذا الأمر على السلطان ، فهرب بهاء الدين واستخفى ، واستتر عند الأمير سيف الدين قلاون الألفي ، لتقع فيه شفاعة ، فدخل على الأتابك ، فأخرج لأولاد المتوفي من ماله خمسة آلاف درهم ، ومائة أردب غلة ، وكسوة ؛ فأبرأه مستحقو الإرث ، وأقروا أن أباهم مات بقضاء الله وقدره [٤١/١] ودخل الأتابك وتحدث في أمره ، فغضب السلطان ، فقال له الأتابك[2] : « تغضب للشرع [ب/ ٧٢ ب] الشريف والشرع معنا ، فإن كان هذا قتل عمداً أو خطأ فهذا الإبراء » . وعند ذلك شفع الأمراء الأكابر ، فسكت السلطان سكوت من أسكته الحق . وهذا فعله في حق أقرب أوليائه اليه ، فكيف الأباعد ؟

وفي هذه السنة أمر بعمل جامع خام ، يضرب على يمنة الخيمة السلطانية

١ أمير آخور : آخور كلمة فارسية بمعنى المذود وهي مركز تجدد أيام الظاهر وصاحبه يتحدث عن اصطبل السلطان وخيوله . النجوم ١٨٥/٧ وصبح ١٨/٤ .

٢ في الأصل « السلطان » إلا أن كلمة « لعله الأتابك » وكلمة « هكذا » قد كتبتا في الهامش فوق كلمة « السلطان » التي صادف مجيؤها في أول السطر .

وعمل له محاريب ، وعدة أبواب ، وعملت فيه مقصورة برسم صلاة السلطان.

وفي هذه السنة وصلت رسل اليمن بتقادمه ، وذكر الرسل أن معهم هدايا لخواص الأمراء تقرباً لخاطر السلطان ، فأمر بإنفاذها إلى من عُينت له ، وأذن للأمراء في قبولها .

وفي هذه السنة عرض السلطان العساكر ، وجلس لذلك في كل خميس واثنين ، ولم يجر عرض أحد حتى حقق النظر ، وأي جنديّ اشتكى من مخدومه أمر بإنصافه منه .

وفي هذه السنة نظر السلطان في كثرة الناس ، وأن القاهرة هي دار الملك ، وقد جمعت أهل المذاهب من العلماء ، فأمر بنصب أربعة قضاة نواباً لقاضي القضاة تاج الدين ؛ فاستناب قاضياً حنفياً ، وقاضياً مالكياً ، [ب/ ١٧٢] ولقلة الحنابلة لم ينصب قاض حنبلي ، بل جُعل لهم عاقد ؛ فوجد الناس بذلك راحة .

وفي هذه السنة جهز السلطان عرب خفاجة ، وسير الخلع إلى كبراء العراق ، وكتب إلى صاحب شيراز ، وغيره [٤١/ ب] ، بالإغراء بهلاون . وكانت وصلت جماعة من أمراء خفاجة ، فألبسهم الفتوة ، وجهز معهم عز الدين أيدمر الأتابكي رسولاً إلى شيراز ، وغيرها ، صحبة أمراء عرب العراق .

وأمر السلطان بعمارة دار العدل تحت قلعة الجبل ، وتجديد بنائها .

واستهلت سنة اثنتين وستين وستمئة .

فاستفتحها السلطان بالعدل والإنصاف ، وحضر إلى دار العدل فوقف

له ناصر الدين بن أبي نصر ، وشكا أنه أُخذ له بستان في الأيام المعزية ، وهو بأيدي المقطعين ، وأخرج كتاباً مثبوتاً ، وإخراج حال من ديوان الجيوش المنصورة بأن بستانه ما هو من حقوق الديوان فأمر برده عليه ، فرد إليه ما كان غُصب من حقه ، وأطلع نجم الحق من أُفقه .

وأُحضرت ورقة مختومة ، فكشف عمن أحضرها ، فوجد محضرها خادم أسود ، فقرئت ، فوجد فيها رفاعة في القاضي شمس الدين شيخ الحنابلة ، يذكر فيها أنه يَتَغُض من السلطان [ب / ١٧٣] ، ويتمنى زوال دولته ؛ وسبب ذلك أن السلطان ما جعل للحنابلة مكاناً في المدرسة الجديدة ، ولا جعل حنبلياً قاضياً ، وتحدث في أشياء قادحة في الشيخ المذكور ، فقرئت على الشيخ المذكور ، فحلف أن ذلك ما جرى منه ، وقال : « هذا الخادم كان يخدمني وطردته » . فقال السلطان : « ولو شتمتني أنت في حل » . وأمر بضرب الخادم ، فضرب مائة عصا .

وأمر بأن [٤٢/أ] ينادى في القاهرة ومصر بأن امرأة[1] لا تتعمم بعمامة ولا تتزيا بزي الرجال ، ومن فعلت[2] ذلك بعد ثلاثة أيام تسلب ما عليها من الكسوة .

وفي صفر من هذه السنة وصل الحجاج مخبرين بأنه خطب للسلطان بمكة ، وتسلم الصدر جمال الدين حسين بن الموصلي ، كاتب الإنشاء الشريف المتوجه إلى مكة نائباً بها ، مفتاح البيت الشريف ، وقفله بالقفل المسير صحبته ، وأباح البيت الشريف ثلاثة أيام بغير شيء ، ولا يؤخذ من أحد درهم واحد . وكتب الله له هذه الحسنة التي عامل الرعية فيها بالإحسان

---

١ كذا بدلا من « بألا تتعمم امرأة .

٢ « فعل » في المخطوطة .

والحسنى ، وجَعَلَ البَيتَ مَثابَةً لِلنّاسِ وَأمنا [1] .

وفي أوّل هذه السنة طلب الطواشي شجاع الدين مرشد الحموي ، فحضر ، فتحدث السلطان معه في اشتغال صاحب حماه [ب/ ٧٣ ب] بالملاذ ، وقال له : « قد كتبت إليه أنبّهه من هذه الغفلة ، وطلبت شرف الدين عبد العزيز شيخ الشيوخ ، وسيرته إليه في هذا الأمر ، فما أفاد » . وقال له : « أنا اعتمدت عليك في مصلحة هذا البلد لما فيك من دين وخير وشجاعة » . وقرر معه أنه يلتزم بتكميل الاستخدام ، وأن يلزم الأجناد باقامة اليزك [2] ، والعدة الكاملة ؛ فالتزم بهذه الأمور ، وكُتب له تقليد شريف ، وتوجه .

وفي يوم الأحد الخامس من صفر من هذه السنة اجتمع أهل العلم بالمدرسة الملكية الظاهرية ، وحضر القراء ، وكان [٤٢/ ب] قد فوّض تدريس الحنفية للصدر مجد الدين بن الصاحب كمال الدين بن العديم ، وتدريس الشافعية للشيخ تقي الدين بن رزين ، وتصدُّر الاقراء للفقيه كمال الدين المحلي ، والتصدر لإفادة الحديث النبويّ للفقيه شرف الدين الدمياطي . وذُكرت الدروس كل واحد في إيوانه ، ومدت الأسمطة لهم ، وأنشد سراج الدين الوراق قصيدة منها :

مليك له في العلمِ حب وأهلِه ... فلله حب ليس فيه ملام
فشيدها للعلم مدرسة غدا ... عراق إليها شيق وشآم
ولا تذكرن يوماً نظامية لها ... فليس يضاهي ذا النظام نظام [ب/ ٧٤ ا]

---

١ راجع « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » القرآن الكريم البقرة ١٢٥ .

٢ اليزك أو اليزاك باللغة الفارسية العسس ، وفي ابن العبري (٤٧٢) وابن واصل (٤٣٨/٢) ما يدل على انها تعني الكشافة أو من يتقدمون الجيوش لمعرفة أحوال العدو أو حراس الحدود .

ولما بناها زعزعت كل بيعة متى لاح صبح ما استقر[1] ظلام
ومذ برزت كالروض في الحسن أنبأت بأن يديه في النوال غمـام
ألم تر محراباً كأن أزاهراً تفتح عنهن الغداة كمام

وأنشد جمال الدين يوسف بن الخشاب :

قصد الملوك حماك والخلفاء فافخر فإن محلك الجوزاء
أنت الذي أمراؤه بين الورى مثل الملوك وجنده أمراء
ملك تزينت الممالك باسمه وتجملت بمديحه الفصحاء
وترفعت لعلاه خير مدارس حلت بها العلماء والفضلاء [٤٣ / أ]
يبقى كما يبقى الزمان وملكه باق له ولحاسديه فناء
كم للفرنج وللتتار ببابه رسل مناها العفو والاعفاء
وطريقه لبلادهم موطوءة وطريقهم لبلاده عـذراء
دامت له الدنيا ودام مخلداً ما أقبل الإصباح والإمساء

وأنشد جمال الدين أبو الحسن الجزار :

ألا هكذا يبني المدارس من بنى ومن يتعالى في الثواب وفي الثنا
لقد ظهرت للظاهر الملك همة[2] بها اليوم في الدارين قد بلغ المنى [ب/٧٤ب]
تجمع فيها كل حسن مفرق فراقت قلوباً للأنام وأعينا
ومذ جاورت قبر الشهيد فنفسه النفيسة منها في سرور وفي هنا
وما هي إلاّ جنة الخلد أزلفت له في غدٍ فاختار تعجيلها هُنا

فرسم لهؤلاء الشعراء بالتشاريف .

---

١ « فاستقر » في الأصل .
٢ « نعمة » شافع ٤٧ .

وفي صفر من هذه السنة خرج متصيداً إلى جهة أوسيم ، وتوجه منها إلى الغربية ، وشكا أهلها من واليها ابن الهمام ؛ وصار السلطان يركب للصيد ، ثم ينفرد وحده متخفيا [1] ، ويسأل عن حال المذكور ، وحال نوابه ، وغلمانه ، وعن المباشرين ، ولما تحقق سوء اعتماده أمسكه وأدبه وعزله ، وولّى غيره . واطلع على أن رجلاً من النصارى القبط ، يعرف بابن خلوف ، يظلم الناس ويؤذيهم ، فأمر بإمساكه وشنقه . قال مؤلف السيرة : « وكان المذكور نقل عنه تعرض إلى ذكر [٤٣/ب] رسول الله – صلى الله عليه وسلم ! – بما لا يليق بشرف النبوة فأسلم ثم ارتد .

وتوجه السلطان إلى دمياط ، وزار البرزخ ، ثم عاد إلى أشموم ، إلى منزلة ابن حسون ، وتصيد بها ، ثم عاد من جهة الشرقية .

وفي يوم الجمعة حادي عشر صفر من هذه السنة توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد [ب/ ١٧٥] شيركوه بن الأمير ناصر [2] الدين محمود بن أسد الدين شيركوه بن شادي – رحمهم الله تعالى ! – ولم يكن له ولد ولا أخ ، ولا وليّ عهد ، [وكان حينئذ صاحب حمص] [3]، فسير السلطان إلى نوابه بتسليمها ، فوصل البريد في سابع عشر من صفر بأن بدر الدين بيليك العلائي ، أحد الأمراء ، قد تسلمها ، وحلّف الناس بها للسلطان ، وكذلك الرحبة ، والدير ، وكان المسيّر إلى الرحبة خاصة عشرين ألف دينار عيناً .

وفي هذا التاريخ ورد كتاب الأمير جمال الدين النجيبي يذكر أنه ولي

---

١ « مختفياً » في الأصل .
٢ « بدر الدين » شافع ٤٨ .
٣ شافع ٤٨ .

حران للأمير جمال الدين الجاكي ، وولّى الرقة لأمير آخر .

وفي هذا الشهر سأل الفرنج نواب السلطان أنهم يأذنون لهم في زراعة البلاد وتقويتها من أموالهم ، وهي جملة كبيرة من الغلات ، فتقررت الهدنة معهم إلى أيام الحصاد ، وهي مصلحة ظاهرة لأنهم يخرجون من ذخائرهم جملة من الغلات ، وتكون كما قال الله تعالى : ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[1] . وعند استوائها تحصد سيوف الإسلام رؤوسهم قبل [٤٤/ا] حصادها ، وينفذ أمر الله فيهم قبل نفاذهم في إنفاذها .

وفي شعبان من هذه السنة أمر السلطان بتكملة عمارة بئر الليونة قريب الاسكندرية .

وفي [ب/ ٧٥ ب] هذه السنة بلغ السلطان ان صاحب دهلك ، وصاحب سواكن يتعرضان إلى أموال من يتوفى من التجار في تلك البحار ، فسير إليهما بدر الدين بن الداية ، أحد رجال الحلقة ، رسولاً بهذا السبب ، وبالانكار عليهما لتعرضهما لأموال من يتوفى من التجار .

وفي هذه السنة ثُمّن القرط الذي قضمته الخيول السلطانية ، وجمال المناخات ، فكان ثمنه خمسين ألف دينار . قلت وكثرة الخيول قد ندب إليه الله ، وأشار في كتابه العزيز إلى الاستكثار منها ، قال الله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِباطِ الخَيْلِ﴾[2] . وقال النبي — صلى الله عليه وسلم ! — : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » . « والخيل

---

١ القرآن الكريم ، الانفال ٣٦ .
٢ القرآن الكريم ، الانفال ٦٠ .

لثلاثة : هي لرجل أجر ، وللآخر ستر ، ولآخرِ وزر ؛ فأما التي هي له أجر ، فرجل ربطها في سبيل الله ، فما غيّبت في بطونها فهو له أجر ، ولو رعاها في مرج كان له بكل شيء غيبت في بطونها أجر ، ولو استنت شرفاً أو شرفين كان له بكل خطوة خطتها أجر ، ولو عرض له نهر فسقاها منه كان له بكل قطرة غيّبها في بطونها أجر ، حتى انه ليذكر الأجر في أرواثها [ب/١٧٦] وأبوالها ؛ وأما الذي هي له ستر ، فرجل يتخذها تعففاً وتكرماً وتجملاً [٤٤/ ب] ، ولا ينسى حق ظهورها وبطونها في عسرة ويُسرة ؛ وأما الذي هي عليه وزر ، فرجل يتخذها أشراً وبطراً ، ورئاء الناس ، وبذخاً عليهم » . وقد علم كل أحد أن هذا السلطان لا يربطها إلاّ في سبيل الله تعالى ليركب عليها المجاهدين ، فكم له من أجر — جعله الله من أكبر الذخر ! —

ذكر جلوسه بدار العدل عند غلو الأسعار

في شهر ربيع الآخر من هذه السنة غلت الأسعار ، ووصل الأردب إلى قريب المائة درهم نقرة ، فرسم السلطان بالتسعير طلباً للرفق ، فاشتد[1] الحال ، وعُدم الخبز ، فأمر السلطان بالنداء باجتماع الفقراء تحت القلعة . وفي يوم الخميس سابع ربيع الآخر نزل إلى دار العدل ، فأول ما تحدث فيه أمر الغلة ، وبطّل التسعير ، وكتب إلى الأهراء ببيع خمسمئة أردب كل يوم ، بما يقدره الله تعالى من وَيْبتَين فما دونهما لئلا يشتري منه الخزان ، بل يباع على الضعفاء والأرامل ؛ ونزل حجابه إلى تحت القلعة ، وكتب[2]

---

١ « واشتد » ب .

٢ « وكتبت » النهاية ٢٣ .

أسماء الفقراء ، وسير إلى كل جهة حاجباً لكتب الاسماء [ب / ٧٦ ب] في القاهرة ومصر وحواضرهما ، وقال : « والله او كانت عندي غلة تكفي هذا العالم لفرقتها » . فلما عُدّ العالم وحُصروا أخذ منهم السلطان ألوفاً ، وأعطى لنواب ولده الملك السعيد كذلك [١/٤٥] وأُحضر ديوان الجيوش المنصورة، وكتبت الأسماء ، وأعطى لكل أمير جماعة على قدر عدّته، وفرق الفقراء على الأمراء والأجناد ، ومفاردة الحلقة والمقدمين والبحرية ، وعزل للتركمان ناحية ، وكذلك الأكراد والبلديين ، ورسم بأن يعطى لكل فقير كفاية مؤونته مدة ثلاثة شهور ؛ وتسلم نواب الأمراء الفقراء ، وكذلك الأكابر والتجار والشهود والناس على اختلاف أحوالهم . وكان في هذا الفعل ستر الوجوه عن الكِدية . وقال السلطان : « هؤلاء المساكين جمعناهم اليوم ، وقد انقضى نصف النهار ، فليعط كل منهم نصف درهم يتقوت به خبزاً ، ومن غد يتقرر الحال » . فأنفقت فيهم جملة كبيرة لهذا القدر خاصة . قال الله تعالى ، فيما ورد من الأخبار : « الراحمون يرحمهم الرحمن ؛ ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » . وأخذ الصاحب جماعة العميان ، وأخذ الأتابك التركمان ، ولم يبق أحد من الخواص ولا من الحواشي ولا من الحجاب والولاة ، وأصحاب المناصب [ب / ١٧٧] ، وذوي المراتب والثروة حتى أخذ جماعة ، وذلك بحسن تلطف من السلطان . وقال لصارم الدين المسعودي ، والي القاهرة : « خذ مائة فقير ، أطعمهم لله ! » فقال : « فعلت ذلك وأخذتهم دائماً » . فقال : « ذلك فعلتَه ابتداء من نفسك ، وهذه افعلها لأجلي ! » فأخذ مائة فقير ، وشرع الناس في فتح الأهراء [٤٥ / ب] والمخازن ، وتفرقة الصدقة .

قال[1] مؤلف السيرة : ولقد وصل الأردب القمح في الغلاء الكائن في

---

١ « قلت » في ب .

سنة سبع وتسعين وخمسمئة في الأيام العادلية بولاية عهد الملك الكامل إلى ثمانين درهماً نقرة كل أردب ؛ وأكل الناس بعضهم بعضاً ، وما دبّر أحد هذا التدبير الحسن[1] . وكذلك الغلاء الكائن في زمان المستنصر العلوي أحد خلفائهم بمصر ، عم الجوع والبلاء ، حتى ان الوزير ركب إلى دار الوزارة فأُخذت بغلته وأُكلت للوقت ، فأخذ آكلوها وشنقوا ، فأكلوا على الخشب[2] ؛ وزاد السعر في هذه السنة على ما ذكرناه وما جرى إلاّ الخير بنيّة السلطان ، ونزل السعر عشرين درهماً ، وقلّت الفقراء وكثر الخير .

وفي هذا الوقت قرئت[3] قصة على السلطان من ضمّان دار الضرب ، أنهوا توقف الدراهم ، وسألوا ابطال الناصرية [ب/٧٧ ب] ، وذكروا أن ضمانهم مائتا ألف وخمسون ألف درهم . فقال : « يحط عنهم خمسون ألف درهم ولا يؤذى الناس في أموالهم » .

وفي ثالث وعشرين ربيع الآخر رسم بمسامحة بنات الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزي بما وجب للديوان في تركة أبيهن ، وجملته أربعمئة ألف درهم نقرة خارجاً عما له من الأملاك والغلال والخيل ، وكتب بذلك إلى الشام .

وهذه جملة ما سمح بمثلها ملك لورثة أمير . وقد كان هذا الأمير [٤٦/ا] وصل من حلب [إلى دمشق] وحاله ضعيف ، وقد نهب التتار موجوده ، فأحسن السلطان إليه ، وزاد في إقطاعاته وافتقاده حتى جمع هذه الجمل ؛ ولما رمى البندق وادعى للسلطان سير إليه جملة عظيمة . فهذه

١ ابن كثير ، البداية ١٣ /٢٦ .
٢ المقريزي ، الإغاثة ٢٤ .
٣ « قرأت » في الأصل .

الجمل المذكورة السلطان هو الذي وهبها له في الأول ، وفي الآخر لبناته ، وكأنه أفهم بذلك أن كل من يموت في خدمته ، ويحفظ يمينه ينظر[1] في أمر ورثته ، ويبقي عليهم ما يخلفونه . وكان كما قال الشاعر :

« يا ذا الذي سعدت به الآباء   في الدنيا وبعد مماتها الأولاد »

وكذلك الأمير شهاب الدين القيمري ، أخو الأمير ناصر الدين القيمري نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية ، لما توفي إلى [ب / ١٧٨] رحمة الله أمر بنقل إقطاعه ، وهو مائة طواش ، لولده . وكذلك أحد الأمراء بالساحل ، وهو شجاع الدين ، والي سرمين ، سيره الأمير ناصر الدين رسولاً إلى فرقة من الفرنج فصادفته فرقة أخرى ، فأسرته ، فأبقى السلطان خبزه عليه يستغله أخوته وغلمانه ، ولم يغير عليهم شيئاً . وكل هذه مكارم تستجلب القلوب .

ذكر قصد متملك الأرمن ـ خذله الله ! ـ
حلب المحروسة ، ورجوعه خاسراً

في هذه السنة وصل هيتوم [٤٦ / ب] بن قسطنطين ، متملك الأرمن ـ خذله الله تعالى ! ـ من جهة هولاكو ـ خزاه الله ! ـ ولما وصل لم يدخل إلى بلاده ، وتوجه إلى السلطان ركن الدين ، صاحب الروم ، فلما وصل إليه عزم على الإيقاع به على غِرة ، وأنه ينسب ذلك إلى التركمان ،

---

١ كذا في ب وفي الأصل « نظر » .

ففطن الطاغية ، وكان قد استصحب صحبته قاضي بلاد هولاكو ليصلح بينه وبين السلطان ركن الدين ، وأعطاه متملك الأرمن عطاء كثيراً ، واستماله وقال : « لا أقدر على الدخول إلى بلاد الروم حتّى يحضر جماعة من التتار تخفرني » . فكتب القاضي إلى التتار الذين في الروم ، فحضر منهم جماعة تقدير أربعمئة فارس ، فتوجه بعد ذلك ، فالتقاه صاحب الروم مترجلاً لأجل قاضي هولاكو ، والارمني [ب / ٧٨ ب] لم يترجل ، وقدم كل منهما لصاحبه تقادم سنية ، وكانت تقدمة صاحب الرَوم أربعة عشر فرساً وأربعين ألف درهم ، وجميع آنية المجلس من ذهب وفضة وبغال وغيرها ، وقدم له الأرمني أربعة حصن . وجاؤوا جميعهم إلى هرقلة وتحالفا ، واتفقا .

واهتم الأرمني بجمع العساكر المخذولة في بلاده لقصد البلاد الإسلامية وسار ، فلما وصل إلى قلعة صرفندكار[1] نادى في عسكره بأن يأخذوا إقامة لثلاثة أيام . وكان في عسكره من بني كلاب ألف فارس عرباً ، وقصدوا [٤٧ / ا] عين تاب .

وكان السلطان قد فهم منهم هذا الاتفاق ، لاهتمامه باستطلاع الأخبار ؛ فسير إلى عسكري حماه وحمص ، فتوجهوا ، وتوجهت جماعة من العسكر المنصور ، فأغارت على عسكر الأرمن ، وأسرت أميراً من أمرائه ، وأُخذ له مائة جمل من البخاتي ، فولوا منهزمين ، وقُتل منهم ثلاثون نفراً ، وجُرح صاحب حموص ، قرابة الملك ، وهو بارو بهرام ، جراحة شديدة . وكتب إلى التتار الذين كانوا في الروم وهم سبعمائة راكب ، فأحضرهم ، وكان قصده الشام ، فلما وصلوا إلى حارم وقعت ثلوج شديدة ، وكان الطاغية

---

١ وتسمى أحياناً سروندكار وهي من بلاد الأرمن . قلعة حصينة على صخر ، قريبة من جيحان . التقويم ٢٥٧ .

[ب/ ١٧٩] المذكور قد كتب إلى انطاكية يطلب نجدة ، فأُنجد منها بمئة وخمسين فارساً ، ولبس الجميع السراقوجات تشبهاً بالتتار واجتمعوا كلهم قريب حارم ، وأرسل الله الثلوج والأمطار حتى كادوا يهلكون .

وأما العسكر المنصور فإنه خرج لقصدهم ، واتصلت بهم الأخبار ، وانقطعت عنهم الميرة ، فخافوا ، وتأخروا راجعين ، فعدم من أصحابه مئة وعشرون فارساً ، وثلاثون تترياً ، وستة نفر من خيالة أنطاكية ، وجماعة من رجالتهم ؛ ونصر الإسلام بنية هذا السلطان الذي تنصره الملوك والملائكة ، وتمده السماء تارة بشهبها المحرقة ، وتارة بأمطارها وثلوجها المتداركة ، وتنهزم جموع الأعداء بأخبار [٤٧/ ب] عزائمه المباركة — زاده الله سلطاناً إلى سلطانه ، وهزم الشرك بإيمانه ! —

وفي هذه السنة كان خليج الاسكندرية قد استد[1] ، وامتلأت فوهته وهو البحر الذي يقال إن الاسكندر حفره ، وتشحط الماء في الاسكندرية بهذا السبب ؛ فقام الاسكندر الثاني بهذه الحسنة ، وهو السلطان الملك الظاهر ، وسير الأمير عز الدين ، أمير جاندار ، لعمارة هذا البحر ، فحفره وحفر المكان المعروف بالنقيدي ، وأمر ببناء مسجد هناك ليكون [ب / ٧٩ ب] تذكرة باقية ؛ وكان السلطان الملك الصالح — رحمه الله تعالى ! — وغيره من الملوك اهتموا بهذا البحر ، وغرموا عليه الأموال ، وما حصل له مقصود ؛ وباشر ذلك العمل[2] تعاسيف ناظر الدواوين ، وأخر الله هذه الحسنة لتكون في دولة هذا السلطان . وكذلك جزيرة بني نصر لما بلغه قلة ريّها في أكثر السنين سير الأمير جمال الدين موسى بن يغمور ، استاذ الدار العالية ،

---

١ « قد انسد » السلوك ٥١٠/٧ .

٢ « العام » في الأصل .

لمباشرة أمرها ، فاحتفل بها أعظم احتفال — لا زال هذا السلطان متسبباً في مصالح الأمة ، مجتهداً لهم في استجلاب الرحمة ! —

وفي جمادى الأولى من هذه السنة تقدم السلطان إلى الأمير سيف الدين بلبان الزيني ، أمير علم ، بالتوجه إلى الشام المحروس ، لتجهيز مهمات البلاد والقلاع [٤٨/ا] وعرض عساكر حماه وحلب ، والنظر في أمر رجال الثغور . والحديث في المهمات الخاصة والعامة ، وإلزام الأمراء بتكميل العِدة والعُدة ، وإزاحة الأعذار بسبب الجهاد . وكتب على يده تذكرة تتضمن مهمات البلاد ، وما يعتمد فيها ؛ وكتب على يده إلى دمشق بحمل خزانة كبيرة إلى البيرة ، برسم نفقاتها ؛ وسافر في التاريخ المذكور .

وفي هذا التاريخ وصلت جماعة من عربان [ب/ ١٨٠] خفاجة، وعلى أيديهم كتب من تأخر منهم بالعراق ، ويذكرون أنهم يغارون [1] على التتار ، وأن غاراتهم تصل إلى باب بغداد والبصرة ، ويخبرون بأحوال شيراز وأن ملكها سرغل شاه قتل ملكتها ، وهي زوجته ، ووصلت اليه جماعة من التتار فهزمهم ، فكتب السلطان اليه يقوي نفسه ؛ وسير الكتب إلى عز الدين أيدمر الأتابكي ، وكان متاجراً [2] بالعراق ، يأمره بالتوجه واستصحاب أمراء العربان صحبته . وأحسن السلطان إلى أمراء خفاجة وكتب لهم إلى الشام بالإنعام والهجن ، وتوجهوا .

وفي هذا الشهر جهز جماعة إلى جهة الملك بركه .

وفي هذه السنة حسن إسلام عالم كثير ، على يد السلطان ، من التتار

---

١ كذا بدلا من « يغيرون » .

٢ ويحتمل أيضاً أن تكون « متأخرا » .

الواصلين ، ومن الفرنجية المستأمنين ، والأسارى والنوبة الواصلين من جهة ملكها ، وصاروا كل يوم في زيادة، بحيث أن الأمير بدر الدين [٤٨/ ب] الخزندار فرق عليهم في ساعة واحدة مئة وثمانين فرساً . قال الله تعالى : ﴿ إنما الصَّدَقاتُ للفُقَرَاءِ وَالمَساكين وَالعامِلينَ عَلَيها والمُؤَلَّفةِ قُلوبُهم ﴾[1] . وقال النبي — صلى الله عليه وسلم ! — : « أمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله ، فإذا قالوها عصموا دماءهم ، ونفوسهم » .

وفي العشر [ب/ ٨٠ ب] الأوسط من جمادى الآخرة حصل الظفر بجاسوسين للتتار ، وذلك لكثرة احتفال السلطان بحديث القصاد ، وترتيب الجامكيات والجرايات لهم . وكان قد سير قصاداً إلى جهة هولاكو ، فأقاموا بالأردو[2] ، وطالعوا بأن هلاون جهز قاصدين ، وعينوا أسماءهم ، فلما حضروا إلى سيس طالع أرباب الأخبار بصفاتهم ، وقيل لهم ان الطرقات محفوظة ، فأتوا إلى عكا ، فطالع بهم أرباب الأخبار في عكا ، وركبوا في البحر إلى جهة دمياط ، والدنيا قد حفظت عليهم ، فلما وصلوا أحضروا سريعاً إلى السلطان ، فسألهم وأعطاهم الاماير ، فأقروا ، ووجدت معهم فرامين للأتابك من هولاكو ، وهو يرغبه ، ويستميله ، اعتقاداً منه أن هذه الأمور يفسد بها نظام ، أو أن السلطان إذا وقع له ذلك لا يتثبتُ ، أو أنه يتوهم في أكبر خواصه أو أن الأتابك يميل إلى هذا الهذيان ، ففطن السلطان إلى هذه المكيدة ، وطلب الأتابك [٤٩ / ا] في الساعة الراهنة،

---

١ القرآن الكريم ، التوبة ٦٠ .

٢ « بالأزد » في الأصل . الأردو كما ذكره كاشغري في ديوان لغات الترك : قصبة الملك ومنه سميت بلدة كاشغر اردوكند أي بلدة الإقامة وقصبة الملك . راجع أيضاً ازركا رشيلي : عصمانلي دواتي تشكيلاتينا مدخل .

وأفهمه أنها حيلة ، وأراه الكتاب ، وقال له : « انني ما صدقت شيئاً من هذا فيك » . ورسم بتخريق ذلك وتمزيقه . واستدل السلطان بذلك على ضعف هولاكو ، وأنه يتشبث بكل شيء [ب/ ١٨١] ، وهذه همة عالية ما سُمع أن ملكاً اهتم بهذه الهمة ، ولا بذل في أغراضه الجميلة هذه النعمة .

وفي هذا الشهر من هذه السنة تنجز البرج الذي كان السلطان رسم بعمله في قارا[1] ، وشرع في بناء برج أكبر منه لمصلحة الإسلام ، وحفظ الطرقات ، وصوناً للرعية من عوادي الفرنج المجاورين .

ذكر قصد متملك الأرمن البلاد

مرة أخرى ، وتخييب سعيه

في هذه السنة اهتم متملك الأرمن هيتوم ، وجمع العساكر المخذولة من كل جهة ، وفصّل ألف قباء تتري ، وألف سراقوج ألبسها أصحابه ليرهب أنهم نجدة من التتار ، فسير السلطان إلى دمشق جرد منها عسكراً إلى حمص ، وجرد جماعة من حماة ، ورسم بأن عربان الشام لا يخرجون البرية في تلك السنة ، فتوجه الأمير حسام الدين العين تابي ، فأغار على مرزبان ، وقتل وأسر ، وعاد سالماً ، وتوالت الغارات من جميع الجهات . فلما أحس [٤٩/ ب] العدو بهذه العزائم جر خيول الهزائم ، وتفرقت نجداته ، وخمدت جمراته ، وبقي خائفاً مترقباً ، وعدلت العساكر إلى انطاكية ، فغنمت وقتلت وأسرت .

---

١ «قاره» السلوك ٥١١/١ .

وفي جمادى أغارت العساكر التي بالفتوحات الساحلية، صحبة الأمير ناصر الدين [ب / ٨١ ب] القيمري ، ووصلت إلى أبواب عكا ، وأغار الأمير عز الدين الشجاعي على بلاد الفرنج من جهة الحيط .

وفي جمادى المذكور شرع النواب بالشام في بناء شقيف تيرون [1] . وفي هذا الشهر أنعم السلطان على العسكر الساحلي ، الذين صحبة الأمير ناصر الدين القيمري بمئتي ألف درهم ، وفُرقت عليهم .

وفي مستهل رجب من هذه السنة جلس السلطان بدار العدل ، وأُنهي إليه بأن على باب مشهد السيد الحسين – رضي الله عنه ! – مسجداً وإلى جانبه مكان من حقوق القصور ، وبيع ، وحُمل ثمنه للديوان ، وهو ستة آلاف درهم ، فسأل السلطان عن صورة المسجد ، وهذا الموضع وهل كل منهما بمفرده ، أو عليهما حائط دائر ، فقيل بينهما زرب قصب ، فأمر برد المبلغ إلى صاحبه ، وأبقى الجميع مسجداً وأمر بعمارة المسجد . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم ! – « من بنى مسجداً لله ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة » .

- وفي هذا اليوم وقف رجل من الأجناد ، ومعه صغير يتيم ، فقال : « أنا وصيّ هذا الصغير » . وشكا [٥٠ / ا] من قضية تتعلق به ؛ فقال السلطان لقاضي القضاة : « اعلم أن الأجناد يموت واحد منهم فيستولي خشداشه على موجوده [ب / ١٨٢] ، ويَجعلُ اليتيمَ وشاقيهُ ، ويموت اليتيم ، فيستولي الوصي على الموجود ، أو يكبر اليتيم ولا يجد شيئاً ولا تقوم له حجة على موجوده ؛ والوصي قد يموت فينغمس مال اليتيم في ماله .

---

[1] الشقيف كالكهف وتيرون إما اسم رجل رومي أو افرنجي وشقيف تيرون حصن وثيق بالقرب من صور . ياقوت ٥/٢٨٤ .

وأنا أرى أن أحداً من الأوصياء لا ينفرد بوصية ، وليكن نظر الشرع شاملاً ، وأموال اليتامى مضبوطة ، وأمناء الحكم يحاققون على المصروف » . وطلب نواب الأمراء ، ونقباء العساكر ، وأمرهم بذلك ، وأمر باستمرار الحال عليه .

وفي جمادى بلغ السلطان أن جماعة من عسكر شيراز واصلون لطلب صدقات السلطان ، فتقدم بالإحسان إليهم ، ووصلوا في ثالث رجب ، ومقدمهم الأمير سيف الدين بكلك ، ورفقته ، وهم : سيف الدين اقتبار ، جمدار جلال الدين خوارزم شاه ، والأمراء الأتابكية غلمان أتابك سعد — رحمه الله تعالى ! — وهم جماعة كبيرة منهم[1] سنقرجاه وغيره من الأتابكية . ووصل في صحبتهم حسام الدين حسين بن مَلاج ، أمير العراق ، وجماعة من أمراء خفاجة ، فأحسن السلطان إلى الجميع وتلقاهم بنفسه ، وأمّر الأمير سيف الدين بكلك ، وأعطاه طبلخاناه ، وكذلك أمراء خفاجة ، والأمير مظهر الدين وشاح بن شهري . وأطلق لحسين بن مَلاج [ب / ٥٠ ب] قرية في الشام ، وجهزهم إلى بلادهم .

وفي شعبان عدى[2] إلى الجيزية متنزهاً في الأهرام ، وركب ، ورمى ، فعدّاها نُشابُه ، وطولها أربعمئة ذراع بذراع العمل ، وطلع إليها جماعة من خارجها ، حتى إن فراشاً للأمير سيف الدين قشتمر العجمي طلع بخركاه ، ونصبها على علوها ، وأقامت أياماً .

---

١ « جماعة ، كبيرهم سنقر» ب .
٢ « عدا » في الأصل .

ذكر نكتة فيها حسن سياسة

في شعبان منها وصلت الأخبار إلى السلطان بأن علم الدين قيصر الظاهري ، والي سرمين ، سير إليه الأمير نور الدين ، نائب السلطنة بحلب ، يأمره بمصلحة من المصالح ، فقال كلاماً فيه استنقاص وعدم مبالاة به ، فعز ذلك على الأمير نور الدين، ثم رضي عنه ، فسير السلطان بريدياً يأمر فيه بإحضار قاضي القضاة بحلب ، وإحضار والي سرمين بحضور الأمراء ، وتأديبه الأدب الزاجر ، وكَتْب محضر بما جرى ، وأخذ خط الجميع فيه ، ورَسَم بأن يقال ، إذا فرغ من تأديبه : « نواب السلطنة لا يُفترى عليهم ، ولا يتجرأ ، وهذا أدب ذاك القول ، وقد عزلناك من ولايتك زيادة في الأدب » . ويُقال للأمير نور الدين : « أنتم اصطلحتم ونحن ما نصطلح » . فاعتُمِد ذلك كله .

وفي هذه المدة أمر السلطان [ب / ١٨٣] الأمراء والأجناد بعمل العدد الكاملة لهم ولمماليكهم ، فلم يبق لأحد [١/٥١] اهتمام إلاّ في تفصيل البركصطوانات وعمل الجواشن ، وصقل الزرد ، وكفت الخود ، وعمل وجوه الخيل . وإذا عبر الإنسان في سوق السلاح لا يقدر على العبور من كثرة الخيل للأجناد الواقفين به ؛ وارتفع سعر الحديد ، وأجر الحدادين والجواشنة والصياقلة ، ولم يبق لأحد همة في شيء إلاّ تكملة عُدته النافعة ، وفي كل دار معلم للعب الرمح ؛ وتعلم جمع كبير من المماليك الظاهرية لعب النار على الخيل ، وما بقي لأحد رغبة إلاّ في الاشتغال بعدة الحرب ، والناس على دين الملك ؛ وان حلف[1] حالف أن أحداً من العسكر ما أنفق شيئاً من

---

١ « ولو حلف » ب .

مغلّ إلاّ في ذلك ، لصدق ، وقد كان من تقدم من الجند ينفقون مالهم فيما لا يُرضي الله تعالى من الأمور المحبطة للأعمال ؛ وهذا الملك شغله هذا لا يلتهي عنه بلذة ولا طرب ، ولا ينقضي وقته إلاّ في حسنة قد سطّر الله أجرها وكتب .

وفي شعبان وصل كتاب أمير المدينة – على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ! – يذكر أنه ركب بنفسه ، وسار إلى جهة مكة – شرفها الله ! – صحبة الكسوة، وعُلّقت . وفي شهر رمضان منها تنجزت [ب/ ٨٣ ب] كسوة الضريح الشريف النبوي – شرفهُ الله ! – وتقرر سفرها صحبة الطواشي جمال الدين محسن الصالحي ، وشرع في تجهيز الشموع والزيت والطيب .

وفي هذه السنة في شهر رمضان منها [٥١/ ب] وصل كتاب الأمير ناصر الدين القيمري ، يذكر أنه بلغه أن الفرنج المخذولين توجهوا إلى جهة يافا ، وكان السلطان قد اطلع على حركتهم ، فأمره بالغارة على قيسارية وعثليث فساق إلى باب عثليث [و] نهب وقتل وأسر ، ثم ساق إلى قيسارية ، واعتمد فيها هذا الاعتماد ، وبلغ الذين اجتمعوا في يافا من الفرنج ذلك ، فسقط في أيديهم ، وانعكست القضية ، فخافوا ورجعوا ، ﴿وَرَدَّ اللهُ الّذِينَ كَفَرَوا بغَيظِهِم لم يَنالوا خَيراً﴾[1] .

وفي شهر رمضان جرد السلطان على عادته في إجراء الصدقات بمطابخ في القاهرة ومصر ، برسم الفقراء يفرق فيها كل ليلة جملة من الطعام والخبز ؛ قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم ! – : « من فطر صائماً فله أجر

---

١ القرآن الكريم ، الأحزاب ٢٥ .

صائم » . وكذلك جرى على عادته الحسنة في عتق ثلاثين نسمة على عادة الملوك الماضين ، هذا غير من أعتق من مماليكه الأمراء وخواصه ، قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم ! — : « من أعتق نسمة [ب/ ١٨٤] مؤمنة كان له بكل عضو منها عتق عضو من النار »

وبلغ السلطان أن الفرنج أخذوا أخيذة من بلاد الإسلام ، فأنكر ذلك ، وتقدم إلى النواب بالاجتهاد في ردها ، فوصل كتاب الأمير ناصر الدين القيمري ، يذكر أن الفرنج ردوا الأخيذة ، وهي عالم كبير من أهل البلاد ، وجملة من المواشي ، فسُمع في تلك الساعة من اختلاف الأصوات بدعاء [٥٢/ ١] الرجال والنساء ، وبكاء الأطفال ، ما تكاد ترق له الحجارة . وكان السبب في رد هذه الأخيذة أن الأمير المذكور سير إلى الفرنج يتهددهم ، ويقول لهم : « نحن هادناكم كما سألتم المدة التي طلبتموها ، وهذه الأخيذة كانت في مدة الهدنة » . فبعث الفرنج وزير قيسارية ليتحدث في ذلك ، فأمسكه الأمير ناصر الدين ، وما زال حتى أُحضر جميع ذلك ، وبعد ذلك سيّب الوزير .

وفي هذا التاريخ وصلت كتب نواب البيرة يذكرون أن صارم الدين بكتاش الزاهدي ركب في جماعة ، وأغار إلى باب قلعة الروم ، وأغار مراراً .

وفي شهر رمضان وصل رسول من الملك شارل أخي الملك فرنسيس ، وهو صاحب مرشيلية ، ووصلت صحبته عدة من السناقر الشهب ، والأمتعة ، ومضمون كتابه المحبة والمشايعة ؛ [ب ٨٤/ ب] ووصل كتاب استاذ داره بأن مخدومه أمره أن يكون أمر السلطان نافذاً في بلاده ، « وأن أكون نائب السلطان كما أنا نائبه » .

وفي يوم الجمعة خامس عشر رمضان قرىء مكتوب بجامع مصر بإبطال ما كان قُرر على ولاية مصر من الرسوم ، وهي مائة ألف درهم وأربعة آلاف درهم نقرة ، وشملت المسامحة بذلك .

وفي شهر رمضان أحضرت فلوس من جهة قوص ، وجدت مدفونة فأُخذ منها فلس ، فإذا عليه صورة ملك واقف ، في يده اليمين ميزان ، وفي يده الشمال سيف ؛ وفي الوجه [٥٢/ ب] الآخر رأس مصور بأذن كبيرة ؛ وبدائر الفلس سطور ، فقرأها راهب يوناني ، فكان تاريخه إلى وقت قراءته[1] ألفين وثلاثمئة سنة ، وفيه مكتوب : « أنا غلياث الملك ، ميزان العدل والكرم في يميني لمن أطاع ، والسيف في يساري لمن عصى » . وفي (الوجه الآخر : « أنا غلياث الملك، أذني مفتوحة لسماع كلمة المظلوم ، وعيني مفتوحة أبصر بها مصالح ملكي » .

وفي)[2] هذا الشهر بلغ السلطان أن رسله الذين كانوا توجهوا إلى الملك بركه وصحبتهم[3] رسل الملك بركه عوقهم الملك الاشكري ، فطلب السلطان نسخ الأيمان ، وأخرج منها يمين [ب/ ١٨٥] الملك كرميخائيل الأشكري، وهي بالرومية ، وأحضرت البطاركة والأساقفة ، وتحدث معهم فيمن يحلف بكذا وكذا من الأيمان ، ثم يخرج عنه ، فقالوا يلزمه كذا وكذا من الأمور المخرجة له عن دينه ، وأنه يكون محروماً من دينه ؛ فأخذ خطوطهم بذلك ، وهم لا يعلمون ما يراد منهم ؛ ثم أخرج لهم نسخ أيمان الأشكري ، وقال : « قد نكث بإمساك رسلي ، ومال إلى جهة هولاكو » . ثم طلب

---

١ « قرائه » في الأصل .

٢ كتبت هذه الكلمة على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٣ « وصحبته » في الأصل .

الفيلسوف اليوناني الذي قرأ الفلس ، وطلب أسقفاً وقسيساً ، وجهزهم إلى الأشكري ، وهو يغلظ له في القول ، ويقول له : « إن كان سبب إمساك رسلي فساد حالك مع الملك بركه ، وكون عساكره أفسدت في بلادك ، فأنا أصلح الحال بينك وبينه » . وكتب السلطان كتاباً إلى الملك بركه بذلك ، وسيره إلى الأمير فارس الدين أقوش المسعودي المتوجه [٥٣/ا] بالهدية إلى الملك بركه ، وأمره بالتوسط في الصلح ، وتوجهت الجماعة المذكورون بذلك ، فلوقته أطلق الجميع على ما سيذكر في مكانه ، ان شاء الله !

ذكر سلطنة الملك السعيد بركه

وفي شوال سنة اثنتين وستين وستمئة وردت أخبار [ب/٨٥ ب] بأن جماعة من التتار مستأمنة ، وجلال الدين بن الدويدار واصل ، وصحبته جماعة كثيرة من الأتراك والبغاددة قاصدوا باب السلطان ؛ فأخذ السلطان بالحزم ، وأعلم الأمراء الأكابر بذلك ، وقال : « ما جمعت هذه الأموال إلاّ لمهمّ يحصل للمسلمين . وهؤلاء — على كثرتهم من جهات — فيه استرابة ، ونحن نخرج ، فإن كان هؤلاء طائعين كان لهم ما لأولي الطاعة ، وإلاّ فتكون سيوفنا لا عاقة عن تجريدها ، ومن احتاج منكم ومن العساكر المنصورة أعطيته ، ومن عدم واسيته ، وأنا في نصرة الإسلام كأحدكم ، لا أوفّر نفسي في أمر ، وأنا ينوبني فرس ، وجميع ما عندي من خيل وجمال كله لكم ولمن يجاهد في سبيل الله ؛ فتقرر خروجه . وأشار بعض الأمراء بسلطنة الملك السعيد ، ولد السلطان ، ليكون بالديار المصرية .

وفي يوم الخميس ثالث عشر شوال من هذه السنة [٥٣/ ب] أركب ولده الملك السعيد بشعار السلطنة ، وخرج بنفسه في ركابه ، وحمل الغاشية راجلاً بين يديه ، وأخذها الأمراء ، وعليهم الخلع الفاخرة ، ولم يبق أحد من [ب/ ١٨٦] أولياء الخدمة إلاّ وعمته الخلع ، ورجع السلطان إلى مقر ملكه ، ولم تزل الملوك والأمراء والعالم في خدمته إلى باب النصر ، ودخلوا من القاهرة رجالة يحملون الغاشية ، وقد زينت أحسن زينة ؛ واهتم الأمراء بنصب القباب ، وشق المدينة ، وأتابكه الأمير عز الدين الحلي راكب إلى جانبه ، ولم تزل الثياب الأطلس والعتّابي وغيرها تفرش له إلى حيث عاد إلى قلعته ، ولم يبق أمير إلاّ بسط ، فحملت من ذلك أحمال تفرقها المماليك السلطانية ، وأرباب المنافع ، وانبسطت الأيدي والألسنة بالدعاء له يسألون الله إعزاز نصره ، وإتمام هلاله ، وبقاء بدره ، وأن يجمع به للإسلام الشمل ، وَيُتِمَّ نِعمَتَهُ عَلَيهِ كما أتَمَّها عَلى أبَوَيهِ مِن قَبل[1] .

وكتب مؤلف السيرة المولى محيي الدين التقليد بتفويض عهد السلطنة له . وفي سابع عشر الشهر المذكور اجتمع الأمراء ، وقاضي القضاة والعلماء ، وقرىء التقليد ، وهو :

« الحمد لله منمّي الغُروس ، ومبهج النفوس ، ومزين سماء المملكة بأحسن الأهلة ، وأضوأ البدور وأشرق الشموس ؛ الذي شد إزر الإسلام [٥٤/أ] بملوك يتعاقبون مصالح الأنام، ويتناوبون تدبيرهم كتناوب العينين واليدين[2] [ب/ ٨٦ ب] في مهمات الأجساد وملمات الأجسام .

---

١ راجع القرآن الكريم ١٢/٦ .
٢ « الشديين » شافع ٥٥ .

نحمده على نعمه التي أيقظت جفن الشكر المتغافي ، وأوردت منهل[1] الفضل[2] الصافي ، وخولت الآلاء حتى تمسكت الآمال منها بالوعد الوافي ، وأخذت بالوزن الصافي . ونشهد أن لا إله إلاّ الله ، وحده ، لا شريك له شهادة عبد كثّر الله عَدده وعُدده ، وأحمد أمسه ويومه ويُحمِد – إن شاء الله – غده ؛ ونصلي على سيدنا محمد الذي أطلع الله به نجم الهدى ، وألبس المشركين به أردية الردى ، وأوضح به مناهج الدين وكانت ﴿ طَرائِقَ قِدَدا ﴾[3] – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، صلاة[4] لا تنقضي أبداً ! –

وبعد : فإنّا لما ألهمنا الله من مصالح الأمم ، وخولناه من الحرص على مهمات العباد الذي[5] قطع به شأفة الكفر وحسم ، وأتى بنا والشرك قد علم كل أحد اشتعال ناره فكان علماً بنار مضرمة لا ناراً على علم ؛ وقدّره من دفع الكفر من جميع الجوانب ، وقمعهم[6] من كل جهة حتى رميناهم بالحتف الواصل والعذاب الواصب ، فأصبح الشرك من الإبادة في شرَك ، والإسلام لا يخشى[7] من فتك[8] ، ولا يخاف من درك ؛ وثغور الإسلام عالية المبتنى [ب / ١٨٧] نامية المقتنى ، جانية ثمار الادخار من هنا ومن هنا ؛ تزاحم بروجها في السماء البروج [٥٤ / ب] ، وتشاهد الأعداء منها سماء[9] ،

---

١ « نهل » صبح ١٠/١٦٣ .

٢ « الحمد » شافع ٥٥ .

٣ القرآن الكريم ٧٢/١١ .

٤ « صلاة دائمة » صبح ١٠/١٦٣ .

٥ كذا في صبح ١٠/١٦٣ أما في الأصل فهي « التي » .

٦ « وقمعه لهم » شافع ٥٦ وفي صبح « وقفوهم » ١٠/١٦٣ .

٧ كذا في صبح ١٠/١٦٣ وفي شافع ٥٦ أما في الأصل فهي « نخاف » .

٨ « قتل » صبح ١٠/١٩٣ .

٩ « ويشاهد الأعداء وقد بنيت » شافع ٥٦ .

قد بنيت وزينت وما لها من فروج . وعساكر الملة المحمدية في كل طرف من أطراف الممالك تجول ، وفي كل واد تهيم حتى[1] تشعر بالنصر[2] ، ولكنها تفعل ما تقول ؛ قد دوخت البلاد ، فقتلت الأعداء تارة بالإلمام ، وتارة بالأوهام ، وسلّت سيوفها فراعتهم يقظة بالقِراع ونوماً بالأحلام . نرى أنا قد لذ لنا هذا الأمر التذاذ المستطيب ، وحسن لدينا موقعه فعكفنا عليه عكوف المستجيد ، ولبيناه تلبية المستجيب ؛ وشغلنا فيه جميع الأوقات[3] والحواس ، وتقسّمت مباشرته ، ومؤامرته[4] سائر الزمن حتى[5] غدا أكثر تردداً إلى النفس من الأنفاس ؛ واستنفذنا الساعات في امتطاء الضمر الشوس ، وادراع محكم الدلاص التي كأنها ومضات[6] برق أو شعاع شموس ؛ وتجريد المرهفات التي قد جفت لحاظها الأجفان ، وجرت فكالمياه ، واضطربت[7] فكالغدران[8] ؛ وتفويق السهام التي غدت قسيها من اتعابنا لها تئن ، واعتقال السمهرية التي تقرع الأعداء سنها ندماً كلما قرعت هي السن[9] [ب/ ٨٧ ب]؛ إلى غير ذلك من كل غارة شعواء تُسيء للكفار الصباح ، وتصدم كالجبال ، وتسير[10] كالرياح ؛ ومنازلات كم استلبت من موجود ، وكم استنجزت

---

١ كذا في صبح ١٠/١٦٣ وفي شافع ٥٦ أما في الأصل فهي « جبن » .
٢ « بالضر » شافع ٥٦ .
٣ « الآلات » . صبح ١٠/١٦٤ .
٤ « موافرته » شافع ٥٧ .
٥ « غدا ذلك » شافع ٥٧ .
٦ « وميض » صبح ١٠/١٦٤ .
٧ « وأضرمت » صبح ١٠/١٦٤ .
٨ « واضطرمت فكالنيران » شافع ٥٧ .
٩ « السنان » صبح ١٠/١٦٤ وشافع ٥٧ .
١٠ « وخيل تسير كالرياح » شافع ٥٧ .

من نصر موعود ، وكم مدينة أضحت لها مُدنية ، ولكن أخـّرها الله إلى أجل معدود [٥٥/ا] .

وكانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع تفرسنا فيه الزيادة والنموّ ، وتوسمنا منه حسن الجنى[1] المرجوّ ؛ ورأينا أنه الهلال الذي أخذ في ترقي منازل السّعود إلى الابدار ، وأنه سرنا الذي صادف مكان الاختيار له حسن الاختبار . أردنا أن ننصبه في منصب أحلنا الله فسيح غرفه ، ونشرفه بما خوّلنا الله من شرفه ؛ وأن تكون يدنا ويده تقتطفان من ثمره ، وجيدنا وجيده يتحليان بجوهره ؛ وأنا نكون للسلطنة الشريفة السمع والبصر ، وللمملكة المعظمة في التناوب بالإضاءة الشمس والقمر ؛ وأن تصول الأمة منا ومنه بحدّين، ويبطشون[2] من أمرنا وأمره بيدين ؛ وأن نُربيه على حسن سياسة تحمد الأمة — إن شاء الله ! — عاقبتها عند الكبر ، وتكون الأخلاق الملوكية منتشئة معه[3] ومنتشبة به من الصغر ؛ ويجعل سعي الأمة بتمنّي مثله حميداً ، ويهب لهم منه [ب/ ١٨٨] سلطاناً نصيراً، وملكاً سعيداً ؛ ويقوى به عضد الدين، ويريش جناح المملكة وينجح مطالب الأمة بإيالته ، وكيف لا ينجح مطلب يكون فيه بركة ؟

وخرج أمرنا — لا برح مُسعِداً ومسعفاً . ولا عدمت الأمة منه خلفاً منيلاً ونوءاً مخلفاً — بأن يكتب هذا التقليد لولدنا الملك [٥٥/ ب] السعيد ناصر الدين بركه خاقان محمد ، جعل الله مطلع سعده بالإشراق محفوفا ، وأرى الأمة من ميامنه ما يدفع للدهر صرفا ، ويحسن بالتدبير تصريفا؛ بولاية

---

١ « الجنا » في الأصل .

٢ كذا في الأصل .

٣ « منتشئة منه ومنتشئة به » . صبح ١٠/١٦٥ .

العهد الشريف على قرب البلاد وبعدها ، وغورها ونجدها وعساكرها وجندها ؛ وقلاعها وثغورها ، وبرورها وبحورها ؛ وولاياتها وأقطارها ، ومدنها وأمصارها وسهلها وجبلها ، ومعطلها ومعتملها [1] ؛ وما تحوي أقطاره الأقلام ، وما ينسب للدولة القاهرة من يَمَن وحجاز ومصر وغرب وسواحل وشام بعد شام ؛ وما يتداخل ذلك من قفار ومن بيد في سائر هذه الجهات ، وما يتخللها من نيل وملح وعذب وفرات ؛ ومن يسكنها من حقير وجليل ، ومن يحتلها [2] من صاحب رغاء وثغاء وصليل وصهيل . وجعلنا يده في ذلك كله مبسوطة [3] ، وطاعته المشروطة ، ونواميسه المضبوطة ؛ ولا تدبير [ب / ٨٨ ب] ملك كلّي [ولا جزئي] [4] إلاّ بنا أو بولدنا يُعمل ، ولا سيف ولا رزق إلاّ بأمرنا — هذا يُسل وهذا يُسأل ؛ ولا دست سلطنة إلاّ بأحدنا يتوضح منه الإشراق ، ولا غصن قلم في روض أمر ونهي إلاّ ولدينا أو لديه تمتد له الأوراق ؛ ولا منبر خطيب إلاّ باسمنا يميس ، ولا وجه درهم ولا دينار إلاّ بنا يشرق ويكاد تبرجاً لا بهرجاً يتطلع من خلال الكيس [٥٦ / ١] .

فليتقلد الولد ما قلدناه من أمور العباد ، وليشركنا فيما يباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد ؛ وسنتعاهد الولد من الوصايا بما سينشأ معه توأماً ، ويمتزج بلحمه ودمه حتى يكاد يكون ذلك إلهاماً لا تعلماً . وفي الولد بحمد الله من نقاء الذهن ، وصحة التصور ما يتشكل فيه الوصايا أحسن التشكيل ،

١ « مغتلها » صبح ١٠/١٦٥ .
٢ « ومن يحلها » صبح ١٠/١٦٥ وفي شافع « ومن يجبلها » ٥٨ .
٣ « المبسوطة » صبح ١٠/١٦٥ .
٤ كذا في شافع ٥٨ .

وتظهر صورة الابانة[1] في صفائه الصقيل ؛ فلذلك استغنينا عن شرحها هاهنا مسرودة ، وفيه بحمد الله من حسن الخليقة ما يُحقق أنها بشرف الإلهام موجودة ؛ والله لا يعدمنا منه اشفاقاً وبراً ، ويجعله أبداً للأمة سنداً وذخراً »[2] .

ثم وردت الأخبار بفتور عزائم العدو ، وأن سبب حركة جلال الدين ولد الدوادار[3] ، أن [ب/ ١٨٩] هلاون بلغه أن بلاد العراق فيها جماعة من الأجناد ، والأتراك قد استخفوا ، وتزيوا بزي الفقراء والفقهاء ، وانقطعوا بالمدارس والربط ، وأنهم في كل مدة يتسللون الجماعة بعد الجماعة إلى الديار المصرية فأراد التحيل عليهم بحيلة يجمعهم بها ، وتحقق أن المذكورين لا يركنون إلى التتار ، فسير إلى جلال الدين المذكور يفهمه طلب نجدة ، ويُحسن له طلب جماعة من الأتراك والجند ، والإنفاق فيهم ، واستخدامهم نجدة على بركه ؛ فسارع جلال الدين إلى ذلك، [٥٦/ ب] وبذل الأموال واستخدم ، فاجتمعت له جماعة كبيرة ؛ وفهم في أثناء هذه الحال القصد في هذا الأمر ، وأنه فيه هلاك لجميعهم ، فتجهز وخرج معرّجاً إلى خدمة السلطان .

وتواصلت الأخبار بذلك ، فابتهج السلطان به ، وفتر عزم الحركة وشرع في ختان ولده الملك السعيد ، وأمر الناس بالتأهب للعرض بالأسلحة والجواشن وآلة الحروب خاصة .

وأما ولد الدوادار ، فإنه خرج واجتمع هو والعربان بنو خفاجة ،

---

١ كذا في ب وفي الأصل « الانابه » .

٢ « ان شاء الله تعالى » صبح ١٦٦/١٠ .

٣ راجع ما سبق الورقة ٥٣ أ « الدويدار » .

غلمان السلطان ، ووصلت جماعة من جهته ، فكتب السلطان بإطابة قلبه . وكتب إلى سائر أمراء خفاجة وغزية وغيرهم بخدمتهم وإعانتهم ؛ وأمر [٨٩/ ب] أمراء البغاددة بالكتابة اليه بما هم فيه من نعمة .

ذكر العرض السعيد

قد ذكرنا اهتمام السلطان بأمر العدد والاستكثار منها ، وإلزام الأمراء والمفاردة والجند بتكملة العدة ، وهي عدة الحرب ، وعدة النجارة ، وعدة الحجارة ، ونفذ بذلك إلى جميع البلاد الشامية والحلبية وإلى الملك المنصور ، صاحب حماه ، فاهتموا بذلك همة عظيمة ، ولم يبق لهم شغل إلاّ تحصيل العُدد، والاستكثار منها [٥٧/أ] ومن الجواشن الكيمخت المصفحة بالذهب والفضة ، وبركصطوانات الخيل جواشن [1] والخود الفرنجية : فرأى عرض العساكر جميعها في يوم واحد ، وتقدم قبل ذلك إلى كل أمير ومقدم أن يعرض أصحابه ومضافيه .

وفي العشر الأوّل من ذي القعدة جلس السلطان على الصفة [2] التي بجانب دار العدل عند طلوع الشمس ، والعالم قد شرعوا في اللبس من الليل ، وامتلأت الدنيا عساكر ، فلا تقع العين إلاّ على خود لامعة وأنوار ساطعة ، وخيول تصهل ، وجنود تقبل ؛ وأطلاب سائقة وعساكر متلاحقة . وساق كل أمير في طلبه ، لابساً لأمة حربه ؛ وجروا من الجنائب خيولاً كأنها

---

١ كذا في الأصل .

٢ « بالمسطبة » شافع ٦٠ .

الرياح في المطاردة [ب/ ١٩٠] ، والجبال في المشاهدة ، عليها من عدد الحروب ما تطمئن به من المتطين لصولتها القلوب . وأمر السلطان بأن لا يلبس أحد في هذا اليوم إلاّ ما هو من شعار الحروب ، وأن تكون التشاهير والمراوات لوقت آخر .

وكان السلطان قد عفا عن سير جرود ، قسطلان يافا ، وأطلقه على ما سيذكر ، فركب ، وشاهد ما بهر عقله ، وقال : « رأيت عسكر الفرنج ، وعساكر هلاون ، وما رأيت مثل هذه العساكر العظيمة » .

ولم يزل السلطان جالساً ، والعساكر سائقين لابسين ، وديوان الجيوش بين يدي السلطان، يجيبون عما [٥٧/ ب] يُسألون مع أن السلطان لا يكاد يخفى عليه شيء من عساكره بالأسماء والصفات ؛ وعبرت العساكر خمسة خمسة ، وطال الأمر فعبروا عشرة عشرة ، وكاد الناس يهلكون من الزحام وحمو الحديد :

« حمى الحديد عليهم فكأنه ومضات برق أو شعاع شموس »

فعبر الناس بلا حساب ، وطال الأمر ، وقرب وقت المغرب ، والعالم لا يزدادون إلاّ كثرة ، وهلك ذلك اليوم من الزحام جماعة منهم عز الدين أيبك ، مملوك الأمير عز الدين الحلّي ؛ وكان قصد السلطان بركوب الناس في يوم واحد حتى لا يقال إن [ب/ ٩١ ب] أحداً استعار من أحد شيئاً؛ وبقي كل أحد يدخل من باب القرافة ويخرج من جهة الجبل إلى باب النصر ، إلى الدهليز المضروب هناك ، ولما قرب وقت المغرب ركب السلطان بقباء أبيض لا غير ، وساق في وسط العساكر اللابسة العُدد في جماعة يسيرة من سلاح داريته وخواصه ، ونزل إلى الدهليز ، ورتّب المنازل ، ورجع إلى قلعته ، وقت المغرب ومهابته أعظم في القلوب من

وقع السلاح ، وعظمته تخطف الأبصار ، ولا يقدر أحد على تلحظ له ولا التماح .

ثم ان الناس اهتموا باللعب ، ولبّسوا خيولهم التشاهير والبراشم البحرية ، والمراوات والأهلة الذهب والفضة [٥٨/١] والأطلس والخطاي وغير ذلك شيئاً عظيماً . ونزل السلطان وجنائبه تجر بين يديه تبهر العيون بحسنها ، وحسن ما عليها من الأهلة والمراوات والبنود . قال مؤلف السيرة القاضي محيي الدين : قال لي القاضي فتح الدين بن سناء الملك، قبل هذا الوقت بمدة سنة : « ان الذي دخل في المراوات من البنود الأطلس الأصفر قيمته عشرة آلاف دينار » . وما تجدد بعد ذلك لا يحصى .

وساق السلطان إلى ميدان العيد ، وقدامه جنائبه [ب/ ١٩١] التي ما سمع أن ملكاً جمع مثلها ، ولا غالى في أثمانها كمغالاته . ولقد سيّر طلب فرسٍ من هذه الخيول من صاحب المدينة النبوية – على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ! – فحضر ولد صاحب المدينة ، وصحبته عدة خيول من جملتها هذا الفرس ، وذكر أنه سيّر إلى نجد ودخل على أصحابه دخول الذمام وبذل لهم جملة من إبل وجواري ، وقماش ، حتى أخذه منهم ، فأعطاه السلطان ألفي دينار مضافاً إلى الخلع والافتقاد ، وأعطى ولده جملة كبيرة . وأكثر تحصيل هذه الخيول على هذه الصفة ؛ وكانت كما قيل :

« وخيل عليها الدارعون كأنها رياح سرت يحملن في السحب أمواها
ألِفنَ القنا حتى لوَان نصالها تميز عن آذانها ما عرفناها
يصرفها ماضي العزيمة جاعل بمصر – على اسم الله واليمن – مرساها [٥٨/ ب]
مليك لوَان الأرض في ظل عفوه وستر سجاياه الكرام لغطاها »

وشرط السلطان لكل أمير يصيب القبق[1] فرساً من هذه الخيل بما عليه من التشاهير ، وخلعة لكل مفردي أو مملوك أو جندي تليق بمثله . وساق السلطان والأمراء على طبقاتهم ، ثم المفاردة والبحرية والظاهرية ، والحلقة والأجناد . ودخل الناس بالرماح بكرة النهار . ونزل السلطان وقت الصلاة للصلاة ، واطعام الطعام [ب / ٩١ ب] ، ثم ركب الناس، ولبسوا ، وركب السلطان ، وشفع ذلك برمي النشاب والعطاء والخلع .

وحضر رسل بركه في ذلك الوقت فشاهدوا من كثرة العساكر، وحسن زيهم ، واهتمام السلطان ، وحسن الرجال ، والخيول المسوّمة ، ما بهرهم . واستمر وقوف السلطان وهم إلى جانبه يشاهدون خفة حركات هذه الجنود ، وإصابة رميها ، وأقاموا كذلك أياماً على هذه الصفة .

وفي تاسع ذي القعدة خلع السلطان على من خلع عليه من الملوك والأمراء والبحرية ، والحجاب، والحلقة ، وأرباب المناصب ، والعمائم، والوزراء ، والقضاة وأرباب البيوت أعطاهم ذلك مرة ثانية . وحضر الناس لابسين الخلع ولعبوا بقية ذلك النهار . فقالت رسل بركه للسلطان : « هذه عساكر مصر والشام ؟ » فقال : « بل عساكر المدينة خاصة ، غير الذين في الثغور مثل اسكندرية [١/٥٩] ودمياط ورشيد وقوص ، والمجردين والذين في اقطاعهم » . فعجبوا من ذلك وذكر الرسول أنه ما رأى خيلاً ولا عدة في عساكر جلال الدين ولا غيرهم مثل هذا الموكب .

وفي عاشر الشهر المذكور عمل السماط في القلعة المحروسة ، وحضر

---

[1] القبق كما يقول المقريزي عبارة عن خشبة عالية جداً تنصب في براح من الأرض ويعمل بأعلاها دائرة من خشب ويقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة لكي تمر من داخلها إلى غرض هناك ، تمريناً لهم على إحكام الرمي ويعبر عن هذا بالقبق في لغة الترك .

الملك السعيد ، وحضر في خدمته أولاد الملوك، وأولاد الأمراء [ب/ ١٩٢]
فطُهّر الملك السعيد ، ثم طهر ابن الأمير عز الدين الحلي ، وابن الأمير
شمس الدين سنقر الرومي ، وولد سيف الدين سكِز ، وولد حسام الدين
ابن بركتخان[1] ، وولد الملك المجاهد ابن صاحب الموصل ، ثم أولاد الملك
المغيث ، صاحب الكرك ، الثلاثة ، وولد فخر الدين الحمصي ، وجماعة
من أولاد الأمراء . وتقدم قبل ذلك بكسوة جماعة من الأيتام ، وأبناء
الفقراء بمصر والقاهرة فأحضروا إلى القلعة ، وطُهّروا . وحمل السلطان
عن الأمراء الخواص[2] كلفة التقادم ، وسدّ هذا الباب شرف نفس منه ،
وعدولاً عما كان يفعله غيره من الملوك في مثل هذا المهم من تكليف الناس :

« ملك تعود أنه يهب البلاد مع الممالك
ويجود بالمدن العظا م وبالحصون وما هنالك
حاشاه يسلك من قبو ل هدية تلك المسالك
أو أنه مع جوده وعطائه يرضى بذلك » [٥٩/ ب]

ذكر وصول رسل الملك بركه

تقدم في أوّل السيرة[3] إنفاذ رسل السلطان إلى الملك بركه ، واستمالته
إلى فئة الإسلام ، وإغرائه بهولاكو والإيقاع به ، ولما وصل الرسل إلى بلد

---

[1] « ابن بركه خان » شافع ٦٠ .
[2] « والخواص » ب .
[3] راجع ما سبق ، الورقة ١٠ أ (ص ٨٨) .

الأشكري مرض الفقيه مجد الدين [ب/ ٩٢ ب] ، فرجع صحبة رسل الملك بركه الواصلين وهم : جلال الدين بن القاضي ، والشيخ علي الدمشقي ؛ وتوجه سيف الدين كسباك[١] ، والنفران من المغل . وكان اجتماع الرسل بالأشكري في ابيه[٢] ، ثم رحلوا إلى القسطنطينية ، في عشرين يوماً ، ومنها إلى اصطنبول ، ومنها إلى دفنسيا[٣] ، وهي ساحل السوداق من جهة الأشكري ؛ ثم ركبوا في البحر إلى البر الآخر ، ومسيرته ما بين العشرة أيام إلى اليومين ، ثم طلعوا إلى جبل يعرف بسوداق ، فالتقاهم الوالي بتلك الجهة في قرية اسمها القرم يسكنها عدة أجناس من القفجاق والروس والعلاّن ، ومن الساحل إلى هذه القرية مسيرة يوم واحد ؛ ثم ساروا من القرم إلى برية يوما واحداً ، فوجدوا بها مقدم عشرة آلاف فارس حاكماً على تلك الجهات ؛ ثم ساروا عشرين يوماً في صحراء عامرة بالحركاوات والأغنام إلى بحرِ إيل[٤] ، وهو بحر حلو سعته سعة بحر النيل ، وفيه مراكب الروس ؛ ومنزلة الملك بركه الساحل [٦٠/ ا] منه ، وحُملت اليهم الإقامات[٥] ، والأغنام ، طول هذه الطرقات .

ولما قاربوا الاردو[٦] التقاهم الوزير شرف الدين القزويني ، ثم حضروا عند الملك بركه ، وكانوا قد فهموا آدابه التي تعتمد معه ، وهي [ب/ ١٩٣] الدخول من جهة اليسار ، فإذا أخذت الكتب منهم ينتقلون إلى جهة اليمين ،

---

١ قارنها بما ورد في الورقة ٣١ أ « كشرتك » .
٢ « آنية » مفضل ٤٥٦ .
٣ « وقسيتا » مفضل ٤٥٦ .
٤ « ايتل » مفضل ٤٥٨ .
٥ كتبت كلمة « اليهم الاقامات » على الهامش .
٦ كذا في النهاية ٢٦ وفي الأصل « الأزد » .

ويكون القعود على الركبتين ، ولا يدخل أحد معه إلى خركاته بسيف ولا سكين ولا عدة ، ولا يدوس برجله عتبة الخركاة ، ولا يقلع الإنسان عُدته إلاّ على الجانب اليسار ، ولا يترك القوس في القربان ولا يخليه موتوراً ، ولا يحط في قربانه[1] نشاباً ، ولا يأكل الثلج ، ولا يغسل ثوبه في الاردو[2] .
وَوُجد في خركاة كبيرة تسع [خمس][2] مائة رجل ، مكسوة لباداً أبيض ، وميثرة من داخلها بصندات وخطاي[3] وجواهر ولؤلؤ ؛ وهو جالس على تخت وإلى جانبه الخاتون الكبرى ، وعنده خمسون أميراً ، أو ستون ، على كراسي الحركاة . ولما دخلوا إليه أمر وزيرهُ بقراءة الكتاب ثم نقلهم عن يساره إلى يمينه ، وسألهم عن النيل ، وقال : « سمعت أن عظما لابن آدم ممتدّاً على النيل يعبر[4] الناس عليه » . فقالوا : « ما رأينا هذا » .

قال القاضي محيي الدين ، مؤلف السيرة : « نقلت من خط أبي زكريا يزيد بن اياس بن القاسم ، صاحب تاريخ الموصل ، قال : قال عبيد الله [٦٠/ب] بن اسحاق : « بلغنا أنه لم ينج من الغرق إلاّ من كان في السفينة ، ورجل يقال له عوج بن عنق ، زعموا أن الماء كان إلى نصف ساقه ، ثم أهلكه [ب/ ٩٣ ب] الله تعالى بعد ذلك فيما يزعمون ، في زمن موسى — عليه السلام ! — ولم يكن له ولد » . وقال محمد بن اسحاق : « انه كان يضرب بيده فيأخذ بها الحوت من البحر فيشويه في حر الشمس حتى ينضجه ، ثم يأكله ، وكان عمره فيما يذكر ثلاثة آلاف سنة وستمئة سنة ؛ وكانت أمه من بنات آدم ، فعاش حتى قتله موسى — عليه الصلاة والسلام ! — »

١ « تركاشه » النهاية ٢٦ ومفضل ٤٥٩ .
٢ كذا في النهاية ٢٦ .
٣ « خطائي » النهاية ٢٦ .
٤ « يعبروا » في الأصل .

وذكر في سلامته من الغرق ما ذكره الطلحي . وكان ارتفاع الماء فيما رُوي عن وهب بن سليمان عن شعيب الجباي[1] قال : « سبق ماءُ الأرض ماءَ السماء بأربعين يوماً ، وعلا الماء فوق أطول جبل في الأرض مسيرة خمسة أشهر صعدا » . وقيل إن الماء علا فوق كل شيء خمسة عشر ذراعاً . وقد ذكر أن موسى – عليه السلام ! – كان طوله سبعة أذرع بذراعه وقفز عن الأرض سبعة أذرع فوصل إلى كعبه ، وما صح ذلك ، والدليل على أن أطوال الناس متناسبة أنه منذ قيام الدنيا وإلى هذا الوقت ، أن الناؤوس ، وهو القبر الموجود الآن بالأهرام ، ولا خلاف أنه قبر بانيها وهو على طول الإنسان ، وكذلك بقية النواويس الموجودة في مصر القديمة وغيرها ، والأهرام [٦١/ ا] بُنيت – فيما ورد – قبل طوفان نوح – عليه الصلاة والسلام ! – لأن بانيها رأى في علمه أن آفة من الماء تهلك العالم ، فبناها وقاية له ؛ والصحيح أنها [ب/ ١٩٤] قبور ، والله أعلم .

عُدنا إلى حديث بركه . وفسّر قاضي القضاة ، الذي عنده ، الكتاب وبعث[2] به نسخة إلى القان . وقُرىء كتاب السلطان بالتركي على من عنده وفرحوا به ، وأعاد الرسل بجوابه ، وسير معهم رسله . ولكل أمير عنده مؤذن وإمام ، ولكل خاتون مؤذن وإمام ، والصغار يتلقنون القرآن العزيز في المكاتب .

وعادوا من جهة الأشكري ، وحضروا والعساكر المنصورة لابسة – على ما ذكرناه – وذلك في عاشر ذي القعدة سنة اثنتين وستين وستمئة[3] وما

---

١ كذا وصحتها « الجبلي » .
٢ لعلها « وبعث منه » .
٣ كذا في الأصل .

زال الرسل يحضرون إلىالخدمة ، ويشاهدون لعب الكرة؛ وحضروا الطهور ، وأنزلوا باللؤق .

ذكر توجه السلطان إلى الإسكندرية والصيد

ولما فرغ السلطان من هذا المهم توجه إلى الاسكندرية متصيداً ، فعدّى في ذي القعدة ، وسار إلى الطرانة ، إلى وادي هبيب ، ونزل بالديرة[1] التي هناك ، ووصل تروجة ، وأخذ منها إلى جهة الحمامات وسار إلى منزلة الكرش ، قريب العقبة الصغرى ، وركب [٦١/ب] [من الكرش الظهر ، وضرب][2] حلقة في اليوم الثاني ، ووصلت الميسرة إلى فوق العقبة الصغرى [وعيد][2] عيد الأضحى ، ونحر الأضاحي ، وصلى صلاة العيد . وبلغه أن بعض العربان [ب/٩٤ ب] المتسحبين قد عصوا في بعض البراري ، فجرد اليهم جماعة وحضر جماعة من عرب هوارة ، وعرب سليم ، فكتب عليهم الحجج بعمارة البلاد ، وان لا يقربوا أحداً من العربان العصاة .

وعاد السلطان من الاسكندرية ، وصلى في الجامع الغربي ، وعم جميع الأمراء ، والمفاردة ، وخواصه ، بما فرقه عليهم من الأموال والأقمشة عمل دار الطراز ، والاشكرلاط ، والبندقي وغيره . وركب يوم السبت وتسابق الأمراء قدامه بالخيول ولعب الكرة بميدان الاسكندرية ، وزار [الشيخ][3] الشاطبي . وسار في يوم الاثنين متوجهاً إلى القاهرة .

---

١ « الاديرة » السلوك ١/٥٢٠ .
٢ من ب .
٣ كذا في ب .

ولما نزل بتروجة رسم بتقديم سيف الدين عطاء الله بن عزّاز على عرب برقة ، وتحدث معه في أمر العربان ، وكونهم ينتفعون في مصر بأثمان الخيول المجلوبة والأغنام وغيرها ، وأنهم يستنتجون الأغنام ، ويزرعون الزرائع ، ولا يقومون بحق الله من الزكاة والعشر ، وأبو بكر – رضي الله عنه ! – يقول : « ولو منعوني عقالاً كانوا يعطونه لرسول الله – صلى الله عليه [٦٢/ ا] وسلم ! – لقاتلتهم على منعه » . وقد قال الله تعالى : ﴿ وأقيموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ ﴾ [1] . فالتزم سيف الدين عطاء الله بهذا الأمر ، وأنعم السلطان عليه بسنجق [ب / ١٩٥] ونقارات ، وتوجه ملتزماً حفظ البلاد واستخراج الزكاة من العربان .

ولما وصل السلطان من الاسكندرية وصل شحنة تكريت ، ومعه جماعة ، فأحسن السلطان إليهم ، وعمل فيهم كما قال الله تعالى : ﴿ أطعَمَهُم مِن جُوعٍ ، وآمَنَهُم مِن خَوف ﴾ [2] .

وفي هذه السنة وصل للسلطان عشرة عقبان فأطلقها ؛ فعمل في ذلك الأمير جمال الدين ابن الإمام الحاجب :

« جاءت ملوك الطير في يد آسر قهراً إلى ملك الأنام الظاهر
أضحى سليمان الزمان فملكه يسمو به لقياصر وأكابر » [3]

منها :

---

١ القرآن الكريم ، النور ٥٦ .
٢ القرآن الكريم ، قريش ٤ .
٣ « وأكاسر » جامع ١٨٤ .

« ملك الزمان سيأتينك[1] مثلهم   في أسر خادمك[2] الزمان الجائر »

وفي المحرم من هذه السنة وصل الأمير جلال الدين يشكر ، ولد الدوادار ، وكان أبوه المجاهد دوادار الخليفة ببغداد ، وكانت له نعمة عظيمة ومماليك وغيرها ، فأحسن إليه السلطان ، وأعطاه طبلخاناه .

ذكر توجه العسكر إلى خيبر [٦٢/ب] وفتحها

ثم ان السلطان أبت همته إلاَّ افتتاح البلاد القريبة والبعيدة واحتمال المشاق في المهمات العتيدة ، ورأى أن بلاد الحجاز طريق البلاد اليمنية ، وظهر البلاد الكركية والشوبكية، ونظر إلى جهة خيبر فوصلته [ب/ ٩٥ ب] كتب أصحابها عبيد الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه ! يبذلون الطاعة والخدمة ، ويستجدون أسباب النعمة ، فسير نجابين ليستصح الأخبار ، وانتدب الأمير أمين الدين موسى بن التركماني ، وجهز الرماة ، والمقاتلة ، وأنفق فيهم الأموال ، وجهز الخلع للمقدمين والمشائخ ، وكتب إلى نائب الكرك بتجهيز أمراء العربان ، وجماعة من البحرية المجردين بالكرك صحبته ، وجهز الغلال والذخائر لهذه القلعة . فتوجه الأمير أمين الدين ، وافتتحها .

وفي صفر قرىء كتاب وقف الخان بالقدس الشريف بحضور السلطان وقاضي القضاة تاج الدين ، وحررت شروطه بين يديه ، وكتب بذلك عدة

١ كذا في جامع ١٨٤ وفي الأصل غير منقوطة بتاتاً .
٢ « حاديك » جامع ١٨٤ .

نسخ . وكذلك أوقف اصطبلين تحت القلعة، يعرف أحدهما بجوهر النوبي ، وحبسهما على وجوه البر .

وفي صفر من هذه السنة وردت كتب الأمير عز الدين ، استاذ الدار ، النائب بالكرك ، بأنه رتب رواتب الخليل – عليه الصلاة والسلام ! – ورتب الأسمطة ، والضيافة للوافدين وكان ذلك [٦٣/ ا] قد قُطع من مدة طويلة، وعُدّ ذلك من حسنات هذه الدولة .

واستهلت سنة ثلاث وستين وستمائة [ب/ ١٩٦] .

ووصل في المحرم من الاسكندرية ، ثم توجه إلى الصيد ، فأقام بأوسيم [1] ، وعرّج إلى جهة العباسة ، ورمى البندق ؛ وأصرع جماعة ، وادّعوا للسلطان ، ومن جملتهم الأمير فخر الدين عثمان ، ولد الملك المغيث ، صاحب الكرك . وصرع السلطان نسراً في ثالث ربيع الأوّل ، قريب رأس الماء .

ذكر الغزوات المباركة ، وما جرى فيها من الوقائع

ـ وتهيأ بها للإسلام من سد الذرائع ، وذكر الموجب للسفر

كان السلطان خرج متصيداً وبلغه بجهة العباسة وأعراس أن التتار قد جمعوا ، ونازلوا البيرة المحروسة ، فوثب وثبة الأسد المفترس ، واندفع اندفاع السيل المحتبس ، وأخذته الحمية للإسلام ، ومنع جنبه أن يضطجع ، وعينه أن تنام ، وأمر الأمير بدر الدين الخزندار بالركوب على الخيل السابقة ،

---

١ « وسيم » السلوك ٥٢٣/١ .

وأنه ساعة وصوله يجرد أربعة آلاف فارس من العسكر الخفيف ، وساقوا وساق السلطان من أعراس إلى قلعته، فأقام ليلة واحدة [٦٣/ ب] ؛ وكانت العساكر متفرقة في البلاد ، والخيول على الربيع ، وكان الفرنج قد أفهمت التتار ذلك ، وأن عساكر الديار المصرية لا يمكنها وقت الربيع الحركة ، وما علموا أن للإسلام ملكاً يحمل النفس على المشاق [ب/ ٩٦ ب] ، وإذا ساق إلى جهة يخيل أنه ركب على البرق أو البراق .

فلما استقر بقلعته رسم للأمير عز الدين يوغان [بتقدمة العساكر ، ومن هو مسافر معه ، بالتوجه جرائد ، ومنهم الأمير فخر الدين الحمصي] [1] والأمير بدر الدين بيليك الأيدمري ، والأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي ، وجماعة من الأمراء ، والحلقة [2] ، وتوجهت هذه العساكر في رابع الشهر . وأمر الأمير جمال الدين المحمدي ، وجمال الدين ايدغدي الحاجبي بالتجهز في قريب أربعة آلاف أخرى ، فخرجت هذه العساكر ثاني يوم خروج الأمير عز الدين ايغان ، وسافروا بعد سفر العسكر الأوّل بأربعة أيام .

ولما توجهوا شرع السلطان في التجهيز ، وسير سلاح داريته لإحضار الدواب من الربيع ، وإحضار الجند ، وخرج السلطان بنفسه ، في خامس ربيع الآخر ، ورحل في سابع الشهر ، وسار والنصر يقدمه ، قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم ! — : « يضمن الله لمن خرج في سبيل الله لا يخرجه إلاّ جهاد في سبيلي، والإيمان بي ، وتصديق لرسلي ، أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة » . وكانت العساكر تملأ الأرض [٦٤/ ١] ، وما نقصت في العين بسبب من جرد ؛ وصارت

---

١ من ب .

٢ وعددهم أربعة آلاف ، السلوك ٥٢١/١ .

الجمال تتفانى بلا [ب / ١٩٧] سبب ، وبقيت أموال الناس مطروحة على الطرقات ولمهابة السلطان لم يتأخر أحد ؛ ولما عرّفوا السلطان بحال الناس بموت الجمال قال : « ما أنا في قيد الجمال ، أنا في قيد نصرة الإسلام » .

ونزل غزة في العشرين من ربيع الآخر ، فوصلت كتب النواب بأن العدوّ نصب على البيرة سبعة عشر منجنيقاً ، فكتّم هذا الأمر عن أمرائه ، ولم يطلع عليه إلاّ الأميرين شمس الدين سنقر الرومي ، وسيف الدين قلاون الألفي ، وصار يكتب إلى الأمير عز الدين ايغان ويقول : « متى لم تدركوا هذه القلعة ، وإلا سُقتُ[1] إليها بنفسي جريدة » ، فساق العسكر وحث السير . ولما نزل السلطان في قرتيا ركب للصيد ، فتقطّر[2] عن فرسه ، وانهشم وجهه ، وانسلخ جلده ، فأظهر تجلداً ورحل فنزل يبنى[3] . وحضر [إلى] الخدمة قسطلان يافا ، وأحضر جملة من التقادم والبزاة .

ذكر ورود البشارة من جهة البيرة

في السادس[4] والعشرين من ربيع الآخر ورد البريد من جهة الأمير جمال الدين النجيبي ، نائب السلطنة بالشام ، وكان السلطان قد دخل إلى الحمام في دهليزه المنصور ، فسمع أنه قد وصل خبر طيب ، فقام لوقته

---

١ « سبقت » النهاية ٦٧ .

٢ « فتقنطر » ب .

٣ « يبنا » في الأصل .

٤ قارن هذا بما ورد في النهاية ٦٧ أما في الأصل فهي « في سادس عشر » .

[٦٤/ ب] عرياناً ، وقرئت عليه الكتب، فوجد [ب/ ٩٧ ب] في كتاب الأمير جمال الدين النجيبي بطاقة من الملك المنصور ، صاحب حماه ، مضمونها أنه وصل إلى البيرة بالعسكر[١] المنصور صحبة الأمير عز الدين ايغان ، وجماعة الأمراء يوم الاثنين ، وأن التتار عندما شاهدوهم ، ورأوا عزائمهم الماضية ، هربوا ورموا مجانيقهم ، وغرّقوا مراكبهم ، وانهزموا لا يلوي أحد على أحد ، ولا يقف والد لولد ؛ وكان تاريخ كتابتها من البيرة إلى حين وصولها إلى يُبْنى أربعة أيام ؛ فإن البطاقة وصلت إلى حماه ، إلى دمشق على الجناح ، ومن دمشق حضر البريد بها إلى يُبْنى . وهذا لاحتفال السلطان بأمور الإسلام ، وترتيب المصالح العامة ، وأيّ همة أعظم من همة ملك تبلغه أخبار البيرة وهو في أوّل بلد الساحل في أربعة أيام ، ويكون في الحمام فلا يصبر إلى أن يلبس قماشه، بل يخرج على الصفّة التي ذكرناها عجلاً ، خشية من مصلحة تفوت . وللوقت سير البطاقة صحبة الأمير حسام الدين لاجين الدوادار ، فأوقف عليها الأمير شمس الدين سنقر الرومي والأمير سيف الدين قلاون الألفي .

ثم حضر أربعة مماليك من [ب/ ٩٨ ا] جهة الأمير عز الدين ايغان، والأمير فخر الدين الحمصي ، والأمير بدر الدين الأيدمري ، والأمير بدر الدين العلائي مقدم عسكر الشام ، بالبشارة ، فطلب السلطان أمراء دولته [٦٥/ ا] وقرأوا الكتب واستبشروا بهذا النصر ، ﴿ وَكَفَى اللهُ المؤمِنِينَ القِتالَ ﴾[٢] .

وكَتَب كُتب البشائر ، وأصبح ينظر في أمور دولته ، لأنه كان إذا

---

١ « العساكر المنصورة » ب .

٢ القرآن الكريم ، الأحزاب ٢٥ .

لم يركب يُصلّي الصبح ، ويخرج إلى باب دهليزه ، ويجلس على كرسي أمير جانداره ، ظاهراً للناس كافة ، يقرب منه الفقير والمرأة والضعيف ويقضي حوائج الناس ، ويسمع قصص الرعايا ، ويُوقع عليها بين يديه إلى أن يرى أمراءه حضروا من سوق الخيل ، يقوم ويجلس في مرتبة السلطنة ، ويحضر الأمراء ، ويمدّ لهم الخوان ؛ ويجلس لقضاء حوائج الناس ، وللعلامة على الكتب . وإنما ذكرنا ذلك ليعلم أن هذا السلطان أوقاته مستغرقة في مصالح المسلمين ، ولذته في الاهتمام بأمور الدين .

ثم أحضر البريدية سكك حديد كان العدوّ صنعها للصعود في الأسوار ، وورد كتاب جمال الدين أقوش المغيثي النائب بالبيرة يذكر صفة الحال ، وما اشتملت عليه من قوة العزائم ، وشدة الشكائم ، وأنه لما كثر [1] العدو على القلعة ، وطم الخندق ، حفر أهل البيرة حفيراً قدر قامة ، وعملوا فيه [2] سرداباً نافذاً إلى الأحطاب التي كان العدو ردمها في الخندق ؛ ورموا فيها النار ، فاحترقت جميعها في الخندق ، وما قدر العدو على طفيها ، ثم سدّ المسلمون السرب المحفور ؛ وذكر مصابرة أهل الثغر ، وأن نساءهم فعلن من حسن البلاء في قتال الأعداء ما لا [٦٥/ ب] تفعله الرجال؛ ومن جملة ما وصف أن برجاً واحداً كان عليه خمسة عشر منجنيقاً ، وثبت شهرين، وكان العدو قد ضربوا أربعين سكة كل سكة ثلاثة أرطال بالحلبي ، وخمسين سكة كبيرة ، وجعلوا فيها الحبال ليجروا بها السلالم ، ويرفعوا المقاتلة فأخذ أهل الثغر الجميع ، وأخذ من العدو عدة مراكب ، كباراً وصغاراً .

---

١ انتهاء مخطوطة المتحف البريطاني .

٢ « منه » النهاية ٦٧ .

فكتب السلطان بإطابة قلوبهم ، وعينت أمثلة بإقطاعات لمن جاهد من البحرية وغيرهم بالبيرة ؛ واستشهد صارم الدين بكتاش الزاهدي ، أحد الأمراء المجردين بها بحجر منجنيق ، وترك موجوداً كثيراً وبنتاً واحدة تستحق نصف ميراثه ، فرسم أن يكون جميع ميراث أبيها لها لا تشارك فيه ، لما فعله أبوها في الخدمة ، واهتم بعمارتها ، وحمل الأقوات إليها ، وكتب إلى جميع القلاع والولايات بمساعدة هذا الثغر ، وكتب تذاكر بما يحمل إليها من مصر والشام من أصناف وأسلحة وعدد مجانيق وغيرها ، وكل ما تحتاجه هذه القلعة ، ومن فيها ، عشر سنين .

وكتب إلى الأمراء أنهم لا يتحركون من مكانهم حتى ينظفوا جميع الخندق وينقلوا الحجارة التي فيه . وكتب بذلك إلى الملك المنصور ، صاحب حماه ، وإلى جميع الناس ، وأمر بنقل ذلك على أكتافهم ، وخيلهم ؛ فأقاموا كذلك مدة . ووردت [٦٦/أ] كتب الأمراء بها ، وهم يصفون ما يعتمدونه من حمل التراب بنفوسهم ، ونقل الحجارة . فصادف ذلك أن السلطان واقف على سور قيسارية ، وهو يهدم بنفسه ، وفي يده القطاعة ، وقد تجرحت يده ، فكتب في الجواب : « إنا بحمد الله تعالى ما تخصصنا عنكم براحة ، ولا دعة ، ولا أنتم في ضيق ونحن في سعة ؛ ما منّا [1] إلاّ من هو مباشر الحروب ، الليل والنهار ، وناقل الحجار ، ويرابط[2] الكفار ؛ وقد تساوينا في هذه الأمور ، وما ثَمّ ما تضيق به الصدور » .

ووردت كتب الأمراء يخبرون بأن النوبة كانت للأمير عز الدين ايغان ، والأمير فخر الدين الحمصي ، والأمير بدر الدين الأيدمري ، وجماعة من

---

١ « ماهنا » السلوك ١/٥٢٥ .

٢ « ومرابط » السلوك ١/٥٢٥ .

البحرية وكانت خيلهم في الجانب الشامي ترتعي ، وهم رجّالة يعملون ، فأحاطت بهم فرقة من التتار المغل ملبسة ، فاجتمعوا ورموهم بالنشاب ، وأنكوهم بالجراحات ، فولّوا منهزمين ، وساق العسكر خلفهم ، فوجد منهم جماعة قد هلكوا من تلك الجراح في الطريق ، وفي حرّان وغيرها ، وجماعة من كبرائهم قُتلوا في ذلك اليوم .

وسير السلطان استدعى من الديار المصرية مئتي ألف درهم ، ومئتي تشريف ، وجهز معها من دمشق مئة تشريف ، ودراهم ، وسير الجميع إلى البيرة ، وكتب إلى عز الدين ايغان بأن يحضر أهل القلعة وجميع من بها [٦٦/ ب] من أمير ومأمور وجندي وعامي ويخلع على الجميع ، وينفق فيهم المال حتى الحرّاس وأرباب الضوء ، وأنهم يلبسون الخلع ، ويخدمون بباب القلعة ؛ رُوي عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أن رجلاً قال : « يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ » قال : « مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله ، ثم رجل في شعب من الشعاب يعبد الله » . وقال الله تعالى : ﴿ مَثَلُ الّذينَ يُنفقونَ أموالَهُم في سَبيلِ الله كَمَثَلِ حَبّةٍ أنبتَتَت سَبعَ سَنابِلَ في كُلّ سُنبُلَةٍ مائةُ حَبّةٍ وَاللهُ يُضاعِفُ لمن يَشاءُ ﴾[1] . ووصل كتاب الأمير عز الدين ايغان بأنه اعتمد هذا الأمر ، وسار خبره في البلاد ، وتحقق الناس أن السلطان لا يضيع لديه عمل عامل ، وأنه ليس عن غلمانه بغافل ؛ وطابت قلوب أهل القلاع بذلك ، وقالوا : « السلطان يطوي لنجدتنا المراحل ، وتسبق عساكره الأخبار إلى العدوّ المنازل » .

ولما وصل الأمير جمال الدين المحمدي رسم السلطان بأن يكون مقدّماً

---

١ القرآن الكريم ، البقرة ٢٦١ .

على العساكر المصرية والشامية لكبر سنه ، والأمير عز الدين ايغان يتحدث في المهمات ، واطلاق الأموال ، وترتيب أمور البلاد ، فوردت كتبهم بأن الخنادق قد تنظفت ، ولم يبق لهم عائق ، فرسم السلطان أن يحملوا إلى القلعة حجارة زلط ، وقرر على صاحب حماه لنفسه خاصة ألف زلطة وكل أمير من أمرائه مائة حجر ، وكل جندي خمسين زلطة، وكذلك [٦٧ / ١] قُرر على جميع الأمراء والجند ، وقرر عليهم حمل السهام والأخشاب للمجانيق .

وجرد للعمارة الأمير علم الدين والأمير سيف الدين بلبان الحبيشي ، وركن الدين الصروي ، وتجرد من كل أمير صحبتهم ثلاثة نفر يقيمون لنجاز العمارة وإذا اعتمدوا ذلك يتوجهون إلى تل باشر للإغارة على بلاد سيس ، فوردت كتبهم باعتماد ذلك جميعه ، واستمر حمل الغلال إلى البيرة ، فلا ترى إلاّ قوافل حاملة ، وركائب موسقة راحلة . وكتب السلطان إلى الأمير جمال الدين النجيبي بالحث على ذلك والتوبيخ ؛ فعزم عزمة الرجال ، وحمل ما ملأ الأرض من الغلال وحملت إليه المجانيق من شيزر ، وعُوّضت عنها من دمشق ، ورحل عنها العسكر وقد نصره الله وأظفره ، وشيد بنية السلطان الثغر وعمره .

ثم أنه رأى حسنة حسنة ، وإزالة منكر تغدو آثاره بينة ، فكتب إلى الديار المصرية بتبطيل المزر ، وأن تعفى آثاره ، وتخرب بيوته ، وتكسر مواعينه ، ويسقط ارتفاعه من الديوان . وكتب إلى الأمير عز الدين الحلي : « أشتهي لأجلي تزيل هذا المنكر ، فإن بعض الصالحين تحدث معي في ذلك، وقال : [القمح الذي جعله الله قوت العالم يداس بالأرجل !] وقد تقربت إلى الله بإبطاله ، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، ومن كان له

على هذه الجهة شيء يعوضه الله من مال الله الحلال » . فوردت الكتب باعتماد ذلك؛ وعوّض [٦٧/ ب] المقطعون ، وكتب هذه الحسنة في صحائف هذه الدولة .

ذكر الفتوحات بالبلاد الفرنجية

لما وصلت الأخبار إلى السلطان وهو بالساحل بالنصرة على التتار ، وانهزامهم شر هزيمة ، وتقدم بعمارة ثغر البيرة على ما شرح ، ثنى أعنته إلى جهة الفرنج ليدينهم كما دانوا ، ويكون لهم كما كانوا ، وما أعلم أحد مغزاه ، ولا فهم أين مرامه ومرماه ؛ وركب من العوجاء بعد رحيل الأطلاب للتصيد في غابة أرسوف ورسم للأمراء بأن من أراد الصيد فليحضر فإن الغابة كثيرة السباع ؛ وكان قد أُحضر إلى باب دهليزه سبع مقتول ، أحضره أحد الأجناد ، فأنعم على قاتله ، وتشوف إلى تنظيف الغابة من الوحوش الكاسرة ، وساق فمر على قنطرة نهر العوجاء ، فوجد جماعة من الرعية السوقية عابرين على القنطرة في ليلة شاتية ، فوقف، وأمر أن لا يعبر أحد حتى يعبر الضعفاء ؛ ووقفت لرجل دابة فما زال واقفاً حتى نزل خواصه وحملوا الدابة ، ونقلوا القماش ، قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .

- وساق من ذلك المكان ورتّب الحلقة ميمنة وميسرة ، ودخل الغابة وقضى نهمته من صيده ، وجرب سيوفه [٦٨ / ا] في تلك الوحوش، على أنها لم تزل مجرَّبة ، ورتب الحتوف على الأعداء ، وإن كانت عليهم مترتبة ؛

وسار إلى أرسوف وقيسارية ، وشاهدهما ، وعاد إلى دهليزه فوجد أخشاباً للمنجنيقات قد أحضرت ، صحبة زردخاناه كان الأمير علم الدين ، نائب أمير جاندار قد أحضرها ؛ فطلب الأمير عز الدين أمير جاندار ، وأمره بنصب عدة مجانيق مغربية وفرنجية من الأخشاب المذكورة . وفي وقت السحر من اليوم الثاني خرج بنفسه ، وجلس عند الصناع ليبذل الاجتهاد ، فعمل في ذلك اليوم أربع منجنيقات كبار ، خارجاً عن الصغار . وكتب إلى قلاعه بطلب المنجنيقات والصناع والحجارين ورسم للعسكر بعمل سلالم ، وعين لكل أمير حمل عدة منها ، ورحل إلى قريب عيون الأساور ، فأمر بعد عشاء الآخرة بلبس العدد ، وركب قريب الصبح ، وساق إلى قيسارية على حين غفلة من أهلها .

ذكر فتوح قيسارية

نزل عليها يوم الخميس تاسع جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وستمئة ولوقته طاف بها ، وهاجمها الناس ، وألقوا نفوسهم في خنادقها ، وعمدوا إلى السكك الحديد التي للخيل والشُّبح والمقاود [٦٨/ب] فتعلقوا فيها وطلعوا من كل جانب ونصبت عليها السناجق ، وحُرقت أبوابها ، وهتك حجابها ، فهرب أهلها إلى قلعتها ، وسُيرت كتب البشائر إلى البلاد وإلى الأتابك فارس الدين بحكم تأخره لمرضه ، ونصبت المنجنيقات على القلعة ، وهي من أحصن القلاع وأحسنها ، وتعرف بالخضراء . وكان الريدافرنس حمل اليها العمد الصوّان وأتقنها ،وما رؤي في الساحل أحسن منها عمارة ولا أمنع

ولا أرفع ، لأن البحر المالح حافٌّ بها ، وجائز في خنادقها ، والنقوب لا تعمل فيها للعمد الصوان المصلبة في بنائها ، حتى إذا عُلّقت لا تقع ، واستمر الزحف عليها ، ورمي المنجنيقات ، والسلطان تارة يرمي بالنشاب من علو كنيسة قبالة القلعة ، وتارة يركب ويخوض عباب البحر ، ويقاتل ؛ وعُملت دبابات وزحافات ، وأطلق النشاب للعساكر من قلعة عجلون لكل صاحب مائة فارس أربعة آلاف سهم ، وكذلك الحلقة والجند ؛ ورسم بنقل الأحطاب ، وحجارة المجانيق . وخلع على الأمير عز الدين الأفرم أمير جاندار لاجتهاده في المنجنيقات ، وعلى المنجنيقية ؛ وجرد الأمير شهاب الدين القيمري بجماعة من عسكر الساحل بجهة بيسان ، فسيّر جماعة من التركمان والعربان إلى أبواب عكا ، فأسروا جماعة من الفرنج ، ودواباً وغيرها .

واستمر السلطان على [٦٩/١] المصابرة والمثاغرة ، وأقام بالكنيسة لا يخرج إلى دهليزه يرامي هو ، وجماعة الأقجية يمنعون الفرنج من الصعود إلى علوّ القلعة ، وتارة يركب في بعض الدبابات ذوات العجل ، وتجر من تحته حتى يصل إلى الأسوار ، ويرى النقوب بنفسه ، وأخذ في بعض الأيام في يده ترساً وقاتل وما رجع إلاّ وفي ترسه عدة سهام .

وفي ليلة الخميس منتصف جمادى الأولى هرب الفرنج ، وأسلموا القلعة بما فيها ، وتسلق المسلمون إليها من الأسوار ، وحرقوا الأبواب ، ودخلوها من أعلاها وأسفلها ، وأذّن بالصبح عليها ، وطلع السلطان إلى القلعة ، وقسم المدينة على أمرائه ، وخواصه ، ومماليكه ، وحلقته ، وشرع في الهدم ، ونزل وأخذ بيده قطاعة ، ووقف يهدم بنفسه ، ورآه الناس فتشبهوا به ، وعملوا بنفوسهم ، وصار يباشر ذلك بنفسه ويده ، وقد اكتسى من الغبار أثواباً . قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ، ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم » . وقال ، صلى الله عليه وسلم : « ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار » .

وفي جمادى الأولى وردت كتب الأمراء المجردين للغارة بأنهم وصلوا إلى أبواب عكا وغنموا ، وعادوا سالمين .

قال مؤلف السيرة القاضي محيي الدين: وهذه قيسارية من المدائن [٦٩/ب] قديماً ، فتحت في صدر الإسلام ، وذلك في سنة تسع عشرة من الهجرة النبوية وسبب فتوحها أن الكفار والمنتزحين بين يدي المسلمين التجأوا إليها ، وتحصنوا فلما فرغ المسلمون من غزاة أجنادين ، ومن فتوح دمشق ، ومن وقعة فِحل، ومن وقعة اليرموك التي بدد الله فيها جميع[1] الروم ، كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، إلى يزيد بن أبي سفيان : « أما بعد : فقد وليتك أجناد الشام كله ، وكتبت إليهم أن يسمعوا ويطيعوا ، ولا يخالفوا لك أمراً ،فاخرج فعسكر بالمسلمين ، ثم سر بهم إلى قيسارية فانزل عليها ، ثم لا تفارقها حتى يفتحها الله عليك ، فإنه لا ينبغي افتتاح ما افتتحتم من أرض الشام مع مقام أهل قيسارية فيها ، وهم عدوكم ، وإلى جانبكم ؛ وإنه لا يزال قيصر طامعاً في الشام ما بقي فيها أحد من أهل طاعته ، ولو قد فتحتموها ، قطع الله رجاه من جميع الشام ، والله عز وجل فاعل ذلك ، وصانع للمسلمين إن شاء الله تعالى » . فسار إليها يزيد وقاتلها قتالاً شديداً فلم ينالوا منهم شيئاً فقام عبادة بن الصامت ثم قال ، في جملة ما وعظهم به : « إني خائف عليكم أن تكونوا قد غللتم » – يعني سرقتم المكاسب ولم تقسموها – فإن عمر – رضي الله عنه قال للمسلمين في نوبة اليرموك :

---

١ لعلها « جمع أو جموع أو جميع جيش الروم »

« سبحان الله أو قد واقفوهم – يعني المشركين – ما أظن المسلمين إلاّ قد غلّوا » . وقال : « لو لم يغلوا [٧٠/أ] ما واقفوهم، ولظفروا بهم بغير مؤونة » – أي بغير تعب . فصدقهم المسلمون القتال ؛ فلما كان بعض الأيام خرج أهل قيسارية والمسلمون غافلون ، فأجمعوا عليهم من كل جهة ، ونصر الله عليهم ، فقتل في المعركة خمسة آلاف رجل ؛ ولما شاهد يزيد تلاف حالهم ، استخلف عليها معاوية ، ورحل عنها ، ففتحها الله على يديه في التاريخ المذكور ولم يبق في الشام حينئذ عدو للمسلمين في أقصاه ولا أدناه ؛ وصار الشام كله للمسلمين .

وفي هذه الأيام ورد خبر من جهة يافا بأن الأمير علم الدين سنجر الصيرفي عمل حيلة على طشتداره وسيره إلى يافا ليقضي له شغلاً ، وكان قد اتفق مع قسطلان يافا على إمساكه فأمسك ، واعتقل في الجب ، فأنكر السلطان ذلك فأحضر من يافا كتاب استاذه إليهم بحبسه ؛ فجمع السلطان الأمراء ، وفي جملتهم الأمير علم الدين الصيرفي ، وأنكر عليه هذا الأمر غاية الإنكار ، وخلّص المذكور من الأسر ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا لَكُم لا تُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ وَالمُستَضعفِينَ مِنَ الرِّجالِ ، والنّساءِ وَالولدان﴾[1] . قالت العلماء : « إنقاذ أسراء المسلمين من أيدي الكفار من أفضل القربات والمثوبات » . وقد قال بعض العلماء : « إذا أسروا مسلماً واحداً وجب على الإسلام أن يواظبوا على قتالهم حتى يخلّصوه أو يبيدوا الكفار » [٧٠/ ب] .

---

١ القرآن الكريم ، النساء ٧٥ .

ذكر التوجه إلى جهة عثليث

وأخذ حصن الملّوحة وحصن حيفا

ولما قارب الفراغ من هدم قيسارية سير الأمير شمس الدين سنقر الألفي الظاهري ، والأمير سيف الدين المستعربي وجماعة ، فهدموا قلعة للفرنج عند الملوحة وكانت عاتية عاصية ، ودكوها إلى الأرض .

وفي سادس وعشرين جمادى الأولى توجه السلطان إلى جهة عثليث جريدة ، وسير الأمير شمس الدين اقسنقر السلاحدار الظاهري ، والأمير عز الدين الحموي ، والأمير شمس الدين سنقر الألفي الظاهري إلى حيفا ، فساروا إليها ، ودخلوا قلعتها ، فنجا الفرنج بأنفسهم إلى المراكب بعد أن قتل منهم ، وأسر ؛ وأحضرت الأسارى والروس ، وأخربوا المدينة وقلعتها وأحرقوا أبوابها ، وجعلوها خاويةً عَلى عُرُوشِها [1] ، كَأَنْ لَم تَغْنَ بالأمسِ [2] ، وكان أخذها ، وما اعتمد فيها من قتل وأسر وإخراب وإحراق في يوم واحد وعاد الأمراء سالمين .

وأما السلطان فإنه وصل إلى عثليث وأمر بتشعيثها ، وقطع أشجارها فقطعت جميعها وخربت أبنيتها في ذلك النهار وعاد السلطان وأذاق الكفار حسرة وأي حسرة ، ولا بد أن يعيد الحتف عليهم كما بدأ أوّل مرة ، وثنى العنان عنها وهو إليها يمتد، وحول الساعد وهو إلى مرفقها يشتد [٧١/ ا] وأخّرها إلى أجل مسمى ، ورأى أنه يقدم على أمرها الذي ليس بمهم ،

١ راجع القرآن الكريم ، البقرة ٢٥٩ .
٢ القرآن الكريم ، يونس ٢٤ .

وترك أهلها في حبس منها ، وقطع قلوبهم قبل قطع الميرة عنها ، وعاد إلى دهليزه بقيسارية وكمّل هدمها .

ذكر متجددات والسلطان على قيسارية

منها وصول الأمير سيف الدين الزيني ، وصحبته المنجنيقات المحضرة من الصّبيبة ؛ ووصول زردخاناه من دمشق . وورد جماعة مستأمنين من جهة الفرنج ، ومن جملتهم أحد أبناء الملوك ، فأعطاهم الإقطاعات وأحسن إليهم . ومرض جماعة من الأمراء فركب السلطان وعادهم ، وهم الأمير شمس الدين سنقر الرومي ، والأمير عز الدين أمير جاندار ، والأمير سيف الدين الزيني أمير علم .

ذكر فتوح أرسوف

ـ وفي تاسع وعشرين جمادى الأولى رحل السلطان من قيسارية ولم يعلم أحد إلى أين توجهه ، وسار إلى أرسوف ، فنزل بها مستهل جمادى الآخرة وأمر بنقل الأحطاب ، فصارت حولها كالجبال الشاهقة ، والتلال السامقة ، وما إذا ظل الأعداء له[1] يشاهدون، قالت لهم الأقدار [٧١/ب] : ﴿ حَصَبُ جَهَنَّم أنتُم لهَا وارِدُونَ ﴾[2] . فعملت منها الستائر ، وأمر بحفر سرابَين

١ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٢ القرآن الكريم ، الأنبياء ٩٨ .

من خندق المدينة إلى خندق القلعة، وسقفت [كذا] بالأخشاب . ولما فرغ من السرابَين سلم أحدهما للأمير شمس الدين سنقر الرومي ، وللأمير بدر الدين بيسري، والأمير بدر الدين الخزندار الظاهري، والأمير شمس الدين الدكز الكركي ، وجماعة الأمراء السنجقية وغيرهم ؛ وسلم السرب الآخر للأمير سيف الدين قلاون الألفي، والأمير علم الدين الحلبي الكبير، والأمير سيف الدين كرمون ، وجماعة من الأمراء . وعمل طريق من الخنادق إلى القلعة ، فخرج الفرنج لإحراق الأحطاب ، فطلبهم الأمير سيف الدين قلاون وغيره ، وقلب عليها المياه بنفسه ، وبجماعة الأمراء ، وطفيت تلك النار . ولما تكامل ردم الأحطاب بالخندق تحيل الفرنج بأن نقبوا من داخل القلعة إلى أن وصلوا إلى تحت الردم ، فخرقوا الأرض إلى الأحطاب ، وعملوا بتاتيَّ ملآنة أدهاناً وشحوماً وأوقدوا النيران ، وعملوا في النقوب المنافخ ، ولم يعلم العسكر بهذه الحيلة إلاَّ بعد تمكن النيران ، وكان ذلك في الليل ، فحضر السلطان بنفسه في الليل ، ورمى الناس نفوسهم في النار لإطفائها ، وسكبت المياه بالروايا فما أفادت شيئاً ، واشتَعَل جميع ما بالخندق من الأحطاب ، وصارت هباء [٧٢ / ا] منثوراً، وتمت الحيلة للفرنج ؛ ولكن أحدث الله بعد هذا للنصر أموراً ، وهو بأن السلطان تقدم إلى الأمير شمس الدين سنقر الرومي ومن معه ، وهم نصف أمراء السنجقية ، وميمنة الأمراء البحرية ، وميمنة الحلقة ، وميمنة الأمراء الحاضرين ، غير من هو مجرد في البيرة وغيرها بأنه يأخذ هو والجماعة المذكورون من مكانه في باب السرب من حافات الخندق ، من جهة سوره حفراً إلى البحر المالح . وتقدم إلى الأمير سيف الدين قلاون الألفي [1] بأن يأخذ هو ونصف السنجقية من جهة الميسرة ، وميسرة الحلقة ،

---

[1] كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

وميسرة البحرية بأنهم يحفرون إلى آخر الخندق من الجهة الأخرى ، وأن يحفروا من كل ناحية من هذه النواحي سرباً يكون حائط خندق العدو ساتراً له ، ويُحفر في هذا الحائط أبواب ، ويرمى التراب منها ، وينزل في هذا السرب حتى يساوي أرضها بأرض الخندق . وطلب عز الدين أيبك الفخري ، أحد أصحاب الأتابك ، وأحضر المهندسين وعذق هذا الأمر به .

فاستمر العمل في هذه الخنادق ، والسلطان طائف بنفسه ، وملازم الخندق يعمل فيه بيده ، ويساوي الناس في جر المنجنيقات ، ورمي التراب ، ونقل الحجارة ؛ قال القاضي محيي الدين مؤلف السيرة : « فتعست أم الجبان، ولقد رأيت السلطان يبذل من نفسه كل مصون ، ويهوّن منها ما لا يهون ؛ وهو [٧٢/ ب] بمفرده ماش في يده ترس، وهو تارة في السرب ، وتارة في الأبواب التي تفتح ، وتارة على حافة البحر يرامي مراكب الفرنج ، ويجر في المجانيق ، ويطلع فوق الستائر ، يرمي من فوقها ويرى كل أحد حقه من المباشرة ، والأمر بالجهاد ، وشكر من يجب شكره والخلع على كل من يفعل فعلاً حسناً من سائر الناس ؛ ومع هذا رحم الله الأمة بسلامته ، ومنّ عليهم بوقايته » .

قال مؤلف السيرة القاضي محيي الدين : « حكى لي الأمير جمال الدين بن نهار قال : رأيت السلطان في هذا النهار رمى ثلاثمئة سهم نشاباً » . وقد قال ، صلى الله عليه وسلم : « ألا إن القوة الرمي » . وقال — صلى الله عليه وسلم ! — « من رمى بسهم في سبيل الله كان كعتق رقبة » . وقال — صلى الله عليه وسلم ! — « إذا أكثبوكم فارموهم بالنبل ، ولا تسلّوا السيوف حتى يغشوكم » .

واتفق أن السلطان حضر إلى السرب ، وقعد في رابية خلف طاقة يرمي

فيها ، فخرجت جماعة من الفرنج الفرسان ، ومعهم الرماح بخطاطيف ، فلم يشعر إلاّ وهم على باب السرب ، فقام وقاتلهم يداً بيد ؛ وكان معه الأمير شمس الدين سنقر الرومي ، والأمير بدر الدين بيسري الشمسي [والأمير بدر الدين الخزندار وغيره ، وصار الأمير شمس الدين سنقر الرومي يناوله الحجارة][1] فقتل بها فارسين ، وقطع الأمير حسام الدين الدوادار أحد الخطاطيف بسيفه ، وجرح في عضده ، ورجع الفرنج على أسوإ حالة . وكان السلطان يطوف بين عساكره في الحصار بمفرده [٧٣/١] ولا يجسر أحد ينظر إليه ، ولا يشير بإصبعه .

وحضر العبّاد والزهّاد والفقهاء والفقراء إلى هذه الغزاة المباركة ، التي ملأت الأرض بالعساكر ، وأصناف العالم ، ولم يتبعها خمر ولا شيء من الفواحش بل النساء الصالحات ، يسقين الماء في وسط القتال ، ويجررن في المجانيق ، وأطلق لجماعة من الصالحين الرواتب ، مثل الشيخ علي المجنون ، والشيخ الياس من الأغنام والحوائج ؛ وأطلق للشيخ علي البكّاء جملة من المال . وما سمع أن أحداً من خواصه اشتغل عن الجهاد في نوبته بشغلةٍ ، ولا سير أمير غلمانه في نوبته واستراح هو ، إلاّ الناس سواء في هذه الأمور ، ولازم السلطان تفقد المجانيق بنفسه في كل وقت ؛ وعمل كرمون أغا منجنيقاً بسبعة سهام أثر أثراً حسناً وأحضر من دمشق مجانيق ، وكانت المفاردة في العقاب تحملها على الرقاب . واجتهد الأمير عز الدين الأفرم — رحمه الله ! — في أمر الحصار ، الاجتهاد التام ولم يزل يلازم المبيت عند المنجنيقات ، وهو المتصرف فيها .

ولما أثرت المنجنيقات في هدم الأسوار ، وفُرغ من السرابات التي

---

١ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

إلى جانب الخندق من الجهتين ، وفتحت فيها أبواب متسعة ، حصل الزحف على أرسوف ، في نهار الاثنين ثامن شهر رجب ، وفتحت في ذلك النهار .

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم ! – : « حُرِّمت النار على عين بكت [٧٣/ ب] من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله » . وقال – صلى الله عليه وسلم ! – : « غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ورباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » . وقال – صلى الله عليه وسلم ! – : « طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه فإن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة » .

وزار السلطان قبر الشيخ الصالح علي بن عليم ، المدفون إلى جانب أرسوف ؛ وهذا الشيخ علي بن عليم من الصالحين المشهورين بالبركات ، والكرامات ؛ من جُملة بركاته أنه مدفون على باب أرسوف ، ولا يدخل إلى تربته خنزير ، ويُساق فيرجع من الباب ، وعاند ابن باليان ، صاحب أرسوف في أمره ، وشرب عند تربته ، فيبست يده ، وأقام ثلاثة أيام ومات ؛ فعظمته الافرنج من ذلك الوقت .

ويحكى عنه – رحمه الله تعالى ! – إن خادمه دخل عليه يوماً ، وهو في خلوته ، فسمعه يقول : « والله لا أرضى » . فخرج ، ودخل مرةً أخرى فسمعه يقول : « والله ما أرضى » . ثم سمعه يقول : « رضيت » ؛ فبقي في قلب الخادم من ذلك شيء ؛ فلما حضرت الشيخ الوفاة قال للخادم : « في خاطرك شيء لا بد أن أزيله ، وهو ذلك الذي سمعتني أذكره » ، قال : « نعم » ؛ قال : « شفعني الحق – سبحانه وتعالى ! – في ألف رجل ممن زارني ، فلم أرض ثم شفّعني [٧٤/ ١] في ألفين ولم أرض

إلاّ في جميع من زارني أن لا يعذّبه الله بالنار ، فعند ذلك رضيت » .
وعبرت مركب ، وفيها رجل مسلم ، فسأل عنه ، فقيل له : « هذا قبر رجل صالح » ، فقال : « اللهم إن كان لعبدك هذا عندك حُرمة ، وهو من عبادك الصالحين ، فخلصني ! » ورفع صوته . فضربه الفرنج ، فوقفت المركب ثلاثة أيام ، حتى أطلقوه ، فنزل إلى قبره[1] وهذا الشيخ [— رحمه

---

١ عند إطلاعي أحد الفاضلين على ما ورد في هذه القصة علق عليها بما هو آت :
هذه الحكاية مشكوك في صحتها ، لأنها غير مسندة بسند ثابت ، وما أضل الناس إلا حشو أمثال هذه الحكايات في المصنفات ، فيأخذها الكثيرون على أنها مسلمات ، وعلى فرض ثبوتها فإنها الشطحات التي تقع لبعض المتصوفة مما يكون مخالفاً للشرع ، فكل أمر لا يقوم على صحة دليل شرعي فهو مرفوض ، مهما كانت منزلة فاعله وقائله كما قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وكما في حديث عائشة في مسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » . قال الإمام مالك : « كل يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر » .
هذا وكان فضلاء الصوفية ينكرون هذه الشطحات كما روي عن الجنيد بن محمد قوله : أمرنا هذا مرجعه الكتاب والسنة » وأكد هذا الإمام أبو حفص عمر بن محمد السهروردي في كتابه « عوارف المعارف » كما أكده أيضاً الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه : « احياء علوم الدين » .
والذي يبدو أن هذه الشطحة من إضلال الشيطان ، وتلبيسه الأمر على هذا الرجل الصالح ، لأنه لا يليق بمسلم أن يدعي أن الله عز وجل يكلمه في الدنيا بعد أن انقطع الوحي بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والا لكانت النبوة باقية ، ولم تختم بمحمد صلى الله عليه وسلم . ويؤكد هذا المعنى قوله عز وجل : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء » . كما لا يليق بأحد من البشر أن يخاطب الله بمثل هذه العبارات المشتملة على سوء الأدب ، وقلة الحياء من الله ذي العظمة والكبرياء ، تعالى الله وتقدس .
ويدل على أن هذه الواقعة من اضلال الشيطان الحكاية المشهورة عن عبد القادر الجيلاني أنه كان في بعض الفلوات ، وقد « مكثت أياماً لا أجد الماء حتى اشتد بي العطش ، فأظلني سحابة نزل علي منها شيء يشبه الندى ، فترويت ، ثم رأيت نوراً أضاء منه الأفق ، =

الله ! – مشهور ، مذكور في الكتب .

وجرت نكتة غريبة ، وهي أن الشيخ][1] الصالح علي المجنون ، وله كرامات[2] معروفة ، كان حاضراً[3] هذه الغزاة – على ما شرحناه[4] – ركب في يوم الفتح ، قبل أن يعلم أحد حديث الفتوح ، وحصل له حال ، فساق إلى أن وقف على حافة الخندق ، وأزبد وغاب ذهنه ، وصار يرفع صوته ، ويشير إلى القلعة وستره الناس بالطوارق ، ولم يزل على هذه الحالة حتّى سيّر الأمير شجاع الدين الشبلي ، وعرف السلطان أن الباشورة انشقت ، فلما ثنى الشيخ رأس فرسه ، ورجع إلى باب السرب ، وقع سور الباشورة ، وشاهد الناس هذه الكرامة .

وحكي عن ابن صبرة قال : « كنت أخدم صاحب ماردين ، فحضر

= وبدت لي صورة ، ونوديت منها : يا عبد القادر أنا ربك ، وقد أحللت لك المحرمات ، أو قال ما حرمت على غيرك ، فقلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، اخسأ يا لعين ، فإذا ذلك النوم ظلام ، وتلك الصورة دخان ، ثم خاطبني وقال : يا عبد القادر نجوت مني بعلمك بحكم ربك ، وفقهك في أحوال منازلاتك ولقد اضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق ، فقلت لربي الفضل والمنة » . فقيل لعبد القادر : كيف علمت أنه شيطان ؟ قال : بقوله : « أحللت لك المحرمات » اهـ .

وليس معنى هذا إنكار الكرامات والمكاشفات التي يجريها الله تعالى لأوليائه ولكن بغير مثل هذه الصورة المصادمة لشرع الله ودينه ، وإنما تكون بمثل الرؤيا الصادقة من الرجل الصالح ، وما يلقى في روع المؤمن من الحدس الصادق ، والفراسة الكاشفة والإلهام مما لا يتعارض مع الشرع .

١ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٢ « وله من الكرامات » في الأصل .

٣ « حاضر » في الأصل .

٤ راجع ما سبق الورقة ٧٣/أ (ص ٢٣٨) .

هذا الشيخ علي المجنون اليه ، وشفع في تركمان حبسهم المذكور ، فلم يقبل شفاعته فيهم ، فأعاد السؤال ، فأنكر عليه صاحب ماردين دخوله في هذه القضية فحصل للشيخ حال ، وقال : « والله لأرمينّ حجارة هذه القلعة على رأسه » . فأرسل الله سحابة ، وكان الوقت صيفاً ، واستقلت على القلعة [٧٤/ب] ، واسودت حتى أظلم الوقت ، وامطرت حجارة ، فتطارح صاحب ماردين على رجليه حتى رضي ، واقلعت السحابة .

ولما قدر الله وقوع الباشورة ، في الساعة الرابعة من نهار الخميس ، طلع المسلمون إليها ، تسليقاً ، وما أحس الفرنج بالمسلمين إلاّ وقد خالطوهم من كل باب ، ورفعت الأعلام على الباشورة ، وحفّت بها المقاتلة ، وطرحت النيران في أبوابها . وأعطى السلطان سنجقه للأمير شمس الدين سنقر الرومي وأمره أن يؤمن الفرنج به من القتل ، عندما طلبوا الأمان ، فلما رآه الفرنج بطلوا القتال ؛ وسلم السنجق للأمير علم الدين سنجر المسروري ، الحاجب ، المعروف بالخياط ، ودلّيت له الحبال من قلعة أرسوف ، فربطها في وسطه والسنجق معه ، ونشله الفرنج إلى القلعة ، فأخذ سيوفهم ، وأحضروا في الحبال ، والأمراء صفوف ، والأسارى يؤتى بهم ألوف [بعد ألوف] [1] .

وكان فتح قيسارية يوم الخميس ، وفتح قلعتها يوم الخميس ؛ وفتح أرسوف يوم الخميس ؛ وهذا دليل على توفيق الله – سبحانه وتعالى ! – للسلطان ، لأنه روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم ! – أنه ما كان يخرج في سفر إلاّ يوم الخميس . وقالت العلماء : « ينبغي للمجاهد أن لا يخرج إلاّ في يوم الخميس اقتداء برسول الله – صلى الله عليه وسلم ! – في أسفاره ، لأن الأعمال تعرض على الله – سبحانه وتعالى ! – في يوم الخميس » .

---

١ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

ولما لم يبق بأرسوف أحد من الفرنج أباح القلعة للمسلمين [٧٥/أ] بما فيها من غلال وذخائر ومال ، وكانت بها جملة من الخيول والبغال لم يتعرض منها إلاّ لما اشتراه بماله . وكان في أسر الفرنج جماعة من المسلمين خلصوا تلك الساعة ، وأخذت قيودهم قيد بها الفرنج ، ونقل الأسر من المسلمين إلى الكافرين ، وشَفَى بِهِ صُدورَ قَوم ٍ مُؤمِنِينَ .

وجرد جماعة من المقدمين يتوجهون مع الأسارى ؛ وسير لكل أمير جماعة ولكل مقدم جماعة . وكتب إلى قسطلان يافا بأن يكتب إلى صاحبه : « بأنّا لا نحتمل الهضيمة ، وإذا أخذ أحد [لنا] مزرعة أخذنا عوضها قلعة مرتفعة ، وإذا أسر لنا فلاح أسرنا ألفاً من المقاتلة لابسة السلاح ، وإذا هدموا جداراً هدمنا أسواراً ؛ والسيف في يد الضارب ، والجواد عنانه في قبضة الراكب ؛ ولنا يد تقطع الأعناق ، ويد تصل الأرزاق ؛ ومن تحرش فعن تجربة ، ومن أراد شيئاً من الأشياء فهذه الأمور له مرتبة » .

وشرع السلطان في تقسيم أبراج أرسوف على الأمراء ، وجعل هدمها دستورهم ؛ ورسم بإحضار الأسارى لإخرابها ، فكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ يُخرِبونَ بُيوتَهُم بِأيدِيهم وَأيدي المؤمِنِينَ ﴾ [1] .

فنظم القاضي محيي الدين ، جامع السيرة ، في وصف الفتح المذكور أبياتاً :

وقد غلبت على الدنيا فدونكها كما تسرك والدنيا لمن غلبا

. . . . [2]

---

١ القرآن الكريم ، الحشر ٢ .

٢ يوجد هنا في المخطوطة قدر صفحة بياض .

[٧٥/ب] وَيَحسَبُونَ كُلَّ صَيحَةٍ عَلَيهِم ، ضَنّة بالنفوس ، ورغبة عن لباس البوس ؛ وسوء ظن بأقدار الله التي لا محيد عنها ، واشتغالاً بالفكرة في الأمور التي فرغ ربك منها ؛ وإلاّ لو شاهد سنان هذا الملك ، الذي تسبق أعنة خيوله الرياح ، وتملأ جيوشه البطاح ، وتسمح أولياؤه بالنفوس ، مستربحة رضوان الله برضاه ، والسماح رباح ، وتقصد القنا طعناته ، فكم أفنت من سنان ، وكم حطمت من رماح ، لقرع السن ندماً ، ولشغل بكلامه عن أن يحير كلماً ؛ ولراعه كما[1] يديرون رحى الحرب الزبون ، ويتداوون مع صحة أذهانهم في الحروب من الجنون بالجنون ، ويمتنعون بوطى الحصن إذا امتنع غيرهم بعُلى الحصون ؛ ولأجرّت تلك الرماح لسانه فلا يقول ، ولقطع بأن سكاكين قومه الذين يقولون نصول بها أنها لسهام هذا السلطان نصول ؛ ولتيقن أن تلك الدعوة في مملكة من ممالك الدولة لم تجب، وتلك الرغوة التي . . . .[2] ولوقف موقف الاعتذار، ولسأل الأمان لرجاله الذين أكثر بهم الفخار ، ولطلب من السيوف الظاهرية الطوال ، بأيدي أربابها ، العفو عن سكاكين تلك الباطنية القصار ؛ ولقال عند سماع غوغاء الحروب : هذه أسود تزأر بالغيل، لا ذبابة تطن بأذن فيل ، وملوك تأتي من الملائكة في قبيل، لا بعوضة تعد من التماثيل [٧٦/أ]، ولما وصف نفسه وأصحابه بأنهم كالريح العاصف التي لا تؤذي الهشيم احتقاراً ، وتعثر بالجبال الراسية ، فتنسفها اقتداراً ولعلموا أنهم ان كانوا ريحاً فقد لاقوا إعصاراً ، وان من الجبال الراسية ما تعثر الرياح بها — كما قال — إذا عثرت لا تقيل لها عثاراً ؛ وقد أنكتهم الرياح العواصف ، فكيف

---

١ لعلها «كيف» .

٢ بياض في الأصل .

لا تتألم الحشاشة الحشيشية من عواصف الرياح ! وظنوا أن كل جبل كجبالهم المنسوفة ، وما علموا أن توقل صواهل الجياد خير من صهوات الجبال ، وخير من التوقي بالصحائف التوقي بالصفاح . فالحمد لله على أن ادّخر [1] هذه الموهبة لهذه المملكة ، حتى جرى ما جرى من الخضوع والذلة ، وأحوج إلى رحمة هذا السلطان من كان لا يرحم الملوك قبله » [2] .

وفي ثامن صفر سنة أربع وستين وستمئة كسر عسكر السلطان بحمص الفرنج [3] بطرابلس؛ وذلك أن البرنس بيمند بن بيمند جمع واستنصر بالداوية ، والاسبتار ، وقصد جهة حمص ، وكان النائب بها الأمير علم الدين الباشقردي قد فهم حركته ، فاحترز ، وجعل الطلائع على المخائض ، فقصد البرنس مخاضة بلالة ، فسبقه الأمير علم الدين فيمن عنده من عسكر ، فملك المخاضة [٧٦/ب] ، فأتى الكافر بخيله ورجله ، فوجد المخاضة قد ملكت ، فعدل إلى غيرها ، فقويت نفوس المسلمين ، وعدّوا الماء اليه ، وتبعوه فانهزم ، وما زالوا خلفه يقتلون وينهبون إلى أن توغل في بلاده ، ورد طريداً شريداً ، قد قنع من الغنيمة بالإياب ، وكان له أمل فخاب ، ورجع المسلمون إلى البلد ، ولم يُعدم أحد .

ــ وفي هذه المدة سير إلى دمشق بعمل مراكب فعُملت ، وحُملت إلى البيرة . وفي هذه المدة توجه السلطان إلى خليج الإسكندرية لرؤيته ، وتقدم بما يجب من حفره ؛ وتصيد في جهة الحمامات ورجع .

وفي جمادى الأولى وصل فخر الدين بن جلبان من البلاد الفرنجية بعد

---

١ « أن دخر » في الأصل .

٢ يبدو أن هذا موجه للاسماعيلية .

٣ « للفرنج » في الأصل .

أن خلص جماعة من الأسر بمال الوقف المسيّر من جهة الأمير جمال الدين النجيبي وفُرجت به كربات كثيرة لنساء وأطفال ، وسير الجميع إلى دمشق ، وسلموا للقاضي ليزوج من يؤثر منهن التزويج .

وفي هذا الشهر رسم السلطان ببناء جسر على الشريعة ، وجهز الأمير جمال الدين بن نَهار الصالحي المهمندار لبنائه ، وجُهزت له الأصناف من دمشق ورسم أن يكون خمس قناطر .

وفي جمادى الأولى من هذه السنة تكاملت عمارة الدار الجديدة ، المرسوم بعمارتها عند باب السر الذي بالإيوان المطل على سوق الخيل ، وعمل بها دعوة للأمراء [١/٧٧] . فعمل القاضي محيي الدين ، مؤلف السيرة :

يا مالك الدنيا الذي أضحى [١] بعون الله غالب
يا من به الكفار قد نَهبوا [٢] بأنياب النوائب
يا ذا الذي لولاه قد كان البقاء من العجائب

منها [٣] :

لولا سيوفك لم يكن بالثأر للإسلام طالب
كم جنة لك أزلفت بعظيم كتبك والكتائب
فتلهفت شوقاً وأضـ حت بالحلول بها تطالب
ورأتك قد أعطاك ربـ لك طول أعمار الكواكب
فاستعجلت وأتت بما تبغي سعوداً من مطالب

١ « أمسى » شافع ٨٢ .
٢ « نهشوا » شافع ٨٢ .
٣ كتبت على الهامش .

دار يرف بها النعيـ م وتلتقي فيها المآرب
قد صُورت فيها الجنو د على الخيول لها القواضب
لتكون في الخلوات ليـ س ترى بغير السيف ضارب
في السلم حولك مثلما في الحرب دونك في المواكب
لا مثلما قـد صور الـ أملاك قبلك من غرائب
كل يصور نفسه بين الأغاني والمشارب
فبقيت يا ملك الز مان لك العطايا والمواهب
أبداً تمتع بـالنعيـ م وما للملكك من مجاذب [٧٧/ب]

وفي هذه السنة اهتم بحفر خليج الاسكندرية ، وسير الأمير علم الدين المسروري لذلك ، فتوجه ، ثم توجه السلطان بنفسه ، وتمرض جسم السلطان في الطريق ، ولم يرجع ، ولما صلح مزاجه باشر الحفر بنفسه ، وعمل الأمراء وجميع الناس ، وأزيلت الرملة التي على الساحل بين النقيدي وفم الخليج ؛ ثم عدّى إلى بر أبيار ، وغرّق مراكب هناك ، وبنى عليها بالحجارة ؛ ثم رجع إلى القاهرة المحروسة ، وجهز المحمل المبارك ، وخلع على المتوجه بذلك ، وهو الأمير جمال الدين نائب دار العدل ، وسيرت عشرة آلاف درهم برسم عمارة حرم المدينة النبوية وسير القمح لجرايات الصناع .

وفي شهر رمضان منها وصل ولد الإمام المستعصم ، المسمى بالمبارك ، الذي كان عند هلاؤن ، وصحبته جماعة من أمراء العربان ؛ فرسم للأمير جمال الدين النجيبي ، نائب الشام ، بإنزاله في أعز مكان . ولما وصل السلطان إلى دمشق سير إليه جلال الدين بن الدوادار ، والطواشي مختار ، فما عرفوه ، وظهر أنه بخلاف ما أظهر فسيره إلى مصر محتفظاً به .

وفي ذي القعدة وصل شخص آخر أسود ادعى أنه من أولاد الخلفاء ، فسير أيضاً إلى مصر .

ذكر فتوح سواكن [٧٨/أ]

قد ذكرنا[١] ما اعتمده علم الدين اسبعاني ، صاحب سواكن ، من التعرض إلى التجار ، وأخذ ميراث من يموت في البحر ، ومنع أولاده منه ؛ ولما كثر ذلك منه رسم لعلاء الدين ، والي قوص ، واخميم ، بقصده . فورد كتابه أنه وصل إلى عيذاب ، وسير عسكراً يقدمه إلى سواكن ، فهرب صاحب سواكن ؛ وتوجه صحبة الأمير علاء الدين نيف وأربعون مركباً ، كباراً وصغاراً ، ووصلت اليه من القصير خمسة كلالين موسقة بالمقاتلة ، ودخل سواكن ، وأقام بها ، ووردت البشائر[٢] بذلك إلى القاهرة المحروسة يوم الجمعة ثاني عشر رمضان ؛ وكان مسيره إليها من عيذاب في عشرة أيام ، وتمهدت البلاد ، وعاد والي القوص . ثم ان صاحب سواكن قصدها بعد سفر الأمير علاء الدين ، فقاتله من بها أشد قتال ، وعاد خاسراً .

١ راجع ما سبق الورقة ٤٤ أ .
٢ « البشائره » في الأصل .

ذكر واقعة الأمير عز الدين الحلي

لما كان يوم الاثنين منتصف ذي الحجة سنة أربع وستين وستمئة جلس الأمير عز الدين ومعه الصاحب والقضاة بدار العدل ، وإذا بإنسان يخرق الصفوف وبيده قصة ، فوقف قدامه ، وكانت بيده سكين بين أثوابه وعمد إلى حلق الأمير عز الدين [٧٨/ب] فضربه ، فأمسكها الأمير عز الدين بيده ، فجرحت يده ، ثم رفسه برجله ، ونام على ظهره ، فوقع ، وقصد أن يضربه مرة أخرى ، أو يضرب الصاحب ، فرجعت السكين في فؤاد الأمير صارم الدين المسعودي فمات في ساعته ؛ وكان فخر الدين ، والي الجيزة ، حاضراً ، فأمسكه ورماه ، فوقع على قاضي القضاة عز الدين فسلمه الله ، وضربته السيوف فمات . وحمل الأمير عز الدين إلى داره بالقلعة ، وحضر المزينون ، فوُجد مكان السكين بين البلعوم والمنحر ، ووجد في اذن الفقير قطن ، وعرف أنه جاندار كانت به شعبة من الجنون ، وأنه كان أكل حشيشة . ووصل الخبر إلى السلطان ، وهو راجع من جهة أفامية ، فشق ذلك عليه .

قال مؤلف السيرة : « حكى المولى الأتابك قال : لما بلغ السلطان خبر الأمير عز الدين الحلي قال : « والله يهون عليّ موت ولدي بركة ، ولا يموت الحلي » ؛ قال الأتابك : « فقلت : يا خوند ! والله طيبت قلوبنا إذا كنت تشتهي لو فديت غلاماً من غلمانك بولدك وولي عهدك ؛ فأي جزاء نجازيك به ؟ » .

ثم ورد مملوك الأمير عز الدين الحلي مبشراً بعافيته ، فخلع عليه السلطان وأعطاه ألف دينار مصرية ، وأعطى رفيقه ثلاثة آلاف درهم ؛ وأحسن إلى ورثة

الصارم المسعودي . ولما توجه منكورس [٧٩/أ] المهمندار مبشراً بعافية السلطان أعطاه الحلي خمسمئة دينار عيناً ، وقال : « لولا أن السلطان أعطى مملوكي ألف دينار ما سيرت إلاّ ألف دينار ، إنما هذا أدب مع السلطان » .

ذكر غزاة صفد وما جرى فيها من الوقائع والملاحم

وما فتح من البلاد ، وغنم من الغنائم

في شهر رجب سنة أربع وستين وستمئة اهتم السلطان بأمر الغزاة وسير إلى أعمال الديار المصرية لإحضار الجند من اقطاعاتهم ، فاتفق تأخير بعض الجند ، فسير سلحداريته إلى جميع الولايات ، فعلقوا ولاة البلاد بأيديهم ثلاثة أيام تاديباً لكونهم ما سارعوا إلى إحضار الأجناد ، وكان في الولاة أمراء اسفهسلارية فحضر الجند ، وخرج السلطان في مستهل شعبان ، ورحل في ثالثه .

ولما وصل غزة جرد الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي ، والأمير سيف الدين قلاؤن ، وجماعة من العسكر المنصور ، فتوجهوا إلى العوجاء . وتوجه السلطان لزيارة الخليل – عليه الصلاة والسلام ! – والقدس الشريف فوصل إلى الخليل فزار الشيخ علي البكّاء ، ثم دخل إلى مقام إبراهيم ، وزار وكشف المظالم ، وقرئت القصص بين يديه ، ووقع عليها ، ومد سماط الخليل [٧٩/ب] – عليه الصلاة والسلام ! – وأكل منه ، وأكل الناس والفقراء ؛ وفرّق جملة من المال على الأئمة والقراء والمؤذنين والقوّام وغيرهم .

وبلغه أن اليهود والنصارى تؤخذ منهم حقوق عن زيارة الخليل — عليه السلام[1]! — والنزول إلى المغارة بنجسهم ورجسهم ؛ فأنكر ذلك وكتب مرسوماً يمنع النصارى واليهود من دخول المقام الشريف . ثم توجه إلى القدس الشريف فزارهُ وتصدق بجملة كثيرة ، ثم أتى الحرم الشريف مستخفياً في نفرين أو ثلاثة ، وصلى الجمعة بالقدس ، ورحل إلى عين جالوت . وأما العساكر المجردة فتوجهوا إلى حمص ، ولم يكن عندهم علم بالحركة إلى أي جهة .

ذكر إغارة العساكر على طرابلس

وفتح قلعة حلبا وعرقا

ولما وصلت العساكر إلى حمص ورد إليهم كتاب السلطان بالتوجه إلى طرابلس فركبوا على غرة من العدو ، فجاسوا خلال الديار ، وانصبوا في الأودية كالبحار ، وأصبحوا على حصن الأكراد ، وأغاروا إلى ساحل البحر من جهة طرابلس ، ونزلوا على حصن يعرف ست[1] من عمل حصن الأكراد فأقاموا عليه يوماً واحداً ، وأخذوه وأسروا به جماعة ، وكان بقلعة حلبا جماعة ، فهربوا وأخلوها ، ودخل العسكر اليها ، وكسبوا منها شيئاً كثيراً من نحاس وصناديق وسكر [٨٠/ا] وغيره . وهذه القلعة تشبه قلعة عجلون حصانة ؛ ولما هرب أهلها أدرك العسكر أواخرهم فقتلوهم ، وأخذوا نساءهم . ولما شاهد أهل قلعة عرقا ما جرى في حلبا نجوا بأنفسهم . وهذه قلعة عرقا شبه قلعة حمص ، وبها من الغلات شيء كثير متحصل

---

١ هكذا في الأصل .

بلدها في السنة من الهلالي[1] (خمسة عشر ألف دينار)[2] ، والأقصاب (عشرون ألف دينار)[2] ، والمزروعات شيء كثير . وما زالت العساكر حتى أخربت القلعتين المذكورتين[3] . ونزلوا على حصن يعرف بالقليعات ، وهو حصن عظيم وتسلّموه في رابع شهر رمضان بالأمان ، وهدمت أيضاً .

وفي عود العساكر نزل الأمير سيف الدين قلاؤن الألفي قريب القليعات وسير في الليل بعض المقدمين ليترقب من يخرج من الفرنج ، فوجد خمسين نفراً متوجهين من صافيتا إلى حصن الأكراد أقجية وجرخية[4] ، فأخذ الجميع وقتلوا وأحضرت رؤوسهم . وخرج جماعة من الداوية للغارة على الذين يحشون لخيل العساكر ، وكان الأمير سيف الدين قلاؤن قد رتب مع الغلمان جماعة من العسكر ، فلما خرج الديوية على الغلمان خرج عليهم العسكر ، وقتل بعضهم ، وأسر البعض . وسير صاحب صافيتا جاسوساً فأمسك وشنق . ووصلت بطاقة الأمراء المذكورين بأنهم وجدوا خيلاً ورجالاً متوجهين من صافيتا نجدة إلى حصن الأكراد ، وأنهم قتلوا منهم مقدار خمسين نفراً ؛ [٨٠/ب] ويذكرون وصول ألفي فارس من العربان ، وأنهم جاهدوا أتم جهاد ، وجُرح الأمير شرف الدين عيسى بن مهنّا جرجين ؛ ورسم السلطان أنه من عدم له رأس من الخيل يعوض عنه رأسين من البقر ، ورسم بتجريد جماعة بحمص ، وحضور العساكر إلى خدمته .

---

١ عكس الخراجي الهلالي . وهو ما يجبى شهرياً ويشمل ما يدفع عن الخيل والدكاكين والحمامات العامة والمخابز وطواحين الأبقار وعن الأغنام والمواشي عموماً (النهاية ج ٨ . طبعة دار الكتب بمصر ١٩٢٣ – ٣٥ ص ٢٢٨) .

٢ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٣ « المذكورة » في الأصل .

٤ الأقجية والجرخية : حاملو النبل والنشاب .

ذكر إغارة العسكر على صور

ولما وصل السلطان إلى جهة عكا جرد الأمير علاء الدين البندقدار ، والأمير عز الدين أوغان الركني بجماعة من العسكر إلى جهة صور ، فدخلوا الجبال في الليل وقاسوا شدة لصعوبة الأوعار ، وأغاروا على صور ، وغنموا كثيراً من الجمال ، والبقر ، والغنم ، وأسر كمندور ، صاحب سيس ، ومعه نفران ؛ [و] كانوا انحازوا إلى برج فأخذوا بالأمان ، وأخذ وزير صور وجماعة من الفرنج ، وتوجه الأمير سيف الدين أتامش إلى جهة صيدا ، ورسم لهم السلطان بالحضور إلى جهة صفد .

وتوجه السلطان إلى عكا (ونزل منزلة تعرف بالفرج ، قريب من معصرة الأرمن ، وهي كثيرة المياه)[1] ، وجرد السلطان الأمير بدر الدين الأيدمري ؛ والأمير بدر الدين بيسري إلى جهة القرن[2] ؛ وجرد الأمير فخر الدين الحمصي إلى جبل عاملة ؛ فأغارت العساكر من كل جهة . وحاصر الأمراء القرن[2] ؛ وأخذت قلعة قريب عكا ، وتوالت المكاسب حتى لم يوجد للأبقار [٨١/أ] والجواميس من يشتريها ، وعمت الغارة بلاد الفرنج من حدود طرابلس إلى قريب أرسوف ؛ العسكر المتوجه إلى طرابلس في تلك الجهة ، والعسكر المتوجه إلى صور في جهة ، والسلطان في جهة عكا ، والأمير ناصر الدين القيمري في جهة عثليث .

ووصل كتاب من مقدم الاسبتار بعكا إلى الأتابك بأنه يسعى في الصلح

---

١ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٢ « القرين » النهاية ٧٢ .

وفيه تعريض بما يصل إليهم من عمائر طرابلس وبلد الأرمن . فكتب إليهم في الجواب بما يجب من تهديدهم وتخويفهم .

ثم إن السلطان اهتم بأمر صفد لأنها الغصة في حلق الشام والشجا في صدر الإسلام .

ذكر فتوح صفد

كان السلطان قبل حضوره إلى عكا قد رسم للأمير علاء الدين أيدكين الشهابي أحد أمراء الشام ولجماعة من العسكر المنصور بأن يتوجهوا إلى بلاد الفرنج ، ولم يعلم إلى أين[1] . ثم سير كتاباً وأمره أن لا يقرأه إلاّ إذا ركب هو والعساكر متوجهين وكان مضمونه أنه يتوجه إلى صفد ، ويتوجه فخر الدين الفائزي إلى الشقيف فأحاط بها الأمير علاء الدين إحاطة حافظ لا مقاتل ، ثم جرد الأمير بدر الدين بكتاش الفخري ، أمير سلاح ، ومعه دهليز إلى صفد ؛ ثم حضر إليها الأمير [٨١/ب] علاء الدين البندقدار ، والأمير عز الدين أوغان — على ما ذكرناه .— فنزلوا عليها واستدت مضايقها[2] .

وأقام السلطان على عكا حتى حضرت العساكر المغيرة ، وعمل عدة مجانيق وفرقها على الأمراء ليحملوها ، ثم رحل والعساكر لابسة ، وساق إلى قريب من باب عكا ، ووقف على تل الفضول ، ثم رحل إلى عين جالوت .

---

١ « إلى أي جهة » النهاية ٧٢ .
٢ يمكن أن تكون أيضاً « واشتدت مضايقتها » . وفي النهاية « وضايقوها » ٧٢ .

وكان الأمير سيف الدين الزيني قد توجه لإحضار المجانيق من دمشق فاجتهد في إحضارها ، واهتم بها الأمير جمال الدين النجيبي ، وحملت على الرقاب . وسار السلطان إلى أن نزل على صفد يوم الاثنين ثامن شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة .

أسباب جرت في أثناء فتح صفد

منها : حضور رسول متملك صور [1] ، وإنكار السلطان عليه لأن السلطان كان سير إليه يقول له : « إن أردت أماني فأخرج عنك أعدائي من الفرنج ، فإن اليمين متضمنة أن تكون عدوّ عدوّي » . وبسبب إعانتهم للفرنج على الإغارة على بانياس وقتل شخص من الرعية ؛ وأن هذه الأسباب موجبة نقض العهد ، « وأن رسولكم كان حضر إلى عندي في تقرير قواعد الجنوية ، وأنهم يحضرون في البطس الكبار ، ويقاتلون عكا في البحر ، وأنا وعساكري [٨٢/أ] في البرّ ، وأن متملك صور يكون هو والجنوية في البحر على أهل عكا ، فحضرت ، وما حضر أحد منهم ، فتعرف صاحبك أن نقض العهد كان من جهته » . وانفصل الرسول على ذلك .

ووصلت رسل الفداوية ، فقال لهم السلطان : « بلغني أنه لما غارت العساكر على بلاد طرابلس حميتم مواشي الفرنج ، واستودعتم أموالهم ؛ وكتبكم كانت ترد بالشكوى من مجاورة الفرنج ، وتقولون ما نعطيهم

---

١ يذكر شافع ص ٨٦ ما يلي : « وبينما هو كذلك إذ ورد عليه رسول متملك صور يستعفي من جور الغيارة على بلاده ونهبهم ومضايقتهم ويقول ان بيني وبين مولانا السلطان عهد وذمة » .

القطيعة إلاّ لأن عساكر السلطان بعيدة ، وإلاّ لو قربت العساكر منا روينا سكاكيننا من دمائهم . فلما وصلت عساكري إلى أبوابكم لدفع الضيم عنكم حسّنتم وجوهكم معهم باستيداع مواشيهم » . وأنكر عليهم كونهم يستغلون بلاد الحصون التي بأيديهم وليس لهم عسكر ينجد الإسلام ، وطلب منهم إرسال نجدة أو مال يستخدم به عسكراً ، أو حمل القطيعة التي كانوا يحملونها إلى الفرنج ، ﴿ ولَعَبدٌ مؤمِنٌ خَيرٌ مِن مُشرِكٍ ﴾[1] . ولما توجه رسولهم بهذا الجواب حضر أحدهم ، وهو الصاحب جمال الدين – وما سمع قط حضر بنفسه – فأكرم . وشاهد أحوال العساكر ، وأحضر هدية لطيفة ، فأنكر عليه بسببها ، فسأل الأتابك في استعطاف السلطان ، وزاد الهدايا شيئاً كثيراً ، والتزم بحمل جملة من المال ، وتوجه لإحضاره .

وورد رسول بيروت [٨٢/ب] بتقادم ، فقال له السلطان : « ان صاحبكم الذي كان متفقاً معنا قد هلك » ؛ وأنكر عليهم تعرض كرساليتهم في البحر لمركب الأتابك ، غدروا بأهله وأخذوه ؛ وانفصل على هذه الحالة ، ولم يحصل الرضى عن ملكته .

ووردت رسل يافا فأنكر السلطان عليهم كونهم نصبوا المجانيق على قلعة يافا مع أنهم صلح .

ووصلت رسل صهيون ، وأنكر عليهم [أنّ] صاحبهم ما حضر بنفسه وأحضر نجدة .

وأنفق السلطان في العساكر المنصورة ؛ وكان يباشر الحصار والزيارات تتعداه . واتفق أن الناس تناوشوا القتال ، فساق الأمير عز الدين خاص

---

١ القرآن الكريم ، البقرة ٢٢١ .

ترك الظاهري فوصّل الطعن ؛ فتقدم الحجارون وأخذوا في النقوب ، ورمى الزراقون قوارير نفط في الباب ، فاحترق ؛ وأنعم السلطان على خاص ترك الظاهري بعشرة آلاف درهم وفرس قيمته نفيسة ، وجوشن ، وخلعة .

وفي حادي وعشرين الشهر [1] وصلت المجانيق ، واهتم بها السلطان وسيّر الأمير عز الدين أمير جاندار للقائها ، وعجزت عنها الجمال، فجهز الأمراء والجند وسائر الناس لحملها على الرقاب من جسر يعقوب ، وهو مرحلة من صفد ؛ وخرج السلطان بنفسه وخواصه ، وجر أخشاب المجانيق مع البقر .

قال مؤلف السيرة : «حكى لي الملك المجاهد ، صاحب الجزيرة ، قال : جررت مع السلطان حتى تعبت ، ورحت استرحت ، ثم حضرت [٨٣/أ] وجررت زماناً ، ثم رحت مراراً والسلطان على حاله ما استراح » .

واستمر عمله في نقل الأخشاب بنفسه وحاشيته وغلمان البيوت والاسطبلات فرمت في سادس عشرين رمضان ، وكان لمقدم الفرنج بيت داخل صفد وأعطى السلطان أمايره فطلع بنفسه إلى أعلى المنجنيق المغربي حتى شاهده ، وأمر المنجنيقية برميه فرمي ، ولازم الركوب ، والوقوف تحت المجانيق ، وصار يخلع ويُعطي ، ويحضر إليه بالأسرى من جهة عكا وصور فينعم على من يحضرهم .

ووصلت العساكر المصرية والشامية التي كانت في بلاد طرابلس ، ولما تكامل عبورهم نزل كل أمير في منزلته ، وحضر الأمراء فقبلوا الأرض والسلطان لازم نوبته ومكانه لم يتغير منه . ولما رأى الفرنج من صفد وصول هذه العساكر ، قال واحد منهم : «يا مسلمين ! أنتم قليل واستدعُوا

---

[1] كتبت عبارة « نظر في هذا التاريخ » على الناحية اليسرى من أعلى الصفحة .

عسكراً[1] ؛ فعل الله بالبعداء وصَنع ! » . وخرج بدر الدين الأيدمري ليرى هلال شوال فوقع في رأسه حجر ، فرسم بأن لا يجتمع أحد لسلام العيد ، ولا يتزحزح من مكانه ، خشية من انتهاز العدو غرة من العسكر . ورمي المنجنيق المغربي في هذا اليوم ، فأثر آثاراً حسنة . ونودي في العسكر [٨٣/ب] بأن من جلب خمراً أو شربها شنق .

وفي ثاني شوال حصل الاهتمام بالزحف ، وقرر ذلك مع الملك المنصور صاحب حماه ، والأمراء الأكابر ، فتحالل الناس ، واجتهدوا ؛ وكان قد عمل من النفط أشياء من السهام المطيّبة والرماح ، ففرق ذلك على الزراقين ووُعِد الحجارون أنه من أخذ أوّل حجر كان له مائة دينار ، وكذلك الثاني ، والثالث ، إلى العشرة . وأمر حاشيته بأن يلازموا مواضع قتالهم ، ولا يشتغلوا بخدمته . وشرع الناس في أمر الزحف من العشاء . وكان قد وصل جماعة من الصلحاء للغزاة ، ووصل الشيخ الصالح ، قاضي قضاة الحنابلة بدمشق ؛ فحركت الطبلخانات السلطانية نصف الليل ، وركب السلطان ، وهجم خندق الباشورة فقاتل الفرنج قتالاً شديداً ، وابتلي المؤمنين[2] بلاءً شديداً ، واستشهد جماعة من المجاهدين ؛ وصار الإنسان يرى رفيقه يقتل ، فيجره ، ويقف مكانه وتكاثرت النقوب ، ودخل النقابون إليها ، وأعطاهم السلطان ثلاثمئة دينار وصار كل من عمل شيئاً جزاه عنه لوقته بخلع تفرّق ، وأموال تبذل ، وهو يشارك الناس فيما هم فيه من قتال ، ودخول نقوب ، وزحف ؛ ونصب خيمة قريب صناجقه ، وجعل فيها حكماء وجرائحية ، وأحضر إليها المجرحين من الغرباء والحجارين ، وأطلق الأشربة والمأكول للجند .

---

١ «عسكر» في الأصل .

٢ كذا بدلا من « المؤمنون » .

وفي ثامن الشهر خاسفت الفرنج المسلمين في النقوب [١/٨٤] فوقع خسفهم فوق خسف الأمير سيف الدين قلاؤون الألفي ، فقاتلوهم بالأيدي ، وعمل بعد ذلك جسر على باب القلعة يتوصل منه إليها .

وفي حادي عشر شوّال ركب السلطان ، ووقف عند المجانيق ، ثم ساق بمفرده ، ونزل عن فرسه وأخذ ترساً ، ودخل إلى النقوب ، وشاهدها .

وفي ليلة رابع عشرة زحف المسلمون أشد زحفاً[١] ؛ وساق السلطان إلى قريب الباب فارتفعت أصوات المسلمين يسألونه أن لا يغرر بنفسه ، فرأى النقوب ، وعاد ؛ ولم تزل الحرب قائمة ، والسلطان في وسط هذه الأمور ؛ وفي وقت القائلة رأى الناس قد تعبوا من القتال ، وتفرق بعضهم ؛ فأمر خواصّه بالسوق إلى الصواوين وإقامة الأمراء والجند منها بالدبابيس ؛ وقال : « المسلمون على هذه الصورة وأنتم تستريحون ! » فأقيموا جميعهم ؛ ورسم بإمساك الأمراء — وكانوا نيفاً وأربعين أميراً — فقيدهم ، وأحضرهم إلى الزردخاناه ثم بعد ذلك وقعت الشفاعة فيهم ، وأمرهم بملازمة مواضعهم . ووسعت النقوب ، وشرطت الأسوار فجبن الفرنج ، وحرقوا الستائر التي كانت على الباشورة ليحموها من التسليق ، فما أفادهم ذلك . ولما شاهد السلطان ذلك أمر بضرب الطبلخاناه المستجدة — وهي خمسة وعشرون حملاً ، فقام [كل أحد][٢] إلى جهته ، فضرب المسلمون سكك الخيل في سفح الباشورة فما أصبح الصبح إلاّ والصناجق على أسوار الباشورة [٨٤/ب] من كل جهة ، واندفع الفرنج إلى القلعة ، وسلموا الباشورة .
هذا في يوم الثلاثاء ، نصف الشهر ؛ وفي هذا اليوم أخذت النقوب

---

١ كذا في الأصل .

٢ كتبت في أعلى الصفحة وأشير إلى مكانها من النص .

في برج اليتيم وغيره من أبراج القلعة . وفي هذه الأيام استشهد الشيخ الصالح نبهان – رحمه الله ! – وهو يجدد الوضوء في خيمة الأمير بدر الدين الخزندار .

ذكر تسليم صفد

لما تقطعت الأسباب بالفرنج سيروا رسلهم إلى السلطان في طلب الأمان ، فاشترط عليهم أن لا يستصحبوا[1] سلاحاً ولا لامة حرب ولا شيئاً من الفضيات ، ولا يؤذوا[2] شيئاً من دخائر القلعة بنار ولا هدم ؛ فتوجهوا ، وصار السلطان يعمل الحيلة ، ويعطي بعضهم الأمانات من المرامي ، ويسير المناديل (وتقرر مع جماعة أنهم يفتحون الأبواب ، فتسامع الفرنج ، وحصل بينهم الخلف ، وحضر خمسة عشر نفراً من القلعة مقفزين في وقت واحد ، فخلع عليهم ، وقالوا لأصحابهم ما حصل لهم من الخير ، ونودي في العسكر بأن لا يرموا أحداً من الفرنج والنصارى والمستعربة غير الديوية ، فأمسك الفرنج من تلك الساعة عن القتال ، وردوا الأمان ، وقالوا ما ندخل في شرط ، ورمى الرسل الخلع والمال المنعم به عليهم من الأسوار ؛ فلما أيقنوا بالهلك سيروا رسلهم في يوم الجمعة ثامن عشر [٨٥/أ] الشهر ، سيروا يطلبون ما كانوا طلبوه أولاً ، فامتنع عليهم ، فأخذ الأتابك منديل مقدم

---

١ « يستصحبون » في الأصل .

٢ « يؤذون » في الأصل .

الجمدارية ، وهو الأمير جمال الدين أقوش القليجي ، وأعطاه لهم ، على أنهم لا يخرجون بشيء مما ذكرناه[1] ؛ فتوجه الرسل ، وبعد صلاة الجمعة صاح أهل القلعة : « يا مسلمين ! الأمان ! » .

وكان في ذلك الوقت قد خطب خطيب دمشق ، ودعا عقيب خطبة الجمعة للمجاهدين ، ودعا الناس ، وكشفت الرؤوس ، وخشعت الأصوات ، فاستجاب الله منهم ، وكان صياح الفرنج تطلب الأمان في تلك الساعة وما بقي أحد يقاتل ؛ فلما كان وقت العصر فتحت الأبواب ، وطلعت الصناجق ، وكانت ساعة مشهودة ؛ ووقف السلطان راكباً على باب صفد ، ونزل الفرنج أولاً فأولاً ، وصاروا جميعهم بين يديه ، وأخرجوا معهم الأسلحة والفضيات وأخفوها في قماشهم ، وتحدثوا على جماعة من أسرى المسلمين ، وأخذوهم على أنهم نصارى وكذلك صغار المسلمين المأسورين عندهم ، فما أخفى الله ذلك ورسم بتفتيشهم ، فوجد معهم ما ذكرناه مما ينقض الأمان ، لو كان حقيقة ، فكيف وما أعطاهم السلطان أماناً معتبراً ؛ فأخذت منهم العدد ، وأنزلوا عن خيولهم لكونهم ما وفوا بالشرط ، وجعلوا في خيمة محفوظين .

وتسلم المسلمون صفد ، وولى في القلعة الأمير مجد الدين [٨٥/ب] الطوري ، وجعل فيها نائب[2] عز الدين العلائي ، ومقدم العسكر الأمير علاء الدين ايدغدي السلاح دار . وأصبح السلطان جالساً وحضر إلى خدمته الأمراء والمقدمون من عسكر مصر والشام فشكر اجتهادهم وذكر رضاه

---

١ قارن هذا بالقصة التي أوردها مفضل ٤٩٢ واليونيني ٢/٦٦٤ من تنكر كرمون آغا في ثياب السلطان وحلفه اليمين لهم .

٢ كذا في الأصل .

عنهم ، وقال : « ربما عتبت على أحد منكم أو جرى مني إنكار أو تأديب ، وما قصدت بذلك إلاّ حثكم على هذا الفتح العظيم ، ومن هذا الوقت نتحالل » .
وذكر أسرى صفد وخروجهم بغير أمان معتبر ، وما كان استقر من خروجهم بغير عدة ، ونقضهم لذلك ، وأنهم ما كلفوا السلطان يميناً ، وأمرهم بضرب رقابهم ، فركبوا ، وأحضرت خيالة الديوية والاسبتار ، وجميع من أخرج من صفد من الفرنج ، فضربت رقابهم على تل قريب صفد ، في مكان كانوا يضربون فيه رقاب المسلمين ، ولم يسلم منهم غير نفرين ، أحدهما الرسول بحكم ان السلطان كان شرب قمزاً[1] في النقب وخرج إليه هذا الرسول فسقاه منه فعفى السلطان عنه ، وخيره في التوجه إلى قومه ، فاختار المقام في خدمة السلطان، وأسلم على يده ، فأحسن اليه وأعطاه اقطاعاً وقربه منه واستمر في الخدمة . وأما النفر الآخر فإن الأتابك شفع فيه ليخبر الفرنج بما جرى ، وهو من بيت الاسبتار ، وكان خرج رسولاً ، فعفى السلطان عنه ؛ وفي ذلك مكيدة فإن هذا الاسبتاري [٨٦/أ] لما وصل إلى عكا استخفى عند الاسبتار ، فطلبه الديوية الذين كانوا أصحاب صفد ، وقالوا : « هذا لما خرج رسولاً هو وافريرليون ما حلّف السلطان ، وعملوا على الفرنج » . وكادت تقوم بينهم فتنة بسببه ، وأراد الله أن هذا الاسبتاري خرج في غارة بعد ذلك ، فقتل بيد العساكر الإسلامية وأبى الله أن يجعل له إلى الحياة سبيلاً ، أو أنه يفر من السيوف الإسلامية ، وإنما متعه متاعاً قليلاً . وكان الأتابك قد سير مع هذا الأخ كتاباً فيه توبيخ لمقدم بيت الاسبتار ، ومن جملته : « أنا أقول لك هذا السلطان سعيد وأنت تغالط وكتبت إلى نوبة أرسوف

---

١ القمز لبن مروب من حليب الفرس كشغري ٣٠٥ .

تقول أرسوف ما تبالي بالعساكر ، وكذلك قلت عن صفد ؛ وقد ظهر لك صدق حديثي » .

ولما قتل الفرنج دخل السلطان قلعة صفد ، وفرق على الأمراء من العُدد الفرنجية ، والجواري ، والمماليك ، ونقلت إليها الزردخاناه التي كانت صحبته ، وصار يحمل فردة حمل النشاب على كتفه إلى داخل القلعة ، فتشبه الناس به ، فنقلت الزردخاناه والمنجنيقات إليها في أسرع وقت ، وطلب لها الرجال من دمشق ؛ وتقررت نفقة رجالها في الشهر ثمانين ألف درهم ، واستخدم على جميع بلادها الأمراء ، وعمل بها جامع في القلعة ، وجامع في الربض .

ولم ينس نصيب الآخرة فأوقف [٨٦/ب] على الشيخ خضر نصف قديثا ، وأوقف على الشيخ علي المجنون نصف وربع الحقاب ، والربع منها على الشيخ الياس ؛ ووقف على قبر خالد بن الوليد قرية فرعم من صفد ؛ ووقف على قبر شعيب النبي — صلى الله عليه وسلم ! — قرية منها . وركب لعيادة الأمير جمال الدين ايدغدي العزيزي وغيره .

وفي سابع وعشرين شوال رحل متوجهاً إلى دمشق ، فنزل بالجسورة ، وأمر بأن العساكر لا تدخل دمشق بل تبقى على حالها لتتوجه إلى سيس ، ودخل دمشق جريدة ، ورسم بتوجه الملك المنصور صاحب حماه مقدّماً على العساكر إلى سيس ووصاه بما يعتمده وجهزه .

وفي ثالث ذي القعدة توفي كرمون أغا . وفي ثامنه أنعم على أمراء دمشق وقضاتها ، وأرباب المناصب بالتشاريف . ولما استقر السلطان بدمشق نظر في أمر جامعها ، ومنع من مبيت الفقراء به ، وأزال صناديقهم التي كانت

ضيقت الجامع ؛ ووسعه للمصلين ، قال الله تعالى : ﴿ في بُيوتٍ أذِنَ اللهُ أن تُرفَعَ ، ويُذكرَ فيها اسمُه ﴾[1] . قال[2] العلماء : « تغلق فلا تفتح إلاّ أوقات الصلوات » .

وفي عاشر الشهر جلس الأتابك مع الأمير جمال الدين لكشف ظلامات الناس ، والتوقيع على القصص بدار السعادة . وتوجه السلطان إلى عذراء وضُمير متصيداً ، وما أحضر أحد صيداً إلاّ خلع عليه [٨٧/أ] السلطان حتّى الغلمان والسوقية ، وفرغت الخلع فأطلق لهم دراهم .

وفي ذي القعدة جمع السلطان أهل البلاد ، وطلع الجبل الذي عند جرود ، وصحبته الأمراء ، وكان يوماً شديد الحر ، واشتد العطش ، فكاد الناس يهلكون فدلهم شخص من الجبلية على عين ماء جارية لكنها يسيرة النبع ، فوقف السلطان عندها ، وصار يسقي الناس بيده ، وهذه كرامة ، وما أحقه بقول الشاعر :

والله لولا الخوف منـ ـه مهابة أمسى يزار

ثم ضرب حلقات صيد فعمل مؤلف السيرة :

يا أيها الملك الذي فيه العقول غدت تحارُ !
يا من إليه بفعل ما يرضى الإله غدا يشار !
بالله قل لي ، هل دم يجريه سيفك أم بحار ؟
وهل الخيول لها مسـ ـير تحت سرجك أم مطار ؟

---

١ القرآن الكريم ، النور ٣٦ .
٢ « قالوا » في الأصل .

إن السيوف تركتها لا يستقر لها قرارُ
عودتها سفك الدماء فما لها عنها اصطبار
لم يبق في الدنيا فر نج لا ولا بقيت تتار
فالوحش عن مهج العدى لما تفانت تستعار
وأظنها بك سوف تقـ فر من سوانحها القفار [٨٧/ب]
ان الدماء من العدى والوحش أفناها الغِرار
فاسلم ودم في نعمة وبعزّ بابك يستجار !

ذكر ما جرى للأمير أحمد بن حجي وولده

مع خصومه مما يدل على عدل السلطان

في هذه السنة بلغ السلطان أن الأمير أحمد ، وهو أكبر عربان آل مرا — قال مؤلف السيرة : وسمعته يقول انه من نسل البرامكة ، من أخت الرشيد ، وادّعى انها كانت زوجة يحي بكتاب ، وانه رزق منها أولاداً ، فلما جرى ما جرى هربتهم إلى البادية ، فأخذهم جدّه . وهذا فيه نظر — اعتمد أموراً لا ترضي ، منها : انه خصى بعض التجار ، وأنه نزل على عرادة البلوي[1] فقتله ، وقتل ولده سليمان ولد أخيه ، وطولع الساطان بذلك ، فأجاب : « أن هؤلاء في الحجاز يفتصلون » وقصد بذلك تطمين الأمير أحمد ، فاطمأن . وكتب السلطان إلى النجيبي بإمساك سليمان ، ولد أحمد ، فأمسك ، ووقعت الحوطة على اقطاع أحمد ، فحضر إلى الباب

---

١ « البدوي » شافع ٩٠ .

الشريف ، فأمر بتسليمه لغريمه الذي خصاه ، فراضاه على ثمانية آلاف درهم . وكان السلطان في حصار صفد . ولما حضر السلطان إلى دمشق وصل وكيل ولد عرادة ، ووكيل [٨٨/أ] ولد عمه ، فاعتقل الأمير أحمد ، وسُلّم للوكيل ، ليقتص منه بمقتضى الشرع ، ونُصبت له خشبة على باب دمشق ، فذَكّر بسالف خدمة ، وبكى الأتابك والناس فاشتراه السلطان بألف دينار من مال السلطان . ثم ادعى على ولد أحمد بقتل ولد أخي عرادة ، ففدى نفسه بألف دينار ، وتسلّم الوكيل المال ؛ وهذه معدلة جميلة ، وبعد ذلك أحسن إلى الأمير أحمد ، وإلى ولده ، وأفرج عن اقطاعه .

وفي هذه الأيام أبطل السلطان ضمان الحشيشة ، ابتغاء ثواب الله تعالى ، وأمر بتأديب آكلها ، وأمر ببناء مكان بجبل المزة للشيخ خِضر ، وتوجه إلى الشيخ خضر وزاره ، وشاهد المقاسم التي عمرت في دولته ، وهي أحسن مما عمر في زمن الروم .

وفي هذه السنة حضر رسول الاسبتار ، وسأل استقرار الصلح على بلادهم من جهة حمص ، وبلاد الدعوة ؛ فقال السلطان : « ما أجيبكم إلى هذا إلاّ بشرط إبطال ما لكم من القطائع على مملكة حماه ، وهي أربعة آلاف دينار ؛ وما لكم من القطيعة على بلاد بوقبيس ، وهي ثمانمئة دينار ؛ وقطيعتكم على بلاد الدعوة ، وهي ألف ومائتا دينار ، ومائة (ألف)[1] مد حنطة وشعيراً نصفين فأجابوا إلى إبطال ذلك جميعه ، وكتبت الهدنة بذلك ، وشرط فيها أن الفسخ للسطان متى أراد [٨٨/ب] ، ويعلمهم قبل بمدة . وكان السلطان قد أحسن إلى الجبلية مدة إقامته بالساحل بالخلع

---

١ « وخمسون ألف مد حنطة وخمسون ألف مد شعير » شافع ٩١ .

والمناشير ، فصاروا يأخذون الفرنج من كل جهة في مدة إقامة السلطان بالساحل .

وفي نصف رمضان ورد كتاب الأمير جمال الدين النجيبي ، متضمناً ورود كتاب الحلا ، والي بعلبك ، بأن مقدمي (بلد)[1] جبيل جمعوا ، وجاسوا بلاد جبيل ، ووصلوا إلى حصن على نهر إبراهيم ، فقاتلوا من به من الفرنج يوماً كاملاً ، وملك المسلمون الحصن ، وهدم .

ووصل كتاب الأمير ناصر الدين القيمري بأنه سير التركمان ، والشهاب الربوي إلى حيفا . فأغاروا عليها ، وغنموا اثني عشر نفراً ، وقطعوا أشجاراً وكروماً . ولما استقر السلطان بدمشق خرج جماعة من عكا إلى (طبرسنجار [2] ، وجدوا بها أربعة نفر من أهلها فشنقوهم فرسم السلطان بالإغارة)[1] [على] بلاد الفرنج ؛ فقتلت عساكره فوق المئتي نفر من الفرنج ، وساقوا جملة من الجواميس والبقر والدواب ، وعاد العسكر سالماً إلى صفد .

وفي محرم جرد الأمير سيف الدين بكتمر الساقي ، والأمير شهاب الدين بوزبا الموصلي ، وجماعة من العسكر ، ورجالة جبلية ، فقطعوا أقصاب الفرنج وعادوا إلى صفد [١/٨٩] .

....

١ كتبتا على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٢ « طين شيحا » السلوك ١/٥٥٠ .

ذكر وقعة الفرنج وانتصار المسلمين

في محرم سنة خمس وستين وستمئة

بلغ العسكر الصفدي أن العدو أغار على بلد طبرية ، فركب العسكر ، وطلبوا جهة عكا ، فلما وصلوا إلى وادي عثلين خرج عليهم الفرنج ، وكان قد وصلتهم نجدة من قبرس وغيرها ، فضرب العسكر معهم مصافا ، فانكسروا ، وكانت عدة الفرنج ألف ومائة فارس ، فقتل أكثرهم ، وصار في عكا بسببهم عزاء عظيم ، لما قتل من ملوكهم في هذه الغزاة .

ذكر متجددات

منها استخراج الأموال في المغرب :

قد ذكرنا اهتمام السلطان بأمر الغرب ، واستخدامه أربعين ديواناً يتوجهون إليه لاستخراج الزكاة . وتوجه الأمير جمال الدين أقوش الشقيري ؛ فلما كان في شعبان وصل كتابه بأنه توجه هو وزين الدين مريد بن عزاز ، وقصدوا بلاد الجواشنة أولاد رافع ، وأنهم لما رأوهم اجتمعوا في خيلهم ورجلهم ، وقالوا : « نحن ما طرق بلادنا طارق ، وفي قديم الزمان دخل المايرقي إلينا فقتلناه [٨٩/ب] وجميع من معه ؛ ووصل إلينا في قديم الزمان ابن الدوبك[1] في جمع فقتلناه هو وأصحابه ؟ وصاحب الغرب أقرب إلينا

---

[1] كذا في الأصل .

منكم ، ولو أطعنا أحداً كان أحق بطاعتنا ، وليس لكم إلاّ السيف » . فخوفهم جمال الدين المذكور وزين الدين مريد بن عزاز من السلطان ، وقالوا لهم : « ان كنتم كرهتم الإقامة في هذه الأرض فافعلوا ما شئتم فإن العساكر تقصدكم إلى أقصى الغرب ، وان أردتم صون أموالكم فأدوا الزكاة التي فرضها الله » . فدخل المذكورون في الطاعة ، واستخرجت منهم الزكاة وغيرها من الحقوق ، وذلك في جمادى الآخرة سنة أربع وستين وستمئة .

ذكر غزوة سيس ، وأسر ملكها

وقتل أخيه وعمه وأسر ولد عمه

قد ذكرنا[1] مراوغة التكفور ، صاحب سيس ، وانه لما انفصل حديث صفد ، ونزل السلطان على الجسورة رسم بأن العساكر لا تدخل دمشق[2] . فاتفق أنهم تسللوا واحداً واحداً ، ودخلوا دمشق ، فأمر السلطان بهم فأخرجوا مكتفين بالحبال .

وجهز السلطان الملك المنصور ومن جرد في خدمته من الأمراء ، وهم الأمير عز الدين أوغان ، والأمير [٩٠/أ] سيف الدين قلاوون الألفي ، ورسم للأمراء بتعظيم صاحب حماه . وكتبت تذكرة بما يعتمدونه في جميع الأمور ، وتوجهوا في خامس ذي القعدة ، فوصلوا الدرب ساك ، ودخلوا بعد ذلك الدربند مطلبين . وكان الملك المجير هيتوم بن كسطنتين بن باساك

---

١ راجع ما سبق الورقة ٤٦ ، ٤٩ .

٢ راجع ما سبق الورقة ٨٦ .

قد ملك ولده ليفون ، وانقطع هو مترهباً ؛ فلما طلب المسلمون وقف ليفون ، متملك سيس ، في عسكرهم مطلبين ، وتوهمهوا أن المسلمين لا يستطيعون طلوعاً في الجبال ، لأن التكفور كان بنى على رؤوس الجبال أبراجاً ؛ فكانت كقول الشاعر :

وإن يبن حيطاناً عليه فإنما   أولئك عقالاته لا معاقله

فطلعت العساكر من رؤوس الجبال ؛ فلما وقعت العين في العين أسر الملك بارون ليفون ، وقُتل أخوه ، وقُتل عمه ، وانهزم كنداسطبل ، عمه الآخر ، وأسر ولده ؛ وهرب صاحب حموص . وكان فيهم اثنا عشر ملكاً منهم تمزقوا كل ممزق ؛ وقُتلت أبطالهم وجنودهم ؛ وساقت العساكر في هذا النهار من مرِّي ، وأقامت على كرنجيل من عمل سرفندكار ، ونزلت في اليوم الثاني بأعمال تل حمدون ، وهي تقتل وتأسر وتحرق ، وأحرقوا حموص ، ثم توجهوا ثاني هذا اليوم إلى نهر جهان ، والأرمن تسميه الفرات لأنه نهر كبير [٩٠/ب] ، فخاضته العساكر ؛ وكان في مقدمة العساكر الأمير عز الدين أوغان والأمير سيف الدين قلاوون الألفي . ولما نزلوا قريباً من العمودين ، وهي قلعة حصينة ، شاهقة في الهواء ، للديوية ، وطافت بها العساكر أذعن أهلها لتسليمها ؛ وكان فيها من تتر تقاتل وغيرهم ألفان ومائتا نفر ، فقتل الرجال ، وفرقت السبايا على العساكر . وكان بها جماعة من الديوية ، قتلوا ، وأحرقت هذه القلعة بما فيها من حواصل وذخائر .

ورحلوا إلى سيس ، فأخربوها وَجَعَلُوها خاوِيَةً عَلَى عُرُوشِها ، وأصبح عاليها سافلها ؛ وأقامت العساكر أياماً تحرق وتقتل وتأسر ، وتوجه الأمير عز الدين أوغان إلى جهة الروم ؛ والأمير سيف الدين قلاوون الألفي إلى المصيصة واذنة واياس وطرسوس ، فقتلوا واحرقوا وهدمت قلعة الديوية

المعروفة بالثنيات ، وحرقت لهم أماكن كثيرة ، من حصون وبلاد ، وهدمت .

هذا وصاحب حماه مقيم في سيس ؛ ولما عادت العساكر اجتمعت وغنمت ، وقُيد الملك ليفون ، وابن عمه ، وغنمت العساكر ما لا يعد ولا يحصى حتى بيع الرأس البقر بدرهمين ، ولا يوجد من يشتريه ، وكانت ذبائح العسكر في كل يوم جملة من البقر والجاموس والأغنام ، واستاقت العساكر الغنائم .

ولما وردت هذه الأخبار إلى [٩١/ا] السلطان ، كان في الصيد بجرود ، أعطى المبشر ألف دينار ؛ ودخل السلطان دمشق ، فتجهز وخرج ، فعيّد في حماه ، وسار منها إلى أفامية ، ورحل منها للقاء العساكر في ثالث عشر ذي الحجة ؛ وكان قد أخرج نصيب السلطان من الغنائم ، فلما التقته العساكر فرّق ذلك على عساكره ، وأحسن إلى صاحب سيس ومن معه في الأسر .

وعاد السلطان إلى دمشق في رابع وعشرين ذي الحجة ، فدخلها مطلباً وصاحب سيس ، وابن عمه ، وأصحابه ، بين يديه ، وخلع على الملوك والأمراء الشامية والمقدمين . وسير لصاحب حماه الخيول والأموال والخلع له ولجميع أصحابه ، وودعه وتوجه إلى مملكته . وامتلأت دمشق بالمكاسب وبيع من الجواهر والحلي والرقيق والحرير ما لا يحصى ؛ وما تعرض السلطان إلى شيء من ذلك .

وخرج السلطان من دمشق في يوم الاثنين ثاني المحرم سنة خمس وستين وستمئة إلى جهة الكرك ، وفارق العسكر من الفوّار وتوجه جريدة ، فلما كان قريب زيزا تقطر عن فرسه وذلك في يوم الأحد ثامن المحرم ، فتأخر هناك أياماً حتى صاح مزاجه ، ولما جرى ما أوجب هذا التأخير أنعم على

جميع عسكره وأمرائه بجميع كلفهم من غلات الكرك ، وعم بذلك الخواص والكتاب ، وفرق فيهم الجمل الكثيرة من المال ؛ وطلب من غزة [٩١/ب] الأمراء أصحاب الطبلخاناه ، فأحسن اليهم كإحسانه إلى من كان صحبته ، وطلب الأمير عز الدين أيدمر نائبه في الكرك ، فنزل إليه ، فأعطاه ألف دينار ، وخلع عليه ، وسيّر إلى من في الكرك الخلع ، وقرر قواعدها .

ثم توجه في محفته على رؤوس أمرائه ، وخواصه في الجبال والأوعار إلى غزة . قال مؤلف السيرة : « وأراد الله أن يرى هذا السلطان شيئاً من الملك السليماني ، فجعل المحفة عوضاً عن البساط ، والطير يطعم على رأسه طول الطريق » . ووصل إلى بلبيس ثالث عشر صفر ، فالتقاه ولده الملك السعيد والأمير عز الدين الحلي ؛ وزينت المدينة زينة عظيمة لسلامة السلطان ، وما حصل من النصرة في جميع الجهات .

وفي أوّل ربيع الأول ركب السلطان فرسه ، وضربت البشائر بذلك ، ونزل بباب النصر ، وأقام هناك خامس ربيع الأوّل . وفي هذه الأيام أعطى ولده إقطاعاً كُتب له به منشور ، فركب وشق المدينة ، وخرج إلى الدهليز وقبّل السنجق ، وبسط له قماشاً كثيراً . ودخل السلطان في التاريخ المذكور ، وخلع السلطان على الأمراء والوزراء والقضاة .

وفي هذه الأيام وصل رسول صاحب سيس ، وتحدث في أمر الملك ليفون ، ففك قيده ليلة الجمعة ثاني وعشرين ربيع الأوّل ، وكتبت له موادعة على بلاده إلى سنة ، وتوجه السلطان [٩٢/ا] إلى بركة الجب لرماية البندق ، واستصحب معه صاحب سيس ، وفرّحه ، وأحسن اليه .

وفي ربيع الآخر سير السلطان الأتابك والصاحب فخر الدين ، ولد

الصاحب لكشف مكان يعمل جامعاً بالحسينية ، فتوجها واتفقا على مناخ الجمال السلطانية فقال السلطان : « أولى ما جعلت ميداني الذي هو نزهتي جامعاً » . وركب السلطان في ثامن ربيع الآخر ، وصحبته الصاحب بهاء الدين والقضاة ، ونزل إلى ميدان قراقوش ، ورتب أمور بنائه جامعاً ، وأن يكون بقية الميدان وقفاً على الجامع . ثم دخل إلى المدرسة بالقاهرة ، ولما شاهد الفقهاء والقراء والمحدثين بالأواوين الأربعة قال : « هذا مكان قد جعلته لله تعالى ، فإذا متُّ لا تدفنوني هنا ، ولا تغيروا معالم هذا المكان » .

ذكر إمساك جلال الدين بن الدوادار

ولما كان السلطان بدمشق بلغه أن العدو المخذول مهتمون بإرسال قصاد إلى جلال الدين كجقن ، ولد الدوادار ، فاعتقله بقلعة دمشق ؛ ولما أمسكه وجد عنده هجناً وعرباً ، فاستدل بها على أنه كان على نية التسحب وحصلت الريبة في أمره بسبب أنه أراد تجهيز والدته وأخته خفية ، وورد الخبر بأن من جملة [٩٢/ب] قصاد المخذولين شخصاً عجمياً ، فلما وصل إلى البيرة احتفظ به وسُير إلى السلطان ، فلم يعترف بأنه قاصد[1] ، وكان بلغ السلطان أنه يعرف بالتركي ، فأنكر ذلك ، فرسم بتقريره ، فاعترف وتكلم بالتركي ، وذكر أنه وصل من عند العدو إلى ولد الدوادار ، فشنق العجمي المذكور .

---

١ « قاصداً » في الأصل .

ذكر وصول الملك المنصور ، صاحب حماه

ووردت كتب صاحب حماه يستأذن في الحضور ليشاهد صحة مزاج السلطان ، فأجّبت إلى ذلك ، وخرج السلطان إلى الصيد بجهة العباسة فحضر صاحب حماه في سابع وعشرين ربيع الآخر ، والتقاه السلطان برأس الماء وسيرت له ولمن معه التشاريف . وعاد السلطان إلى قلعته وطلب صاحب حماه التفرج في الاسكندرية ، فسيره إليها وسير في خدمته الأمير شمس الدين سنقر جاه الظاهري ، أحد الأمراء ، فوصل إليها وحملت إليه الإقامات وعُظّم تعظيماً حسن موقعه ، ثم عاد . ولما توجه السلطان إلى الشام توجه في خدمته إلى غزة ، وتوجه منها لزيارة الخليل — صلوات الله عليه وسلامه ! — والقدس الشريف ، وسير صحبته جمال الدين بن نهار ، ورتبت له الإقامات وتوجه إلى مملكته وقد [٩٣/أ] شمله من الإحسان ما أنساه الأوطار والأوطان .

وفي جمادى الآخرة وصلت رسل الدعوة وصحبتهم جملة من الذهب وقالوا : « هذا المال الذي كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين لينفق في المجاهدين » . وهذه سعادة للسلطان لأن بيت الدعوة ما زالوا يقطعون مصانعات الملوك ويجبون القطيعة من الخلفاء والملوك . وكانت لهم على مملكة الديار المصرية قطائع في كل سنة ، وفي دولة السلطان صاروا من جملة غلمانه ، وحملوا إليه القطيعة كما ذكرنا .

ذكر عمارة قلعة قاقون

لما فتح السلطان قيسارية وأرسوف ، وهدمهما احتاج الرعية إلى مكان يحفظهم ، فرسم بعمارة قلعة قاقون ، فعمرت ، وجاءت قلعة حصينة ، وعمرت الكنيسة جامعاً ، وانتجعها الناس من سائر الجهات .

ذكر اهتمام السلطان باستخراج
الزكاة من سائر الجهات

قال الله تعالى : ﴿ وَيُقيموا الصَّلاةَ وَيؤتُوا الزَّكاةَ ﴾[1]. وقال الله تعالى: [٩٣ ب] ﴿ فإن تابُوا وَأقاموا الصَّلاةَ وَآتوا الزَّكاةَ فَخَلوا سَبِيلَهُم ﴾[2]. وقال الله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا ما كُنتُم تَكنزُون ﴾[3] . قال الشافعي – رضي الله عنه ! – « هو المال الذي لا يؤدى فيه الزكاة » . وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم ! – : « بُني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلاّ الله ، واقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً » . وروي عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه ! – أنه قاتل مانعي الزكاة وتابعه جميع الصحابة على ذلك . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم ! – : « ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلاّ حمي في نار

١ القرآن الكريم ، البينة ٥ .
٢ القرآن الكريم التوبة ٥ .
٣ القرآن الكريم التوبة ٣٥ .

جهنم ، فيجعل صفائح ، فتكوى بها جنباه ، وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » .

قد ذكرنا [1] إذعان أهل المغرب للقيام بزكاة المواشي ، وزكاة الزراعات وأما من جهة اليمن ، ففتوح سواكن وجزائرها ، وإقامة نواب السلطان في تلك الجهات . وأما الحجاز ، فسير إليه الأمير شكاك [2] بن محمد ، فوصل إلى الأمير عز الدين جماز أمير المدينة النبوية — صلوات الله وسلامه على ساكنها ! — وطلب العداد من بلاده ، فدافع الشريف عن ذلك ، فحضر شكاك إلى بني خالد [3] ، وأخذهم ، واستعان بهم على عرب الشريف [١/٩٤] فخاف ، وسير إلى السلطان وطلب انقاذ من يستحلفه على أنه يستخرج حقوق الله — سبحانه وتعالى ! — وهذا بحسن اهتمام السلطان .

ملك إذا ذكر اسمه فالرعب يقذف في القلوب
وتكاد تخرج من مخا فتها اليه من الجيوب
لم يبق إلاّ من أطاع من البعيد أو القريب
فالله ينصره ، فإنْ نَ بنصره كشف الكروب

---

١ راجع ما سبق الورقة ٨٩ .
٢ « سكان » في الأصل « وشكال » في شافع ٩٦ والسلوك ١/٥٥٨ .
٣ راجع السلوك ١/٥٥٨ وفي الأصل « ابن » .

ذكر إقامة الجمعة بالجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة

لما كان يوم الجمعة ثامن[1] شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وستمئة أقيمت الجمعة بالجامع الأزهر ، وسبب ذلك أن الأمير عز الدين الحلي جار هذا الجامع من مدة سنين ، فرعى له حرمة الجار ، ورأى أن يكون كما هو جاره في دار الدنيا أنه غداً يجاوره ثوابه في تلك الدار فانتزع له أشياء من أوقاف كانت مغصوبة في أيدي جماعة ، وحاط أموره حتى جمع له شيئاً جيداً . وتبرع الأمير عز الدين له بجملة من المال الجزيل ؛ واستطلق له من السلطان جملة من المال ، وشرع في عمارته ، فعمر الواهي من أركانه وجدرانه، وبيضه ، وبلطه ، وأصلح سقوفه ، وفرشه [٩٤/ب] ، وصار حرماً في وسط المدينة واستجد به مقصورة حسنة ، وأثر فيه آثاراً صالحة يثيبه الله عليها ؛ وعمل الأمير بدر الدين بيليك الخزندار الظاهري فيه مقصورة كبيرة ، ورتب فيها مدرساً وجماعة من الفقهاء على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ! — وان كان مذهبه حنفياً : ورتب في هذه المقصورة محدثاً يسمع الحديث النبوي والرقائق وسبعاً لقراءة القرآن ؛ وأوقف على ذلك أوقافاً ، وأقيمت الجمعة فيه ، وحضر الأتابك والصاحب وجماعة من الأمراء والكبراء ، وكانت جُمعة مشهودة . وكتبت فتيا في جواز الجمعة في الجامع المذكور ، وأخذت خطوط العلماء بجواز ذلك ؛ ووجد الناس به رفقاً وراحة لقربه .

قال مؤلف السيرة : وهذا الجامع هو أوّل بيت وضع للناس بالقاهرة

---

١ « ثامن عشر ربيع الآخر » السلوك ٥٥٦/١ .

المحروسة، وفرغ من بنائه، وأقيمت فيه الجمعة في شهر رمضان سنة إحدى وستين وثلاثمئة ؛ وكان بناء القاهرة سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة ، ثم أتى العزيز ، ولد المعز ، فجدد به أشياء ، وعمر به عدة أماكن ، ويقال ان به طلسماً[1] لا يسكنه عصفور ، ولا يفرخ به .

وفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمئة سأل الوزير أبو الفرج بن كلس الذي عرفت الوزيرية به ، وتحدث مع الخليفة العزيز بالله في صلة رزق جماعة [٩٥/ا] من الفقهاء فأطلق لكل منهم كفايته، واشترى لهم دار إلى جانب الجامع الأزهر وإذا كان يوم الجمعة حضروا الجامع ، وذكروا فيه دروس فقه ، وكان شيخهم أبو يعقوب ، قاضي الخندق ، وكانوا نيفاً وثلاثين فقيهاً ؛ نقل حديث الفقهاء ابن زولاق ، وعزاه إلى أخبار المسيحي[2] ، وهذا غريب ، لأن دولة المصريين ما كان يشتغل فيها بفقه . وعليت منارة الجامع الأزهر في أيام القاضي صدر الدين — رحمه الله !

وكانت له أوقاف كثيرة ، وكان من جملة أوقافه جزء بدار الضرب بمصر ، وجزء في قيسارية الصوف ، وجزء في دار الحرق الجديدة بمصر ، ومتحصل ذلك ألف دينار وسبعة وستون ديناراً ونصف دينار وثمن دينار ؛ لخطيبه أربعة وثمانون ديناراً ، وثمن ألف ذراع حصراً عبداني[3] بالقيمة الحاضرة ، وثلاثة عشر ألف ذراع حصراً مضفورة ، وثمن زجاج قناديل ، وهي ثلاثة قناطير ، اثنا عشر ديناراً[4] ، ونصف وربع وثمن عود بخور خمسة

---

١ « طلسم » في الأصل .
٢ « المسبحي » صبح ٣٦٧ .
٣ كذا في الأصل .
٤ « دينار » في الأصل .

عشر ديناراً ، وثمن زيت وشمع قدر الكفاية ، وبقية ذلك يصرف في مصالحه ، على ما شرح في كتاب الوقف ؛ ورأيت منه نسخة عند نجم الدين بن الحلي ، وانتقلت هذه النسخة الآن إلى قاضي القضاة تقي الدين بن رزين .

ولما أحرقت مصر في سنة أربع وستين وخمسمئة تغيرت هذه المعالم وجهلت [٩٥/ب] ، ولم تعرف . وكان هذا الجامع قد بني قصيراً ، فزيد بعدَ ذلك ذراعاً ، وعُلّي ، واستمرت الخطبة فيه حتى بني الجامع الحاكمي . وعلى باب الجامع الحاكمي مكتوب أنه أمر بعمله الحاكم أبو علي المنصور في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمئة ؛ وعلى منبره مكتوب أنه أمر بعمل هذا المنبر الحاكم للجامع الحاكمي المنشأ ظاهر باب الفتوح في سنة ثلاث وأربعمئة .

قال مؤلف السيرة : رأيت في سيرة الحاكم مكتوباً يقول : في يوم الجمعة أقيمت الجمعة في الجامع الذي كان الوزير – يعني أبا الفرج بن كلس – بناه بباب الفتوح . ورأيت في سيرة الوزير المذكور انه قال في يوم الأحد عاشر شهر رمضان سنة تسع وسبعين حط أساس الجامع الجديد بالقاهرة خارج الطابية مما يلي باب الفتوح ، فانتقلت الخطبة إليه ، في شهر رمضان ، فإن الخليفة كان يخطب فيه جمعة ، وفي الجامع الأزهر جمعة ، وفي جامع ابن طولون جمعة ، وفي جامع مصر جمعة . وكان هذا الجامع خارج القاهرة فجدد بعد ذلك باب الفتوح ، وعلى البدنة التي تجاور باب الفتوح ، وبعض البرج مكتوب ان ذلك بني في زمن المستنصر أبي تميم معد ، في وزارة أمير الجيوش في سنة ثمانين وأربعمئة ، فيكون بينهما سبعة وثمانون سنة ؛ وهذا الجامع خارج القاهرة . وذكر الناس شيئاً لم أره منقولاً أن الخليفة الحاكم كان يعرف صناعة النجوم وأنه رأى مصر تملك من ذريته ، فاشتهى أن لا [٩٦/أ] يخطب في مدينتهم إلاّ لهم ، فبنى هذا الجامع خارج المدينة حتى

لا يخطب لأحد في مدينتهم إلاّ له ولولده الظاهر من بعده ولذريته ؛ وانقطعت الخطبة من هذا الجامع من مئة سنة لأن الأيوبيين [1] ملكوا مصر ، واستولوا عليها في سنة أربع وستين وخمسمائة ، فيقدر الله أن هذا الجامع ما خطبت به [خطبة] إلاّ للحاكم الخليفة ومن بعده للسلطان الملك الظاهر ، وهذا من عجيب الاتفاق .

ذكر خروج السلطان إلى الشام لعمارة صفد

في يوم السبت عشرين جمادى الآخرة توجه السلطان في جماعة من أمرائه وأراح بقية العساكر بالديار المصرية ؛ ولما وصل غزة ورد إليه رسل الفرنج بهدية وجماعة من أسرى المسلمين كساهم السلطان ، وأطلقهم ؛ وسار السلطان إلى صفد فعند وصوله إليها بلغه أن التتار على عزم قصد الرحبة ، فرتب أمر عمارة صفد وتوجه إلى دمشق المحروسة مسرعاً ، فوصل إلى دمشق رابع عشر رجب ، فاهتم بأمر الرحبة ، وعزم على الخروج بسببها ؛ وخرجت الخزانة ، فورد الخبر برجوع التتار وأن العسكر المجرد في الرحبة تبعوهم ، وقتلوا منهم وأسروا ، وقتلوا منهم شخصاً من كبارهم . فلما تحقق السلطان [٩٦/ب] ذلك عاد إلى جهة صفد ، وكان مقامه بدمشق مقدار خمسة أيام . ووصل إلى صفد في رابع وعشرين رجب فقسم الخندق على الأمراء ، وأخذ نصيباً وافراً لنفسه ، ومماليكه وحاشيته . وشرع الناس

---

١ « لان المعر كذا الأزهر ملكوا » في الأصل .

في العمل وعمل السلطان بنفسه وبيده ، وكذلك جميع بيوتاته من بابية وغيرهم ، ولم يتوفر أحد من العمل ، ولازموا نقل الحجارة ، ورمي التراب ، وتسابق الناس في النجاز .

ووصل رسل الفرنج إلى السلطان ، وهو على صفد ، وشاهدوا من أمرها واهتمام السلطان بها ما قطع أكبادهم حسرات، وتحدثوا مع السلطان في أمر بلادهم ، وأجابوا إلى ما قاله لهم من أمر صيدا من المناصفة ، وهدم الشقيف وأنكر عليهم اغارتهم على جهة مشغرا ، وأقيموا قياماً مزعجاً .

وأمر السلطان العساكر بالركوب خفية للغارة ، وركب السلطان ، وكان الفرنج قد اطمأنوا بإرسال رسلهم إليه فما أحسوا إلاّ بالعساكر قد وصلت إليهم وساق السلطان ، ونزل على باب عكا بتل الفضول ، وشرع في القتل ، وأحضرت إليه رؤوس القتلى من كل جهة ، وحمي عليه الحر ، فضرب عليه عباة لواتية على رمح استظل بها ، وضرب دهليزه تحت التل ، وبات فيه ، ثم أصبح على تلك الحالة ، ثم عاد إلى جهة صفد .

ووصلت رسل سيس بالهدايا ، فشاهدوا هم ، ورسل الفرنج رؤوس القتلى على الرماح ، وأحضر جماعة ممن أسر في هذه الغارة فقتلوا في صفد [٩٧/أ] وطلب السلطان رسل الفرنج ، وقال : « هذه الغارة في قبالة إغارتكم على بلد الشقيف » . ولما لم ينتظم أمر الصلح رد رسول الفرنج بغير جواب .

وركب في حادي وعشرين شعبان ، وساق إلى عكا ، فما علم به أحد إلاّ وهو على أبوابها ، فقسم الحجارين والناس على البساتين والأبنية والآبار لهدم ذلك وقطعه ، وعمل اليزك بنفسه على باب عكا تحت ذيل التل ، واقفاً على فرسه في يده رمح ، وأقام على هذه الحالة أربعة أيام . ولما تكامل الإحراق

والهدم قطع الأشجار ، وسير إلى طاحون كردانة التي لبيت الاسبتار هدمها ، وألقيت النيران في جميع تلك الأشجار. قال مؤلف السيرة : قد جوز العلماء إحراق غلات العدو ، وقطع أشجارهم ، إذا رأى ذلك الإمامُ صلاحاً يستضعفهم به ، فقد قطع رسول الله – صلى الله عليه وسلم ! – كروم أهل الطائف ، وكان ذلك سبباً لإسلامهم ؛ وأمر في حرب بني النضير بقطع نوع من النخل يقال له الأصفر ، يُرى نواه من وراء اللحم . ثم توجه السلطان إلى مخيمه بصفد بعد أن أنكى العدو أشد نكاية ، وسهر في سبيل الله فإنه كان هذه الليالي لا يهجع .

وفي هذه الأيام أحضر رسل سيس ، ورسل بيروت ، جماعة من أسرى المسلمين ، وردوا مال التجار ، وكتبت أجوبتهم وتوجهوا .

وفي رمضان وصل رسل صور ، وسألوا استمرار الهدنة ، فقال السلطان : « أنا ما فعلتُ ما فعلتُ إلاّ لأنكم قتلتم السابق شاهين ، غلامي ، وإخوته [٩٧/ب] وأولاده حاضرون ، وإذا قمتم بديته استمرت الهدنة » . وأحضر أولاد السابق شاهين ، فقررت ديته خمسة عشر ألف دينار صورية ، أحضر الرسل نصف ذلك ، وهو سبعة آلاف دينار وخمسمئة دينار صورية ، وجماعة من أسارى المسلمين المغاربة ، واستمهلوا بالباقي ، وقال السلطان : « تبنين وهونين وبلادهما قد أخذتهما بسيفي ، وصارت للإسلام » ، فاستقرت للمسلمين ، وأجيبوا إلى الصلح ، وكتبت هدنة لمدة عشر سنين لصور وبلادها ، وهي تسعة وتسعون قرية .

ذكر الصلح مع بيت الاسبتار
على حصن الأكراد والمرقب

قد تقدم الحديث في طلبهم لذلك ، واستقر هذا الأمر بشرط أن الفسخ يكون للسلطان[1] ؛ ولما حضرت رسلهم هذه المرة التمسوا أن يحلف لهم السلطان وأجابوا إلى حديث الطاحون ــ حسب ما شرحناه ــ فقررت الهدنة لعشر سنين وعشرة[2] شهور ، [وعشرة أيام][3] وعشر ساعات ، وبطلت القطائع عن بلاد الدعوة وحماه ، وقد تقدم ذكر ما كان على حماه والدعوة من القطيعة ، وشيزر وأفامية ، وهي في كل سنة على أبو قبيس ستمائة دينار مصرية[4] ، حساب خمسمئة دينار صورية ، الرسم المعروف بالمفادنة ، وهو عن كل فدان مكوكان غلة ، وستة دراهم ؛ وسُيِّر لاستحلاف مقدم بيت الاسبتار الأمير [٩٨/ا] فخر الدين المقري ، الحاجب ، والقاضي شمس الدين بن قريش ، كاتب الدرج الشريف ، فحلفوه .

ذكر استمرار صلح بيروت

كان الأمر مستقراً لملكة بيروت ، فلما بلغ السلطان أن مركباً للأتابك

١ راجع ما سبق الورقة ٨٨ .
٢ « عشر شهور » في الأصل .
٣ من النهاية ٧٥ .
٤ كذا .

توجّه فيه جماعة تجار إلى جزيرة قبرس ، فاحتاجت إلى إصلاح ، فأمنهم أخو صاحبة بيروت ، ثم غدر بهم وأمسكهم[1] . ولما حضر السلطان إلى الشام في سنة أربع وستين وستمئة حضر رسولهم ، فحوققوا على حديث المركب ، وأنكر عليهم ، فالتزموا آخر الحال بمال التجار ، وثمن المركب ، وإطلاق التجار ، فعند ذلك قبل السلطان هديتهم ، واستقرت قاعدة الصلح .

ذكر وصول الشريف

بدر الدين مالك بن منيف

في هذه السنة وصل الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شيحة وكان السلطان على صفد ، فشكا من الشريف جمّاز ، وقال : « ان المدينة النبوية – على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ! – كانت بين أبي وبين الشريف جمّاز نصفين ، وتوفي والدي وأنا صغير ، فظلمني الشريف جماز ، وآخذ نصيبي ، وقد جئت مستجيراً بالسلطان في رد حقي » . فكتب السلطان إلى الشريف جماز يأمره بتسليم النصف الذي كان [٩٨/ب] يخص منيف لولده الشريف بدر الدين مالك ؛ وكتب له عن السلطان تقليد بنصف المدينة الشريفة ، ونصف الأوقاف التي تخص المدينة في الشام ومصر ؛ وسُلّمت إليه نصف الأوقاف المذكورة .

وأما الشريف جماز فإنه سير جوابه بامتثال المرسوم ، وأرسل خادمين

---

١ راجع ما سبق ٨٢ ب .

من خدام الضريح الشريف النبوي يشهدان بذلك ؛ فكتب السلطان يشكره على ذلك . وكتبت على يد الشريف مالك الكتب ، وما ضاع حق[1] قصده ، ويرد إليه حقه .

في صفر سنة ست وستين وستمئة وصل الأمير ناصر الدين بن محيي الدين الجزري ، الحاجب ، من المدينة النبوية — صلوات الله وسلامه على ساكنها ! — وكان قد توجه لاستخراج الزكاة والعشر ، فأحضر صحبته مئة وثمانين جملا وعشرة آلاف درهم ، فاستقلها السلطان ، وأمر بردها عليه .

وفي هذه السنة وصل بنو صخر ، وبنو لام ، وبنو عنترة[2] وغيرهم من عربان الحجاز ، والتزموا بالزكاة من الغنم والإبل ؛ وتوجه معهم مشدون لاستخراج ذلك .

هؤلاء كلهم وردوا إلى السلطان وهو مباشر عمارة قلعة صفد بنفسه ، إما راكباً ، وإما راجلاً ، وإما عاملاً بيده ، وإما بنقل الحجارة ، فتنجز حفر الخندق ، وأمر بعمل المجانر ، وقسم[3] على الأمراء وغيرهم ، ونقلت [١/٩٩] الأخشاب للوقود؛ وما وفّر نفسه من شيء من ذلك . ونقل السلطان الأحطاب على فرسه ، ونقل الناس على خيولهم . ولما تجهزت المجانر شرع في العمارة وقسمت على الأمراء والبحرية والحلقة ، وأخذ السلطان لنفسه نصيباً وافراً . هذا والناس صيام . وباشر عمارة أبراج الأمير سيف الدين الزيني ، وعملت أبواب سر إلى الخندق . وجاءت من أحسن ما يكون ، ورسم أن يكتب على أسوارها : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنا في الزَّبورِ مِن بَعْدِ الذِّكر

---

١ لعلها « حق من قصده » أو « حق قصده صاحبه » .

٢ « بنو عنزه » النهاية ٣٧ .

٣ لعلها « وقسمها » .

أنَّ الأرضَ يَرِثُها عبادِيَ الصالحُونَ ﴾[1] . ﴿ أولئِكَ حِزبُ اللهِ ألا إن حِزبَ اللهِ هُم المُفلِحُونَ ﴾[2] . أمر بتجديد هذه القلعة وتحصينها وتكملة عمارتها ، وتحسينها ، [من خلصها][3] من[4] أسر الفرنج الملاعين ، وردها إلى يد المسلمين ، ونقلها من اخوة[5] الديوية إلى إخوة المؤمنين ، (وأعادها إلى الإيمان كما بدأ بها أوّل مرة وجعلها للكفار خسارة وحسرة)[6] ، واجتهد وجاهد[7] حتى بدّل [الإيمان بالكفر][8] ، والناقوس بالأذان ، والإنجيل بالقرآن ، ووقف بنفسه[9] حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه ومن خواصه على الرؤوس ، السلطان[10] الملك الظاهر أبو الفتح بيبرس ، فمن صارت إليه هذه القلعة من ملوك الإسلام ، ومن سكنها من المجاهدين[11] فليجعل[12] له نصيباً

---

١ القرآن الكريم ، الأنبياء ١٠٥ .

٢ القرآن الكريم ، المجادلة ٢٢ .

٣ النهاية ٣٤ .

٤ من أيدي النهاية ٣٤ .

٥ « من مسكن الإخوة الديوية إلى مسكن اخوة » النهاية ٣٤ . و « من حوزة . . . إلى حوزة » السلوك ٥٦٣ .

٦ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٧ « ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوض عن الكنائس بالجوامع ، والبيع بالمساجد ، وبدل الكفر بالإيمان » النهاية ٣٤ .

٨ كذا في الأصل ، وفي السلوك « الكفر بالإيمان » ٥٦٣/١ .

٩ « التي هي أعز النفوس » النهاية ٣٤ .

١٠ « سلطان الإسلام والمسلمين ، ومسترد ظلال الدين ، مبيد التتار ، فاتح القلاع والحصون والأمصار ؛ وارث الملك ، سلطان العرب والعجم والترك ، اسكندر الزمان ، صاحب القرآن ، أبو الفتح بيبرس ، قسيم أمير المؤمنين – خلد الله سلطانه ! – النهاية ٣٤ .

١١ « المثاغرين على الدوام » النهاية ٣٤ .

١٢ « لهذا السلطان فاتحها » النهاية ٣٤ .

من أجره ، ولا يخله من الترحم في سره وجهره [1] ؛ فقد صار يقال : « عمر الله سرحها » [2] بعد أن كان يقال : « عجل الله فتحها » والعاقبة للمتقين إلى يوم الدين) .

وفي هذه الأيام طلع السلطان إلى القلعة ليصلي في البرج الذي كان يجلس فيه فرأى به صنماً كبيراً كان الفرنج يقولون [٩٩/ب] ان القلعة في خفارته ، ويسمونه أبا جرج ، فأمر بقلعه وتكسيره ، وطهر ذلك المكان منه ، وعمل مكانه محراباً . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلّم ! – : « ان الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة » . ولما دخل رسول الله – صلى الله عليه وسلم ! – مكة شرفها الله كسر الأصنام ، وقال : ﴿ جاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الباطِلُ ﴾ [3] . فأجرى هذه الحسنة على يد السلطان .

في شهر صفر من هذه السنة رسم بتجديد عمارة الخليل – صلوات الله عليه ! – وكتب بذلك إلى دمشق ، وتوجه الأمير جمال الدين بن نهار ، فجُددت به الأخشاب والمقاصير والأبواب ، ودُهن ما يحتاج منها إلى الدهان ، وعملت المقاصير ليجعل الله له عوضها مقاصير الجنان ، وجُددت الضرائح المقدسة ، وتلك الأبنية التي هي على التقوى مؤسسة .

---

١ في طول عمره ، ذلك أنه جعلها دار يمن وأمان ، بعد أن كانت دار كفر وطغيان » النهاية ٣٤ .

٢ « صرحها » السلوك ١/٥٦٣ .

٣ القرآن الكريم ، الاسراء ٨١ .

ثم استهلت سنة ست وستين وستمئة

في صفر من هذه السنة كتب إلى القائم مقام الملك بركة بالتعزية والتهنئة واسمه منكوتمر بن طغان بن باتواقان بن بشوقان ، وكتب إليه بالاغراء بولد هلاكو .

ذكر ظهور الماء بالقدس الشريف

في هذه السنة ورد كتاب قاضي القدس بأن الماء انتزح من بئر السقاية وعظمت مشقة الناس ، فنزل رجل إلى البئر ، وشاهد قناة مسدودة [١٠٠/أ] من زمن بختنصر الذي هدم البيت المقدس ، فأحضر الأمير علاء الدين الحاج الركني بنائين ، وكشفت القناة السليمانية ، ومشوا فيها تحت الأرض إلى الجبل الذي تحت الصخرة المقدسة ، فوجدوا باباً مقنطراً ، ففتحوه ، فخرجت عين ماء كادت تغرقهم ؛ وكان خروج الماء من العين المذكورة في ذي الحجة سنة خمس وستين وستمئة .

قال مؤلف السيرة : وجدت في كتاب دير نامين[1] من أسفار الملوك من تواريخ النصارى ، أن ملك آشور ، يعني ملك الموصل ، قصد أوراشلم ، يعني بيت المقدس ، في جيوشه ، فاتفق حزقيا هو وجماعته على دفن المياه التي بها فدفنوا جميع الينابيع التي فيها ، لئلا يحضر ملك الموصل ، واسمه

---

١ كذا في الأصل دون نقط .

سحاريب ، فيجد[1] ماء يتقوى به .

وورد كتاب الحاج علاء الدين الركني بأنه نقص ماء السقاية الذي ظهر ، فنزح ، ودخل الصناع إليه ، فوجدوا سداً ، فنقب فيه الحجارون مقدار عشرين يوماً ، ووجد سقف مقلفط ، فنُقب به مائة وعشرون ذراعاً بالعمل ، فخرج الماء وملأ القناة .

ذكر ما حفر من البحور وأنشىء من القناطر

والجسور بالديار المصرية ، في أيام السلطان

من ذلك ما تولاه الأمير عز الدين الأفرم خاصة : النقيدي وبحر الإسكندرية ، وأنشىء المسجد والزربيّة على فم بحر النقيدي بحر طناح ، كان عَمِـي وأنشىء مستجداً . ترعة الصلاح [١٠٠/ب] ، أنشئت عوضاً عن ترعة رمسيس . المحائري كان قد عمي أيضاً ، من أيام الملوك الأول ، وحفر سنة أربع وستين وستمئة . الكافوري حفر أيضاً في السنة المذكورة. ترعة كياد تجدد فيها مئة قصبة في عرض ثلاث[2] أربع قصبات ترعة الفضل . بحر الصمصام بالقليوبية . بحر السردوسي . جسر سهم الدين بالقليوبية ، أنشىء في السنة المذكورة . والقناطر عشرون قنطرة : قنطرتان في البدماص بقرب المنصورة ؛ قنطرة (بحر)[3] بنية الخنازير ؛ وقنطرة بالقصير بأربعة

---

١ ما يتقوى به في الأصل .

٢ « لعلها ثلاثة أرباع » .

٣ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

أبواب ؛ قنطرة على بحر أمواس بسبعة أبواب ؛ وفي الجسر الذي يسلك عليه إلى دمياط ست عشرة قنطرة .

ذكر وصول هدية صاحب اليمن

ووصلت رسل صاحب اليمن ، وأحضروا من الخيل المسوّمة عشرين فرساً بالبركصطوانات الأطلس المزركشة ، وفيلة وحمارة وحش عتابيّة اللون ، وهي من أحسن الحيوانات لوناً ، وما جرت به العادة من المسك والعنبر والعود القماري والكلاهي والفضيات واليشم والصيني ، فقبلت هديته وجهزت له هدية وسنجق وخلعة ، وشعار السلطنة . وسأل على لسان رسوله قميصاً من ملابس السلطان ليكون أماناً له ، فجهز له ذلك ، وجهز له جوشن وكبر [1] وغيره من آلة الحرب ، وقيل له : « قد سيرنا لك آلة [١٠١/أ] السلم والحرب مما لاصق جسدنا في مواطن الجهاد . وسيرت له طيور جوارح ؛ ورسم السلطان بأن يكاتب بالمقام العالي المولوي السلطاني ؛ وكاتبه السلطان بالمملوك . وتوجه بالهدية الأمير فخر الدين المقري ؛ وسومح بالحقوق التي على البهار الواصل صحبة رسله ، ووصل صحبة أحد رسوليه ، وهو ابن الماكساني ، التاجر بها ، وذكر أن والدة صاحب اليمن سيرته للمجاهدين ، ولوجوه البر ، فأودع ثمنه في الخزانة ، ولما توجه السلطان للغزاة أنفق منه جملة في مجانيق أفردها لها ، وجعل أجرها لها ، واستفك بالباقي أسارى .

---

١ هكذا دون نقط .

ذكر بناء الظاهرية

في هذه الأيام مر السلطان على السدير ، قريب العباسة ، فأعجبه فاختار منه مكاناً بنى به قرية سماها الظاهرية ، وعمر به جامعاً .

قال مؤلف السيرة : هذه العباسة ما زالت الملوك تتنزه بها ، وولد بها العباس [بن] أحمد بن طولون ، صاحب مصر ، وسمي العباس لذلك . وولد بها الملك الأمجد تقي الدين عباس بن الملك العادل الكبير ؛ وكان الملك الكامل يقيم فيها المدة الطويلة ، ويقول : « هذه قفل [ديار][1] مصر ، إذا أقمت بها أصطاد الطير من السماء ، والسمك من الماء ، والوحش من الفضاء ، ويصل الخبز من قلعتي إليّ بها وهو سخن » . وبنى بها الكامل آدراً[2] ومناظر [١٠١/ب] وبساتين ، وبنى أمراؤه لهم بها بساتين ؛ وما خربت المناظر إلاّ في الأيام المعزية .

ذكر حركة السلطان إلى الشام

في هذه السنة كان السلطان في الصيد فبلغه أن التتار المخذولين في عزمهم الغارة على جهة حلب ، فرجع إلى القاهرة ، وأمر بخروج العساكر وأخرجت الخيام ؛ فأنكر على جماعة لم تعجبه خيامهم ، وجرّس منهم وأدّب وخرج

---

١ من شافع ١٠٤ .
٢ « آدر » في الأصل .

مسافراً في مستهل جمادى الآخرة ، وكتب إلى نائب السلطنة بالشام بتجهيز العسكر الشامي إلى أن يحضر بريدي يسير قدامهم ، ولم يعرف إلى أين . ولما خرج السلطان توجه البريدي ، وكان قد قرر مع الأمير جمال الدين ، نائب الشام ، أمارة يمسكها البريدي من يده ، فوصل البريدي إلى دمشق ، وأمسك الامارة من يد الأمير جمال الدين فللوقت أحضر الأمراء ، ورسم لهم باتباع البريدي ، فسارَ بِهم إلى بانياس فأخرج لهم بريدي آخر كتباً مختومة في بانياس للأمير علم الدين الحصني ، والأمير بدر الدين الأتابكي متضمنة منازلتهم للشقيف ، وأنهم لا يحدثون قتالاً ولا غيره ؛ فما عرف بهم إلاَّ وقد نازلوا الشقيف ؛ وكان جماعة من الفرنج قد توجهوا من الشقيف إلى عكا وصيدا ، فنازله العسكر قبل حضورهم ؛ وسار بعض العسكر إلى جهة صيدا ، فأسروا [١٠٢/أ] وقتلوا ، وسار السلطان من مخيمه بباب النصر في ثالث جمادى الآخرة ، فوصل غزة وبلغه أن جماعة من الجمّالين تعرضوا إلى الزروع فقطع أنوفهم ، وأن علم الدين سنجر الحموي ، أحد أمرائه ، ساق في زرع ، فأنزله عن فرسه وأعطاه بسرجه ولجامه لصاحب الزرع . ونزل السلطان العوجا .

ذكر فتوح يافا

قد ذكرنا فيما تقدم[1] ما كان استقر بين السلطان وصاحب يافا جوان دبلين ، يعني دبلين نسبَتُه إلى يبنى التي فيها قبر أبي هريرة — رضي الله عنه ! —

---

[1] راجع ما سبق ٨٢/ب .

فإن أصله منها ؛ وصار نوابه يتعدون ، وسيروا متحرمة في زي صيادين ، إلى قطنا ، وهلك صاحب يافا وقام ولده جاك بعده ؛ ولما كان السلطان على صفد للعمارة حضر إليه قسطلان يافا ، وسأله في هدنة لولد صاحب يافا فامتنع السلطان من ذلك ، وقال : « الذي كان معي صلحاً قد مات » .

ووصلت الأخبار بأن أهل يافا يحملون الميرة إلى عكا ، وكانت الميرة ممنوعة عن أهل عكا . وأقاموا في يافا حانة ، وأوقفوا فيها عدة من المسلمات . واعتمدوا أسباباً ليست في هدنة . فلما وصل السلطان إلى العوجا حضر القسطلان وأكابر يافا ، فعوقوا إلى أن يخرجوا من الدعاوى ، فبذلوا للسلطان تسليم المدينة والقلعة على أن يطلقوا بأموالهم وأولادهم [١٠٢/ب] ؛ فأجيبوا إلى ذلك .

وركب السلطان في العشرين من جمادى الآخرة ، وساق إليها ، وما أحس أهلها إلاّ والعساكر قد أطافت بها ، وأخذ الأتابك من حصل معه الحديث منهم ، وحضر به إلى يافا ، فما تفاوضوا في الحديث إلاّ والعساكر قد طلعتها من كل جانب ، وفتحت أبوابها ، ثم زحفوا على القلعة ، فسلمها أهلها في اليوم المذكور ، ومنع السلطان من نهبها ؛ وطلع إلى القلعة ، وطيّب قلوب أهلها ، وتجهزهم إلى مأمنهم ، وجرد معهم الأمير بدر الدين بيسري الشمسي .

وشرع في هدم القلعة فهدمت جميعها ، وأخذ من أخشابها وألواح رخام وجدت فيها ، وأوسق بها مركباً ، وسيرها إلى القاهرة ، ورسم بعمل ذلك الخشب مقصورة في الجامع الظاهري بالحسينية والرخام لمحرابه ؛ فعمل ذلك ، وأمر ببناء الجوامع والمساجد بهذه البلاد ، واظهار شعائر الإسلام ، وإزالة المنكرات منها ، ومن بلاد لدّ ، ورتب الخفراء على السواحل وألزمهم

بدركها ، ورسم أن المال المتحصل من هذه البلاد لا يغمس في غيره ، وقال : « هذه بلاد فتحها الله على يدي » . واختار أن يكون مأكوله ومشروبه من هذا المال ، واقتدى بالنبي – صلى الله عليه وسلم ! – حين غزا بني النضير ، وملك أرضهم ، وهي أول أرض أفاءها الله على رسوله – صلى الله عليه وسلم ! – وأجلاهم عنها ، وجعل لهم ما حملته الإبل من أموالهم إلاّ الحلقة – وهي السلاح – فخرجوا إلى خيبر والشام [١٠٣/أ] وصارت أرضهم كلها لرسول الله – صلى الله عليه وسلم ! – إلاّ ما كان لابن عُمير وأبي سعد بن وهيب ، فإنهما أسلما ، فأحرز لهما إسلامهما جميع أموالهما .

وملك الأمير علاء الدين الحاج طيبرس منها قرية ، والأمير علم الدين سنجر الحموي منها قرية ؛ ورتب إقامة التركمان بالبلاد الساحلية لحمايتها ، وقرر عليهم خيلاً وعدة ، فتحددا[1] بذلك عسكر بلا كلفة . ورسم بتجديد مقام الخليل – عليه الصلاة والسلام ! – وعمل مكان الخوان ناحية عن الحرم .

وجهز عسكراً صحبة الأمير بدر الدين بجكا العزيزي إلى الشقيف ، وكانت المنجنيقات قد حملت من صفد إلى الشقيف .

قال مؤلف السيرة : وهذه يافا فتحها عمرو بن العاص في خلافة أبي بكر – رضي الله عنه ! – ويقال بل فتحها معاوية ، ذكره البلاذري ؛ وذكر عز الدين بن عساكر : أن الملك طنكلي بناها في سنة ثلاث وتسعين وأربعمئة ، ونزل عليها السلطان صلاح الدين – رحمه الله ! – في سنة ثمان [وسبعين][2] وخمسمائة ، وضايقها ، فخرج البطرك وجماعة منها ، وسألوا

---

١ لعلها « فتجدد » .

١ النهاية ٧٦ .

صلاح الدين – رحمه الله ! – على أنهم يسلمونها بالأمان ، على أنهم يكونون أسارى يقيدون أسيراً بأسير ؛ وتقرر ذلك ، وخرج السلطان ؛ ثم إنهم استمهلوا في التأخير إلى الصبح فأمهلهم السلطان ، فوصل ملك الانكتير في الليل إليها ، ودخل قلعتها ونقض[1] ما كان تقرر ؛ فرحل السلطان عنها ، ونزل اللاطون . ثم نزل عليها الملك العادل بعساكر ولد أخيه الملك [١٠٣/ب] العزيز عثمان ، صاحب مصر ، ففتحها في سنة أحدى وتسعين وخمسمئة .
ولما حضر الانبرور فردريك في أيام الملك الكامل نزلها وحصن قلعتها وبناها .
ولما حضر الريدافرنس بعد خلاصه من الأسر مستهل سنة ثمان وأربعين وستمئة عمر مدينتها ، وأنفق عليها أموالاً كثيرة .

ولما فرغ السلطان من هدم يافا رحل عنها في ثاني عشر رجب متوجهاً إلى صفد لمشاهدة عمارتها المتجددة ، فشاهدها ، وأمر بنقل ربضها ، ثم رحل عنها إلى الشقيف .

ذكر فتوح شقيف أرنون

وهذا الشقيف من أحصن المعاقل وأحسنها ، وكان مضرة على بلاد الصبيبة ؛ وكان الملك العادل الكبير قد جدده ، وما زال في يد الإسلام إلى أن سلّمه الصالح اسماعيل[2] أبو الجيش للفرنج سنة [ثمان][3] وثلاثين

---

١ « تفص » في الأصل .
٢ النهاية ٧٧ .
٣ بياض في الأصل .

وستمئة ، هو وصفد، وغير ذلك من البلاد الإسلامية ، ولما تسلموه عمروه ، وعمروا إلى جانبه قلعة أخرى ، فانقطعت به السبل لتوسطه في تلك الجهات .

ولما فتح الله بصفد على السلطان لم يجعل وكده غير الشقيف ، ورسم بما ذكرناه من نزول العسكر الدمشقي عليها : فنقلوا أخشاب المجانيق إليها وأحطاب الستائر ، وجهز اليها الأمير بدر الدين بكتوت بجكا العزيزي بعد فتوح يافا بعسكر مصري ، فنزل عليها ، وعرفوا الجهات [١٠٤/أ] التي تؤخذ منها ، وتوجه إليها السلطان ، فنزل عليها (يوم الأربعاء) [١] تاسع عشر شهر رجب [٢]، فأقام منجنيقين ، ورمى بهما ثاني يوم وصوله . ووصلت المشائخ الصالحون والعلماء مثل الشيخ شمس الدين الحنبلي ، قاضي القضاة بالشام ، والشيخ تقي الدين بن الواسطي وغيرهم من الصلحاء واجتهد كل واحد منهم في الجهاد على قدر حاله .

واتفق أن الفرنج الذين بالشقيف كانوا سيروا شخصاً إلى عكا لما نزل عليها العسكر الشامي يعلمونهم بحالهم ، ويذكرون لهم عورات الحصن ؛ فسيروا لهم من عكا جوابهم ، فلما وصل القاصد بأجوبة أهل عكا حضر إلى السلطان ، وأحضر الكتب ، فحصل التحيل في قراءتها ، والعلم بمضمونها ، وعلم منها أسماء المقدمين الذين بالشقيف ، فكتبت لهم أمانات بأسمائهم ، وجُعلت في النشاب ، ورمي بها إلى الحصن ، وكتب أحد التراجمة العارفين بالقلم الفرنجي عوض أجوبة عكا أجوبة على لسان أهل عكا ، وعكس عليهم فيها القضايا ؛ وكان في الكتاب : أن الوزير بالشقيف لا يكن [٣] خاطره

---

١ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٢ « يوم الثلاثاء ثامن عشر رجب » مفضل ٥٠٦ .

٣ النهاية ٧٧ وفي الأصل « يكون » .

مشغلنا بسبب المصادرة له ، ففي ساعة يمكن تعويضه عن ذلك . فعكست هذه الأجوبة ، وقيل للمقدم بالشقيف يحترز من الوزير كليام ففي قلبه احنة من مصادرتنا له ؛ وأغرى بينهم بهذا القول وما ناسبه، ورميت لهم الكتب[1] في سهم . فحصل الاختلاف بينهم ؛ ووجدوا الأمانات التي كانت كتبت [١٠٤/ب] للمقدمين ، فأمسكوا جماعة وتوهموا من الوزير ، ووقع الخلف بينهم ، وهذا من سعادة السلطان وحسن رأيه . « والرأي قبل شجاعة الشجعان » . وباشر السلطان الحرب بنفسه وكمل في أيام يسيرة ستة وعشرين منجنيقاً .

ذكر تسليم إحدى قلعتي الشقيف

لما حصلت المضايقة للفرنج عجزوا أن يجمعوا قلعتين ، أو يحفظوا جهتين ، أو يجمعوا مع كفرهم إلاّ ما قد سلف بين الأختين ، حرقوا جميع ما لهم في القلعة الواحدة[2] ، التي جددها الديوية ، ليلة الأربعاء سادس وعشرين رجب سنة ست وستين وستمئة ، وأتلفوا جميع ما فيها من غلة وقماش وغيره ؛ وأصبح المسلمون فتسلموها عفواً صفواً . وأقام السلطان في سطح من أبراجها قريباً من العدو ، وقدمت المجانيق إلى القلعة الأخرى في سابع وعشرين الشهر المذكور ورمي بها ، وعرف الفرنج موضع السلطان ، فرموا حجراً قريباً منه ، فقتل ثلاثة نفر ، ولم ينتقل عن موضعه ، وهذا المكان

---

١ النهاية ٧٧ وفي الأصل « الكتاب » .

٢ « القلعة المستجدة » النهاية ٧٧ .

الذي [كان][١] يجلس فيه السلطان في علو القلعة ، وكان باب هذه القلعة من جهة القلعة الأخرى ، فعمل السلطان سرياقاً طويلاً في أعلى القلعة نازلاً إلى أسفل ، وصار يتعلق به طالعاً نازلاً ، وهو لابس عدته . وكان الأمير عز الدين الحلي ، نائب السلطنة بالديار [١٠٥/أ] المصرية قد سير جملة من المال في الخزانة المعمورة برسم الجهاد ، فأفرد له السلطان مجانيق ترمى على اسمه ، وينفق في رجالها من ذلك المال ، واشتد القتال فيما بينهم ، والناس فيما هم فيه من الجهاد، وإذا بالوزير كليام المقدم ذكره ، قد خرج مستأمناً ؛ ثم سألوا الأمان على نفوسهم ، وأنهم يؤخذون أسارى ، وسألوا إطلاق الحريم والأطفال ، فأجاب السلطان إلى ذلك .

وفي نهار الأحد سلخ رجب استدعوا الصناجق فرفعت على القلعة ، وسير الأمير بدر الدين الخزندار فتسلمها ، وخرج الفرنج إلى الخنادق ، فقيدوا ، وأخرج النساء والأطفال . وجرد الأمير بدر الدين بيسري الشمسي صحبتهم ، فأوصلهم إلى جهة صَور ، وقيد الفرنج الذين كانوا في الشقيف كلهم وسُلّموا للعساكر .

واستقرت الشقيف في يد السلطان ، وأنفق في العساكر جميعها ، وخلع على الملوك الذين في خدمته مثل الملك المنصور ، صاحب حماه ، وأخيه ، وأولاد صاحب الموصل ، والملك الأمجد بن العادل ، وغيرهم ، وأولاد الملوك ، وعلى الأمراء والمقدمين ، وكل من جرت عادته بالخلع .

وشرع السلطان في هدم القلعة المستجدة ، فهدمت إلى الأرض ، ورتب نائباً بقلعة الشقيف صارم الدين قيماز الكافري ، ورتب فيها الأجناد والرجالة

---

١ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

ورُتب بها قاض وخطيب ، وأقيمت شعائر الإسلام بتلك البلاد جميعها . وولّى [١٠٥/ب] الأمير سيف الدين بلبان الزيني عمارتها . وكان قد خرج منها حالة الحصار جماعة من المسلمين ، فكتب لهم فُدناً وقفاً عليهم .

وفي رجب من هذه السنة وصل الرسول الذي كان السلطان سيره إلى الكرج بكتابين من ملوك الكرج ، أحدهما من ملك أنجار ، والآخر من داؤود ، ملك تفليس[1] ، ومضمونها أنهما خرجا عن التتار لأجل السلطان ؛ وذكر ملك انجار أنه انحاز إلى الملك بركه لما علم أنه محب في السلطان .

وفي شعبان وصل رسول بيروت بهدية وجماعة من تجار المسلمين كانوا أخذوا في البحر من عدة سنين ، ما زال السلطان يجتهد حتى خلّصهم وخلّص أموالهم .

وفي الشهر المذكور ودّع صاحب حماه ، وعاد إلى مملكته . وفي عاشر الشهر المذكور رحل السلطان من الشقيف .

ذكر توجه السلطان إلى طرابلس
وإغارته عليها

كان بيموند [بن بيموند][2] ، صاحب طرابلس قد كثّر تعديه على بلاد الإسلام وأخذ البلاد المجاورة له ، وذلك بعد زوال الأيام الناصرية ،

---

١ « نفليس » في الأصل .

٢ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

واستيلاء التتار على الشام ، وكان من أكبر أعوان التتار ، وأشدهم نكاية في المسلمين ؛ وأخذ من بلاد المسلمين وحصونهم : ديركوش وبلاده ، وشقيف كفردبين وبلاده ، وشقيف كفر تلميس؛ هذا من الجهة الشمالية . [١٠٦/أ] وأخذ اللاذقية ، وجدد على الميناء برجاً حصيناً ، وأخذ عدة قرايا من بلاد المسلمين ؛ ولما ملّك الله السلطان البلاد حضر مرة إلى قريب حمص للغارة ، فرده العسكر الحمصي أنحس رد ؛ وسير السلطان العساكر المصرية والشامية صحبة الأمير علاء الدين الحاج طيبرس ، والأمير شمس الدين سنقر الرومي ، فأغارت إلى قريب أنطاكية ؛ وسير الأمير جمال الدين ايدغدي العزيزي ، والأمير سيف الدين قلاؤن الألفي ، فأغاروا على بلاد طرابلس على ما ذكرناه . وأمسك قصاداً كان السلطان أرسلهم إلى ملك الكرج ، وعادوا من عنده بهدية ، فرماهم الريح إلى طرابلس ، فسيرهم إلى هلاكو .

فلما رحل السلطان من الشقيف نزل قريباً من جسر بانياس ، وجهز الأثقال إلى دمشق ، وجرد الأمير عز الدين أوغان بجماعة توجهوا من جهة والأمير بدر الدين الأيدمري بجماعة من جهة أخرى . فحفظت الطرقات ، وامتلأت بالعساكر . وتوجه السلطان على بعلبك ، وتوجه منها إلى طرابلس ، على جبال الضنين ؛ وكان البرنس قد وعر الطرقات ، فوصل [السلطان] [١] طرابلس في نصف شعبان ، وما تأخر أحد في هذه الجبال الصعبة التي يقول فيها المتنبي :

عقاب [٢] لبنان وكيف بقطعها [٣]   وهو الشتاء وصيفهن شتاء

---

١ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .
٢ ديوان المتنبي ١/١٥ وفي الأصل « وجبال » .
٣ ديوان المتنبي ١/١٥ وفي الأصل « يقطعها » .

لبس الثلوج بها على مسالكي فكأنها ببياضها سوداء

ولما طلعت العساكر الجبال، واشتد الحرّ لم يجدوا سوى الثلج، أكله الناس وأطعموا منه خيولهم . [١٠٦/ب]

وخيّم السلطان قريباً من طرابلس ، في مكان بَعُد عهد الإسلام بحلوله ، لأن طرابلس هذه كانت في قديم الزمان ثلاث مدن مجتمعة ، ولما ولي معاوية ابن أبي سفيان الشام في أيام عثمان — رضي الله عنه ! — وجه سفيان بن مجيب الأزدي إلى طرابلس ، وهي ثلاث مدن كما ذكرنا ، فبنى في مرج منها على أميال منها حصناً يسمى حصن سفيان ، فقطع المادة عن أهلها من البحر وغيره، وحاصرهم. فلما اشتد الحصار عليهم اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة ، وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدهم ، أو يبعث إليهم بمراكب يهربون فيها إليه ، فوجه اليهم مراكب ، فركبوا فيها وهربوا ، فلما أصبح سفيان ، وكان يبيت كل ليلة في حصنه ويحصن المسلمين فيه ، ثم يعدو على العدو ، فلما كان في صبيحة اليوم الذي هربوا فيه توجه إليهم ، فلم يجد أحداً منهم في الحصن الذي كانوا فيه فدخله وكتب بالفتوح إلى معاوية ، فأسكنه معاوية جماعة كبيرة من اليهود . وهو هذا الحصن الذي فيه الميناء ؛ ثم بناه عبد الملك بن مروان فيما بعد وحصنه . فكان معاوية يوجه في كل عام جماعة إلى طرابلس من الجند يشحنها بها ، ويولي فيها والياً ، فإذا تغلق البحر المالح عاد العسكر ، وبقي الوالي في جماعة يسيرة . ولم يزل الأمر جارياً على ذلك حتى ولي عبد الملك بن مروان ، فقدم في أيامه بطريق من بطارقة الروم ، ومعه جماعة يسيرة ، فسأل أن يُعطى الأمان على أنه يقيم بها يؤدي الخراج [١٠٧/أ] فأجيب إلى مسألته[1] ، فلم يلبث إلا سنتين أو

---

١ « مسئلة » في الأصل .

أكثر منهما ، حتى قرب رجوع العسكر ، فلما رجع غلق بابها ، وقتل واليها ، وقتل جماعة من اليهود وأسر جماعة من الجند ، وهرب إلى الروم ، هو وأصحابه ؛ فقدر الله بعد ذلك أن المسلمين قدروا عليه ، وهو متوجه إلى سواحل المسلمين في مراكب كثيرة ، فقتلوه ، ويقال : بل أسروه ، وأحضر إلى عبد الملك فقتله، وصلبه ويقال : بل أخذه لما ظفر به في طرابلس وقتله .

وحكى علي بن محمد المدائني : قال عتَّين بن إبراهيم : فتح طرابلس سفيان بن مجيب يوم نقض أهلها العهد أيام عبد الملك ، فتحها الوليد في زمانه ولم تزل في أيدي المسلمين إلى أن ملكها القاضي جلال الملك علي بن محمد بن عمّار ، وأقام مالكاً لها إلى أن مات في سلخ شعبان سنة اثنين وتسعين وأربعمئة ، وملكها بعده أخوه فخر الملك عمّار [بن محمد بن عمّار][1] ، وما زال حاكماً فيها حتى خرج الفرنج إلى الشام في سنة تسعين وأربعمئة ، وفتحوا أنطاكية في مستهل شهر رجب سنة احدى وتسعين وأربعمئة ، نزل الملك صنجيل واسمه ميمُنْث ، وهو المسمى ميمون ؛ قال عز الدين ابن عساكر : ونسبه إلى صنجيلية، مدينة بجموعه على طرابلس[2] ، في رجب سنة خمس وتسعين وأربعمئة ، وعمر عليها حصناً يقاتلها منه ، وضايقها مدة طويلة ، فلما طال مقامه عليها خرج صاحبها يستغيث المسلمين، فقصد سلطان بغداد في سنة إحدى وخمسمئة [١٠٧/ب] ، واستناب في طرابلس ولد عمه أبا المناقب ، ورتب معه رجلاً يعرف بسعد الدولة ، فتّيان ابن الأعسر ، فاتفق أنه جلس في بعض الأيام في مجلسه ، وعنده جماعة من

---

١ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٢ «وصنجيل اسم مدينة نسب اليها فنزل صنجيل بجموعه على طرابلس» النهاية ١١٦ .

كبراء البلد ، وكبراء العساكر فشرع يتجنن ويخلط ، فنهاه سعد الدولة المذكور ، فصاح عليه وحذفه بالسيف فقتله ؛ وقام هذا الذي تجنن وطلع على السور ، ورقص ، وصفق فقام أهل البلد وأمسكوه ، وذلك في شهر رمضان من هذه السنة ، ونادوا باسم الأفضل ابن أمير الجيوش الذي كان سلطاناً في مصر ، وحموا البلد ، وأقاموا إلى أن مات صنجيل وهو يحاصر طرابلس ، وما زالوا حتى تسلّموها في يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة سنة اثنين وخمسمئة ؛ وكان الحصار الشديد المتتابع عليها الذي لا فرح [1] يتخلله سبع سنين ، وتولاها مقدّم منهم اسمه السرداني فتملكها ، وأقام مدة حتى وصل مركب من جهة بلاد المغرب وفيه صبي من أولاد صنجيل اسمه تبِرِان تبص طلولا ، ومعه شيوخ من أصحاب أبيه يخدمونه ويدبرونه ، فحضروا عند السرداني ، وقالوا هذا ولد صنجيل ، وهو يريد مدينة والده ، فقام السرداني ورفسه برجله ، فرماه من السرير ، وأخرجه ، فأخذه أصحابه ، وطافوا به على الفرنجية والفرسان ، فرحموه ، وتذكروا الأيمان التي كان أبوه حلفها لهم ، وقالوا له : « إذا كان غداً فاحضر ونحن عنده ، وتحدث » . فلما حضر عنده وخاطبه [١٠٨/أ] صاح عليه ، فقام الفرسان كلهم على السرداني وأخرجوه من المملكة ، وسلموها للصغير ، فأقام مالكاً لها إلى أن قتله بَروَاج يوم الأحد رابع شهر رجب سنة إحدى وثلاثين وخمسمئة ، وقتل أكثر أصحابه ، وأسر بطرس الأعور ، واستخلف [2] في طرابلس ولده القمص بدران ، فأسره الأتابك زنكي بن قسيم الدولة لما كان في صحبة مالك القدس فلك بن فلك ، وذلك قريب حصن بعرين ؛ وطلع

---

١ وربما كانت « فرج » .

٢ « واستحلف » في الأصل .

الملك وجماعة معه إلى قلعة بعرين ، فحاصرهم الأتابك ، ونصب عليهم أربعة عشر منجنيقاً ، وضايقهم إلى أن صانعه الملك على تسليم حصن بعرين ، واستخلص القومص صاحب طرابلس ، وجميع الأسرى ، وعاد القومص إلى طرابلس ، وأقام حتى وثب عليه الإسماعيلية ، فولى بعده ريمند ، وهو صبي ، وحضر الحرب مع الملك العادل محمود بن زنكي على حارم ، فكسرهم الملك العادل نور الدين ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، ومنهم القومص صاحب طرابلس ، وذلك في سنة تسع وخمسين وخمسمئة ؛ فلما ملك صلاح الدين الشهيد مدينة دمشق يوم الاثنين تاسع وعشرين شهر ربيع الأوّل سنة سبعين [وخمسمئة] أعتقه وأحسن إليه ، وبقي الملك في أولاده إلى هذا الذي هو بها الآن .

هذا هو السبب في ملك الفرنج لها ، ويُقال : وان كنت ما رأيته مسطوراً ، ان صاحبها لما طال الحصار عليه سير إلى الخليفة [١٠٨/ب] يستنجده ، فهو في أشد حالة ، وإذا بمركب فيه جماعة ، فاعتقد أنه نجدة ، ففرح المسلمون ، وإذا برسول قد وصل فيه ، وهو يقول : « بلغ الخليفة أن عندك جارية تصلح لخدمته ، وانها حسنة الصورة » . فلما سمع المسلمون هذا الحديث فتّ في أعضادهم ، وأيسوا من الفرح [١] ، وسلموها . أعادها الله للمسلمين قريباً !

واستمر السلطان على الركوب إلى طرابلس ، والعساكر تُناوش أهلها القتال ، ويرامونهم بالنشاب ؛ وافتتَح برجاً كان قد عصى فيه جماعة من الفرنج ، ضرب رقابهم ؛ وجرد جماعة خربوا [٢] الحدث ، ونهبوا تلك

١ لعلها « الفرج » .
٢ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص ، وفي مكانها منه كتبت كلمة « من الفرنج » وشطبت .

الجبال ، وحصلت العساكر الغنائم ، وأحضروها إلى باب الدهليز وأخذوا عدة مغاير بالسيف ؛ ولما أحضرت العساكر[1] الأسرى رسم السلطان بضرب رقاب الجميع ؛ وقطعت الأشجار ، وهدمت الكنائس ، وقِني المياه ، وقناتها الرومانية ، وهي بناء عظيم لم ير مثله . وقسم السلطان الغنائم في العساكر ورحل من طرابلس تاسع وعشرين شعبان .

ذكر ما تخلل هذه الغزوة من المهمات

التي باشرها بأسرها

منها : حديث الاسبتار وفتوح تل خليفة :

قد ذكرنا الصلح الذي وقع مع الاسبتار ، لما كان السلطان في صفد المرة الثانية[2] ، وكونهم صالحهم على حصن الأكراد والمرقب [١٠٩/أ] ولما توجه السلطان في هذه الوجهة المباركة ، فكتب إلى النائب بحمص بأن يقيم بحدود حصن الأكراد لدفع الضرر عن بلاد المدنة ، وكتب إلى عدة جهات بالوصية بهم ، وحضر رسول حصن الأكراد يسأل الوصية ، فأعطاهم علماً برنكه ، ولما عبرت الأثقال من جهة القصب عبر أحد الحرافشة ، ومعه رفقة له ، على بستانٍ قريب تل خليفة ، فأخذوا منه شيئاً لا مقدار له ؛ فسير المقدم بتل خليفة أحضر المذكورين وضرب رقابهم ، وأسر البقية ، فنزل النائب بحمص على تل خليفة ، وطلب الخصوم ، فامتنع النائب بها

١ كتبت كلمة « العساكر » على الهامش ، وأشير إلى مكانها من النص .

٢ راجع ما سبق الورقة ٨٨ .

من تسليمهم ، وقال : « أنا قتلت » . وأساء في القول كما أساء في الفعل ، فحاصرهم ، وسير إليهم شجاع الدين بن بجير ، فاحتال إلى أن استنزل الخصوم ، وسيروا إلى السلطان . فحضرت رسل من حصن الأكراد بطلبهم ، فأجابهم السلطان أنه لا بد من تحقيق هذه القضية ، فعزّت نفوس الذين في حصن الأكراد ، وغلق النائب باب الحصن ، ومنع الميرة ، وألبس جماعة العدد ، ولما رجع السلطان من طرابلس نزل تحت حصن الأكراد متوجهاً إلى حمص ، فسير يقول : « ما كان ينبغي لكم تعبرون من هنا إلاّ بأمري » . وقيل له : « لأي معنى غلقتم الأبواب ، ولبستم العدد ، وأنتم في صلح ؟ » فقال : « ما غلقناها إلاّ شفقة على عسكر السلطان من الفرنج الغُرب الذين عندنا ، لأنهم لا يخافون الموت » . فعز هذا القول على السلطان ، لأن الغُرب الذين عنده [١٠٩/ب] عدتهم دون مئة نفر فكيف تصل قدرتها إلى أذية العساكر الإسلامية ، ومع هذا فما تعرض السلطان إلى بلاده .

ذكر ما اعتمده افرير ماهي صافاج من الخدمة

فقد تقدم الحديث في خدمة المذكور للسلطان ، ولما علم أن السلطان يقصد تلك الجهات تلقى العساكر بالخدمة ، وسار في خدمتها ، فحمت بلاده ، ولما نزل السلطان على طرابلس حضر وأحضر الهدايا ، واستصحب عسكراً توجه معه لحماية بلاده ، وهي صافيث ، وأنطرسوس ، وأحضر الأسارى الذين عنده من المسلمين ، وكانوا مقدار ثلاثمئة أسير ، وانفصل وهو مشكور ، وبلاده محمية .

ذكر المسير إلى مدينة أنطاكية وفتحها

لما رحل السلطان من طرابلس لم يُطلع أحداً على الجهة التي يقصدها فتوجه إلى حمص ، فنزل بها في سابع وعشرين شعبان ؛ وأمر بإبطال الخمر والمنكرات ، ورسم ببناء مسجد بحمص ؛ ولما وصل حماه رتب العسكر ثلاث فرق : فرقة صحبة الأمير بدر الدين الخزندار ، وفرقة مع الأمير عز الدين إيغان[1] ، وفرقة صحبة السلطان؛ فتوجه الأمير بدر الدين [١١٠/أ] الخزندار إلى السويدية ، وتوجه الأمير عز الدين أوغان إلى الدربساك ، فقتلوا وأسروا وتوافوا جميعهم إلى أنطاكية . ونزل السلطان أفامية ومنها إلى جسر تحت الشغر وبكاس[2] .

وأصبح مغيراً على أنطاكية ، وذلك في مستهل رمضان ، وتقدم في الجاليش الأمير شمس الدين اقسنقر ، استاذ الدار ، فصادف جماعة من عسكر أنطاكية انتشب الحرب بينهم ، فحمل أحد أجناد الأمير شمس الدين اقسنقر ، وهو . . .[3] . . . الدين المظفري ، رمى كنداصطبل ، وأحضره إلى السلطان ، فأمّره السلطان وأحسن إليه .

وأطافت العساكر بأنطاكية من كل جانب ، وكان النزول عليها بالخيام والثقل بكرة يوم الجمعة ثالث شهر رمضان سنة ست وستين وستمئة، ولما

---

١ لاحظ انه في السطر التالي سماه أوغان .

٢ في الأصل « الشوربكاس » . والشغر قلعة حصينة مقابلها أخرى يقال لها بكاس على رأس جبلين بينهما واد كالخندق لهما ، كل واحدة تناوح الأخرى وهما قرب أنطاكية . ياقوت ٥/٢٧٨ .

٣ بياض في الأصل ، وفي النهاية « فلان الدين » ٧٨ .

حضر كنداصطبل إلى السلطان رآه رجلاً عاقلاً ، وسأل انه يدخل إلى أنطاكية ، ويتوسط لأهلها ، فجرى السلطان على عادته في الإنذار قبل المهاجمة لإقامة الحجة عند الله تعالى ، فسير كنداصطبل أحضر ولده جعله رهينة ، ودخل البلد ، وتحدث ، وخرج معه جماعة من القسيسين والرهبان ، وأقاموا يترددون ثلاثة أيام ، فظهر منهم قوة نفس وخوف من صاحبهم البرنس .

وفي بكرة السبت أنذرهم السلطان بالزحف ، وصبر حتى دخل الأقساء والرهبان إلى أنطاكية ، ورسم بزحف العساكر ، فأطافت بالمدينة والقلعة على اتساعها ، وقاتل أهلها قتالاً شديداً [١١٠/ب] ، فتسور المسلمون الأسوار من جهة الجبل بالقرب من القلعة ، ونزلوا المدينة فهرب أهلها إلى القلعة ، وشرعت العساكر في النهب والقتل والأسر ، وما رفع السيف عن رجل في المدينة ؛ وكان بها فوق المئة ألف نفر ، حسب ما عده نائب التتار ، ولما وردوا استخرج عن كل رأس ديناراً ، وأخذ التركمان من الغنائم ما لا يحصى . ثم رسم السلطان بحفظ أبواب المدينة ، والاحتراز عليها .

وأما القلعة فاجتمع فيها ثمانية آلاف نفر مقاتلة غير الحريم والأولاد ، فتحاشروا بها ، فمات عالم كثير ، وأما البالي والوزير والوالي ، فإنهم لما شاهدوا تلك الحال هربوا في الليل رجالة في الجبال ؛ وأصبح أهل القلعة فما وجدوا أحداً منهم ، ولم يكن بالقلعة مياه ولا طواحين تكفيهم ، فسيّروا يوم الأحد ثاني يوم الفتح يطلبون الأمان من القتل ، وأنهم يؤخذون أسرى ؛ فللوقت طلع السلطان فصادف جميع من في القلعة . و[قد][1] خرج إلى

---

١ كذا في النهاية ٧٨ .

ظاهرها وعليهم الملابس[1] التي كأنها زهر الرياض ، واستغاثوا إلى السلطان ، فعفا عنهم من القتل ؛ وأحضرت الحبال ، وتسلم كل أمير جماعة ، وكل مقدم جماعة ، والكتاب بين يدي السلطان ينزّلون الأسماء ، وكتبت كتب البشائر ، ومن جملتها كتاب إلى صاحب أنطاكية نسخته[2] :

« قد علم القومص الجليل [المبجل ، المعزز ، الهمام ، الأسد الضرغام ؛ فخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية ، كبير الأمة العيسوية][3] بيمند المنتقلة مخاطبته — بأخذ أنطاكية منه [١١١/أ] — من البرنسية[4] إلى القومصية ؛ ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده ، وجعل النصيحة محفوظة عنده ؛ ما كان من قصدنا طرابلس ، وغزونا له في عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر ، وهدم الأعمار ؛ وكيف كُنِست تلك الكنائس من على بساط الأرض ، ودارت الدوائر على كل دار ؛ وكيف جُعلت تلك الجزائر[5] من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر ؛ وكيف قُتلت الرجال ، واستخدمت الأولاد ، وتملكت الحرائر ؛ وكيف قُطعت الأشجار ، ولم يترك إلاّ ما يصلح لأعواد المجانيق — إن شاء الله — والستائر ؛ وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي[6] ، وكيف استغنى الفقير ، وتأهل العازب ، واستخدم الخديم ، وركب الماشي ؛ هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتاً قلتَ فزعاً : « عليّ

---

١ الملابس الحسنة « النهاية » ٧٨ .

٢ من إنشاء القاضي محي الدين . شافع ١٠٧ ومفضل ٥٠٩/١ .

٣ النهاية ٧٨ راجع أيضاً مفضل ٥٠٩ .

٤ « البولسية » صبح ٢٩٩/٨ .

٥ « تلك الخسائر على جانب البحر من الأجسام كالجزائر » شافع ١٠٩ .

٦ « الحواشي » صبح ٣٠٠/٨ .

هذا الصوت » . وكيف رحلنا عنك[1] [لكن][2] رحيل من يعود ، وأخرناك وما كان تأخيرك إلاّ إلى[3] أجل معدود؛ وكيف فارقنا بلادك وما بقيت فيها ماشية إلاّ وهي لدينا ماشية ، ولا جارية إلاّ وهي في ملكنا جارية ، ولا سارية إلاّ وهي بين أيدي المعاول سارية ؛ ولا زرع إلاّ وهو محصود ، ولا موجود لك إلاّ وهو منك مفقود ؛ وما منعت[4] تلك المغائر التي في رؤوس الجبال الشاهقة ، ولا تلك الأودية التي هي في التخوم[5] مخترقة ، وللعقول خارقة ؛ [١١١/ب] وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك انطاكية خبر ، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدّق أننا نبعد عنك ، وإن بعدنا فسنعود على الأثر . وها نحن نعلمك بما تم ، ونفهمك بالبلاء الذي[6] عمّ .

كان رحيلنا عنك من طرابلس في يوم الأربعاء رابع وعشرين شعبان ، ونزولنا أنطاكية في مستهل شهر رمضان وفي حالة[7] النزول خرجت عساكرك للمبارزة ، فكُسروا ، وتناصروا فما نصروا ؛ وأُسر من بينهم كنداصطبل ، فسأل في مراجعة أصحابك ، فدخل إلى المدينة ، فخرج هو وجماعة من رهبانك ، وأعيان أعيانك[8] ؛ فتحدثوا معنا ، فرأيناهم على رأيك من إتلاف

---

١ « من عندك » مفضل ٥٠٩ .

٢ شافع ١٠٩ .

٣ « إلا لأجل » شافع ١٠٩ وصبح ٨/٣٠٠ .

٤ « منعك » النهاية ٧٨ .

٥ شافع ١٠٩ ومفضل ٥١١ أما في الأصل « في النجوم مخترقة » .

٦ « الذي عليك قد عم » مفضل ٥١١ .

٧ « حال » صبح ٨/٣٠٠ .

٨ « أعيان أعوانك » النهاية ٧٨ .

النفوس بالغرض الفاسد ، وأنهم[1] رأيهم في الخير مختلف ، وقولهم في الشر واحد ؛ فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت ، وأنهم قد قدّر الله عليهم الموت ، رددناهم وقلنا : « نحن الساعة لكم نحاصر ، وهذا هو الأوّل في الإنذار والآخر » . فرجعوا متشبهين بفعلك ، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك؛ ففي بعض ساعة مرّ شان المرشان، وداخل الرهب الرهبان ، ولان للبلاء القسطلان، وجاءهم الموت من كل مكان . وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان ؛ وقتلنا كل من اخترته لحفظها ، والمحاماة عنها ؛ وما كان أحد منهم إلاّ وعنده شيء من الدنيا ، فما بقي أحد منا إلاّ وعنده شيءٌ منهم ومنها ؛ فلو رأيت خيالتك [١١٢/أ] وهم[2] صرعى تحت أرجل الخيل ، وديارك والنهابة فيها تصول ، والكسابة فيها تجول، وأموالك وهي توزن بالقنطار، وداماتك[3] فكل أربع منهن تباع ، فتشترى من مالك بدينار ؛ ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كُسرت ونُشرت[4]، وصحفها من الأناجيل المزورة وقد نشرت ، وقبور البطارقة وقد بعثرت[5] ؛ ولو رأيت عدوك المسلم ، وقد داس مكان القداس والمذبح ، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس ؛ والبطارقة وقد دهموا بطارقة ، وأبناء المملكة وقد[6] دخلوا في المملكة ؛ ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق ؛ وقصورك وأحوالها قد

---

١ « أن رأيهم » النهاية ٧٨ وصبح ٣٠٠/٨ .
٢ « وهي » صبح ٣٠١/٨ .
٣ « واماءك وكل » صبح ٣٠١/٨ .
٤ « ونثرت » صبح ٣٠١/٨ .
٥ « تغيرت » صبح ٣٠١/٨ .
٦ النهاية ٧٩ وصبح ٣٠١/٨ أما في الأصل فهي « فقد » .

حالت ، وكنيسة بولص وكنيسة القسيان وقد زلّت كل منهما وزالت ؛ لكنت تقول : ﴿يا لَيتَنِي كُنتُ تُراباً﴾ [1] ، « ويا ليتني لم أوت بهذا الخبر كتاباً » . ولكانت نفسك تذهب [2] من حسرتك ، ولكنت تطفي تلك النيران بماء عبرتك . ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من مغانيك ، ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك ، فصارت [3] شوانيك من شوانيك ؛ ليقنت [4] أن الإله الذي أنطاك أنطاكية منك استرجعها ، والرب الذي أعطاك قلعتها منك قلعها ومن الأرض اقتلعها ؛ ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام ، وهو دير كوش ، وشقيف تلميس ، وشقيف كفردبين [١١٢/ب] ، وجميع ما كان لك في بلاد أنطاكية ، واستنزلنا أصحابك من الصياصي وأخذناهم بالنواصي ، وفرقناهم في الداني والقاصي ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان إلاّ النهر فلو استطاع لما تسمى بالعاصي ؛ وقد أجرى دموعه ندماً ، وكان يذرفها عبرة صافية فها هو أجراها بما سفكناه فيه دماً .

وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة ، وطول العمر بكونك لم يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة ، وكونك ما كنت بها فتكون إما قتيلا وإما أسيراً وإما جريحاً وإما كسيراً ؛ وسلامة النّفس هي التي يفرح بها الحي إذا شاهد الأموات ، ولعل الله ما أخرك [5] إلاّ لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات ولما لم يسلم أحد يخبرك بما جرى خبرناك ،

---

١ القرآن الكريم ، النبأ ٤٠ .

٢ « ذابت » شافع ١١١ .

٣ « لصارت » صبح ٣٠١/٨ .

٤ النهاية ٧٩ وفي الأصل « ولتيقنت » .

٥ « إنما أخرك لأن » صبح ٣٠٢/٨ .

ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك ، وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشرناك ؛ لتحقق[1] الأمر على ما جرى ، وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً ، كما أن بعد[2] هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها[3] مخبراً » .

ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه ؛ ولم يبلغه خبر أنطاكية إلاّ من هذا الكتاب .

ولما تسلم السلطان القلعة سلمها للأمير بدر الدين الخزندار ، والأمير بدر الدين بيسرى الشمسي . وأما كنداصطبل فإن السلطان أطلقه [١/١١٣] وأطلق أهله وأقاربه ، واختار التوجه إلى سيس ، ففسح له في ذلك .

وإذ قد ذكرنا أنطاكية ، فنذكر أخبارها ، وأوّل ما نذكر قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لهُم مَثَلاً أصحابَ القَريَةِ إذ جاءَها المُرسَلُون ﴾[4] . قال المفسرون : القرية أنطاكية . وأما ما ذكره أصحاب الأخبار في أمرها ، فيقال إن الملك اسوخش[5] قصد بناء مدينة يعمرها تكون نسبتها إليه ؛ فسير حكماءه ووزراءه لاختيار[6] مكان يكون[7] طيّب الهواء والماء ، قريباً من البحر والجبل ؛ فوجدوا هذا المكان لكونه جبلياً بحرياً ينصب إليه الهواء

---

١ « لتتحقق » النهاية ٧٩ وصبح ٣٠٢/٨ .
٢ « بعيد » صبح ٣٠٢/٨ .
٣ « عما جرى » صبح ٣٠٢/٨ .
٤ القرآن الكريم ، يونس ١٣ .
٥ هكذا دون نقط .
٦ « لاختبار » في الأصل .
٧ النهاية ٧٩ أما في الأصل فهي « يطول » .

الغربي وعيون المياه العذبة حوله وفيه البحيرة شرقيه ، والبحر المقلوب ، وهو العاصي ، خارج سورها ، وعليه طواحينها ، وفيه المراكب تحمل الغلات إليها ، وغير ذلك ؛ وعرّفوا ملكهم بهذه الأوصاف ، فأمر ببنائها ، وأخرج النفقات ؛ وطلبوا حجراً جيداً لبنائها ، فوجدوه في مسافة يومين منها ، واستخدم لها من الرجال والأمانين وغيرهم ثمانين ألف رجل وثمانمئة رجل ، وستمائة عجلة ، وألف وتسعمئة حمار ، ومئة زورق لنقل الحجارة خارجاً عما في ميناء السويدية من العجل والرجال والزوارق التي تحمل الرخام والعمد والقواعد . فتنجزت في ثلاث سنين ونصف ، وبنيت أسوارها وأبراجها وهي : مئة وثلاثة وخمسون برجاً ، ومئة وثلاث وخمسون بدنة ، وسبعة [١١٣/ب] أبواب ، منها خمسة كباراً وبابان صغيران[1] ؛ وجعل فيها سبع عوادي ترمى إلى النهر ، عند الوادي المسمى الحَشكروت وجعل منه باب في الجبل ، منه ينزل للمدينة ، وعليه قناطر يعبر الناس عليها ، وإذا امتلأ يخرج من تحت السور ، وساقوا الماء إليها في قناتين البوليط والعاوية ، ولما فرغت حضر الملك إليها ورآها ، فأكرم الصناع ومد لهم طعاماً ثلاثة أيام ؛ وأمر ببناء الآدر والدكاكين ، فشرع الناس في بنائها ، ووهب كل من يحضر إليها وينزل حولها خراج ثلاث سنين ؛ وبنى الكنائس ، وبيوت عباداتهم ، فاجتمع العالم إليها .

واتفق أن الملك جلس في بعض الأيام، وهو في ارته مسرور فرح ، فقال له وزيره : « لو عرفت ما انفقت في هذه المدينة ما كنت تفرح » . فاستيقظ لنفسه ، وأمر بعمل حساب ما أنفق فيها سوى الضيافات ، والجواميس

---

١ « صغاراً » في الأصل .

التي أُخذت من المروج والبهائم بغير ثمن ؛ فجاءت أربعة آلاف[1] قنطار وخمسين قنطاراً ذهباً ، فعز ذلك عليه ، وأمسك عن العمارة ، وشرع في بناء مدائن تغل ؛ فبنى سبع مدائن ، وأسكن الناس فيها ، واستمرت في أيدي الملك[2] وما زالت تتزايد عمارتها ، وكل ملك يؤثر بها تأثيراً وطلسماً أو أثراً حسناً إلى حين ظهر السيد المسيح – صلوات الله وسلامه عليه ! – فجرى ما ذكره أصحاب الأخبار .

وما زالت في أيدي الروم إلى حيث الفتوح [١١٤/ا] المبارك ، فحكى الرملي في كتاب فتوح الشام ، قال : « لما بلغ ملك الروم هزيمة جنده بين يدي خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح – رضي الله عنهما ! – في نوبة اليرموك – وكان بأنطاكية – نادى في أصحابه بالرحيل إلى القسطنطينية وسار ، فلما استقبل الطريق عاد بوجهه ، وقال : السلام عليك يا سورية سلام مودع لا يعتقد أنه يرجع إليك أبداً ، ثم أقبل على أرض أنطاكية فقال : ويحك أرضاً ما أنفعك لعدوك بكثرة ما فيك من الأعشاب والخصب والخير »[3] .

وقال البلاذري في كتاب فتوح البلدان[4] : إن أبا عبيدة بن الجراح لما توجه إلى جهة حلب المحروسة صادف أهلها قد انتقلوا إلى أنطاكية وصالحوا منها على مدينتهم ؛ ولما تم صلحهم رجعوا . قال : وسار أبو عبيدة إلى أنطاكية ، وقد تحصن بها خلق كثير من أهل جند قنسرين ؛ فلما صار

---

١ « أربعة ألف » في الأصل .
٢ لعلها « الملوك » أو « سلالة الملك » .
٣ البلاذري ١٤٢ .
٤ ص ١٥٢ .

بمهروبة ، وهي على قريب فرسخين من مدينة أنطاكية لقيه جمع العدو ، فكسرهم ، وألجأهم إلى المدينة ، وحاصرهم من جميع أبوابها ، وكان أكثر الجيش على باب فارس ، والباب الذي يدعى باب الترحيم ، فقال إنهم صالحوه على الجزية والجلاء ، فجلا بعضهم ، وأقام بعضهم ، فأمنهم ، ووضع على كل محتلم منهم ديناراً وجريباً ؛ ثم نقضوا فوجه إليهم عياضاً ، وحبيب بن مسلم ، ففتحاها على الصلح الأول ، بل يقال نقضوا بعد رجوعه إلى فلسطين ، فتوجه عمرو [١١٤/ب] بن العاص من ايليا ، وهو البيت المقدس ، ففتحها ثم رجع .

وقال البلاذري عن مشائخه : « كانت أنطاكية عظيمة الذكر عند عمر وعثمان فلما فتحت كتب عمر إلى أبي عُبيدة أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين أهل ثبات وحسبة ومرابطة ، ولا تحبس عنهم العطاء ؛ ثم لما ولي معاوية كتب بمثل ذلك » . قال : « ونقل معاوية إلى أنطاكية في سنة اثنتين وأربعين جماعة من الفرس ، وأهل بعلبك وحمص ، وكان منهم مسلم بن عبد الله ، جد عبد الله بن حبيب بن مسلم الأنطاكي ، وكان مسلم قُتل على باب أنطاكية ، والباب يعرف بباب مسلم لأنه رماه رجل بحجر لأن مسلماً[1] كان على السور فرماه علج بحجر فقتله » .

وقيل إن معاوية شرع في تدبير الثغور ، فنقل أهل بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن : صور وعكا وغيرهما ، ونقل جماعة من أساورة الكوفة والبصرة إلى بعلبك وحمص وأنطاكية ، وذلك في سنة اثنتين وأربعين ، وما حولها .

---

١ « لأن كان مسلم على » في الأصل قارن هذا بما في البلاذري ١٥٣ .

وفي أيام بني أمية حرقها عباس بن الوليد بن عبد الملك ، وفي أيام المعتصم بنى محمد بن يوسف المرودي ، المعروف بأبي سعيد ، حصناً بساحل أنطاكية من أكبر ثغور الشام ، وكان الرشيد سمى ثغور الشام العواصم ، وهي أنطاكية وطرسوس ، والحصون التي بينهما .

واستقرت أنطاكية في يد بني حمدان ، فلما مات سيف الدولة بن حمدان اتفق أهلها على أنهم لا يمكنون أحداً من الحمدانية يدخلها ، وولـّوا شخصاً [١/١١٥] يعرف بـَعلـُّوش الكردي ، وكان قد ورد الغزاة من خراسان خمسة آلاف نفراً[1] فأمسكهم وتقوى بهم ، واشتد أمره ؛ وكان رجل أسود من الصعاليك يعرف بالزعبلي قد جمع معه ، وسموا نفوسهم بالغزاة ، فدخل يوماً عليه ليسلم عليه ، ويقبل يده ، فقـَتـَل الكردي ، وهرب أصحابه واستولى الأسود على المدينة ، هو وجماعة ؛ وكان في بغراس نائب الروم [و] اسمه مخائيل البرجي[2] وبطرس الاسطر أبو يدرح[3] ، فحضر إليها في جماعة كثيرة ، فعجز المسلمون عن حفظها لاتساعها ، فملكها الروم في يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين وثلاثمئة[4] ، وطرح المسلمون النار[5] بينهم وبين الروم وفتحوا باب البحر ، وخرجوا منه ، وأسر الروم جميع من كان بها من المسلمين فقوي الروم بفتحها ، فتوجهوا إلى حلب ، فصالحهم أهلها وأهل حمص

---

١ هكذا في الأصل .

٢ برتسيز Bourtzes .

٣ أسترو بدرج Astropedarque راجع يحيى بن سعيد . تاريخ انطاطية ١/٨١٦ .

٤ ابن الأثير يذكرها في عام ٣٥٩ ﻫ ٨/٢١٦ .

٥ هكذا في النهاية ٨٠ وفي الأصل « للنار » .

على مال يحمل في كل سنة إلى ملك الروم ، وهو عشرة قناطير ذهباً ، ومن كل مُسلم دينار سوى ذوي العاهات . وأقامت إلى سنة ست وستين وثلاثمئة ، فسير جعفر بن فلاح غلامه فتوحاً إلى أنطاكية ، فحاصرها خمسة أشهر ، فلم يقدر عليها . وحدثت في هذه السنة زلزلة عظيمة هدمت قطعة من سورها ، فأنفذ ملك الروم نائباً ومعه اثنا عشر ألف بَنّاء وصانع لإصلاح بنائها ، فبنيت أحسن ما كانت . وبنى قلعتها لاون بن الفقاس ، وكان في خدمته [١١٥/ ب] جماعة من الأرمن وغيرهم ، وحصنها ، ومات ؛ فكمل عمارتها الملك بسيل ، وبسيل هذا هو الذي وُجد له لما مات ستة آلاف قنطار ذهباً ولما ولي كان في الحاصل ببيت المال أربعة قناطير لا غير ، وهو الذي ملك أرجيش من بلاد أرمينية في سنة خمس عشرة وأربعمئة ، وكان قد بنى له مدفناً وتربة عظيمة وديراً عليها وعمل له قبراً من الرخام ، فلما حضرته الوفاة قال : « قبيح أنني ألقى الله وأنا في زي الملوك » . وقال : « ادفنوني بين الغرباء وكفنوني بكفين الفقراء » . وكان ملكه تسعاً وأربعين سنة وأحد عشر شهراً ، وعاش ثمانية وستين سنة وبقيت في أيديهم إلى سنة . . . . [١] .

وكان الملك سلمان[٢] بن الأمير قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق قد ملك ببقية من أخيه منصور ، وأطاعه التركمان ، وفتح أكثر بلاد الروم ، وتمكن سلطانه فأعمل الحيلة في فتوح أنطاكية ، فسار إليها خفية في مئتي[٢] وثمانين فارساً من أجناد عسكره ، وقطع الدروب ، وأوهم أن القلادروس قد استدعاه وحث السير ، فوصل إلى أنطاكية في ليلة السابع والعشرين من

---

٢ بياض في الأصل .

٢ كذا في الأصل .

شهر رجب من هذه السنة ، وقتل أهل ضيعة تعرف بالعمرانية ، جميعهم ، لئلا ينذروا به ، وعلقوا الحبال في شرفاتها بالرماح ، وطالع [1] في الحبال من يرفع منشار باب فارس ، وفتحوه ، ودخل [١١٦/أ] الناس ، وصاحوا صيحة مزعجة ، وظنها أهل أنطاكية من أصحابهم ؛ ثم تمادت الحرب ، فهرب من هرب إلى القلعة ثم فتحها في ثاني عشر شعبان بالأمان [2] ، ونهب من الأموال جملة عظيمة لا تحصى ، وسكنها سلمان ، وتوافت إليه عساكره ،وفتح الحصون المجاورة من أعمالها وصار له من باب قسطنطينية إلى طرابلس . ولما قتل سلمان في ثالث عشر صفر سنة تسع وسبعين وأربعمئة صارت بيد وزير الحسن بن طاهر الشهرستاني يتولى أمورها ؛ فلما استرد السلطان ملكشاه بلاد الشام لما وصل الشام استردها في الجملة وضمها للوزير المذكور ، فأقام بها إلى إحدى وثمانين وأربعمئة ، ثم سار عنها ، ودخل الروم ، فسلم أنطاكية لبغي [3] سغان بن ألب (وكانت بنته متزوجة للملك رضوان ، صاحب حلب ، أم ولده ألب) [4] رسلان الذي تملك بعده حلب . وحدثت في ليلة التاسع عشر من شعبان سنة أربع وثمانين بأنطاكية زلزلة أخربت دورها ، وأهلكت خلقاً عظيماً ، ورمت من أبراجها نحو السبعين برجاً وتقدم السلطان بعمارة ما انهدم في سنة خمس وثمانين وأربعمئة .

واستمرت أنطاكية في يد الإسلام إلى سنة تسعين وأربعمئة ؛ فوردت مراكب العدو في البحر ، فنازلوها في ذي القعدة ، وفتحوها ، وقيل في

---

١ لعلها « وطلع » .

٢ ابن الأثير ١٠/٥٠ .

٣ هكذا .

٤ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

سلخ جمادى الآخرة في مستهل شهر رجب سنة إحدى وتسعين وأربعمئة ، فهرب النائب المذكور فيها من جهة ملكشاه ، سلطان بغداد [١١٦/ب] الذي اسمه بغي سغان بن ألب ؛ ومات في الطريق[١] .

وكان تسليم[٢] الفرنج لها بعملة عملها على البلد برجل اسمه ارجرز الأرمني واتفق عليها هو وأحد الملوك الذين كانوا يحاصرونها ، واسمه ميمون[٣] ، وذلك أن الأرمني كان من الجهة التي كان فيها ميمون هذا ، فكتب رقعة رماها في سهم ، وهو يقول فيها : « أسلم لك المدينة » . فتقرر ذلك بينهما . وكان الملك الكبير الذي إليه مرجع الأمر اسمه كُندفري[٤] ، فلما استوثق ميمون الحيلة حضر إلى هذا الملك ، وقال : « هذه المدينة إذا فتحت لمن تكون ؟ » فجرى في ذلك حديث ، وآخر الأمر أنه تقرر الحال على أن كل ملك من الملوك المنازلين لها يحاصرها عشرة أيام ، ومن أخذها في نوبته كانت له ، فتمت الحيلة لميمون ، فلما جاءت نوبة ميمون عمل السلاليم ، وسلمها له من كان حصل الاتفاق معه على تسليمها ، وملكها[٥] ، واحتمت القلعة ، وفيها أحمد بن مروان فراسله الفرنج وأمّنوه ، وسلمها لهم ، فوفوا له ، وسيروه إلى بلاد الإسلام .

فاجتمعت عساكر الشام ، ومقدمهم ظهير الدين طغتكين ، وصاحب حمص المسمى جناح الدولة حسن أتابك رضوان ، وكُربغا صاحب

---

١ راجع ابن الأثير ١٠/١٠٢ وابن القلانسي ٤٤ .
٢ كذا بدل « تسلم » .
٣ سيشير اليه فيما بعد بيمند Bohemond .
٤ المقصود جودفري Godfrey .
٥ راجع ابن العديم ٢/١٣٤ - ١٣٦ .

الموصل ، وحاصروا أنطاكية ، وكان الفرنج في قِلّ ، فقالوا : « الأمان من المسلمين » ليخرجوا ، فلم يجيبوهم ، فلما أمسوا ، خرجوا إليهم ، فحاربهم ؛ فانكسر المسلمون من غير قتال[1] ، وبقي ميمون [١١٧/أ] مالكها حتى كسره بن الدانشمند ، وأسره ، وقتل أكثر عسكره وذلك في سنة ثلاث وتسعين وأربعمئة[2] ، واشترى نفسه بعد ذلك بمائة ألف دينار ، واستخلف في انطاكية ولد أخيه طنكرى[3] ، وركب في البحر ، وسار إلى بلاده ليستنجد الفرنج ويعود ، فأهلكه الله[4] ، واستمر طنكرى مالكاً لأنطاكية وأعمالها إلى أن أهلكه الله في ثاني عشر ربيع الأوّل سنة ست وخمسين وخمسمئة[5] وملكها بعده روجار[6] ، وكان طنكرى قد استدعاه من بلاده وجعله وليّ عهده ، فكان يُسمى : « الوارث » ، وهو الذي حضر إلى بيت المقدس في ملك بَغدوين[7] بن الرّويس ، وكان بغدوين شيخاً كبيراً ، فاجتمع هو وروجار بالبيت المقدس ، وقررا عهداً أن من مات منهم قبل الآخر كانت مملكته للباقي ، وكان روجار شاباً مليحاً ، وهو زوج بنت بغدوين الملك فاتفق أن روجار اقتتل هو ونجم الدين الغازي بن أُرتق على درب سرمدا فكسره الغازي ، وذلك في يوم السبت ثامن عشر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة وخمسمئة[8] ، وقتله وقتل جميع خيالته والرجالة ، فسار بغدوين

---

١ راجع ابن الأثير ١٠/١٠٢ – ١٠٣ .

٢ راجع ابن الأثير ١٠/١١١ وابن القلانسي ٥٠ .

٣ المقصود تانكرد Tancred .

٤ راجع ابن الأثير ١٠/١٢٩ .

٥ كذا في الأصل وفي النهاية ٨٠ «سنة ست وخمسمئة» .

٦ روجرز سولرنو ابن ريتشارد برنسيات .

٧ بلدوين ابن الابرنس .

٨ راجع ابن منقذ ، الاعتبار ١١٨ وابن الأثير ١٠/٢٠٩ – ١١٠ . وابن القلانسي ١٦٠ – ١٦١ .

إلى أنطاكية فملكها ، ومات الشاب . وعاش الشيخ الكبير ، وأقام مالكها حتّى وصل في ثامن شهر رمضان سنة عشرين وخمسمئة ، فحضر صبي في مركب ادّعى أنه ميمون بن ميمون بن انبرت[1] الذي كان صاحب أنطاكية ، وعرف [١١٧/ب] بغدوين بالقضية ، فسلم أنطاكية لهذا الصبي ، وخرج منها من يومه[2] ، فملكها الصبي ، وكان شجاعاً مقداماً ، وأقام بها إلى [ان][3] سار نحو الدروب ، فلقيه ابن الدنشمند فكسره وقتله وقتل جماعة من عسكره بأرض عين زَرْبَة ، وذلك في نصف شهر رمضان سنة أربع وعشرين[4] وخمسمئة ؛ وملك بعده أنطاكية الابرنس ، وأقام بها في قوة واقتدار ، ولقي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي الشهيد على حصن الأكراد في رجب سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة ، فكسر المسلمين[5] ، وأخذ الأثقال وقتل من حان أجله[6] . ثم ان نور الدين جمع والتقاه في يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر سنة أربع وأربعين وخمسمئة فقتله[7] ، وقتل فرسانه ، واستولى على خيامه ، وحُملت رؤوس رجاله إلى البلاد ، وولي أنطاكية بعده الابرنس ارناط[8] ، فأقام إلى أن لقيه مجد الدين أبو بكر ، نائب الملك العادل نور الدين في المملكة الحلبية ، وذلك في صفر سنة إحدى وخمسين

---

١ راجع ابن الأثير ١٣٥/٢ هامش (جسكارد) .

٢ راجع ابن منقذ ١١٩ .

٣ النهاية ٨٠ .

٤ « أربع وثلاثين وخمسمئة » النهاية ٨٠ .

٥ « فكسر المسلمون » في الأصل .

٦ ابن القلانسي ٢٨٩ .

٧ ابن العديم ٢٩٨/٢ .

٨ رينولد أوف كاتيلون Ranald of Chatilon .

وخمسمائة فكسره ، وقتل أصحابه ، وأخذه أسيراً ، وأقام في حبس نور الدين الشهيد – رحمه الله ! – وملك أنطاكية ، وهو في الأسر ، رجل من ذريته ، ملكها[1] ميمون ، واستمر بها ، وخلص أرناط فتزوج صاحبة الكرك ، فأقام به حتى أخذه منه السلطان الشهيد الملك الناصر صلاح الدين – رحمه الله ! – وقتله . في سنة أربع وثمانين [١١٨/أ] عقد السلطان الملك الناصر مع بيمند صاحبها هدنة لمدة ثمانية أشهر من تشرين الأول إلى آخر أيار ، وحلفا على ذلك ، وترحل عنها في ثالث شعبان سنة أربع وثمانين وخمسمئة . وتوجه إلى حلب ووصل الابرنس بيمند إلى خدمة السلطان ، وأحسن إليه ، وكان معه أربعة عشر نفراً بارونية أعطاهم إقطاعاً في مناصفات انطاكية في كل سنة أربعة عشر ألف دينار ؛ وكان الاجتماع والانفصال في يوم واحد ؛ وتوجه من عنده في يوم الأحد ثاني وعشرين شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمئة . (ثم ملكها الابرنس المعروف بالأسير ، ومن بعده ملكها ابنه سد[2] وبعده وكان وصوله إليه إلى بيروت ملكها بيمند ولده أيضاً ، ومنه أخذت)[3] ويعرفون كلهم بدلزنيال ، وهذه النسبة إلى بلد جوا البحر .

ولما فرغ الناس من نهب أنطاكية رسم السلطان بإحضار المكاسب للقسمة ، وركب وأبعد عن الخيام ، وحمل ما غنمه ، وما غنمته مماليكه ، وخواصه ، وقال : « والله ما خبّأت شيئاً مما حمل إليّ ، ولا خليت مماليكي يخبئون شيئاً ، ولقد بلغني أن غلاماً لأحد مماليكي خبأ شيئاً لا قيمة له فأدبته الأدب

---

١ في النهاية « اسمه ميمون » ٨٠ .

٢ هذا ينطبق على بيمند .

٣ هذه الجملة يبدو أن صحتها هكذا : « وكان وصوله اليه إلى بيروت ؛ ثم ملكها الابرنس ، المعروف بالأسير ، ومن بعده ملكها ابنه بيمند ، وبعده ملكها بيمند ، ولده أيضاً ، ومنه أخذت » .

العظيم[1] ؛ وينبغي لكل [أحد][2] منكم [أن][2] يخلص ذمته ؛ وأنا أحلف الأمراء والمقدمين ، وهم يحلفون أجنادهم ، ومضافيهم » . فأحضر الناس من الأموال والمصاغ والأمتعة شيئاً كثيراً [١١٨ ب] ، وأحضر القبان لوزن الأموال والمصاغ والذهب والفضة ، وطال الوزن فقسمت النقود بالطاسات والشربات ، ولم يبق غلام إلاّ له غلام ؛ وتقاسم الناس النسوان والبنات والأطفال ، وبيع الصغير باثني عشر درهماً ، والجارية بخمسة دراهم . [وأقام السلطان][3] يومين يباشر القسمة بنفسه ، وقصر الناس في إحضار المغنم ، فرجع مغضباً ، فاجتهد الأمراء ، واحترزوا ، وأحضروا ، واعتذروا ، فلم يزل السلطان راكباً فرسه ، إلى المغرب ، وما ترك شيئاً ، حتى قسمه ، من الأموال والقماش والمصاغ والدواب والمواشي ثم ركب إلى قلعة أنطاكية ، وأحرقها ، وعم الحريق أنطاكية ، وأخذ الناس حديد أبوابها ، ورصاص كنائسها ، وأقيمت الأسواق ظاهرها ، فقصدها التجار من كل جهة .

وكان صاحب طرابلس قد استولى عند أخذ التتار المخذولين حلب المحروسة على دير كوش ، وهو من أمنع الحصون ، وعلى شقيف كفردبين ، وعلى شقيف كفربلميس[4] ؛ وهذه الحصون كانت شجاً في حلقه وغصة في صدره ، فلما فتحت أنطاكية انقطعت حيلة أهل هذه الحصون ، فطلبوا الأمان على أنهم يسلمون ويؤسرون ؛ فسيّر الأمير بدر الدين بيليك الأشرفي

---

١ « الأدب البالغ » السلوك ٥٦٨/١ .
٢ كذا في السلوك ٥٦٨/١ .
٣ كذا في السلوك ٥٦٨/١ .
٤ كذا في الأصل .

الظاهري تسلم دير كوش ليلة الجمعة حادي عشر شهر رمضان ، وتسلم بقية هذه الحصون وأسر من فيها ، ورجعت إلى يد الإسلام أحسن ما كانت .

ذكر صلح القصير

كانت القصير للبطرك الكبير ، خالصة له ، وزعموا أن بأيديهم خطاً من عمر بن الخطاب – رضي الله عنه ! – ولما نزل السلطان هذه الجهات بذلوا نصف البلاد للسلطان ؛ فكتبت لهم هدنة بذلك ، وانضافت إلى المملكة الإسلامية نصف بلاد القصير .

ذكر فتوح حصن بغراس من أيدي الديوية [1]

لما فتح الله على السلطان بأنطاكية ودير كوش والحصون المذكورة (ونصف بلاد القصير) [2] ولم يبق بتلك الجهات سوى بغراس ، خاف من بها من الديوية ، لا سيما لما تقرر الصلح مع صاحب سيس ، فانهزموا وتركوها ، فجهز الأمير شمس الدين اقسنقر ، استاذ الدار العالية بعسكر فتسلمها في يوم السبت ثالث عشر رمضان ولم يجد بها سوى امرأة عجوز ، فوجدها عامرة بالحواصل والذخائر ، وكل ما يدخر في مثلها من الحصون ،

---

١ تمپلرز Templars .

٢ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

وصارت في حوزة الإسلام بغير تعب .

وإذا السعادة أحرزتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان
واصطد بها العنقاء فهي حبائل واقبض بها الجوزاء فهي عنان[١١٩ ب]

قال مؤلف السيرة : « في أيام الملك العزيز ، صاحب حماه ، ابن الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين – رحمهم الله ! – نزل عليها العسكر الحلبي حاصرها سبعة أشهر ولم يأخذها » . وقال البلاذري : « كانت أرض بغراس لمسلمة بن عبد الملك فوقفها في سبيل البر ، ولما قصد المسلمون غزاة عمورية صحبة مسلمة بن عبد الملك حمل هو والعسكر [١] نساءهم معهم ، للجد في القتال ، فلما صار في عقبة بغراس عند الطريق المستدقة التي تشرف على الوادي سقط جمل فيه امرأة ، فأمر مسلمة النساء أن يمشين ، فسميت [٢] بذلك العقبة «عقبة النساء» . وكان المعتصم بنى على حد الطريق حائطاً قصيراً [٣] . « قال » : وكان في تلك الطريق سباع لا يسلك إليها بسببها ، فشُكي ذلك إلى الوليد بن عبد الملك ، فبعث أربعة آلاف جاموسة هي وفحولها ، فأتلفت [٤] السباع .

ـ وبناها بعدَ ذلك وحصنها ، أتم تحصين ، الملك تقفور [٥] ، ملك الروم ، الذي كان خرج إلى بلاد الإسلام في آخر سنة سبع وخمسين وثلاثمئة ، وقتل وسبى ووصل إلى بلاد الشام ، وفتح معرة نصرين ومعرة النعمان

---

١ النهاية ٨١ ، وفي المخطوطة « العسكر ونساءهم » .
٢ « فسميت تلك العقبة » النهاية ٨١ .
٣ البلاذري ١٧١ .
٤ « فانكفت » النهاية ٨١ .
٥ الصحيح « نقفور » Necephore .

وحماه وحمص ، وأخذ من حمص رأس القدّيس مريحنا الاندرمس[1] ، وفتح عرقه بالسيف ، وهو الذي أخذ أنطرسوس ، ومرقية، وجبلة ، ولما بنى هذا الحصن الذي هو حصن [١٢٠/أ] بغراس ، رتّب فيه نائباً له يعرف بالبرجي[2] ، ورتب معه ألف رجل ، وحصّن بغراس حتى لا تُكاد ولا تؤخذ ؛ ثم ملكه الفرنج ، وما زالوا يتداولون تحصينه وعمارته في طول المدد وبعد ذلك عجزهم الله ، وسلمه بغير حيلة ولا تعب . فسبحان المسهل . وكان السلطان الشهيد صلاح الدين — رحمه الله ! — نازلها ، وتسلمها في ثاني شعبان سنة أربع وثمانين وخمسمئة بالأمان وسلمها هي ودربساك لعلم الدين سنجر بن حندر .

ذكر الصلح مع التكفور هيتوم ، صاحب سيس

وإطلاق ولده ، وإحضار الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الصالحي

قد ذكرنا ما كان من قصد العساكر سيس ، وأسر ولده ليفون ؛ وما زالت رسل أبيه تتردد وهو يعرض على السلطان كل ما يقدر [عليه] من مال وقلاع ، فاقتضى حسن عهد السلطان طلبه للأمير شمس الدين سنقر الأشقر ؛ وكان التتار أسروه من حلب لما ملكوها من الملك الناصر ، وتوغل في البلاد ، وانضاف إلى سلطان جق ، أحد مقدمي التتار ؛ فاقترح السلطان على صاحب سيس إحضاره عوض ولده ، ورد القلاع التي أخذها من

---

١ راجع سنت جين بركيرسور ، يحيي بن سعيد . ٨١٥ .
٢ راجع ما سبق ١١٥ أ .

المملكة الحلبية ؛ فسأل مهلة سنة إلى أن توجه إلى الاردو ، وحقق خبره ، وسير يعلم السلطان بأنه قد أجيب [١٢٠/ب] إلى إطلاقه ؛ فجمع السلطان الأمراء ، وقال : « يا أمراء ! لو وقعت في الأسر ما كنتم تفعلون ؟ » فقالوا : « كنا نبذل أموالنا ، وأرواحنا في حماية السلطان من المكاره » . فقال : « قد وقع أحدكم في الأسر ، ونسيه خشداشيته ، وما نسيته أنا ، وهو شمس الدين سنقر الأشقر ، وبذل لي صاحب سيس الأموال والبلاد في ولده ، وما تطلعت إلى شيء منها ، وطلبت المذكور ، ووصل كتاب صاحب سيس بأنه حصله » . فدعا له الأمراء ، وانفصل الحال على ذلك .

وكتب السلطان جواب صاحب سيس يؤكد عليه في إحضاره ، ثم حضرت رسل سيس بكتاب سنقر إلى السلطان وعلائم وأمائر ، وغيرُوا حديثهم في بعض ما كان تقدم من تسليم القلاع ، فردهم السلطان ، وكتب إلى متملك سيس : « بأنك إذا كنت قسوت على ولدك وولي عهدك أنا أقسو على صديق ما بيني وبينه نسب ويكون الرجوع منك لا مني ، ونحن خلف كتابنا ، ومهما شئت افعل بسنقر الأشقر » . فلما توجهت رسله بهذا الكتاب والسلطان على أنطاكية خاف وبذل ما رسم له السلطان وتقرر الصلح على تسليم قلعة بهسنا والدربساك ، ومرزبان ، ورعيان والزرب وشيح الحديد وكل ما كان أخذه من بلاد الإسلام ، وردها بحواصلها كما تسلمها . وتقرر إطلاق سنقر الأشقر ، وأن يطلق السلطان له ولده وولد أخيه وغلمانهما [١٢١/أ] وأنه يحضر رهينة فاساك[1] أخا الملك وسير ريمون أخا زوجة ليفون ويبقى باسيل الماسور بن كنداصطبل رهينة هو وهؤلاء على تسليم القلاع .

---

١ « باساك » النهاية ٣٩ .

وكتبت الهدنة بذلك في شهر رمضان بأنطاكية ، ورسم السلطان للأمير سيف الدين بلبان الرومي الدوادار ، والصدر فتح الدين بن القيسراني ، كاتب الدرج الشريف بالتوجه لاستحلاف الملك فتوجها صبحة[1] هذا اليوم ، وجهز الأمير بدر الدين بجكا الرومي لإحضار الملك ليفون من الديار المصرية على البريد في ليلة الأحد ثالث عشر رمضان ؛ فوصل إلى الديار المصرية ، وخرج ثاني يوم ، وهو يوم الجمعة ، ووصل ليفون صحبة الأمير بدر الدين بجكا الرومي إلى دمشق ليلة الاثنين سادس وعشرين رمضان ، وأصبح خرج للقاء السلطان ؛ فكان بين توجه بدر الدين بجكا من أنطاكية ، وبين وصوله إلى دمشق ثلاثة عشر يوماً ، وحلف التكفور صاحب سيس في سابع عشر رمضان ، وانتظم الصلح .

ولما شاهد أهل سيس الأمير سيف الدين الدوادار اعتقدوا أنه أوّل العسكر ، فغرق منهم جماعة في النهر هرباً ، ولما استقر السلطان بدمشق أحسن إلى ولد صاحب سيس ، وحمل إليه من كل شيء ؛ وحلف في ثالث شوال على النسخة التي حلف عليها أبوه قائماً على قدميه مكشوف الرأس ، وتوجه في حادي عشر شوال [١٢١/ب] ، صحبة بدر الدين بجكا على البريد ، واستقر في مملكة أبيه ؛ ثم توجه الأمير سيف الدين الدوادار إلى سيس لتقرير فصول رسم بها ، ولما وصلت الرهائن المذكورون رُتبت لهم الإقامات ، وعوملوا بالإحسان ، ثم تسلم نواب السلطان القلاع ، وعادت الرهائن شاكرين لإحسان السلطان .

---

١ كذا بدلا من « صبيحة » .

ذكر وصول الأمير شمس الدين سنقر الأشقر

لما توجه ولد صاحب سيس إليه أطلق شمس الدين سنقر الأشقر، وكان السلطان متصيداً بجرود، قريباً من حمص، فلما بلغ السلطان قربه ركب مختفياً والتقاه، وحضر هو وإياه إلى الدهليز، وبات عنده، ولما أصبح اجتمع الناس في الخدمة، فخرج السلطان وفي خدمته شمس الدين سنقر الأشقر، فأبهت الناس لرؤيته، وسير له السلطان المال والخلع والحوائص والخيل والبغال والجمال والمماليك، وما تُرك شيء يحتاج مثله إليه؛ وحمل الأمراء إليه التقادم، وفعل السلطان معه إحساناً ما فعله أحد مع ولده، واستمر في الخدمة، وبُنيت له دار في قلعة القاهرة المحروسة؛ ولما حضر إلى الديار المصرية أمّره، واستمر من خواصه.

ذكر عدة متجددات [١٢٢ / ا] في ضمن هذه الوقائع

منها فتوح جبلة :

كان قد استولوا على جبلة وأخذوها الاسبتار والديوية[١] من بلاد الإسلام وأخذوا أماكن غيرها، فلما فتحت صفد وحضر السلطان إلى الشام ولقيه افرير ما هي صافاج على ما ذكرناه[٢] سأل أمانا على صافيثا وانطرطوس،

---

١ كذا في الأصل بدلا من «كان الاسبتار والديوية قد استولوا على جبلة وأخذوها».

٢ راجع ما سبق ١٠٩ ب.

فاشترط عليه السلطان تسليم جبلة وبلادها ، فعلق الإجابة على التوجه إلى عكا والحديث مع المقدم والإخوة ، فتوجه إليهم ، وقرر تسليم جبلة ، وكتب إلى السلطان بذلك ، فولى السلطان فيها علاء الدين بن القاضي ، واستناب بها حسام الدين الجَلَدَكي ، وتسلم نواب السلطان المذكورون ما يختص بالديوية ، وامتنع الاسبتار من تسليم ما يخصهم ، فما التفت النواب إليهم ؛ ولما حضر رسل عكا ذكروا أن النواب استغلوا بلادهم ، فرسم السلطان بأن تخزن غلة الاسبتار إلى أن يحضر المرسوم ، فركب مقدم الاسبتار ، واستنصر بصاحب طرابلس ، وهجم على حسام الدين النائب بجبلة ، وطلع هو وجماعة من الرجالة إلى برج هناك فحاصرهم الفرنج ، وأخذوهم ، فقتلوا بعضهم . وكتب مقدم الاسبتار إلى صاحب حماه يسأل تمهيد عذرة عند السلطان ، ويقول : نواب السلطان كانوا آذوهم ، وان الذي جرى ما كان برضاه ؛ فرسم السلطان لنائب حمص بإخراج من في حبس حمص من إخوة الاسبتار المأخوذين من تل خليفة ، وضرب رقابهم عوضاً عمن قتلوه في البرج فاعتمدوا [١٢٢/ب] ذلك ، وعاد النائب إلى جبلة .

ذكر الصلح مع ملك عكا وما حدث من نقضه

لما فتحت الشقيف أراد أهل عكا أن يُملّكوا عليهم ملكاً يُصلح أمورهم ، وكان بقبرس ملك صغير ، وله بال ، مقدم على عسكره ، اسمه أوك بن هِرّى[1] وعمره دون الثلاثين سنة ، وهو ابن عم صاحب طرابلس ،

---

[1] هيو هنري Hugh Henry وهو Hugh of Antioch-Lusignan .

وهو ابن أخت صاحب قبرس والد الصبي الذي ذكرناه ؛ فاتفق أن الصبي مات ، وهذا البال مزوج عند أصحاب أرسوف ، ومرجع الملك لهذا الشاب ولابن خالته ؛ وولد خالته أحق بالملك منه لأن أمه الكبرى ، وهذا في اصطلاح الفرنج أنه يقدم ولد الكبرى ، وإنما كان غائباً في بلاد سيس ، فاستولى هذا الشاب على قبرس؛ ثم استدعاه الفرنج إلى عكا، والمملكة العكاوية مضافة للمملكة القبرسية ، فوصل إليها ، وحلف له أهل عكا ؛ وورد كتاب ملك صور يذكر وصول هذا الملك ، وأنه رجل عاقل ، وأنه لما وصل سفّه آراء الفرنج في كونهم ما أحسنوا مجاورة السلطان ، وأنه قال : « ما جرى مني ما يوجب عداوة » . وسأل صاحب صور في أن السلطان يصالحه .

ولما عاد السلطان من غزاة أنطاكية إلى دمشق [١٢٣/أ] وصلت رسله وجماعة من خيالتهم قريب المئة نفس ، وأحضروا هدية ومصوغاً وجوارح وغيرها ، وحصل الاتفاق بين السلطان وبين هذا الملك على شيء يسير ، وهو مدينة عكا وبلادها ، وهي إحدى وثلاثون ضيعة؛ وتقرر أن حيفا تكون للفرنج ، ولها ثلاث ضياع ، وبقية بلادها مناصفة ؛ وبلاد الكرمل تكون مناصفة ؛ وعثليث يكون لها خمس قرى ، والباقي مناصفة ؛ والقرين عشر قرايا ، والباقي للسلطان ؛ وبلاد صيدا ، الوطاة للفرنج ، والجبليات للسلطان واتفق الصلح على مملكة قبرص .

هذا ما استقر عليه الحال في البلاد كلها ، وأن تكون الهدنة لعشر سنين وأنها لا تنقض برجل غريبة ، ولا ملك يحضر في البحر . واشترط عليه إطلاق رهائن البلاد . قال مؤلف السيرة : « وتوجهت رسولاً ، أنا والأمير كمال الدين بن شيث لاستحلاف الملك ، وسير السلطان معنا هدية عشرين نفراً من أسارى أنطاكية ، قسيسين ورهباناً ، فدخلنا عكا في رابع وعشرين

شوال ، واحتفل بنا احتفالاً كثيراً ؛ وكان السلطان قد وصى بأنّا لا نتواضع له في جلوس ولا مخاطبة ، فلما دخلنا إليه رأيناه على كرسي ، هو والمقدمين ، فلم نجلس إلى أن وضع لنا كرسي قُبالته ، ومد الوزير يده ليأخذ الكتاب فلم نعطه حتى مد الملك يده وأخذه ، وتوقف في أشياء منها أنه رغب في أن مملكة قبرس يكون لها صلح [١٢٣/ب] بمفردها ، وأن الصلح يستقر ما لم تصل رجل غريبة أو أحد من ملوك البحر ، وأن الاسماعيلية لا يكون لهم حديث في الهدنة ؛ واستعفى من حديث الرهائن ، وفصول أخر ، وعادت رسل السلطان عنه ، ولم يحلف ، وبقيت الأمور ساكنة .

وكان هذا الملك بعكا كلما تكلم يقول : « أنا أخاف من الملك جارلا[١] أخي ريدافرنس ، ولا أقدر أبت صلحاً خوفاً منه » .

ذكر رحيل السلطان من أنطاكية

لما فرغ من الفتح ، وقسم الغنائم ، رحل ووصل شيزر ، وتوجه منها في البرية إلى حمص للصيد ، ورفقا بصاحب حماة ، ونزل العسكر حماة ، ووصل السلطان إلى دار النائب بحمص في ثلاثة نفر : الأمير بدر الدين بيسرى ، والأمير بدر الدين الخزندار ، والأمير حسام الدين الدوادار ؛ ودخل دمشق سادس وعشرين رمضان ، والأسرى بين يديه ، وصاحب سيس في خدمته ، وخرج من دمشق في ثامن عشر ذي القعدة من السنة

---

١ المقصود تشارلز Charles .

المذكورة ، وعيد في أم الباردة وكان الملك السعيد قد خرج لتلقيه فعيدا جميعا ، ودخل قلعته حادي عشر ذي الحجة ، وحمل عن الناس كلفة الزينة .

ثم استهلت سنة سبع وستين وستمئة [١٢٤/ا]

فابتدأها السلطان بالنزول إلى جامعه الظاهري ، الذي أمر ببنائه في الميدان القراقوشي ، ورآه في غاية ما يكون من حسن ، وتوجه لمباشرة كسر بحر أبي المرجّى[١] بنفسه .

ذكر من جهزه من رسل الملوك

بعد وروده من الشام في هذه المدة

ممن كان اجتمع في الديار المصرية رسول الأشكري ؛ تضمن الكتاب الوارد على يده رجوعه عن رأيه الأوّل في النفور والإرعاد والإبراق الذي تقدم منه ؛ وأجيب عنه بأكثر من ذلك . ويقول إنه سير رسل السلطان بعد أن حلف للسلطان وما أخّر الرسول إلا لوفاة الملك بركه وجلوس ولد أخيه بعده ، ويسأل استمرار السلطان على صلحه ، ويسأل الدخول في صلح السلطان مع أبغا ولد هولاكو ، وأنه يقرر هذا الأمر ، وكذلك مع بيت بركة؛ وحرّرت نسخة من السلطان للأشكري ومضمونها الإجابة إلى ملتمسه

١ «أبي المنجا» السلوك ٥٧٣/١ .

من اليمين ، وإلى تقرير صلحه مع منكوتمر بن طغوان ابن سوفا [1] ، وأما « أبغا فما له إلاّ السيف ، وهو مطلوب منا بثار المسلمين » . وسأل في نسخة اليمين أن يكون السلطان صديق صديقه ، وكان قصد الأشكري أن يدخل أبغا بن هلاكو في هذه [١٢٤/ب] اليمين لأنه صهره فما أجاب السلطان إلى ذلك .

رسل الملك بركا

ذكرنا وصول هؤلاء الرسل ، وكانوا تأخروا من جهة الطرقات من جهة الأشكري ، فلما حلف الأشكري جهزهم السلطان ، وكتب على أيديهم كتاباً إلى الملك منكوتمر بالإغراء على بيت هُلاكو ، وأن أحقادهم لا تزول ؛ والتهويل ببلاد السلطان وعساكره ، وحديث الأشكري ، وتقرير صلحه معهم ، والشفاعة في أمره ؛ وجُهزت معهم هدية للملك بركه [2] .

---

١ كذا في الأصل .

٢ يبدو أن المقصود هنا منكوتمر كما مر قبل سطرين فبركه قد توفي ، كما مر ١٢٤ أ .

تجهيز رسل الملك جارلا ، أخي لويس

المعروف بالريدافرانس

والفرنج في تسميته مختلفون ، يقولون : « ريجار »[1] ، ويقولون : « جارلا »[2] ، وإنما نكتبه جارلا .

كان رسل الملك جارلا وصلوا بكتابه إلى السلطان يوصي بالفرنج الساحلية ورفع السيف عنهم ، فكتب السلطان إليه بقبول شفاعته في الساحلية ، وبأنهم أتلفوا أنفسهم بأيديهم ، وبنقض الصغير منهم ما يقرره الكبير ، وسير صحبة رسله بدر الدين محمد بن عزيز الحاجب ، وقال السلطان في كتابه : « أنا سبقت إلى اصطناعه واصطناع أخيه لويس بن لويس المعروف بالريدافرنس لما أسر في نوبة دمياط [١٢٥/أ] » وكان قد قال : اشتهي المودة التي كانت للأنبرور مع ملوك مصر ، مثل الملك الكامل ، وولده الملك الصالح ، يكون بينه وبين السلطان ، فوعد بالإجابة إلى ذلك . وكان رسول الباب قد وصل مع رسل الملك جارلا مستخفياً ليسمع ما يتجدد فعرفه السلطان لأن خبره كان وصل إليه ، فقال له السلطان : « لأي شيء تخفي نفسك ؟ » فاعترف ، وتحدث في الأمور ؛ وكتب جوابه بقبول الشفاعة في الساحلية .

وكان رسل كرات ، ولد الانبرور ، وردوا إلى الشام بكتاب مضمونه انتصاره على الملك جارلا ، وأن الله رد إليه حق أسلافه الذي كان غصب ،

---

١ Roi Charles .

٢ Charles .

وأنه يسترجع بلاده أوّل فأوّل . فكتبت أجوبته بإطابة قلبه ، وأن يكون محسناً إلى أصحاب عمه وجده .

وكان متملك النّوبة أبو العز مرشكرا[1] قد عمي ، فتغلب على ملكه ولد أخته داوود ، وحبس خاله ، ونفى أولاده إلى الأبواب ، ووصل كتابه إلى السلطان يعلمه بذلك ، وسير هدية [وزرافة][2] ، فكتب إليه بطلب البقط .

تجهيز رسل المغرب

ولما فتح الله على السلطان بما فتح رأى أن يُعلم هذه الجهة بذلك ليشتد أزر المسلمين على الفرنج، فجهز الأمير بدر الدين جُماق، وسير معه هدية: مماليك وخدّام ودهن بلسان ، وكتب إلى الغرب [١٢٥/ب] كتاباً بالبشارة بما جدّد الله من الفتوحات . وكتب بالبشرى أيضا إلى صاحب اليمن .

وفي هذه المدة وصل رسول الفنش[3] بمكاتبته ، متضمنة المودة ، واستعراض الخدم ، فكتب إليه بالإقبال والقبول .

وورد أيضاً رسل الملك البَرشَنوني بكتابه ، جواباً عن كتاب كتبه السلطان إليه في معنى تجار أمسكهم الكيتلان في البحر ، فأرسل التجار المأخوذين صحبة رسله ؛ فكتب جوابه بمطالبته بأموالهم أيضاً .

١ كذا في الأصل .
٢ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .
٣ Alphonso of Seville .

ذكر تجديد التحليف للملك السعيد

ثم إن السلطان تحدث مع الأمراء في أمر ولده الملك السعيد ، وتفويض الأمور إليه ، فأجابوا بالسمع والطاعة ؛ ويوم الخميس تاسع صفر جلس الملك السعيد في مرتبة الملك ، وحضر الأمراء ، وقبّلوا الأرض ، وجلس الأمير عز الدين الحِلّي والأتابك بين يديه ، والصاحب بهاء الدين ، وكتاب الإنشاء ، وحلف له الأمراء وسائر العساكر المنصورة . وفي ثالث [1] الشهر ركب في الموكب كما يركب والده ، وجلس في الإيوان ، وقرئت عليه القصص ؛ وفي العشرين من الشهر المذكور قرىء بالإيوان تقليده بتفويض السلطنة إليه ، واستمر جلوس الملك السعيد وركوبه .

ذكر احتفال السلطان برمي النشاب [١٢٦/ا]
وأمور الحرب

في المحرم من هذه السنة حث الناس السلطان – خصوصاً خواصه – على رمي النشاب ولعب الرمح ؛ وبنى مصطبة بميدان العيد بباب النصر ، وصار ينزل إليها في كل يوم من الظهر ، ويركب منها العشاء الآخرة ، ويرمي ، ويحرّض الناس على الرمي والرهان ، فما بقي أمير ولا مملوك إلاّ وهذا شغله ، وتوفر الناس على لعب الرمح ورمي النشاب . وفي ربيع الآخر توجه إلى الصيد بالوجه البحري .

---

١ لعلها « ثالث عشر » لأنه جلس على العرش في التاسع .

ذكر التوجه إلى الشام

في ثاني عشر جمادى الآخرة استصحب السلطان أكابر الأمراء وجماعة من العسكر المنصور ، وخرج متوجهاً إلى الشام ، وأمر بقية العساكر بالاستراحة بالديار المصرية . وفي غزة شرع في النفقة في الأمراء الذين صحبته ؛ ونزل أرسوف لكثرة مراعيها .

ذكر وصول رسول أبغا بن هولاكو

كان صاحب سيس قد كتب إلى السلطان في معنى التوسط بين السلطان وبين بيت هولاكو في الصلح ، وعرّض بحديث أولاد سنقر الأشقر وغيرهم ، ويستنجز كتاباً من السلطان إلى نفسه [١٢٦/ب] في طلب هؤلاء ليتحدث عليه ؛ فكتب السلطان إلى التكفور في هذا المعنى ، وليس فيه تعريض بشيء ، فسير أبغا رسولاً من جهته ومعه يَرلغ [١] وبايزه [٢] ذهب ، فحضر الرسول مع التكفور إلى سيس ، وطلب من يتسلمه ، فسير الأمير ناصر الدين بن صيرم ، مشد حلب ، تسلمه واحترز عليه بحيث لا يتحدث مع أحد . ولما بلغ السلطان وصول الرسول ركب وصحبته الأمراء ، وأخر الأثقال بأرسوف ، وسار إلى دمشق ، وكان قد وصل الرسول ، فلم يحتفل بلقائه ، ولما التقى السلطان أُعفي الرسول من النزول ثم أحضر كتاباً بغير ختم ، نسخته :

---

١ يرلغ بمعنى صك أو وثيقة .

٢ بايزه بمعنى سوار أو حزام .

« بقوة الله تعالى باقبال قاآن فرمان اباقا ، يعلم السلطان[1] ركن الدين أنه لأجل أن عرض على رأينا كُتب إلى عند التكفور أن الرسل الذين أنفذهم ايلخان ما قتلهم إلاّ قطز ، والملوك يطلبون التوسط حتى يصيروا إيل ، والآن لو ينعم في حقي ايلخان أصير ايل ، وقد سمعنا أن قد طلبت القفجاق الذي عندنا ، وهم : سيف الدين بلبان ، وبدر الدين بكمش ، وأولاد سيف الدين سكِز ؛ ولا ريب منذ سنين[2] الذين ما كان قبلكم معنا . صحيح كان بين إخواننا الكبار والصغار بعضهم بعضاً خلف ، فلأجل ذلك ما قدرنا نركب إلى صوبكم ، والآن إذ نحن جميعنا من الإخوة الكبار والصغار عملنا قور يلتاي ، واتفقنا [١٢٧/أ] على أن ما نغير فرمان وياساه قاآن[3] . وأنتم أيضاً قد تقدمتم وعرضتم انا نحن نصير ايل ونعطي القوة ؛ استحسنا ذلك منكم ، فمن مطلع الشمس إلى مغيبها في جميع العالم من الذي استقبل وأطاع ودخل في العبودية — وكان من قبل هذا في فرمان وياسات جنيلكز خان[4] والآن أيضاً في فرمان وياسات قاآن هنكداه[5] ؟ ان إذا أذنب الأب ما يذنب الولد[6] ، ولو يذنب الأخ ما يمسكونه بذنب الأخ الصغير فلو أذنب الذّنب أذنب السلطان قودوز وهو رجل في ذنبه . فقبل على يدك الحق ، فأنت لو وصلت إلى كلامك الذي قلت نَفّذ إلينا من إخوانك ومن أولادك أو من أمرائك الجياد ها هنا حتى نسمعهم ونفهمهم برليغ[7] وياسات قاآن ،

---

١ « السلطان » جامع التواريخ ١٩٩ .
٢ « أنّ مذنبين » جامع التواريخ ١٩٩ .
٣ « فرمان وياساق قان » جامع ١٩٩ .
٤ « وياساق جنكز خان » جامع ١٩٩ .
٥ « وياساق قان ميكداه » جامع ١٩٩ .
٦ « الابن » جامع ١٩٩ .
٧ « برليغ » جامع ١٩٩ .

ويعودون إليك ، فإذا وقع الاتفاق بيننا ، الناس الذين طلبت منا يمشون نحن نعطيكم ، ولو أن ما تصل إلى كلامك ، وتكون باغي ، وتفكر غير الصحيح ، نحن إيش[1] نعلم ذلك يعلم الله واقبال قاآن .

أمرنا هكذا ونفذنا إليكم هذين الرسولين وهما : بيلك طوت وأبو الغريب بالاولاغ .

كتب في عشرين شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين وستمئة بمقام بغداد .

وفيه أربع طمغات بالأحمر على الأوصال .

وكتب جوابه من السلطان ، ونسخته : [١٢٧/ب] .

« بسم الله الرحمن الرحيم .

بعون الله تعالى وقوته ، بإقبال السلطان الأعظم بيبرس الصالحي يفهم الملك اباقا اننا ما رسمنا للتكفور أن يفهم الملك إلا جواب ما ذكره لنا شمس الدين سنقر الأشقر . أما قتل الملك المظفر – رحمه الله ! – للرسل ، فنحن رسلك أعدناهم إلى الملك مثلما حضروا سالمين . وعلى قدر ما فهمنا الأمير شمس الدين سنقر الأشقر رسمنا للتكفور أنه يكون الواسطة بيننا وبين الذين طلبناه ما أبصرنا شيئاً ، وكيف يقع الاتفاق ، ونحن اليوم الياساه[2] التي لنا هي أعظم من ياساه[3] جنيلكزخان ؟ وقد أعطانا الله ملك أربعين ملكاً . وأما ما ذكره من أنه من مطلع الشمس إلى مغيبها أطاعوه ، فأي شيء جرى

---

١ « برليغ » جامع ١٩٩ .

٢ « الياساق » جامع ١٩٩ .

٣ « ياساق جنكزخان » جامع ١٩٩ .

على كتبغا نوين ؟ وكيف كان دماره ؟ وأنت لو وقفت على قولك الذي[1] ذكرته لسنقر الأشقر ، وسيرت أحد إخوانك أو من أولادك أو من أمرائك الكبار كنا سيرنا إليك نحن أيضاً الذي ذكرته » .

وعمل على الكتاب طمغات فيها رنك السلطان ، وأعيدوا الرسل .

ذكر توجه السلطان إلى [١٢٨ / ا] الديار المصرية

خفية ، ورجوعه إلى مخيمه بخربة اللصوص

قال مؤلف السيرة حسبما أملاه السلطان من لفظه : لما خرج السلطان من دمشق بعد تجهيز الرسل ودع الأمراء كلهم ، فتوجهوا إلى مصر ، ولم يبق معه من الأمراء الأكابر غير الأتابك والمحمدي والأيدمري وابن أطلس خان وأقوش الرومي ؛ وتوجه إلى القلاع ، فابتدأ بالصبيبة ، ثم منها إلى الشقيف وصفد ؛ وبلغته وفاة الأمير عز الدين الحلّي ، وكتب إلى الأمير شمس الدين اقسنقر ، استاذ الدار ، بالحضور بالأثقال والعساكر إلى خربة اللصوص ! ووصل السلطان إلى خربة اللصوص والعسكر قد خيم بها ؛ وخطر له التوجه إلى الديار المصرية ، فكتب إلى النواب بالشام بمكاتبة الملك السعيد ، والاعتماد على أجوبته ، ورتب أنه كلما جاء بريد يقرأ عليه ، وتخرج علائم على دروج بيض يكتب عليها أجوبة البريد ، واستقرت هذه القاعدة مدة .

---

١ « للذي » في الأصل .

وفي رابع عشر شعبان أظهر تشوشاً ، وحضر الحكماء إلى الخيمة ، وحصل احتفال ظاهر بهذا الأمر ؛ وأصبح الأمراء فدخلوا ، وشاهدوه متجمعاً في صورة متألم ؛ وكتب إلى دمشق باستدعاء الأشربة ؛ وتقدم إلى الأمير بدر الدين الأيدمري ، وسيف الدين بكتوت جرمك الناصري بأنهما يتوجهان إلى حلب على خيل البريد ، وودعاه وصحبتهما بريدي ، وتوجها [١٢٨/ب] في ليلة السبت سادس عشر شعبان ، وأوصاهم أنهم إذا ركبوا يحيدون إلى خلف الدهليز ليتحدث معهم مشافهة ؛ وجهز اقسنقر الساقي في البرية[1] إلى الديار المصرية ، وأعطاه تركاشة[2] ، وأمره بالوقوف خلف خيمة الجمدارية ، خلف الدهليز ، فوقف في المكان المرسوم له به . ولبس السلطان جوخة مقطعة ، وتعمم بشاش دخاني عتيق ، وأراد أن يخرج ، ولا يعلم به الحراس ، فوجد قماش نوم لأحد المماليك فطلب خادماً من خواصه ، وقال : « ها أنا خارج بهذا القماش احمله ، فامش قدامي ، فإن سألك أحد فقل : هذا بعض البابيّة معه قماش أحد الصبيان حصل له مرض ، وما يقدر يحضر للخدمة الليلة ، وهذا غلامه خارج إليه بقماشه » . فخرج بهذه الحيلة .

وتوجه السلطان إلى الجهة التي واعد اقسنقر إليها ، وكان قد حصل من الخيل أربعة أرؤس ، وسيرها مع بهاء الدين ، أمير آخُر[3] ، وقف بها في مكان فأخذ اقسنقر الخيل ، ثم سير السلطان إليها أمير آخُر[3] إلى التل ، فوجد الأيدمري ورفقته ، فأحضرهم إلى السلطان ، فلما اختلطوا في السوق ، قال

---

١ « البريد » السلوك ١/٥٧٥ والنهاية ٤١ .

٢ « دركاشة » النهاية ٤١ . والتركاشة جعبة السهام .

٣ « أمير آخور » النهاية ٤١ .

للأيدمري : « تعرفني ؟ » قال : « أيوالله ! »[1] وأراد النزول لتقبيل الأرض ، فمنعه ؛ وقال لجرملك : « تعرفني ؟ » فقال « ايش هذا يا خوند ؟ » فقال له : « لا تتكلم ! » وكان معهم علم الدين شقير ، مقدم البريدية — رحمه الله ! — [١٢٩/أ] فصارت جملتهم خمسة نفر ، ومعهم أربعة جنائب من خيل السلطان الخاص .

وساقوا إلى جهة مصر ، ووصلوا إلى القصير المعيني نصف الليل ، فدخل السلطان إلى الوالي ليأخذ فرسه ، فقام إليه بأربعين [أو] خمسين راجلاً يهاوشه وقال : « الضيعة ملك السلطان ، ما يقدر أحد يأخذ منها فرساً ، فتروحوا وإلاّ قتلناكم ؟ »[2] فتركوه ، وتوجهوا إلى بيسان إلى دار الوالي ، وقالوا : « نريد خيلاً للبريد » . فقال : « انزلوا خذوا » . فنزلوا ، وقعد السلطان عند رجل الوالي وهو نائم . ثم قال للأيدمري : « الخلائق على بابي ، وأنا على باب هذا الوالي لا يلتفت علي ، ولكن الدنيا نوبات »[3] . وطلب من الوالي كوزاً ، فقال : « ما عندنا كوز ، إن كنت عطشان اخرج اشرب من برّا ! » فأحضر له الأيدمري كرّازاً شرب منه . وركبوا ، فصابحوا جينين ، فوجدوا بها خيل البريد عرجاً معقرة ، فركب السلطان منها فرساً ما كاد يثبت عليه من رائحة عقوره ؛ ولما نزلوا تل العجول بقي كل واحد ماسكاً فرسه ؛ ولما وصلوا العريش قام السلطان والأمير سيف الدين جرملك ، ونقيا الشعير ؛ وقال السلطان للأيدمري[4] : « أين السلطنة واستاذ الدار ،

---

١ كذا في الأصل بدلا من « أي والله » .
٢ « فإن رحتم وإلا قتلناكم » النهاية ٤١ .
٣ « نوب » النهاية ٤١ .
٤ « لجرملك » السلوك ٥٧٦/١ .

وأمير جاندار ؟ وأين الخلق[1] الوقوف في خدمتنا ؟ هكذا يخرج الملوك من ملكهم ، وما يدوم إلاّ الله سبحانه وتعالى » . ولم يبق معهم من الجنائب الأربعة إلاّ الذي على يد السلطان ، وصل معه إلى الصالحية .

ووصلوا [١٢٩/ب] إلى القلعة ليلة الثلاثاء ، الثلث الأوّل ، فأوقفهم الحراس حتى شاوروا الوالي . ونزل السلطان في باب الاسطبل ، وطلب السلطان أمير آخُر[2] ؛ وكان السلطان قد رتب مع زمام الآدر أنه لا يبيت إلاّ خلف باب السر ؛ ودق السلطان باب السر ، وذكر علائم لزمام الآدر ، ففتح الباب ، وأحضر السلطان رفقته إلى باب السر ، وأقام السلطان ورفقته يوم الثلاثاء والأربعاء وليلة الخميس لا يعلم به أحد ، وهو يتفرج على الأمراء في سوق الخيل ، ولم يعلم به إلاّ الطواشي لا غير ؛ ولما قدم الفرس للملك السعيد يوم الخميس قدّم أمير آخُر[2] للسلطان فرساً ؛ ولما خرج الملك السعيد ما أحس إلاّ والسلطان [قد][3] خرج إليه ، فخاف ، فلما عرفه قبّل الأرض . وركب السلطان ، وخرج على غفلة ، والوقت مغلس ، فأنكر الأمراء ذلك ، وأمسكوا قبضات سيوفهم وطلعوا[4] في وجه السلطان ، فلما حققوه قبلوا الأرض ؛ وساق السلطان إلى ميدان العيد ، وعاد إلى القلعة ، فقضى أشغال الناس ، وأقام بقية يوم الخميس ويوم الجمعة ؛ ولعب الكرة يوم السبت ، وتوجه يوم الأحد إلى مصر رمى الشواني ، وركب في الحراريق .

وسافر ليلة الاثنين على البريد ؛ ولما قربوا من الدهليز المنصور رد الأيدمري

---

١ « الخلائق » النهاية ٤١ .
٢ « أمير آخور » السلوك ٥٧٧/١ والنهاية ٤١ .
٣ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .
٤ كذا في الأصل .

وجرمك إلى خيامهم ، وأخذ السلطان على يده جراب البريد وفي كتفه[1] فوطة [١٣٠/١] وتوجه راجلاً ، ودخل من جهة الحراس فمنعه حارس وأمسك الحارس طوق السلطان نتشه ، فانجذب منه ، ودخل من باب سر الدهليز . وركب عصر يوم الجمعة ، وحضر الأمراء إلى الخدمة ، فأظهر أنه كان متغلث[2] المزاج ، وضربت البشائر بالعافية . وجرت هذه الأمور كلها ، ولم يدر بها إلاّ الأتابك ، واستاذ الدار ، والدوادار ، وخواص الجمدارية ؛ وكانت المكاتبات تكتب ، والأحوال ماشية في غيبته كأنه حاضر .

ذكر ما جرى للفرنج الساحلية

وبعد حضور السلطان من مصر بلغه أن الفرنج شنعوا عليه بالموت ، وحضر رسول الفرنج في طلب المهادنة ، وكان قد هرب أربعة مماليك للسلطان ، ودخلوا إلى عكا ، فلما طلبهم السلطان طلبوا العوض عنهم ، فلما أنكر عليهم ذلك أحضروا المماليك ونصّروهم ، فأمر بتقييد رسلهم ، وكتب إلى النواب بوقوع الفسخ ؛ فأغار عليهم الأمير جمال الدين أقوش الشمسي ، وقتل وأسر منهم جماعة ؛ واتفقت حركة السلطان إلى الحجاز فأطلق الذين أسرهم الشمسي ، واستمر تعويق الرسل على إحضار المماليك ؛ وأطلق منهم وزير الاسبتار لأنه كان يخدم السلطان .

---

١ « وفي كفه » السلوك ٥٧٧/١ .
٢ « متغلب » في الأصل .

ذكر الإغارة على صور [١٣٠ / ب]

كان قد كتبت مهادنة بين السلطان وبين صاحب صور ، فلما توجهت الرسل إليه حلف على بعضها ، وأسقط فصولاً لم يحلف عليها ؛ ولما ورد السلطان إلى الشام وقفت له امرأة ذكرت أنها كانت أسيرة في صور ، وأنها اشترت نفسها ، ثم قطعت على بنت لها قطيعة ، وحصلت من أوقاف دمشق مبلغاً اشترتها به من صور بمكاتبة عليها خط الفرنج ، ولما خرجت بها إلى قريب بلاد صفد سير خلفها جماعة من صور [1] أخذ البنت ونصّرها . فلما سمع السلطان هذا الحديث غضب لله تعالى ، وكتب بطلب هذه البنت ، فاعتذروا بأنها تنصرت ، وكان بالنواقير من جهة صفد جماعة سير صاحب صور أمسكهم ، وقتل منهم نفرين . واعتقل الباقين ، وطلبهم السلطان ، فأصر على منعهم ، فركب السلطان في العشرين من شهر رمضان ، وساق بنفسه ، ومن معه من العسكر الخفيف ؛ وتوجه الأمير جمال الدين المحمدي من جهة ، والأتابك من جهة ، وصلوا [2] إلى صور فأمسكوا جماعة من الرجال والنساء والصغار ؛ وهرب في ذلك الوقت مملوك لجمال الدين أقوش الرومي ، فنصره صاحب صور لوقته ، وطلب منه فدافع عنه ، وأمسك السلطان عن إتلاف زرعه ، ورد الحريم والأطفال ، وكانوا جملة كبيرة ، ورجع السلطان إلى المخيم ، وأمهل عليه مدة ، فلما استمرّ [١٣١/أ] على منع البنت والمماليك [3] جرد السلطان جماعة لاستغلال بلاده ، وقطع الميرة عنها .

١ كذا في الأصل ، وفي النهاية «أخذوا البنت ونصرها» ٧٢ ولعلها «من أخذ» .

٢ كذا في الأصل بدلا من «ووصلوا» أو «فوصلوا» .

٣ «البنت والمملوك» النهاية ٨٢ .

ذكر تسليم بلاطنس

كانت بلاطنس من الحصون الجارية في مملكة الناصر – رحمه الله ! – فلما استولى التتار على البلاد استولى عليها مظفر الدين[1] عثمان ، صاحب صهيون ، وطلب السلطان منه رد هذا الحصن فصار يكاسر ويقول : « أنا من جملة النواب » . ولما توجه السلطان إلى أنطاكية سير هدية ردها عليه السلطان ؛ فسير جماعة من عسكر حلب أغاروا عليها ، فعند ذلك توالت رسله تذعن للتسليم ، ويطلب قرية توقف عليه ؛ ووصل كتاب أخيه بذلك ، فعين السلطان له قرية الجلمة من بلد شيرز ، ووقفها عليه وعلى أولاده ، وقرر أن يعطي صاحب بلاطنس شيئاً من بلد صهيون ، فقالوا كانت خمسة[2] قرايا ، فقرر السلطان لصاحب بلاطنس من بلد صهيون بلاداً تعمل ثلاثين ألف درهم ، وتسلمت بلاطنس منه في سادس عشر شهر رمضان المبارك .

قال مؤلف السيرة : وهذه بلاطنس حصن عظيم حصين من جملة معاقل الإسلام المذكورة ، وحصونه المشهورة ، لأنه بري بحري ، جبلي سهلي ، ما أخذ بالسيف قط ؛ بناه رجال يعرفون ببني الأحمر [١٣١/ب] ، من أهل الجبال ، وحصنوه ؛ ولما سمع بهم قطبان أنطاكية المسمى نيقيطا[3] عاجلهم قبل إتمامه ، فملكه بالأمان وأخذ في تحصينه ، وتعظيم بنائه ، وذلك

---

١ كلمة « عز الدين » كتبت على الهامش لتحل محل «مظهر الدين » وفي النهاية فهي «مظفر الدين» ٦١ أما في السلوك نهي : « عز الدين » ١/٥٧٩ .

٢ كذا في الأصل بدلا من « خمس » .

٣ راجع ابن العديم ١/٢٤٦ هامش ١ .

في سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة ، فلما كان في سنة إحدى عشرة وخمسمئة خرج روجار ، صاحب أنطاكية ، فدوخ بلاد الإسلام ، وقصد حصن بلاطنس ، وفيه بنو صليعة ، أولاد أخي القاضي شرف الدين ، فنزل على بلاطنس في يوم الثلاثاء ثامن وعشرين ذي الحجة من السنة المذكورة ، وأجلب عليه ، وأظهر أنه أسس حصناً يعمره عليها ، ليحصرهم فيه ويأخذهم ، فتقطعت قلوبهم ، وسلموا إليه في يوم السبت ثاني عشر المحرم سنة اثنتين وخمسمئة[1] ، وعوضهم معيشة عنه بأنطاكية ثلاث قرى ، وأخذهم معه ، فما قدروا على الخلاص من أنطاكية إلاّ في كسرته على سرمدا .

ولما كانت سنة ثلاثين وخمسمئة في يوم السبت سابع وعشرين شعبان وثب أهل بلاطنس على الفرنج الذين هم فيه ، وقتلوهم ، فاحتمت عليهم القلة فأرسل أهل الجبل إلى منكجك التركماني ، صاحب بكسرائيل[2] ، يستنجدونه ، فأتاهم وأقام يحاصرها مدة ، فعمل الفرنج ، الذين هم بها ، حيلة عليه وراسلوه[3] ، وبذلوا له تسليمها لكن على شرط أنهم تخفر نساهم وأولادهم ، حتى يصلوا إلى جبلة [١٣٢/ا] وإلى صهيون ، فإذا جاءت لهم العلامة أنهم وصلوا سالمين سلموها له ؛ فلما وصل أهلهم وأولادهم إلى بلادهم ، وتحققوا وصولهم امتنعوا من التسليم وكان ذلك حيلة منهم ، فإن الأقوات ضاقت عندهم ، وضاقت القلة عليهم ، فاستراحوا بخروجهم عنهم ، وقويت نفوسهم ؛ وبلغت الأخبار لأنطاكية ، فسيروا إليها عسكراً دفعه عنها ؛ واستقرت بأيديهم إلى أن ملكها السلطان صلاح الدين ، واستقرت بيد الإسلام — لا نزعها الله عنهم ! —

---

١ هذا التاريخ غير مقبول إذا كان نزوله عليها عام ٥١١ هـ كما ذكره قبل ثلاثة أسطر .
٢ قصر في أراضي حمص الساحلية يقع مقابلا جبلة ، ياقوت ٢٥٦/٢ .
٣ النهاية ٦١ وفي الأصل «وارسلوه» .

تبطيل المفسدات

في تاسع جمادى الآخرة رسم السلطان بإبطال الخواطىء من القاهرة ومصر والديار المصرية ؛ فطهرت الديار المصرية من هذا المنكر ، وأمر بحبسهن وتزويجهن ، وكتب إلى جميع البلاد بمثل ذلك .

الزلزلة الكائنة في بلد سيس

في حادي وعشرين شعبان من سنة سبع وستين وستمئة وردت الأخبار بأن زلزلة حدثت في بلاد سيس ، وأخربت قلاعها مثل : سرفندكار وحجر شعلان ، وقُتل جماعة حتى سال [١٣٢/ب] النهر دَماً ، وأتلفت عدة جهات ، ووصلت رسل سيس وأخبروا بما يناسب ذلك .

ذكر وفاة الأمير عز الدين الحلي الصالحي

لما خرج السلطان لسماع رسالة الملك أبغا ، خرج الأمير عز الدين الحلي معه ، فلما نزل السلطان أرسوف طلب دستورا ، وتوجه إلى دمشق لملاحظة أملاكه ، فأقام بها مدة ، ولما عبر السلطان إلى دمشق أطلق له شيئاً كثيراً من مال وقماش ، وزار السلطان شيخاً من الفقراء ، بجبل المزة ، وكان الأمير عز الدين في خدمته ، وقام الأمير عز الدين ليجدد الوضوء ، فقال

الشيخ للسلطان : « هذا يموت في هذه الأيام، ولا بقي يخرج من دمشق » . فعجب السلطان من هذا الحديث ، فإنه كان كالأسد قوة ؛ وفي ثاني يوم قيل إن الأمير عز الدين بات متشوشاً ، فتوفي في أوائل شعبان ، وحضر ولده إلى الدهليز بخربة اللصوص ، وأحسن السلطان إليه ، وسيره إلى الديار المصرية ولما وصل السلطان إلى الديار المصرية كما ذكرنا أمّره بأربعين فارساً ، وأمّر أربعة من أكابر الأمراء ، وهم : الأمير سيف الدين قلاون الألفي ، والأمير عز الدين أوغان ، والأمير بدر الدين بيسري الشمسي ، والأمير بدر الدين أمير سلاح ، بأنهم يباشرون الحوطة [١٣٣/أ] على ماله ، فباشروا ذلك ؛ ولم يتعرض السلطان له إلى شيء مع كثرة ميراثه .

وفي هذه السنة توجهت الغيارة من البيرة وغيرها إلى جهة كركر ، فأحرقوا بلدها ، وأخذوا مواشي ، وتوجهوا إلى قلعة بين كركر والكختا[1] ، اسمها شرموشاك ، فزحفوا عليها ، وأخذوها ، وقتلوا رجالها ، ونهبوا من المواشي شيئاً كثيراً ، وأخرجوا من الفلاحين إلى البلاد السلطانية خلقاً كثيراً ، وأخذ الخمس من الغنيمة للديوان ، ورسم بترتيب الناجعين في البلاد الحمصية ، والشيزرية ، وجهات أنطاكية .

وفي هذه السنة وردت كتب الشريف نجم الدين أبي نُمي ، أحد أمراء مكة يذكر فيها أنه لما شاهد من عمه الشريف بهاء الدين ادريس بن قتادة ميلاً إلى صاحب اليمن ، وتحاملا على دولة السلطان أخرجه من مكة ، وانفرد بالإمرة وخطب للسلطان ، وسأل مرسومه إلى أمراء المدينة أن لا ينجدونه[1] عليه ، فاشترط عليه السلطان تسبيل بيت الله للعاكف والباد[2]،

---

١ كذا في الأصل .
٢ راجع القرآن الكريم ٩/٢٢ .

وأن لا يؤخذ عنه حق ، ولا يمنع زائره في ليل ولا نهار ، وله عشرون ألف درهم في كل سنة قبالة تسبيله ، وأن لا يتعرض إلى تاجر ولا حاج بظلم ، وأن تكون الخطبة والصكة للسلطان . فورد جوابه بالالتزام بذلك ، وكُتب له تقليد بالإمرة وبعد ذلك وردت كتب الشريف بهاء الدين ادريس يذكر أنه [١٣٣/ب] حشد وتوجه إلى مكة — شرفها الله تعالى ! — ثم اتفقا على الطاعة ، ووردت كتبهما بذلك وسلمت الأوقاف لنوابهما .

وأما أمراء المدينة النبوية — على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ! — فقد ذكرنا ما جرى للشريف بدر الدين مالك بن منيف مع عمه جماز ، وآخر الأمر أنهما اتفقا على المشاركة ، وبقي السلطان لا يرضيه فعل الشريف بدر الدين مالك ؛ ولما تجهز الركب في هذه السنة كان الشريف شمس الدين ، قاضي المدينة وخطيبها ووزيرها ، قد حضر رسولاً من جمّاز عند الشريف عز الدين جَمّاز ، فاعتُقل بدمشق ، فأحضره السلطان ، وخلع عليه ، وطلب الجمال التي كان أحمد بن حجي أخذها لأشراف المدينة ، وهي دون الثلاثة آلاف جمل وسلّمها إليه ليوصلها إلى أربابها ، وعرفه أن أخذ أحمد لجمالهم ما كان بمرسوم ولا يرضي السلطان .

ولما فرغ السلطان من هذه الأمور وصل الطواشي جمال الدين محسن الصالحي ، شيخ خدام الحجرة الشريفة النبوية — صلوات الله وسلامه على ساكنها ! — فأكرمه السلطان أتم كرامة ، وضرب له خيمة بشقة على باب الدهليز ، وكتب إلى دمشق بتجهيزه كما تجهز الملوك من مأكول وجمال وسكر وغير ذلك . ورسم بحمل مئتي أردب غلة في كل سنة إلى المدينة النبوية ، وصرف [١٣٤/أ] أجرتها من مال الديوان بالكرك ، حتى قال

السلطان : تقدير ما وصل إليه فوق المئتي ألف درهم . وتوجه صحبة ركب الشام ، وقاضي المدينة ، والجمال .

وتوجه في هذه السنة أمير الركب المصري الأمير عز الدين ، أمير جاندار ، وتوجهت فيه والدة الملك السعيد ، والأمير علم الدين الحلبي ، وجهزت الكسوة لمكة — شرفها الله تعالى ! — والمدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام !

قال مؤلف السيرة : وقد روى أبو هريرة — رضي الله عنه ! — عن النبي — صلى الله عليه وسلم ! : « أن أوّل من كسا البيت أسعد اليماني ، ثم كساها[1] رسول الله — صلى الله عليه وسلم ! — الثياب اليمانية ، ثم كساها عمر بن الخطاب — رضي الله عنه ! — القباطي ، ثم كساها يزيد بن معاوية الديباج الخراساني . وحكى محارب بن الديار : أن أوّل من كسا البيت الديباج خالد بن جعفر بن كلاب ، أصاب لطيمة في الجاهلية وفيها نمط ديباج ، فناطه بالكعبة . ثم كساها ابن الزبير والحجاج الديباج ، ثم كساها بنو أمية في بعض أيامهم الحلل التي كانت على أهل نجران في جزيتهم ، وفوقها الديباج . ولما جددها المتوكل ، وجدد رخامها ، وأزّرها بفضة ، وألبس سائر حيطانها ، وسقوفها الذهب ، كسا أساطينها الديباج ، ثم لم يزل الديباج كسوتها في الدولة العباسية بأسرها ، إلى أن انقضت [١٣٤/ب] ، فكساها السلطان — خلد الله سلطانه !

[1] « كسا » في الأصل .

ذكر توجه السلطان إلى الحجاز الشريف

ولما قوي عزم السلطان على التوجه إلى الحجاز الشريف أنفق في العساكر جميعها ، وجرد جماعة صحبة الأمير جمال الدين أقوش الرومي ، السلاح دار ، وهم المتوجهون صحبة السلطان ، وجرد العساكر التي بقيت معه صحبة الأمير شمس الدين اقسنقر ، استاذ الدار ، إلى دمشق ، فنزلوا بظاهرها ، وأقاموا [بها][1] ؛ ولما جهز السلطان العساكر إلى صفد والشقيف ودمشق المحروسة توجه السلطان إلى الكرك بصورة صيد ، ولم يجسر أحد يتفوه بأنه متوجه إلى الحجاز ، حتى إن جمال الدين بن الداية ، الحاجب ، سير يقول : « أشتهي أتوجه صحبة السلطان » . فأمر بقطع لسانه ، فما بقي أحد يتفوه بذلك .

وتوجه السلطان من الفوّار يوم الخميس خامس وعشرين شوال ، فوصل الكرك مستهل ذي القعدة ؛ وكان قد دبر أموره خفية من غير أن يطلع أحد على ذلك ، بحيث جهز البقسماط والدقيق والروايا والقرب والأشربة والعربان المتوجهين معه، والمرتبين في المنازل . فلما وصل وجد الأمور كلها مجهزة ، فأعطى المجردين الشعير على قدر كفايتهم [١٣٥/ا] وتوجه الثقل رابع ذي القعدة . وتوجه السلطان سادس ذي القعدة إلى الشوبك ، وصحبته المجردون ، فأقام هناك أياماً ، ورسم بإخفاء خبره .

وتوجه — مع سلامة الله — في خامس[2] عشر الشهر المذكور ، ووصل

---

١ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٢ « في حادي عشر الشهر » النهاية ٤٢ .

البريد من مصر ، فجهزت الكتب إليه صحبة العربان من جهة الكرك ، فكتبت أجوبتها من هناك ؛ ووصل المدينة — صلوات الله وسلامه على ساكنها ! — خامس وعشرين ذي القعدة ، فزار تلك البقاع المنيفة ، وأماكن الوحي الشريفة ؛ ورحل منها في سابع وعشرين الشهر المذكور ، فوصل إلى الميقات ، فأحرم وأحرم الناس ، وسار أشعث أغبر ، وقدم مكة — شرفها الله ! — خامس ذي الحجة وصافح بيده المجاهدة في سبيل الله تعالى أركان البيت الشريف متبركاً، وما ترك — والحمد لله ! — مزاراً ، ولا أغفل منسكاً ، وأعطى خواصه جملة من المال يفرقونها سرّاً ، وفُرّقت أقمصة وكساوى على أهل الحرمين ، وبقي كأحد الناس لا يحجبه أحد، ولا يحفظه إلاّ الله تعالى، وهو منفرد ، مصلياً وطائفاً وساعياً ثم عمد إلى الكعبة — شرفها الله تعالى — فغسلها بيده ، وحمل الماء في القرب على كتفه ، وغسل البيت الشريف ، وبقي في وسط الخلائق، وكل من رمى إليه إحرامه غسله له بما ينصب من الماء في الكعبة الشريفة ، ويرميه إلى صاحبه ، وجلس على باب الكعبة ، فأخذ بأيدي [١٣٥/ب] الناس — أخذ الله بيده ! — ليطلع بهم إلى الكعبة ، وتعلق أحد العوام به ، ولما لم يقدر على يده لتزاحم الناس عليه تعلق بإحرامه فقطعه ، وكاد يرميه إلى الأرض ، وهو مستبشر بهذا الأمر وعلق كسوة البيت الشريف المستعملة بالديار المصرية ، ورفعها بيده على أركان البيت الشريف بنفسه وخواصه ، وسبّل البيت الشريف لسائر الناس ، وتردد إلى الصالحين .

هذا وقاضي القضاة صدر الدين سليمان الحنفي مرافقه طول الطريق يستفتيه ، ويتفهم منه أمر دينه ، ويتحرى في أمر دينه أتم تحرّ ، ولم يغفل تدبير الممالك ، وكتاب الإنشاء تكتب عنه في المهمات . وكتب إلى صاحب

اليمن كتاباً ينكر عليه أموراً ، وكتب فيه : « سطرتُها من مكة ، وقد أخذت طريقها في سبعة عشر خطوة » - يعني بالخطوة المنزلة . وكتب إليه بأن : « الملك هو الذي يجاهد في الله حق جهاده ، ويبذل نفسه [في الذب عن حوزة الدين فإن كنت] [1] ملكاً فاخرج والتق التتار » .

وقضى السلطان فرض الحج كما يجب، وحلق، ونحر ، وأحسن إلى أميري مكة - شرفها الله تعالى ! - الأمير نجم الدين أبي نُمَيّ ، والأمير إدريس ابن قتادة ، وإلى صاحب ينبع ، وصاحب خليص ، وزعماء الحجاز [2] كلهم ؛ وكتب منشوري أميري مكة - شرفها الله تعالى ! - وطلبا نائباً من السلطان تقوى به نفسهما ؛ فرتب شمس الدين مروان [١٣٦/أ] نائب الأمير عز الدين ، أمير جاندار ، نائباً بمكة - شرفها الله تعالى ! - يرجع أمرهم إليه ، ويكون الحل والعقد على يديه ؛ وزاد أميري مكة - شرفها الله تعالى ! - جملة من المال والغلال في كل سنة ، بسبب تسبيل البيت الشريف ؛ وزاد أمراء الحجاز ، غير جمّاز ، أمير المدينة ، ومالك ، فإنهما انتزحا من بين يديه .

وكان التتار قد جهزوا ركباً إلى الحجاز ، وقصدوا بذلك كشف الطرقات والتلصص على تلك الجهات ، فركبوا الطريق ، ومعهم جماعة من المغل لا يعرفون الله ، ولا حرمه ، ولا يرقبون في مؤمنٍ إلاًّ ولا ذمّةً ، كم أهلكوا من أمم ! وكان قصدهم استباحة دم الحجاج في الحرم ، فبلغتهم حركة السلطان ، فرجعوا خائبين وقفلوا هابلين [3] . وكان السلطان قد بلغته

---

١ السلوك ٥٨٢/١ وفي الأصل « نفسه في الدين حرره الدين بأن يكتب ملكاً » .

٢ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٣ وقد تكون « هائبين » .

هذه الأخبار قبل توجهه إلى الحجاز فأقدم وتقدم ، وعزم على الجمع بين الحج والجهاد ، وصمم ، وطهر الله تلك البقاع الشريفة من أن تسفك بها دماؤهم القذرة ، أو تراق ، وقالت رقابهم لسيوفه : إليكن حديثنا يساق .

وخرج من مكة — شرفها الله — في ثالث عشر ذي الحجة ، ووصل المدينة في العشرين من ذي الحجة ، وخرج باكر النهار الثاني ، ولما توجه من المدينة أجدّ السير في جماعة يسيرة ، فوصل الكرك بكرة الخميس سلخ ذي الحجة ، ولم يعلم به أحد إلى أن وصل قبر جعفر الطيار [١٣٦/ب] — رضي الله عنه ! — فركب الناس والتقوه ، ودخل الكرك لابساً عباءة ، راكباً هجيناً ، وبات بالكرك ، ثم أصبح متوجهاً ؛ فنظم مؤلف السيرة أبياتاً منها :

حتى أتاها ظاهر ملك إذا ... شاء اختفى ، فأموره تتلبسُ
متأنّس بالله ليس بغيره ... في طرقه وطروقه يتأنس
بينا تراه في الحجاز إذا به ... في الشام للحج الشريف يُقدس
وتراه في حلب يدبر أمرها ... وتراه في مصر يذب ويحرس
أعطى وأنعم في الحجاز فما به ... من يوم حجته الشريفة مفلس
كم ألهب النيران حول خيامه ... ذهبا بدا بأبي قبيس يقبس
ويلوح في حج عليه عباءة ... ويلوح في غزو عليه أطلس
فمن العجاجة كم له من ليلة ... فيها الصباح من الظبى تتنفس
وبه بساط الأرض أقسم أنه ... بسعوده عند[1] الكنائس تكنس
فَلِمُلحد كم راح وهو مصبح ... ولمسجد كم جاء وهو مغلس
متعود سفك الدماء فكم له ... بالحق في أرض دم يتبجس

---

[1] كذا في الأصل وصحتها « عنه » .

لا زال للدنيا يسوس أمورها   ويشيد الأخرى بها ويؤسس

وورد في هذه المدة إلى الباب السلطاني صاحب جماين ، وصحبته أخوه وأولاده ، فأحسن إليهم ، واستقروا بالبلاد الإسلامية ؛ وكذلك صاحب صهيون الأمير سيف الدين ، وأخوه الأمير عز الدين أحمد [١٣٧/١] صاحب بلاطنس وصلا ، فأحسن السلطان إليهما ؛ وعاد الأمير سيف الدين إلى بلاده ، وعاد الأمير عز الدين لتدبير مصالح ضيعته ، المنعم بها عليه ، وهي قرية الجلمة .

ووصل رسول بيروت بهدية ، وأسارى مسلمين ، اطلقوا بباب الدهليز المنصور ، وكتبت هدية الملكة زابين [١] ، صاحبة بيروت ، وحلف لها السلطان في رمضان سنة ست وستين وستمئة .

الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا ، وصل إلى الدهليز المنصور ، وصحبته جماعة من أمراء العرب ، قبل توجه السلطان إلى الحجاز ، فأوهمه السلطان أن حركته إلى العراق ، ولم يفهمه شيئاً من توجهه إلى الحجاز ، وأمره بالتأهب إلى أن يرسم له بالحركة ، فتأهب وما وصله خبر حتى توجه السلطان إلى الحجاز ، وعاد منه ، وهو وجماعة العربان في انتظار التوجه للغنائم .

---

١ ايزابيلا ابلين Isabella of Ibelin .

واستهلت سنة ثمان وستين وستمئة

ذكر توجه السلطان إلى دمشق وحلب

وزيارته للقدس والخليل ، عليه الصلاة والسلام !

لما وصل السلطان إلى الكرك بات بها كما ذكرنا[1] ، وأصبح يوم الجمعة مستهل السنة صلى الجمعة بالكرك ، وركب جريدة على يده[2] فرس ، وعلى يد كل من أصحابه فرس ، وساق إلى دمشق ، ولما قاربها ، والناس لا يعلمون شيئاً من حاله ، ولا يُدرى هل هو [١٣٧/ب] في شام أو حجاز أو غيره ، ولا يجسر أحد يتكلم ، سير أحد خواصه في البريد إلى دمشق بكتب البشائر بسلامته ، وقضاء حجه ؛ فأحضر الأمير جمال الدين النجيبي الناس ليسمعوا البشرى ، فبينا هم في ذلك ، وقد بلغهم أن[2] السلطان في الميدان ، فتوجه إليه الأمير جمال الدين [و] وجد السلطان قد نزل في الميدان بمفرده ، ووهب فرسه لإنسان من منادية سوق الخيل عرفه ، وقبل الأرض بين يديه ؛ وحضر إلى خدمته الأمير شمس الدين اقسنقر ، استاذ الدار ، والأمراء المصريون ؛ وأكل شيئاً . وتوجه الناس ليستريح السلطان ، فقام وركب في جماعته اليسيرة ، وتوجه إلى حلب ، وحضر الناس إلى الخدمة فلم يجدوا أحداً . ودخل السلطان حلب والأمراء في المواكب ، فساق إليهم ، فما عرفه أحد ، وبقي ساعة حتى عرفه الصروري ، فنزل الأمراء ، وقبّلوا الأرض ، ونزل بدار نائب السلطنة بحلب ، وشاهد قلعتها ، وعاد

---

١ راجع ما سبق ١٣٦ /أ .

٢ كتبت الكلمتان « أن » و « يده » على الهامش وأشير إلى مكانهما من النص .

منها ، ولم يدر به أحد ، فوصل إلى دمشق في ثالث عشر المحرم ، ولعب الكرة ، وركب في الليل، وتوجه إلى القدس الشريف والخليل ، عليه الصلاة والسلام ! فزارهما ، وتصدق ، وكان العسكر المصري قد سبقه صحبة الأمير شمس الدين اقسنقر ، استاذ الدار العالية ، إلى تل العجول ؛ وحضر السلطان إلى تل العجول ، وكان قد صلى الجمعة في الكرك ، والجمعة الأخرى في حلب ، والجمعة الأخرى في دمشق [١٣٨/ا] وحضر إلى تل العجول ، وذلك كله في عشرين يوماً ، وما غيّر عباته التي حج فيها . وسارت العساكر صحبته من تل العجول في حادي وعشرين المحرم ، وخرج ولده الملك السعيد إلى الصالحية ، والتقاه بها ، ودخل قلعته في ثالث صفر .

ذكر توجه السلطان إلى الاسكندرية

في ثاني عشر صفر توجه السلطان ، وصحبته الأمراء والمقدمون ، وركب في الحراريق إلى الطرانة ، ودخل البرية ، وضرب حلقة على الكحيليات ، فأحضر إلى الدهليز ثلاثمئة غزال وخمس عشرة نعامة ، فأعطى عن كل غزال بغلطاقا [١] بسنجاب ، وعن كل نعامة فرساً ثميناً مسرجاً ملجماً . ودخل الاسكندرية في الحادي والعشرين من الشهر المذكور ؛ وكان الصاحب بهاء الدين قد سبق [إلى] الاسكندرية ، وحصل الأموال والقماش ، فخلع السلطان على الأمراء وحمل إليهم التعابي ، والنفقة الكثيرة ، ولعب بالكرة

---

١ كلمة فارسية تطلق على جبة لا أكمام لها أو ذات أكمام قصيرة وهي عادة من القطن أو الحرير ، وكلمة سنجاب قد تدل على أن البغلطاق مبطن بجلد سنجاب .

بظاهر الاسكندرية ، وخرج متوجهاً إلى الحمامات ، ونزل باللبونة واتباعها[1]
من وكيل بيت المال ، وبلغته أخبار التتار المخذولين ، فعاد إلى قلعته ،
ووصلها في ثامن ربيع الأوّل .

ذكر حركته إلى الشام جريدة [١٣٨ / ب]

ولما بلغته حركة التتار ، وأنهم تواعدوا مع الفرنج الساحلية ، وتقوى
الفرنج بمن وصل إليهم من أصحاب الريدراكون[2] ، وأن التتار أغاروا
على الساجور ، قريباً من حلب ، وعلى جهة أخرى ، وأخذوا مواشي
العربان ، استشار الأمراء في توجهه جريدة ، فأشاروا عليه بأن يخرجوا
هم قبله ، ويبقى السلطان بقلعته ، فلم ير أن يتلقى هذا الأمر إلاّ بنفسه
ليكتب في حسناته ، وأفهم الله الخلائق أنه وحده يقوم مقام العساكر الكثيرة
في هزم الأعداء ، وأنه إنّما يُطعمُ عساكره لوَجهِ اللهِ لا يُرِيدُ مِنهُم
جَزَاءً ولا شُكوراً[3]، وأنه اسمه يسترد الأعداء المتوثبة من كل جانب ،
ويصيبهم بسهام المصائب ، فأراح عساكره ، وجرد الأمير علاء الدين
البندقدار بجماعة من العسكر ليقيموا في أوائل البلاد الشامية ، لاحتمال أنه
إذا طلبهم ساروا إليه ؛ وسار السلطان في جماعة يسيرة من قلعته ، وذلك

---

١ كذا في الأصل وصحتها « وابتاعها » .

٢ روا دراجون : Roi d'Aragon James I .

٣ يقارن بالآية الكريمة : « انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » القرآن الكريم ، الإنسان ٩ .

ليلة الاثنين حادي وعشرين ربيع الأوّل ، ووصل غزة ، وتوالت الأمطار ، وسقيت البلاد بوجهه المبارك ، وسار فوصل دمشق ، سابع ربيع الآخر ، ووردت إليه الأخبار بانهزام[1] التتار عندما سمعوا بوصول السلطان .

ذكر إغارته على عكا [١٣٩ / ا]

في هذه السنة وردت جماعة من الفرنج الغرب إلى عكا ، وتباشر الفرنج وحضرت إليهم سفائن يذكرون أن الريدراكون ، أحد ملوك الغرب ، واصل إليهم بجماعة مقاتلة ، ووصل أصحابه ، وأقاربه في هذه السفائن ، وتوجهت رسله إلى أبغا هلاؤن بأنه واصل لمواعدته ، واتصلت الطرقات بينهما من جهة سيس . فأرسل الله رياحاً مزعجة ، أهلكت جماعة من سفائنه ، ولم يسمع بعدها للمذكور خبر .

وخرج الفرنج الغرب ، وأهل عكا ، وخيّموا بظاهر عكا ، وصاروا يركبون وتعجبهم نفوسهم ، وبلغتهم قلة من وصل مع السلطان إلى الشام ، فتوهموا أنه لا يقصدهم ، فخرج السلطان متصيداً إلى جهة الحارثية ، وعاد مسرعاً وتوجه على أنه يتصيد في مرج برغوث[2] ، ولما وصل في أثناء الطريق إلى برج الفلوس سير مملوكه الأمير عز الدين معن ، السلاح دار ، لإحضار العدد والجواشن ؛ وسير الأمير ركن الدين اباجى[3] — رحمه الله ! — لإخراج

---

١ كتبت كلمة « بانهزام » على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٢ في الأصل مرغوث .

٣ كذا في الأصل ولعلها اياجي .

العسكر الشامي، وسير كلاً من خواص السلطان غلاماً لإحضار عدته .

وفي بكرة الثلاثاء الحادي والعشرين من هذا الشهر تكامل الناس من مرج برغوث ، وركب وساق ، فوصل جسر يعقوب عشية النهار ، وساق فأصبح الصبح والسلطان بأوّل المرج ؛ وكان قد سير إلى الأمير جمال الدين الشمسي ، مقدم عسكر عين جالوت ، وإلى الأمير [١٣٩/ب] علاء الدين أيدغدي ، مقدم عسكر صفد ، بالإغارة في ثاني وعشرين الشهر ، وأنهم ينهزمون قدام الفرنج ، فخرج جماعة من الفرنج ، مقدمهم كندلوفير [١] ، المسمى بزيتون ، وفيهم أقارب الريدراكون وغيرهم من الغرب ، ودخل السلطان الكمين ، فعندما خرج الفرنج لقتال العسكر الصفدي تقدم الأمير عز الدين إيغان الركني ، وبعده الأمير جمال الدين الحاجبي ، ومعهما أمراء الشام ، وساق قدام السلطان الأمير سيف الدين ايتمُش السعدي ، والأمير علاء الدين كُندُغدي ، أمير مجلس [٢] ، الظاهري ، ومعهما مقدمو الحلقة ، وقاتل الأمراء الشاميون أحسن قتال ، وأمسك الأمير عز الدين ايغان فارساً اسمه رَيمون دُكول .

وأما السلطان ومن كان قدامه من الأمراء المذكورين فما وصلوا إلى الأمراء المتقدمين إلاّ والعدو قد انكسر ، فلم يحصل لهم اختلاط ، وكان القتال شديداً تماسكاً بالأيدي ، وبقيت الخيالة والخيل مطرحين في المرج ، وأكمن زيتون فحال العسكر بينهم ، وأخذوا عليه وعلى أكابر الفرنج حلقة ، وقتل أخو زيتون ، وأسر ابن أخت الري دراكون ، وجماعة من الخيالة

---

١ المقصود كونت اوليفر Count Oliver .

٢ أمير مجلس يشرف على مجلس السلطان ومن ضمن اختصاصاته أنه يتحدث على الأطباء والكحالين ومن على شاكلتهم . صبح ١٨/٤ والنجوم ١٨٥/٧ وبپر ٩٢ .

المحتشمين لم يؤسر مثلهم إلاّ في نوبة المنصورة الأولى ، وقتل نائب فرنسيس بعكا ؛ ولم يعدم من عسكر الإسلام إلاّ الأمير فخر الدين الطوبنا الفائزي .

وعاد السلطان ، ورؤوس القتلى قدامه ، إلى صفد [١٤٠/أ] ؛ وتوجه منها إلى دمشق ، فدخلها يوم الأحد سادس عشرين الشهر ، والأسرى والرؤوس بين يديه ، وخلع على الأمراء ؛ ولما وصل السلطان إلى دمشق توجه إلى حماه ، ورحل منها إلى كفرطاب [1] ، ولم يفهم أحد مقصودهُ ، وترك الثقل صحبة الملك الأمجد بن العادل ، وصحبة الطواشي مرشد الحموي ؛ وأخذ أصحاب الخيول الجيدة وساق إلى جهة المرقب ، وحصلت أمطار عظيمة ، وأشتية ، فعاد إلى حماه ، فأقام تسعة عشر يوماً بظاهر حماه ، ثم قصد الإغارة على المرقب مرة أخرى ، ووصل إلى قريب بلاد الاسماعيلية ، فعاقته الأمطار والثلوج .

ورحل من حماه في ثالث جمادى الآخرة ، وتوجه إلى حصن الأكراد بمقدار مئتي فارس لا غير ، بغير عدة ، ورأى جماعة من الفرنج ، وصعد جبل حصن الأكراد ، وما معه غير أربعين فارساً لا غير ، فخرج جماعة من الفرنج ملبسين ، فحمل فيهم ، وكسرهم ، وقتل جماعة منهم ؛ وكان السلطان لما أغار على طرابلس سنة أنطاكية عبر على حصن الأكراد ، فحضر إليه رسول من الحصن ، وقال : « الإخوة يسلمون على السلطان ؛ وقالوا نريد منه أنه لا يتقرّب من الحصن لأن عندنا فرنجاً غرباً نخاف على عسكر السلطان منهم [2] » . وكان مع السلطان ذلك الوقت العساكر المصرية ، والشامية ؛ فبقي هذا الكلام في خاطر السلطان ، فلما أغار هذه الغارة وصل إلى [١٤٠/ب]

---

١ مدينة بين المعرة وحلب ، ياقوت ٢٦٠/٧ .
٢ راجع ما سبق ١٠٩ أ .

خنادقهم . قال ، وهو مستخف لا يعلم من هو : « قولوا لذاك الرسول الذي حضر سنة طرابلس : على الفرنج الغرب يخرجون[1] ، فما نحن أكثر من أربعين فارساً ، بأقبية بيض » . وعاد السلطان إلى مخيمه ، ورعت الخيول مروجها ، وزروعها ؛ وكان ذلك أحد أسباب[2] الاستيلاء على الحصن ، لأنه ليس له مادة إلاّ من زرع بلده ، فرعت العساكر في هذه المدة زروعها جميعها .

ذكر الاستيلاء على بلاد الإسماعيلية

قد ذكرنا[3] ما اعتمده السلطان من كسر شوكة الاسماعيلية ، وإبطال رسومهم التي كانت مقررة على ملوك الديار المصرية ، وتقرير القطائع عليهم ، ومضايقتهم . ولما نزل السلطان في هذه المدة قريباً منهم لم يبق أحد إلا وحضر إليه ، مثل : صاحب حماه ، وصاحب صهيون ، ولم يحضر نجم الدين بن الشعراني ، صاحب الاسماعيلية ، ولا ولده شمس الدين وسيروا يطلبون تنقيصاً من القطيعة التي كانوا يقومون بها للفرنج وأبطلها السلطان وتقررت لبيت المال ؛ وكان صارم الدين بن الرضى صاحب العليقة ، قد غضب السلطان عليه لأجلهم من عدة سنين ، فتوصل صاحب صهيون في إصلاح أمره ، وما تيقظ نجم الدين وولده من سنة الغفلة حتى حضر

---

١ كذا في الأصل بدلا من « ان يخرجوا » .
٢ كتبت كلمة « أسباب » على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .
٣ راجع ب الورقات « ٥٧ » « ٨٢ » « ٩٣ أ » .

صارم الدين المذكور إلى الخدمة [١٤١/أ] وسلك طريق الرضى ، فقلده السلطان بلاد الدعوة استقلالاً ، وسير إليه طبلخاناه ، وعزل نجم الدين وولده من نيابة الدعوة ، وبعث صارم الدين بالصحوبية على عادة نواب الدعوة ، وتوجه في سابع عشرين[1] جمادى الآخرة ، وصحبته عز الدين العديمي ، أحد مفاردة الشام لتقرير أمره ، وجرد صحبته جماعة من شيزر وغيرها ، فوصلوا إلى مصياف وتحدثوا مع أهلها ، فامتنعوا ، فسير السلطان إليهم عسكراً ، فسلموها في العشر الأوسط من شهر رجب سنة ثمان وستين وستمئة .

ومصياف هذه كرسي مملكة الدعوة ، وبها أكابرهم ، ومنها رسلهم إلى الملوك ، وبها مقر الفداوية ؛ فلما علم نجم الدين وولده سرعة هذا الاستيلاء ، سألوا الحضور ، وحضر الصاحب نجم الدين ، وعمره تسعون سنة ، فرحمه السلطان ، وعفا عنه لأجل حضوره إلى بابه ، وولاه النيابة شريكاً لولد الرضى ، لأنه صهره ، وكان أبوه هو المشار إليه ، وقرر عليه حمل مئة وعشرين ألف درهم في كل سنة ؛ وتوجه نجم الدين وبقي ولده ملازم باب السلطان ، وتقرر على ولد الرضى حمل ألفي دينار في كل سنة ؛ وهذا من العجائب لأن الاسماعيلية عادتهم يأخذون ولا يعطون .

قال مؤلف السيرة : وهذه مصياف كثيراً ما[2] تكتب بالثاء المعجمة بثلاث نقط ؛ وكان قديماً بها الأمير وثاب بن محمود بن نصر بن صالح بن مرداس [١٤١/ب] أبو الدوام ، من أمراء بني كلاب ، فلما مات سنة خمس وتسعين وأربعمئة بمصياف – لما فصده المزين ، فاسودت يده ،

---

١ « سابع عشر » النهاية ٦٣ .

٢ « مما » في الأصل .

وكان من الدهاة – ملكها ولده ناصر الدين سابق ، فباعها لعز الدين أبي العساكر سلطان بن منقذ في سنة إحدى وعشرين وخمسمئة ، وجعل فيها الحاجب سنقر ، فقتلته الباطنية ، وملكوا الحصن في سنة خمس وثلاثين وخمسمئة ، وبقي في أيديهم إلى الآن ، ذكر ذلك مويّد الدين بن منقذ في كتاب الحصون .

وهؤلاء الاسماعيلية أوّل من قام بدعوتهم الحسن بن صباح ، المعروف بالكيال ، وهو من تلامذة ابن عطاش الطبيب ؛ قدم مصر في زمن المستنصر العلوي في زي تاجر في سنة ثمانين وأربعمئة ، ودخل على المستنصر ، وخاطبه في إقامة الدعوة ببلاد العجم ، فأذن له ؛ وكان الحسن كاتباً للرئيس عبد الرزاق بن بهرام بالريّ ، وادعى أنه قال للمستنصر : « من إمامي بعدك ؟ » فأشار إلى نزار ، فمن هناك سموا بالنزارية ؛ وكان أوّل إظهار دعوتهم بالألموت ، وطلوع أعلامه في سنة ثلاث وثمانين .

ثم إن نزاراً بعد أبيه جرى له ما لا يخفى ، وراح إلى الاسكندرية وادعى الخلافة ، ولقب بالمصطفى بالله ، وأخذه منها الأفضل بن أمير الجيوش ، ودخل به القصر ، فما عاد خرج منه [1] ، وانفصل أهل الالموت من المصريين من ذلك الوقت ، وشرع الاسماعيلية [١٤٢ / ا] في افتتاح الحصون ، فأخذوا قلعة ، وبنوا أخرى ، وأظهروا شغل السكين التي ابتدأ بها علي اليعقوبي ، ثم بعثوا داعياً من دعاتهم يعرف بأبي محمد إلى الشام ، فملك قلاعاً من بلاد النصيرية ، ثم ملك بعده سنان ، وهو سنان بن سليمان بن محمد البصري ، وأصله من قرية من قرى البصرة ، تعرف بعقر السدن ، وأقام في الشام

---

١ كلمة « منه » كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

نيفاً وثلاثين سنة ، وولي مكانه أبو منصور بن محمد ؛ وكان سنان يلبس الخشن ، ولا يراه أحد يأكل ولا يشرب ولا يبول ولا يبصق ، بل يجلس على صخرة ، ويتكلم من أوّل النهار إلى آخره ، فاعتقدوا فيه التأله .

وكان ابن صباح المقدم ذكره لما قتل نزار طلبوه[1] به ، فقال : « إنه بين أعداء كثيرة ، والبلاد بعيدة ، ولا يمكنه الحضور ، وقد عزم على أن يستخفي في بطن امرأة ، ويجيء سالماً ، ويستأنف الولادة » ، فقنعوا بذلك ؛ وأحضر جارية قد حبلها وقال : « إنه قد اختفى في هذه ، فعظموها » . فولدت ابناً ، سماه حسناً ، وقال : « تغيير الاسم لتغيير الصورة » . فلما مات حسن في سنة خمس عشرة وخمسمئة خلف ولده محمداً[2] ، ولمحمد ولد اسمه حسن ، خلف أباه بعد موته .

ولما اتسع ملك خوارزم شاه قصد بلادهم ، فأظهر حسن بن محمد هذا أنه رأى مناماً ، وأن علياً عليه السلام قال له : « تعيد شعائر الإسلام وفرائضه وسننه » . فعرف جماعة بما ادعى أنه[3] [رآه] [١٤٢/ب] ؛ ثم قال لهم : « أليس الدين لنا نتصرف تارة بوضع التكاليف عنكم ، وتارة نأخذها منكم ؟ » فقالوا : « السمع والطاعة » . فكتب إلى بغداد ، وسائر البلاد ، بذلك ، واستدعى القراء والفقهاء ، واستخدم أهل قزوين في ركابه ؛ وسير الخليفة رسولاً صحبة رسوله إلى حلب بتقوية يد نوابه ، وأن يقتل النائب القديم ؛ وتولى هذا الواصل ، فخلصوا بذلك من صولة خوارزم شاه .

وقال ابن السمعاني في تاريخه : إنما سموا بالاسماعيلية لأن جماعة من

---

١ لعلها « طالبوه به » .

٢ « محمد » في الأصل .

٣ « بما ادعى أنه رأى مناماً ، وأن عليا ، عليه السلام ، ثم قال » في الأصل .

الباطنية ينتسبون إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق لانتساب زعيمهم المغربي إلى محمد بن إسماعيل المذكور . وفي كتاب الشجرة أنه لم يعقب[1] .

وأول عملهم بالسكين أن ابن صباح كان ذا دين في الظاهر ، وله جماعة من نسبته يتبعونه ، فلما حضر من مصر إلى الألموت ، وهي حصينة ، وكان أصحابها ضعفاء ، فقال لأصحابها : « نحن قوم زهاد ، نعبد الله ، ونشتري منكم نصف هذه القلعة ، ونقيم معكم نعبد الله » . فاشترى نصفها بتسعة آلاف دينار ، ثم قوي واستولى عليها ؛ وصاروا جماعة فبلغ خبرهم إلى ملك تلك البلاد ، فقصدهم بعساكره ، فقال رجل منهم ، يعرف بعلي اليعقوبي : « أي شيء يكون لي عندكم ان كفيتكم أمر هذا الجيش ؟ » قالوا : « نذكرك في تسابيحنا » . فقال : « رضيت » ونزل [١/١٤٣] بهم ، وقسمهم أرباعاً في أرباع العساكر ، وجعل معهم طبولاً ، وقال : « إذا سمعتم الصائح ، فاضربوا الطبول ! » وأما علي فهجم على الملك فقتله ، فصاح أصحابه ، فضرب أولئك الطبول ، فامتلأت قلوبهم خوفاً ، وهجوا على وجوههم ، وأصبحت خيامهم خالية ، فنقلوا الجميع إلى القلعة . ومن ذلك الوقت سنّوا سن السكين .

ويقال إن الاسماعيلية قالوا لحسن بن الصبّاح : « لا بد من أمر تقيمه لنا برهاناً على حقيقة حضور نزار » . فقال لهم : « الآية في ذلك أن يطلع القمر في غير وقته ، ومن غير مطالعه » . ثم عمد إلى جبل هناك مرتفع شاهق وأخذ شيئاً شبيه الدف الكبير ، فعمل خلفه ضوءاً ، فرفعه ، فلما رأوه بشر بعضهم بعضاً بالإمام .

---

١ « أنه لم يعقب » كتبت مرتين ، وكتب على الثانية منها « مكرر » .

وكان سنان أعرج من حجر وقع عليه سنة اثنتين وخمسين ، بالزلزلة ، فبلغ الاسماعيلية أنه أعرج ، قالوا : « الإله لا يكون به عرج » . وهموا بقتله إن لم يزل[1] عرجه ؛ فاستبصرهم ، ونزل بهم إلى مقتاة في شهر رمضان ، وأكل فأكلوا ، وبايعوه .

ولما فرغ السلطان من هذه الأمور عاد من جهة حصن الأكراد ، فدخل في ثامن وعشرين رجب سنة ثمان وستين وستمئة ؛ وعاد إلى مصر لأنه بلغه أن الفرنسيس ، هو لويس بن لويس ، وملوك الفرنج ، وهم : ملك الانكتار ؛ وملك اسكوسنا ؛ وملك نورك [١٤٣/ب] ، وهي بلاد السناقر ؛ وملك نبره ، وهو قمص قينانية ؛ والملك البرشنوني ، واسمه ريدراكون ؛ وولد أخي فرنسيس ؛ وقمص افلاندر ، وامه ، ومعها خمسمئة فارس ؛ وقمص بلوش ؛ وقمص بليونة ، قد ركبوا ، ولم يعلم قصدهم ، فاهتم السلطان بالثغور والشواني ، وعمّر الجسور على المراكب من مصر إلى الجزيرة ، ومن الجزيرة إلى الجيزة لأجل عبور العساكر ؛ وفكر في جهة عسقلان ، وأن الريدافرنس ربما يقصدها ليعمرها كما عمر في السنين الخالية قيسارية ؛ وكان بعسقلان بقايا أسوار لا سيما قلعتها ، فتوجه إليها بنفسه .

---

١ « ان لم يزول » في الأصل .

واستهلت سنة تسع وستين وستمئة

في مستهلها ورد كتاب من بيسو نوغاي[1] ، قريب الملك بركه ، وهو أكبر مقدمي جيوشه ، ونسخته :

« صدر هذا الكتاب من بيسونوغا[1] إلى الملك الظاهر . أحمد الله تعالى على أن جعلني من جملة المسلمين ، وصيرني ممن يتبع الدين المستبين ؛ وأصلي على مختتم الرسالة ، ومعلم الدلالة ؛ إمام المرسلين ، وقوام المتقين ، محمد — صلى الله عليه وسلم ! — وعلى إخوانه النبيين ، وأصحابه المحبين[2] ، أرباب الحق ، وأصحاب التمكين .

وبعد : فإن كتابنا هذا محتمل [١٤٤/ا] على معنيين ؛ أحدهما : التحية والسلام ، منا إليك ؛ والثاني أنا سمعنا من اربوغا[3] أنه لصدق عهده مع أبينا بركه خان استخبر عن أولاده وأقربائه ومن أسلم منهم ؛ فلما خبّر هذا[4] الخبر أخلصنا المحبة للملك الظاهر ، الوفي بالعهود ؛ وقلنا ما استخباره عنا إلاّ لحميته في الإسلام ، وصدق نيته في تجديد العهود .

وكتبنا هذا الكتاب على يد اريتموا وتوق بوغا ، معلماً أنا دخلنا في الإسلام ، وآمنا بالله ، وبما جاء من عند الله ، وبرسول الله محمد — صلى الله عليه وسلم ! — فيثق بما قلناه ، وأنا نستن بسنة أبينا بركه خان ، ونتبع

---

١ « نيسونوغاي » جامع ٢٠٦ .
٢ لعلها « المخبتين » .
٣ « أرفوغا » جامع ٢٠٦ .
٤ « أخبر » جامع ٢٠٦ .

الحق ، ونجتنب البطلان ؛ فلا تقطع ارسال المكاتبة عنا ، فنحن معك كالأنامل لليد ، نوافق من يوافقك ، ونخالف من يخالفك » .

فكتب جوابه عن السلطان . ونسخته :

« صدرت هذه المكاتبة إلى سامي مجلس العزيز الأصيل المجاهد في سبيل ربه ، المستضيء بنور قلبه ؛ ذخيرة المسلمين ، وعون[1] المؤمنين : بيسونوغا[2] — عمر الله قلبه بالإيمان ، وجعله في أمر دنياه وأخراه في أمان ، وعامله بما عامل به التابعين بإحسان .

نُعلم[3] بورود كتاب منه سر السمع والقلب ، وحكم للتوفيق بالغلب ؛ ووجدناه مقصوراً على افهام ما هو عليه من صحة الاعتقاد ، والاقتفاء لأثر الملك بركة خان ، في اجتهاد في الدين وجهاد ؛ وهذا كان عندنا [١٤٤/ب] منه أمر لا يُترك مثله ولا يُلغى ؛ وقد تلونا قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ما كُنَّا نَبغ ﴾[4] . وحمدنا الله تعالى على أن كثّر به حزب المؤمنين ، وجعله في ذلك متبتلاً لقتال الكافرين . وقد علم أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم ! — جاهد عشيرته الأقربين ، وأنكر على من رضي أن يكون مع القاعدين ؛ والقصد التذكار بذلك ، وإبلاغ التحية لمن في الجانب المحروس ، ممن نور الله بصيرته حتى اهتدى للحق ، واقتدى بالملك بركة خان — رضي الله عنه ! — في جهاده ، وداوم على الجهاد ، الذي كتب الله لنا أجره في الغرب ، ولهم

---

١ بياض في الأصل ، والتكملة من جامع ٢٠٦ .

٢ « نيسو نوغاي » جامع ٢٠٦ .

٣ « نعلمه » جامع ٢٠٦ .

٤ القرآن الكريم ، الكهف ، ٦٤ .

أجره في الشرق ، حتى تنكسر شوكة الكفار ، ويَعلَم الكافِر لِمَن عُقبى الدار[1] ، ويخذل أنصار المشركين ﴿وما للظّالمِينَ مِن أنصار﴾[2] .

وتضمن الكتاب الاشلاء على التتار .

وفي سابع صفر من هذه السنة توجه السلطان إلى عسقلان ، وعفا آثار عمارتها ، ورمى حجارتها في ميناهـــا . وعاد فوصل إلى قلعته في ثامن ربيع الأوّل .

ذكر نزول الفرنسيس على تونس

وموت الفرنسيس ، ورحيلهم عنها

في محرم من هذه السنة[3] تواردت الأخبار بأن الفرنسيس نزل على تونس ، وأنه كان نزوله على بلاد البربر ، وأنه جرت ملحمة كبيرة . وورد كتاب والي الاسكندرية [١٤٥/ا] مضمونه ورود مركب من اقريطش ، أخبر أهله أن فرنسيس وجموعه ، وقع بينهم وبين أهل تونس مصاف عظيم ، واستظهر الفرنج على المغاربة ، وقاربوا تونس . وكانت عدة خيالة الفرنج مقدار خمسة آلاف فارس وتركبلية وجرخية مثل ذلك ، خارجاً عن رجال الشواني ، وكانوا في انتظار ملك الانكتار ، فكتب السلطان

---

١ راجع القرآن الكريم ، الرعد ، ٣٥ .

٢ القرآن الكريم ، البقرة ، ٢٧٠ .

٣ في مفضل «في سنة ٦٦١هـ»

إلى صاحب تونس يثبته بوصول العساكر لنجدته ؛ وكتب إلى عُربان الغرب ، وبلاد برقة بالتقدم لانجادهم وحفر الآبار في طرقات العساكر ؛ واهتّم بتجريد العساكر إلى جهة الغرب ، فوصلت الأخبار بموت فرنسيس ، وموت ولده ، وجماعة من عسكره ، واستشهاد جماعة من المسلمين . وبلغهم حفر الآبار ، وعمل الفرنج عليهم خنادق ، وتوجهت نجدات العرب إلى تونس . ولما وهن الفرنج بموت ملوكهم تحدثوا في الصلح على أن صاحب تونس يقوم بما غرموه ، ويمدهم بنجدة ، ورحلوا عن تونس في خامس صفر .

ذكر وفاة صاحب سيس

وكان اسمه الملك المجير هيتوم بن قسطنطين ، ووفاته في حادي وعشرين ربيع الأوّل .

ذكر فتوح قلعة صافيثا [١٤٥ / ب]

ولما علم السلطان أن الله قتل ملوك الفرنج بسيوف الأقدار ، وأحلهم من الخذلان دار البوار ، توجه في عاشر جمادى الآخرة ، وصحبته ولده الملك السعيد ، وبقي أمر السلطنة إلى الملك السعيد ، ودخل الملك السعيد دمشق ثامن شهر رجب ، وخرج هو والأمير بدر الدين الخزندار من جهة القطيفة .

وكان الملك الظاهر قد توجه من جهة بعلبك ، ووصل إلى طرابلس ، فقتل من رعاياها ، وأسر ، واتصلت الغارة بصافيثا ، وكان الفرنج اتفقوا على هدمها حتى لا يتسلط بأخذها على طرابلس ، فلما وصل السلطان في هذه الغارة طلب من بصافيثا الأمان ثم نكثوا ، فرحل عنهم السلطان وخلّى جماعة حولهم ، فسيّر كمندور أنطرطوس إلى السلطان يشفع في الإخوة الديوية بصافيثا على أنه يأمرهم بالتسليم ، فأجابه السلطان ، وسير إليهم ، فنزلوا ، وكانوا سبعمئة رجل ، خارجاً عن النساء والأطفال ، وأُحضروا إلى السلطان ، وهو على حصن الأكراد ، فعزم على قتلهم لأنهم لم يثقوا بأمانه ، فشفع فيهم الملك السعيد ، فأطلقهم لأجله ، وسير معهم من أوصلهم سالمين . وتسلم[1] السلطان صافيثا وبلادها ، وتسلمت الحصون والأبراج المجاورة لحصن الأكراد مثل تل خليفة وغيره [١٤٦/ا] .

ذكر فتوح حصن الأكراد

وفي تاسع رجب نازل السلطان حصن الأكراد بعد إغارته على طرابلس . وفي العشرين منه أخذت أرباض حصن الأكراد ، ووصل الملك المنصور ، صاحب حماه بعسكره ، فالتقاه السلطان ، وترجل لترجله ؛ وساق السلطان تحت سناجق صاحب حماه بغير جمدارية ولا سلاح دارية ، تأدباً مع صاحب حماه ، وسير إليه دهليزاً أمره بنصبه . ووصل الأمير سيف الدين ، صاحب صهيون ؛ وصاحب دعوة الاسماعيلية الصاحب نجم الدين . وفي أواخر

---

١ النهاية ٨٣ وفي الأصل « وسلم » .

رجب تكمل نصب عدة مجانيق ؛ وفي سابع شعبان أخذت الباشورة بالسيف ؛ وجعل للسلطان مكان[1] يرمي منه النشاب ، وصار يعطي المال والخلع . وفي سادس عشر شعبان تشقق برج من أبراج القلعة ، وزحف الناس ، وطلعوا على القلعة ، وتسلموها ، وطلع الفرنج إلى التلة ، وأحضر جماعة من الفرنج والنصارى ، فأطلقهم السلطان صدقة عن الملك السعيد ، ونقلت المجانيق إلى القلعة ، ونصبت بها على التلة ؛ وكتب السلطان كتباً على لسان مقدم الفرنج بطرابلس إلى من بالتلة ، يأمرهم بالتسليم ، ثم طلبوا الأمان ، فكُتب لهم أمان على أنهم يتوجهون [١٤٦/ب] إلى بلادهم . وفي يوم الثلاثاء رابع عشرين شعبان ، خرج الفرنج منها ، وجهزوا إلى بلادهم ، وتسلم الحصن .

وكُتب إلى مقدم بيت الاسبتار ، صاحب حصن الأكراد ، كتاب بالبشارة ، منه :

« هذه المكاتبة إلى افريراوك[2] — جعله الله ممن لا يعترض على القدر ، ولا يعاند من سُخِّر لجيشه الظفر والنصر ، ولا يعتقد أنه ينجي من أمر الله الحذر ، ولا يحمي منه محجور البناء ولا مبنى الحجر ! — تعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد ، الذي حصنته وبنيته ، وخلّيته وكنت الموفق لو أخليته ؛ واتكلت في حفظه على إخوتك فما نفعوك ، وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه وضيعوك ؛ وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن ويبقى ، أو تخدم سعيداً ويشقى » .

---

١ « مكانا » في الأصل .

٢ هيو Hugh .

ورتب السلطان الأمير صارم الدين الكافري نائباً بحصن الأكراد ، وفوض عمارتها للأمير عز الدين الأفرم ، وعز الدين أيبك الشيخ ، وأمسك السلطان وهو[1] محاصر حصن الأكراد نفران فداوية[2] كانا سيرا من العليقة إلى صاحب طرابلس ، وقرر معهما اغتيال السلطان[3] ؛ فلما حضر الصاحب نجم الدين ، أنكر السلطان عليه ذلك ، ثم أطلقهم .

ذكر شيء من أخبار الحصن [١٤٧ / أ]

كان صنجيل[4] — لعنه الله ! — منذ نازل طرابلس لا يقطع الغارات عن هذا الحصن وما قاربه من الحصون[5] ؛ ثم إنه قصده في سنة ست وتسعين وأربعمائة ، وحاصره ، وضيق عليه ، وأشرف على أخذه ، فاتفق قتل جناح الدولة ، صاحب حمص ، فطمع في حمص ، ورحل عنه ؛ واتفق هلاكه ، وورود ابنه بدران[6] ، فيجري على عادة أبيه في أذية هذا الحصن ، وإفساد أعماله ؛ فخافه من كان فيه ؛ وتوجه لحصار بيروت ، فخرج طنكلي[7] ، صاحب أنطاكية ، واستولى على أكثر البلاد ، وداراه أهل بلاد

---

١ « وهو » كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٢ كذا في الأصل بدلا من « فدائيين » .

٣ « للسلطان » في الأصل .

٤ سينت جيل : Saint Gilles .

٥ « من الحصون » كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٦ المقصود بلدوين Baldwin .

٧ تانكرد Tancred .

الشام ، فنزل على هذا الحصن، وأهله في غاية ما يكون من الضعف ، فسلمه صاحبه إليه ، وكان يرجو أنه يبقيه فيه لأنه اختاره على صنجيل فأنزل أهله منه . وأخذه صحبته ، ورتب فيه من يحفظه من الفرنج ، هذا ما ذكره ابن عساكر .

وذكر ابن منقذ في كتاب البلدان[1] أن الشهيد نور الدين — رضي الله عنه ! — كان قد عامل بعض رجاله التركمان المستخدمين في جهة الفرنج على أنه إذا قصده الشهيد يثور هو وجماعة من أصحابه في الحصن ، ويرفعون علم نور الدين الشهيد على الحصن ، وينادون باسمه ؛ وكان هذا التركماني له أولاد وإخوة، وقد وثق الفرنج بهم في هذا الحصن، وكانت العلامة بينه وبين نور الدين أنه يقف على رأس باشورة[2] ، [١٤٧/ب] فاتفق أن الشهيد لم يطلع أحداً على هذا الأمر ، وتقدمت العساكر ، فرأوا التركماني ، فرموه فقتلوه ، واشتغل أهله بوفاته ، وبطلت الحيلة . ولم يفتحه السلطان صلاح الدين — رضي الله عنه ! .

ذكر صلح أنطرطوس والمرقب

ثم إن السلطان أجاب كمندور أنطرطوس ، ومقدم بيت الاسبتار إلى الصلح على أنطرطوس خاصة ، خارجاً عن صافيثا وبلادها وعلى المرقب ، واسترجع منهم بلدة وأعمالها ، وما أخذوه في الأيام الناصرية ، وعلى أن

---

١ «كتاب البلد» في الأصل .

٢ «الباشورة» النهاية ٨٤ .

جميع ما لهم من المناصفات والحقوق على بلاد الإسلام يتركونه ، وعلى أن تكون بلاد المرقب ، ووجوه أمواله ، مناصفة بين السلطان وبين الاسبتار ، وعلى أن لا تجدد عمارة بالمرقب وحلف لهم السلطان ، وتوجه الرسل لاستحلاف المقدم .

(قال مختصر السيرة : توجه لتحليف المقدم المذكور بأنطرطوس الأمير فخر الدين المقري ووالدي ، وتوجهت مع والدي عندما توجه في هذه الرسالة)[1] .

وأخلى الفرنج برج قرفيص ، وأخرجوا مالاً أمكنهم حمله من موجودهم ، وتسلم البرج المذكور في هذه الأيام [١٤٨/أ] وكذلك البرج الذي في بلده هدم الفرنج بعضه ، وحرقوه ، ورسم بهدم باقيه .

ذكر فتوح حصن عكار

كان على المسلمين من هذا الحصن مضرة . لأنه في جبال صعبة المرتقى بعيدة المستقى ، يهبط منه المتحرمة . ويتحصنون به ، كم أتعب من ملوك ، وهدر به دم مسفوك ؛ ولأجلهم قتل السلطان نصارى قارا ، لأنهم كانوا لهم عيوناً ؛ ولما سهل الله فتح حصن الأكراد نازله السلطان في يوم الأربعاء سابع عشر رمضان ، ورتب طلوع المنجنيقات ، وركب بنفسه على الأخشاب

١ هذا الجزء ربما كان في الأساس ملاحظة على الهامش أدخلها في المتن أحد النساخ في تاريخ متأخر ، خاصة وأن النويري عند اقتباسه هذا الجزء من التاريخ لم يورد هذه الجملة .

فوق العجل في تلك الجبال إلى أن وصّلها إلى مكان نصبت به ، وطلب الحجارين وعمل بيده ، ومهد الطرقات ، وحضرها ، وشرع في نصب المجانيق الكبار في العشرين منه . وفي هذا اليوم استشهد الأمير ركن الدين منكورس الدواداري ، وكان يصلي في خيمة فجأة[1] حجر منجنيق فمات ، وفي تاسع وعشرين[2] منه طلبوا الأمان ، ورفعت السناجق على أبراجها . وفي يوم الثلاثاء سلخ رمضان خرج أهل حصن عكار منها ، فجهزوا إلى مأمنهم ، وعيّد السلطان بها ، ورحل إلى مخيمه بالمرج ؛ وكتب إلى صاحب طرابلس بالتمعيرية ، وهو :

« قد علم القومص [١٤٨/ب] بيمند – جعله الله ممن ينظر لنفسه ، ويفكر في عاقبة يومه من أمسه ! – نزولنا بعد (حصن الأكراد)[3] على حصن عكار ، وكيف نقلنا المنجنيقات إليها في جبال تستصعبها الطيور لاختيار الأوكار ؛ وكيف صبرنا في جرها على مناكدة الأوحال ، ومكابدة الأمطار ؛ وكيف نصبنا المنجنيقات على أمكنة يزلق عليها النمل إذا مشى ، وكيف هبطنا في تلك الأودية التي لو أن الشمس من الغيوم ترى بها ما كان عيّر حبالها رِشا ؛ وكيف صابرت رجالك الذين ما قصرت في انتخابهم ، وحَسُنت بهم استعانة نائبك الذي انتخى[4] بهم .

وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر ، وأن صوت الناقوس صار عوضه « الله أكبر » ؛ ومن بقي من رجالك

---

١ يبدو أنها « فجاءه » .

٢ « تاسع عشر » في الأصل والخطأ واضح لأن نصب المنجنيقات كان يوم عشرين من هذا الشهر .

٣ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٤ « انتحى » في الأصل .

أطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح ، وسلموا ولكن من ندب السيوف إلى بكا النوائح ؛ وأطلقناهم ليحدثوا القومص بما جرى ، ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفترى ؛ وليروهم الجراح التي أريناهم بها نفاذا ، وَليُنذِرُوهُم لِقاءَ يَومِهِم هَذا[1] ؛ ويفهموكم أنه ما بقي من حياتكم إلاّ القليل ، وأنهم ما تركونا إلاّ على رحيل ؛ فتعرف كنائسلك وأسوارك أن المنجنيقات تسلم عليها إلى حين الاجتماع عن قريب ، وتعلم أجساد فرسانلك أن السيوف تقول إنها عن الضيافة [١٤٩/أ] لا تغيب ، لأن أهل عكار ما سدوا لها جوعاً ، ولا قضت من ريها بدمائهم الوطر ، وما أطلقوا إلاّ لما عافت شرب دمائهم ، وكيف لا وثلاثة أرباع عكار عكر .

يعلم القومص هذه الجملة المسرودة ، ويعمل بها ، وإلاّ فيجهز مراكبه ، ومراكب أصحابه ، وإلاّ فقد جهزنا قيودهم وقيوده » .

قال مؤلف السيرة : وقلت في ذلك :

يا مليك الأرض بشراك فقد نلت الإرادة
إن عكار يقيناً هي عكّا وزيادة

[1] قارن بالآية « ولينذروهم لقاء يومهم هذا » القرآن الكريم الأنعام ١٣٠ .

ذكر نبذة من أخبار حصن عكار

هذا الحصن يعرف بابن عكّار ، كان للمسلمين ، فلما ملك الفرنج تلك الجهات ، [و] فرغوا[1] من طرابلس وأعمالها ، وتوجهوا إلى رومية وغيرها ، تردّدت الرسل بينهم وبين أتابك طغتكين ، وهو بحمص ، واصطلحوا على أن للفرنج ثلث البلاد من البقاع ، ويتسلمون حصن المنيطرة وحصن ابن عكّار ، ولا يتعرضون إلى البلاد بغارة ؛ وتقرر معهم أن مصياف وحصن الوادي والطويات وحصن الأكراد على الصلح ، ويحمل عنها مال إلى الفرنج ؛ فلما تسلم الفرنج الحصنين [١٤٩/ب] لم يثبتوا على الصلح ، وغاروا .

ذكر متجددات تخللت ذلك

في شعبان وردت كتب النصحاء من عكا يخبرون أن مركباً وصلت إليها من سنته[2] مخبرين أن ولد الريدافرنس ، القائم موضعه ، توجه إلى مملكته ، وكذلك الكنود عادوا إلى بلادهم لما لحقهم على تونس من المرض ؛ ومن جملة ما أعطاهم صاحب تونس مئتي ألف أوقية ذهب وستين أوقية ذهباً وزن الوقية أربعة دراهم ؛ وغرقت سفائن على أترانيا عدتها أربعون سفينة للفرنج .

١ « فرعوا » في الأصل .
٢ كذا في الأصل .

ذكر صلح صاحب طرابلس

قد ذكرنا منازلة السلطان لطرابلس مرة ومرة ، وهدم قناتها وقطع أشجارها ، فضعف كيد صاحبها ، وقلت أنصاره ، وآلت إلى الخراب دياره ، وانقطع ظهره بالاستيلاء على حصن الأكراد ، وحصن عكّار ، وصافيثا ، وحلبا ، والقليعات ، وبانياس ، ومَرَقية ، وغيرها ، وبلغهم أيضاً هلاك فرنسيس ، وغرق الأربعين سفينة للفرنج ، والصلح مع المرقب ، وانطرطوس ، فبقي [١٥٠/أ] في مدينته في حبس ، بل في رمس .

فرحل السلطان من منزلته بالارزونية ، في رابع شوال ، لابساً عُدّة الحرب هو وجميع العساكر ، وأقامت الأثقال بمكانها ، وساق ، فبينما هو حازم جازم وردت إليه الأخبار بأن ملك الانكتار[1] وصل إلى عكا في في أواخر رمضان وصحبته ثلاثمئة فارس ، وثماني بطس وشواني ومراكب تكملة ثلاثين مركباً ، غير ما كان سبقه صحبة استاذ داره[2] ؛ وأنه يقصد الحج . ففتر عزم الساطان بعض فتور ، ونزل قريباً من طرابلس جريدة ، وتردد الأتابك إلى جهة طرابلس ، وتردد الأمير سيف الدين الدوادار ، واجتمعوا بصاحبها ، وأراد السلطان قطع الأشجار ، فسير البرنس يطلب الصلح ، وخرج وزراؤه ، وكتبت الهدنة لمدة عشر سنين ، وحلف السلطان له ، وجهز فخر الدين بن جلبان ، وشمس الدين الأخنائي شاهد الخزانة ، ومعهما ثلاثة آلاف دينار مصرية لفكاك الأسرى . وتوجه السلطان إلى عكار

---

١ أي ملك انجلترا .

٢ راجع السلوك ٥٩٢/١ والنهاية ٨٥ .

لتدبير عمارتها ثم عاد إلى مخيّمه بالأرزونية ، وتوجه إلى حصن الأكراد فدبر أمر عمارته ، ورتب أمور تلك الجهات .

ذكر فتوح العليقة [١٥٠ / ب] من يد الاسماعيلية

هذا الحصن من أمنع حصون الجبل ، كان مختصاً بالرضى وولده ، فجرت من ولده أحوال أوجبت اعتقاله في مصر ، وكان السلطان أحسن إليهم إحساناً ما أثمر ولا أثّر ، واستمالهم وكثر ، فلما لم يفد ذلك رسم للعسكر الذي ببلاطنس بمنازلتها ، وسيّر إلى عبد الظاهر النائب بها ، وإلى جماعة من أهلها بالترغيب والترهيب ، فأجابوا ، وسيّروا واستحلفوا السلطان على ما وعد به ، فتسلمها نواب السلطان يوم السبت حادي عشر شوال واستخدم بها الرجالة .

ذكر متجددات

في تاسع شوال كان بدمشق السيل العظيم ؛ وذلك أنه أتى نصف الظهر ، فأتى على كل شيء فجعله كالرميم ، وطلع في خور دمشق قدر رمح وأغرق حيوانات كثيرة على اختلافها ، ودخل دمشق فأفسد عدة آدر بها ، وأغرق من العالم ما لا يعد كثرة ، ومن الخيل والجمال أشياء كثيرة، وما علم أحد من أي جهة كان اجتماعه بغير مطر عظيم ، ولا أين ذهب — فسبحان

ذي القدرة والعظمة[1] ! – واقتلع الأشجار من أصولها ، ودخل السلطان بعد ذلك بأيام إلى دمشق فما وجد بها ماء ، ولا حمّاماً تدور ، وشرب الناس من الصهاريج والآبار ؛ ويقال إنه هلك بهذا السيل [١٥١/أ] عشرة آلاف روح ؛ وأخذ السيل الطواحين بحجارتها حتى ما كانت .

وحكي أن فقيراً صالحاً حضر إلى دار نائب السلطنة بدمشق ، يقول : وعرّفوا الأمير أنني أريد أغدو إلى بعلبك » ، فقال له الأمير : « رح ، اجرِ » وضحكوا منه ، فراح ، وعاد ، وهو ينذر الناس بالسيل ، فضحكوا منه وما أحسوا بالسيل إلاّ وقد هجم ، على ما ذكر .

ذكر فتوح القرين

لما فرغ السلطان من هذه الجهات ، وترتب الأمير عز الدين الأفرم وعز الدين ايبك الشيخ للعمارة ، رحل السلطان فوصل دمشق منتصف شوال ورحل منها [في رابع وعشرين منه][2] .

وكان هذا حصن القرين لاسبتار الأرمن[3] ، ولم يكن لهم بالساحل غيره ، وكان من أمنع الحصون وأضرها بصفد ، وكان السلطان نوبة فتوح صفد غار عليه ، بل غار عليه أن يكون مثله للكفر ، فرأى بعد فتح حصن الأكراد

---

١ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٢ كتبت على الهامش بعد نهاية السطر .

٣ النهاية ٨٥ ، وفي الأصل « الأمن » .

وحصن عكار أنه لا يترك هذا الحصن خلفه ، فسار إلى صفد ، وجهز منها المنجنيقات ، وساق إلى القرين ، ونازله . وبينما السلطان واقف لنصب المنجنيقات وردت رسل عكا ، واتفق أن السلطان يرمي نشاباً على القلعة مر به طائر فرماه فإذا فيه بطاقة من جاسوس في العسكر مضمونها أخبار السلطان ، وذلك بحضور كبير الرسل ، فسلم [١٥١/ب] الطائر له ، وقال : « استصحبه معك ليقرأه الفرنج ، فهذه البطاقة كتبها إليكم جواسيسكم ، وقد رميت الطائر بنشابي ، ونحن نفرح بمن يخبركم بأخبارنا » .

وفي مستهل ذي القعدة ملك الربض ، وفي ثانيه أخذت الباشورة ، وأخذت النقوب في السور ، وشرط للحجارين عن كل حجر ألف درهم واشتد القتال [وحضر رسلهم][١] وتقرر خروجهم ، وتوجيههم حيث شاءوا ، وأنهم لا يستصحبون مالاً ولا سلاحاً . قال مؤلف السيرة : « وكتبت الأمان بترتيب السلطان » . ورفعت السناجق عليها ؛ ووصلهم الأمير بدر الدين بيسري [الشمسي][٢] إلى عكا . وأنعم على مؤلف السيرة ببشارة حماة ، وركب السلطان وأصبح على أبواب عكا مطلباً ، فما تحرك أحد من الفرنج ، وعاد السلطان إلى مخيمه بالقرين ، وأمر بهدم القلعة ، ففي رابع عشرين ذي القعدة تكمل هدمها ، وفي آخر النهار المذكور رحل السلطان من القرين ، وتوجه قريباً من عكا ، وأكمن عسكراً لعل أحداً يخرج فما خرج من الفرنج أحد ، فسار ونزل اللحون .

وفي شوال من هذه السنة كتب السلطان إلى الديار المصرية بتسفير الشواني لقصد قبرس ، وشغل أصحابها حتى يُفارق عكّا ، فأشار ابن حسون برأي

١ و ٢ كتبتا على الهامش وأشير إلى مكانهما من النص .

تطير الناس به [١٥٢/أ] : وهو أنه قال لو دُهنت الشواني سوداً تشبها بشواني الفرنج ، وعملت بها أعلام بصلبان ، حتى إذا دخلت مواني الفرنج يعتقدونها لهم ، فنغتنم الغرة منهم . وليت لا كان هذا الرأي لما ترتب عليه من غضب الله . ففعل ذلك ، وسافرت الشواني ، وفيها رؤساها ، وهم نخبة الرؤساء المجاهدين ، وهم على تلك الحالة ، فانكسرت بمرسى النمسون من قبرس . وورد كتاب صاحب قبرس إلى السلطان ، فيه تقريع بأن « شواني مصر خرجت إلى قبرس فكسرها الريح ، وأخذتها ، وهي أحد عشر شينيا ، وأسرت من فيها » . فلما علم السلطان ذلك قال : « الحمد لله مذ ملكني الله الملك ما خذلت لي راية ، وكنت أخاف من إصابة عين ، فبهذا ولا بغيره » .

وكتب إلى الديار المصرية بإنشاء عشرين شينيا وإحضار خمس شواني كانت بقوص . ولما فتح القرين أمر بأن يجاوب متملك قبرس عن كتابه ؛ قال مؤلف السيرة فكتبته بين يديه ؛ وهو :

« هذه المكاتبة إلى حضرة الملك اوّك[1] دلزنيال – جعله الله ممن يوف الحق إلى أهله ، ولا يفتخر بنصر إلاّ إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله – تُعلمه أن الله إذا أسعد إنساناً دفع عنه الكثير من قضائه باليسير ، وأحسن له التدبير فيما جرت به المقادير . وقد كنت عرفتنا أن الهواء كسر عدة من شوانينا ، وصار بذلك يتبجح ، وبه يفرح [١٥٢/ب] ؛ ونحن الآن نبشره بفتح القرين ، وأين البشارة بتمليك القرين من البشارة بما كفى الله به ملكنا من العين ! وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب ، الاستيلاء

[1] هيو دو لزنيان Hugh de Lusignan .

على الحصون الحصينة هو العجب . وقد قال وقلنا وعلم الله أن قولنا هو الصحيح ، واتّكل واتكلنا وأين من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح ، وما النصر بالهوا مليح إنما النصر بالسيف هو المليح ؛ وفي يوم ننشيء عدة قطائع ولا تنشأ[1] لكم من حصن قطعة ، ونجهز مئة قلع ولا يتجهز لكم في مئة سنة قلعة ؛ وكل من أعطي مقذافاً قذف ، وما كل من أعطي سيفاً أحسن الضرب به أو عرف ، وان عدمت من بحرية المراكب آحاد فعندنا من بحرية المراكب ألوف ، وأين الذين يطعنون [بالمقاذيف في صدور البحر من الذين يطعنون][2] بالرماح في صدور الصفوف . وخيولكم المراكب ومراكبنا الخيول ؛ وفرق بين من يجريها كالبحار ومن تقف به في الوحول ، وفرق بين من يتصيد على الصقور من الخيل العراب وبين من إذا افتخر قال تصيدت بغراب ؛ فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم قرية معمورة ، وإن استوليتم على سكان فكم أخلينا بلادكم من سكان ؛ وقد كسب وكسبنا ، فترى أينا أغنم ؛ ولو أن في الملك سكوتاً كان الواجب عليه أن سكت وما تكلم » .

وبقي أهل المراكب إلى أن فرّج الله عنهم على ما سيذكر [١٥٣/أ] .

---

١ « تنسى » في الأصل .

٢ كتبت على الهامش عند نهاية السطر .

ذكر صلح صور

ولما علم صاحب صور قرب الجوار منه دخل في المواضي ، وحضر رسله وحصل الاتفاق على أن يكون لهم من بلاد صور عشرة بلاد خاصاً ، ويكون للسلطان خمسة بلاد يختارها خاصاً ، وبقية البلاد مناصفة ، وحلف لهم السلطان على ذلك ، وجهز الرسل فحلفوا صاحب صور .

قال ابن القيسراني مختصر السيرة المتوجه لتحليف صاحب صور[1] .

ذكر وصول السلطان إلى مصر

وسار السلطان إلى الديار المصرية فدخل قلعته في ثاني عشر ذي الحجة ، فشرع في تجهيز الأمير شمس الدين اقسنقر ، أستاذ الدار ؛ وخرجوا مطلبين إلى الشام في الشهر المذكور .

وفي هذا الشهر وصلت هدية صاحب اليمن ، وفيها التحف الثمينة وفيل ودب أسود .

ووالى السلطان النزول إلى مصر بنفسه ، والأمراء في خدمته ، لمباشرة عمل الشواني ؛ واستمر الاهتمام بها .

---

١ هذا السطر لا وجود له في النهاية للنويري رغم أن ما أورده عن هدنة صور مماثل لما أورده المؤلف هنا في النهاية ٨٥ ، وهذا يدل على أنها كانت في الأصل على الهامش وأدخلت خطأ في النص في تدريخ لاحق خصة وانها جملة غير مفيدة .

وفي الشهر المذكور خلع وفرق بالميدان على ألف وسبعمئة نفر من الأمراء والحلقة أثمان خيل ، وفرق خيلاً ألفا وثمانمئة وخمسين[1] رأساً ؛ وما زال السلطان جالساً حتى فرق ذلك بين يديه . وأصبح في ثالث وعشرينه [١٥٣/ب] أعاد العطاء حتى فرغ الناس، ولازموا الصناعة عدة أيام لرمي الشواني .

ذكر الاستيلاء على الرصافة من حصون الدعوة

وذلك أنه وردت كتب النواب بالهجوم عليها وتملكها في أواخر شوال .

ذكر غارة الفرنج

في بكرة[2] يوم العيد أغار الفرنج إلى جهة الشاغور والبعنة ، وكانوا أكثر من ألف وخمسمائة راكب ورجالة كثيرة ، أخذوا غلة وجروبا ، وأحرقوا غلالاً ورجعوا وهلك منهم بالحر والعطش جماعة .

واستهلت سنة سبعين وستمئة فاستفتحها السلطان بالأمر بتبطيل المنكرات ، وإراقة الخمور ؛ وكان يوماً مشهوداً .

---

١ كلمة « خمسين » كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٢ كلمة « بكرة » كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

ذكر توجه السلطان إلى الكرك وإلى الشام

في هذه المدة بلغ السلطان تغير العربان مثل عيسى بن مهنّا وغيره ، وأنهم ربما ينتزحون ، وفكر أنه إذا استدعاهم لا يحضروا [1] ، ويظهر المستور ؛ وإن قصد الشام تسحبوا ؛ فنزل إلى الميدان في سابع محرم ، وفرق على خواصه أربعمئة ألف [١٥٤/ا] درهم واثني عشر ألف دينار عينا ونيفاً وستين حياصة ذهباً ؛ وأمر بتجهيز العساكر إلى عكا بعد الربيع ، ولازم النزول إلى الصناعة في كل يوم حتى نجزت الشواني . وواصل الأمير شمس الدين أستاذ الدار ومن معه من العسكر المسير إلى جينين ، ونزل عليها .

وتوجه السلطان من قلعته بعد المغرب من ليلة سابع وعشرين المحرم في جماعة يسيرة من خواصه ، وأخفى حركته ، ورسم بأن أحداً من المجردين معه لا يشتري عليقاً ولا مأكولاً ، وقرر لهم ما يحتاجوا [2] إليه . وعرج من الزعقة في البرية إلى الكرك ، ولم يعلم به أحد ، فوصلها في سادس صفر ، ونزل بقلعتها .

وكان قد استصحب معه علاء الدين ايدكين استاذ الدار ، وكتب له تقليد بنيابة السلطنة في الكرك ، وتقليد الأمير عز الدين ايدمر النائب بالكرك بنيابة السلطنة بالشام ، ومناشير بإقطاع الأمير عز الدين لعلاء الدين وإقطاع النجيبي لعز الدين ؛ ولم يُعلم بذلك أحداً . وفي ثامن صفر تسلم علاء الدين ايدكين النيابة بالكرك ، ورسم للأمير عز الدين ايدمر بالحضور إلى الشام ،

---

١ هكذا بدلا من « لا يحضرون » .

٢ كذا بدلا من « يحتاجون » .

وأفهمه أنه طلبه لنيابة حصن الأكراد .

وسار إلى دمشق فوصلها في ثالث عشره ، وأحد لا يعلم به ، وكان قبل أن يدخل دمشق قد رسم لولد كاتب السيرة بكتابة كتب إلى النواب بتفويض نيابة الشام لعز الدين ايدمر ، فجاءت نحو ثمانين كتاباً في يوم وليلة ، وسير تشريفاً للنجيبي ، وأمره بعمل شغله ، فتوجه[1] إلى مصر ، وباشر [١٥٤/ب] الأمير عز الدين نيابة الشام في بكرة نهار الاثنين .

وأنفق السلطان في الذين صحبوه جملة من المال والتفاصيل والفراء والخيول ؛ وركب في ليلة سادس عشر صفر ، ونزل بظاهر حماة بالجوسق ونزل صاحب حماه في خيمة أسوة بالناس[2] ، ورتب استاذ داره وأمير جانداره وحاشيته في الخدمة ، لأن السلطان خرج في هذه المرة جريدة ورتب له صاحب حماه الاسمطة غداء وعشاء .

وأوّل ما شرع فيه السلطان حديث العربان، وكان سبب نفورهم أشياء ، منها أخذ أولادهم رهائن ، فعزم عيسى بن مهنا وغيره على الالتجاء إلى التتار كما فعل أحمد بن محمد ، وربيعة بن الظاهر ، وأبو بكر بن علي ؛ ولما وصل حماة وجد بغتة عثمان بن مانع ، وعمر بن مخلول وجماعة من أكابر العرب ، فأكرمهم ، وما أظهر لهم شيئاً ، وكتب إلى عيسى يطلب منه فرس فلان والفرس الفلاني ، تسكيناً له ؛ وكان عيسى قد كتب إلى السلطان قبل الخروج من مصر ، وطلب الحضور خديعة فخدعه السلطان ، وقال : « لا تحضر حتى أعرّفك ! » وكتب إليه الآن : « إنك طلبت الحضور ،

---

١ « يتوجه » في الأصل .

٢ « الناس » في الأصل .

وأنا الآن في حماه ، فإن أردتَ فاحضر » . فحضر المذكور ، فسأله السلطان عما قالت عنه العربان ، فقال : « نعم ! والصدق أنجى من الكذب » . فرأى له حق الصدق ، وأحسن إليه ، وإلى أمراء العربان . وكان عثمان وعمرو قد تغيبا فلما سمعا بالعفو حضرا [١٥٥/أ] . وأطلق رهائنهم ، وأطلق لعيسى نصف خبزه الذي كان أخذه منه في سنة ثمان وستين من سليمه وغيره ، وهو مائة ألف وثلاثون ألف درهم ؛ وأطلق له من حلب ألف مكوك غلة أنعاماً ، وأطلق لأمراء العربان غلالاً من خمسمئة مكوك إلى ما دونها ؛ واستحلفوا بحضور السلطان .

ذكر حديث نواب الدعوة

كان الصاحب نجم الدين لما حضر إلى مرج حصن الأكراد سنة الغارة استقر حاله هو وولده على أن أحدهما يكون في الخدمة والآخر في الحصون ، وتقرر عليهم لبيت المال مئة وعشرون ألف درهم وحضر شمس الدين وولده في الصحبة ، فنسب إليه مكاتبة إلى الفرنج ؛ ولما حضر الصاحب نجم الدين سنة فتح حصن الأكراد اعتذر عن ذلك ، وتحدث هو وولده شمس الدين مع الأتابك في تسليم القلاع ، وأنهما يحضران إلى باب السلطان ، فأجابهم إلى ذلك ، وتوجه شمس الدين إلى الكهف ليدبر أمور أهله في عشرين يوماً ويعود ، وسافر أبوه في الخدمة [1] إلى القرين ثم إلى الديار المصرية

[1] كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

على أن ولده يلحقه فما حضر ، وصار يفند عن الحضور ؛ وكتب إليه السلطان : « بأن الذي كنتم سألتموه من تسليم القلاع كأنكم قد رجعتم [١٥٥/ب] عنه ، والوعد الذي وعدناكم نحن ما نخلفه : من أننا نعطيك امرة بأربعين فارساً ، وقد تسلم الاقطاع والدك » . فورد جوابه يعتذر عن الحضور ، ويطلب حصن القليعة ، وأنه يسلم بقية الحصون للسلطان ، فأجيب إلى ذلك ، وسير السلطان معه[2] الأمير علم الدين سنجر الدواداري ، وسير معه[1] قاضي حمص ، فحلفا شمس الدين بحصن الكهف ، وبعد تحليفه طالبوه بالتسليم ، فامتنع أهل الكهف عن ذلك باتفاق منه في الباطن فعادت الرسل مخبرين بذلك ؛ ثم أعيد إليه الأمير علم الدين الدواداري وعلم الدين شقير مقدم البريدية فمنعوا من الدخول إلى الكهف ، وقيل لهم : « ارجعوا ! » ولم تؤخذ منهم الكتب . ولما بلغ السلطان ذلك أمر بمضايقتهم ؛ ثم ان شمس الدين ندم ونزل من الكهف ، ووصل إلى السلطان بظاهر حماه في سادس وعشرين صفر ، فأكرمه واحترمه ؛ فسير ورقة إلى السلطان بأن أهل الكهف كانوا جهزوا فداوية إلى الأمراء ، فعز هذا القول على السلطان ، وأمر في الوقت بإمساكه ، وإمساك أصحابه ، وسُيروا إلى مصر ، واستمرت مضايقة حصونهم ، وأمسك والي الدعوة والناظر بسرمين ، وكان لهم أقارب بالخوابي ، فأشار عليهم الأمير سيف الدين بلبان الدوادار بمكاتبة أقاربهم بالتسليم [١٥٦/ا] فحضر منهم جماعة ، وأعطاهم السلطان خلعاً ونفقات وأجراهم على رسومهم ، فسلموا الحصن المذكور ؛ وفي مستهل شهر ربيع الأوّل تسلم نواب حصن الأكراد القليعة أحد حصون الإسماعيلية بالأمان .

---

١ صحتها « اليه » .

٢ كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

وفي مستهل ربيع الأوّل ركب السلطان من حماه بعد العشاء الآخرة ، ولم يعلم مقصده ، وسار على طريق حلب وشيزر ثم عرج ، فأصبح بظاهر حمص ، وتوجه إلى حصن الأكراد وحصن عكار كشف أمورهما ، وسار إلى دمشق ؛ وكتب إلى الأمراء بمصر كتاباً من ملخصه أنه يقول لأكابر الأمراء : « ولدكم » ، ولبقية الأمراء : « أخوكم ووالدكم يسلم عليكم ، ويتشوق إليكم وايثاره أن لا يفارقكم[1] ؛ وإنما قدمنا راحتهم على راحتنا فطالما تعبوا واسترحنا ، ويعلمهم بالمتجددات ليكونوا لها كالمشاهدين ، ولمشاركتنا في الرأي كالمجاهدين ، فمنها : حديث الاسماعيلية ، وحديث العربان، وورود الأخبار بحركة التتار ولو عدنا لحفلت البلاد . وأما الفرنج فعملوا سلالم من حرير[2] ، وعزموا على مهاجمة صفد ، ووَرَّوا ببيروت ، فلما وصلنا البلاد انعكست آمالهم ، ومما يدل على التمكين تارة بالسيف وتارة بالسكين أن صاحب مرقية [١٥٦/ب] الذي أخذنا بلاده توجه إلى التتار مستصرخاً ، وسيرنا وراءه فداوية ، وقد وصل أحدهم ، وذكر أنهم قفزوا عليه وقتلوه . وقد بلغتنا حركة التتار وأنا والله لا أبيت إلاّ وخيلي مشدودة وأنا لابس قماشي حتى المهماز » .

وورد الخبر بأن جماعة من العدو[3] أغاروا على عين تاب ، وتوجهوا إلى عمق حارم في نصف ربيع الأوّل ؛ فكتب إلى الديار المصرية بتجريد الأمير بدر الدين بيسرى الشمسي بثلاثة آلاف فارس . ثم أغار التتار على حارم والروج ، وقتلوا جماعة ، وتأخر ابن مجَلّى والعسكر الحلبي إلى حماه ،

---

١ السلوك ١/٥٩٩ أيضاً .

٢ « حديد » السلوك ١/٥٩٩ .

٣ « جماعة من التتار » النهاية ٤٧ .

وكان البريدي المتوجه بطلب البيسرى والعسكر ، وهو الصارم المشرفي قد خرج من دمشق في الثالثة من نهار الأحد ثامن عشر ربيع الأوّل ، ودخل القاهرة الثالثة من ليلة الأربعاء حادي وعشرينه ؛ فخرج الأمير بدر الدين بيسري والعسكر بكرة الأربعاء المذكور ، ووصل الأمير شمس الدين أستاذ الدار بالعسكر المجرد على جينين ، وهم خمسمئة فارس ، وجفل أهل دمشق ، وبلغت قيمة الجمل ألف درهم ، وأجرة الجمل إلى مصر مئتي درهم ؛ ووصل البيسري والعسكر إلى دمشق في رابع ربيع الآخر ، وسار السلطان بالعساكر إلى حلب ، وجرد الأمير شمس الدين استاذ الدار وجماعة عربان إلى مرعش ، وجرد الحاج طيبرس الوزيري وعيسى بن مهنا [١٥٧/أ] إلى حران والرُّها ؛ وما زال راكباً طول ليله حتّى جهزهم ورسم بترتيب المنورين والكشافة ، ووصل الحاج طيبرس إلى حران وقتل من كان بها من التتار .

وفي أواخر ربيع الآخر بلغ السلطان أن الفرنج غاروا على قاقون وقُتل الأمير حسام الدين أستاذ الدار ، وجُرح الأمير ركن الدين الجالق ، وجُرح والي قاقون ؛ فرحل السلطان من حلب ، ومنع من يتقدم[1] حتّى لا يعلموا الفرنج بخبره ؛ ودخل دمشق وبين يديه التتار المأسورون من حرّان ، وكأن إغارة الفرنج باتفاق من التتار ؛ فخرج البرواناه[2] وسمرغاني[3] من تلك الجهات ، وخرج الفرنج على قاقون ؛ فأما التتار فانكفّوا بحركة السلطان

[1] « ومنع أحداً أن يتقدم » السلوك ١/٦٠٠ .

[2] البرواناه بالفارسية هو الحاجب وهي هنا لقب معين الدين سليمان ، الوصي على السلطان السلجوقي القاصر غياث الدين .

[3] صحتها « صمغار » وهو قائد القوات المغولية في آسيا الصغرى ، راجع ما سيأتي الورقة ١٥٨ .

إلى حلب ؛ وأما الفرنج فلما قصدهم العسكر المجرد بقاقون تأخروا عنها ؛ ووصل الأمير جمال الدين أقوش الشمسي بعسكر عين جالوت فولى الفرنج مدبرين ، ولحقهم العسكر ، واسترجع منهم تركماناً ، وقتل من رجالتهم ، وعرقب من خيلهم ؛ وذكر بجكا العلائي مقدم عسكر قاقون أنهم عدّوا ما قتل من خيل الفرنج وبغالهم ونفق فكان خمسمئة رأس .

وخرج السلطان من دمشق ثالث جمادى الأولى ، واستصحب العساكر المصرية والشامية بنية الغارة على عكا ، فتوالت أمطار كثيرة على مرج برغوث زاد [١٥٧ / ب] الأمر فيه على الوصف ، وكاد الناس يهلكون لعدم ما يستظلون به ، فانثنى عزمه عن الإغارة ، ورد العسكر الشامي ، وسار إلى الديار المصرية ، فوصل قلعته في الثالث والعشرين من جمادى الأولى .

وكان قد ورد رسول تونس بهدية ، منها : خمسة وعشرون حصاناً قال الرسل إن منها حصانين سبقت خيل تونس ؛ ففرقها السلطان على الأمراء ، وما أخذ منها شيئاً . وكان في كتابهم تقصير في المخاطبة ، فكَتب إليه بمثل ذلك ، وأنكر عليه التظاهر بالمنكرات ، واستخدام الفرنج عوناً على المسلمين ، وأنكر عليه بكون الفرنج نازلوه ومات ملوكهم وما خرج إليهم ، وكان مستخفياً ، وقال : « مثلك لا يصلح لأمور المسلمين » . وخوفه بعساكره .

وفي المحرم سنة سبعين وصلت رسل الريجار أخي فرنسيس ، ونزل السلطان على عادته إلى الصناعة لعمارة الشواني ، فأحضر الرسل وهو جالس بين الأخشاب والأحطاب وبين الصناع ، والأمراء يعملون ويحملون وشواني ترمى ، وشواني تمد ؛ فشاهد الرسل ما راعهم . وكان السلطان قد سير إليه الحاجب بدر الدين [١٥٨/أ] بن عزيز رسولاً . وتضمن الكتاب الاعتذار لتأخره ، وشفع في أهل عكا .

وفي رجب من هذه السنة خرج السلطان متصيداً بجهة الصالحية ، فبلغته حركة التتار فرجع . وفي ثالث شعبان خرج السلطان من قلعته متوجهاً إلى الشام ، فنزل بمروج قيسارية .

ذكر الصلح مع الفرنج

كان رسول الفرنج قد حضر ، فصادف السلطان في السوادة ، فعاد صحبته إلى العوجا ، وزادهم ثماني ضياع غير الاثني عشر ضيعة التي زادها لهم خارجاً عما في الهدنة ، وجهزهم من العوجاء، فعادوا وصحبتهم فارس من جهة ملك عكا ؛ ورحل السلطان إلى منزلة الروحا ، وترددت الرسل ، وكان قصد الفرنج شفرعم وكابول واسكندونة ، فأنعم عليهم بشفرعم بكمالها ونصف اسكندونة ونصف ضيعة من عملها ، وبِـرَدَّ فلاحي البلاد التي عينت لهم في الهدنة ؛ وحضر أكابر الخيالة والإخوة ، فحلف السلطان على الهدنة للملك أوك دلزنيال ملك عكا وقبرس ، وحلف لمقدمي البيوت يميناً مفردة ؛ وتوجه رسل السلطان لتحليف الملك ، وهم : الأمير فخر الدين اياز المُقري ، والصدر فتح الدين بن القيسراني كاتب الدرج الشريف ، وذلك في الحادي والعشرين [١٥٨/ب] من شهر رمضان ، وهو أوّل مدة الهدنة ، ومدتها عشر سنين وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات . وخرج أهل عكا ليشاهدوا العساكر ، فركب السلطان ، وركب العساكر ، ولعبوا بالرماح ؛ وعاد الرسل بعد تحليف الفرنج .

وفي ثاني شوال رحل السلطان بالعساكر من منزلة الروحا إلى خربة

اللصوص ، وكان قد بلغه ورود رسل التتار ، ودخل دمشق وصحبته جماعة من الأمراء ، وأعيان من العسكر ، والتقته العساكر الشامية ، وحضر الرسل صحبة الأمير عز الدين نائب الشام : رسول البرواناه ، ورسول صمغار مقدم عسكر التتار ؛ ثم سمع مشافهتهم ؛ وتضمن الكتاب الذي على أيديهم جواب الكتاب الذي كان كتب إليهما ، وتضمن رغبتهم في الصلح ، وطلب رسل ، فجهز إليهم الأمير مبارز الدين الطوري أمير طبر [1] والأمير فخر الدين المقري الحاجب ، وتوجها هما والرسل في نصف شوال ، ودخلوا سيس ، والتقاهم متملكها ، وساروا من دربند سيس إلى الروم في ثلاثة أيام ، فالتقاهم القراؤولية [2] ، ودخلوا قيسارية ، واجتمعوا بصمغار بين سيواس والجسر ، وأكرمهم ، وأوصلوه ما كان معهم من الهدية ، وهي قسي تسعة ، ودبابيس تسعة ؛ واعتذروا عن قلتها بكونهم [١٥٩/أ] توجهوا إليه على البريد . وفي اليوم الثاني اجتمعوا بالبرواناه ، وأعطوه قماشاً فاخراً سير [3] السلطان إليه خفية . وسيرت معهم هدية لأبغا ، وهي جوشن ريش قنفذ ، وخودة كذلك ، وسيف ، وقوس وتركاش ، وتسع فردات نشابا ؛ وتوجهوا صحبة البرواناه ، ووصلوا إلى الاردو ، وأوصلوا إلى أبغا هديته بعد أن عبروا بها بين النارين ، وقصدهم بذلك تطهير الهدية ؛ واختبارها لئلا يكون بها سحر أو سم ؛ وقال له مبارز الدين الطوري : « السلطان يسلم عليك ، ويقول إن رسل منكوتمر وردوا إليه مراراً بأن السلطان يركب

---

١ طبر : كلمة فارسية بمعنى فأس ، وأمير طبر يشرف على حاملي هذا النوع من السلاح حول السلطان في المواكب . صبح ٤٦٢/٥ ، ٤٨٥ و ٢٢/٤ ومصر وسوريا تحت حكم السلاطين الشراكسة ٩٤ .

٢ القراؤولية : كلمة تركية وتعني الكشافة أو حرس الحدود . ابن شداد ٢٣٨/٢ .

٣ كذا في الأصل وصحتها « سيره » .

من جهته ، ويركب الملك منكوتمر من جهته ، وأين وصلت خيل سلطاننا كان له ، وأين وصلت خيل منكوتمر كان له » . فلما سمع أبغا هذا الحديث انزعج انزعاجاً عظيماً ، وقام ركب . وخرجت الرسل إلى خيامهم ؛ ثم طلب أمراءه ، وعمل مشورة وبعد ذلك خلع عليهم ، وأذنوا لهم في السفر ؛ فحضروا .

وفي ثاني ذي القعدة وصل الخبر أن المرشيلية[1] ، أحد جنوس الفرنج ، أخذوا مركباً فيه رسل الملك منكوتمر ، والترجمان ، الذي كان توجه من جهة السلطان إلى منكوتمر ، وأحضروا أسرى إلى عكا . فلما بلغ السلطان ذلك خاف أن يتقربوا بهم إلى أبغا [١٥٩ /ب] ، وطلبهم من الفرنج ، فأطلقوا رسول السلطان واعتذروا عن الباقين بأنهم ما هم من رعية السلطان ، ولا أخذوا في بلاد الصلح ، وإنما أخذهم غلمان الري جار ، فاحتاط السلطان على المرشيلية في جميع الثغور ؛ فأرسلوا الرسل بجميع ما أخذ لهم إلى السلطان فحضروا إلى دمشق ، وأحضروا كتب منكوتمر بالعربي والعجمي بأنهم أعداء أعدائه ، وأنهم على محبته كما كان أبوهم بركه قان .

---

١ المرسيليز : Marseillais .

ذكر هجوم فداوية السلطان على الملك ورد[1]

قد ذكرنا حضور الملك ورد ، وإغارته على البَعنَة وقاقون[2] ، ولما انتظم الصلح مع الفرنج ما أعجبه ذلك ، ولم يدخل الملك ورد في الصلح ، فرُسِم لابن شاور والي الرملة بعمل حيلة في أمره ، فسير إليه فداوية أقاموا عنده ، وسير ابن شاور المذكور يتقرب إليه ، ويوهمه أنه يطالعه بالأخبار ، وهاداه وهادى زوجته وكل من حوله على يد أحد الفداوية ثم إن الفداوي دخل إليه ليخبره بشيء من أخبار السلطان ، ولم يكن عنده غير الترجمان ، ففزّ عليه الفداوي ضربه في خمسة مواضع ، في ذي القعدة وقُتِل الفداوي ، وركب الفرنج الغُرب ، وقتلوا يسيراً من المسلمين .

ذكر اشتغال السلطان بعمل النشاب [١٦٠ / ١]

والرمي به في هذه المدة

وهو أنه سمع ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في عمله الخير ، والرامي به ، والممد به — وفي رواية ، ومنبله ، فارموا ، واركبوا ، وأحب إليّ أن ترموا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن القوة الرمي » . فعمد إلى عمل النشاب

---

١ الأمير ادورد بن هنري الثالث ملك انجلترا .

٢ راجع ما سبق الورقة ١٥٣ ، ١٥٧ .

بيده ، واشتغل به جميع امرائه وخواصه ؛ وكتب إلى ولده ، وجميع نوابه بذلك ، فما بقي أحد إلاّ وهو متوفر على العمل ، وعمل بيده جملة منها إلى أن أتقن نحتها وترييشها وتنصيلها .

ذكر توجهه إلى الحصون لمشاهدة عمائرها

وضحى السلطان بدمشق ، وأحسن إلى صاحب حماه ، وأمر بجلوسه معه بطرّاحة ومسند وكرسي في راس السماط مسامتاً للسلطان ؛ وتوجه بعد ذلك إلى حصن الأكراد، فوصلها حادي عشرين ذي الحجة، فشاهد العمائر، وأمر أمراءه وجميع من كان في صحبته بنقل حجارة المجانيق من خارج القلعة إلى داخلها ، ونقل بنفسه وبالمذكورين ، وكان في الخندق مكان يحتاج إلى العمل ، فنزل بنفسه وبمن معه ، وعمل فيه ، وحفر بيده .

وترك الثقل وتوجه إلى حصن عكار ، فشاهد عمائره ، وعمل فيه بيده ، وبمن معه ؛ وأمر برمي المنجنيقات التي بالحصن ، وشاهد مواضع سقوطها . وعاد إلى حصن الأكراد ، وخلع على من بها من الأمراء [١٦٠ / ب] وأرباب الوظائف ، وعاد فتصيد في الطريق ، وخلع مقدار خمسمئة تشريف على من أحضر صيداً . ودخل دمشق في خامس المحرم سنة إحدى وسبعين وستمئة .

واستهلت سنة إحدى وسبعين وستمئة

ذكر توجه السلطان على البريد إلى الديار المصرية

وعند دخوله إلى دمشق في التاريخ المذكور استشار خواص الأمراء في أن التتار تواترت عنهم أخبار الحركة ، والرسل قد أبطأت عندهم ، ومتى قصدوا البلاد والعساكر والخزائن غير حاضرة صعب الأمر ؛ وعرفهم أنه متوجه إلى الديار المصرية على البريد . وركب ليلة السادس من المحرم بعد عشاء الآخرة ، وصحبته الأمير بدر الدين بيسرى الشمسي ، والأمير جمال الدين أقوش الرومي ، وجُبرك السلاح دار ، وجرمك الناصري ، وسنقر الألفي السلاح دار ، وعلم الدين شُقَير مقدم البريدية ، فدخل قلعته في يوم السبت ثالث عشر المحرم ، وما أحس به الناس إلاّ وهو داخل من باب القلعة راكباً ؛ وقصد أن يكون دخوله يوم السبت ليلقى الملك السعيد في الميدان فوجده أرمد ، فدخل القلعة ؛ وتوجه إلى الميدان لعب الكرة ، وكتب إلى الأمراء المقيمين بالشام أنه سطّرها من البيرة بحكم أنه توجه لتدبير أمورها وسيّر علائم بخطه ليكتب عليها من دمشق أجوبة البريد للأطراف . وكان الأمير سيف الدين [١٦١/أ] الدوادار بقلعة دمشق لتجهيز الكتب والبريدية .

وفي يوم الاثنين توجه إلى مصر ، وركب في البحر ، ولعبت الشواني قدامه ، وفي ليلة الأربعاء سابع وعشرين[1] المحرم جهز العسكر المجرد إلى الشام ،

١ « سابع عشر » السلوك ٦٠٥/١ .

وفي ليلة تاسع وعشرين[1] توجه السلطان إلى الشام هو ومن كان حضر معه ووصل دمشق في ثالث صفر ، ودخل القلعة في الليل .

ذكر حضور رسل أبغا

وفي صفر وردت الأخبار بحضور رسل أبغا ورسل الروم ، فرسم أن لا يحتفل بهم ، وأنهم إذا وصلوا يضربون الجوك[2] ثلاث مرات قدام نائب السلطنة بحلب ، وكذلك قدام صِاحب حماه ؛ وأحضروا إلى دمشق ، وكان مضمون مشافهتهم أن ِأبغا قال للأمراء : « الصلح أي شيء جاء منه من المضرة والعداوة أي شيء جاء منها من الفائدة » . وهو يقول إن السلطان يُسَيِّر سنقر الأشقر يمشي بيننا في الصلح . فأنزلوا في برج عند سوق الخيل ، وتوالت العساكر من صفد وغيرها ، وهم يشاهدونها ، ثم استحضرهم ، فغيّروا كلامهم ، وقالوا : « أبغا يقول يمشي السلطان أو من يكون بعده في المنزلة إلى أبغا لأجل الصلح » . فأجابهم السلطان بأن أبغا إذا قصد الصلح يمشي فيه هو أو واحد من إخوته . ثم أمر بلبس أجود العساكر العدة الكاملة ، ولعبوا في الميدان . والرسل حاضرون ، وكذلك رسل الملك مُنكوتمر ، ورسل الأشكري . وسفّروا في ربيع الأول [١٦١/ ب] .

---

١ « تاسع عشر » السلوك ١ / ٦٠٥ .

٢ نوع من التحية يقوم بها المغول أمام رؤسائهم تشير إلى الخضوع والاحترام . صبح ٥/٣٠٠ ودوزي .

ذكر تسليم صهيون

في يوم الخميس ثالث ربيع الأوّل توفي الأمير سيف الدين صاحب صهيون وأحضر السلطان ولده سابق الدين وأخاه فخر الدين ، فكتب سابق الدين إلى عمه جلال الدين بتسليم القلعة إلى نواب السلطان بذخائرها ؛ فتسلموها في ثاني[1] ربيع الأوّل ، وحمل أهل صاحب صهيون إلى دمشق .

ذكر منازلة التتار للبيرة وكسر التتار على الفرات

في تاسع ربيع الأوّل وردت الأخبار بحركة التتار ، فجرد السلطان الأمير فخر الدين الحمصي بجماعة من العساكر المصرية والشامية إلى جهة حارم ؛ ثم جهز الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيري بجماعة من العساكر وجماعة من العربان وعدّى التتار إلى هذا البر لقصد الرحبة ، ونازلوا البيرة أيضاً ، فتقسم[2] فكر السلطان لتقسمهم على البيرة والرحبة، ورحل من ظاهر دمشق ، فبلغه رحيل العدو عن الرحبة ، فجدّ في مسيره ، ووصل الفرات ، إلى مخاضة تعرف بمخاضة الحمام ، فوجد التتار المخذولين قد وقفوا على شط الفرات ، وعدتهم قريب الخمسة آلاف[3] فارس ، ومقدمهم جنقر أحد

---

١ « ثاني عشر شهر ربيع » ولعل هذا هو التاريخ الصحيح لأن موت سيف الدين كان في الثالث من هذا الشهر .

٢ كلمة « فتقسم » كتبت على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٣ « ألف » في الأصل .

مقدميهم الكبار ، وحفظوا فم المخاضة ؛ وكان السلطان قد استصحب عدة مراكب من دمشق وحمص ، فرميت في الفرات [١٦٢ / ا] وركب فيها الرجـــالة الأقجيّة لكشف البر ، وعمل العدو مكيدة ، وهي أنهم تركوا المخاضة السهلة وعدوا إلى مكان بعيد الغور ، وعملوا الستائر وحفظوه ؛ فاعتقد المسلمون أن المكان الذي حفظوه هو المخاضة السهلة ، فخاضوا منه ؛ وكان العدو قد عملوا سيبا على البر من جانبهم ليعوق من يطلع إليهم ، وليقاتلوا من ورائها ، وترجّلوا ، وصاروا يقاتلون بالنشاب ؛ فرمت العساكر الإسلامية نفوسهم[1] في الفرات بخيولهم ، وساقوا فيها أطلابا عوماً ، الفارس[2] إلى جانب الفرس ، متماسكين بالأعنة ، معتمدين على العوامل[3] قد جعلوها مجاديف لسفائن الصواهل ،

فعمنا إليهم بالحديد سباحة ومن عجب أن الحديد يعوم

أو كما قيل[4] :

فأوقفت التيار عن جريانه إلى حيث عدنا بالغنى والغنائم

وازدحم الناس ، وانكسر الماء بهم فصار كالجبال إنافة وارتفاعاً ، وصادفهم الموج حتى كاد مع قعقعة السلاح يصم منهم أسماعا . هذا والتتار

١ كذا في الأصل بدلا من « نفوسها » .

٢ « للفارس » في الأصل .

٣ « على الرماح » النهاية ٨٦ .

٤ كتب ما يأتي على الهامش :

حاشية : قال مختصر السيرة : هذا البيت لابن النقيب ، والأول :

ولما ترامينا الفرات بخيلنا سكرناه (كذا) منا بالقوى والقوائم

قد وعّروا المصعد والمرقى ، وأسعروا من وميض السيوف ناراً جُنّبها من المسلمين الأتقى وصليها منهم الأشقى ؛ وقد جعلوا السيبا لهم بمثابة السور تمنع منهم ولا تمنعهم النكاية ، وتصد عنهم المهاجمة ، ولا تصدهم عن الجناية ؛ فبحمد الله ما علم المسلمين [1] هل عامت الخيل بهم أم سارت ، أو اقتحمت أو طارت؛ وطحنوا السيبا [١٦٢/ب] ، وملكوا البر والبحر ، وطلعت السناجق تشير بألسنة بنودها للناس أن هلموا إلى النصر . وطلع السلطان في أوائل القوم ، وصلى بمنزلة العدو شكراً لله قائلاً : « ليس لغير الله الملك اليوم » . وكان للأمير سيف الدين قلاون الألفي والأمير علاء الدين الحاج طيبرس في الاقتحام أعظم ذكر جميل . وتفرقت العساكر يميناً وشمالاً لبذل السيف ، وإهلاك العدو المخذول ، وسلّ للسيوف كف ، وامتدت للأعنة فما عاقها إلاّ عثر الخيل برؤوس الأبطال ؛ وأحضرت الأسارى عن ذات اليمين وذات الشمال . فأحسن السلطان في هذا اليوم إلى كل من فعل فعلاً جميلاً ، وعمد إلى الأسارى فمتعهم متاعاً قليلا . وقتل مقدم التتار المسمى جُنقُر الكبير . وأقام السلطان إلى العصر ، وجمع من استبقاه من الأسرى ورؤوس القتلى ؛ وبات في مكان النصر ، والعساكر لابسة ، والخيل ملجمة ، والحزم قد قسّم الظنون ، فلا هجعة تطرق العيون .

وأصبح يوم الاثنين مقيماً بمنزلته حتى عاد من أبعد في ركضه ، وآب من أخرج عدو الله من أرضه ؛ واعتبر أمر العدو ، هل كانت لهم خبية ، أو يحضر من لعله جُعِل لهم درية [2] ؛ فلما لم يحضر أحد عدّى السلطان والعساكر وكان العود عليهم أشق لحضور عقولهم التي كان طلب الثواب أذهبها ،

---

[1] كذا بدل : « المسلمون » .

[2] « دربه » في الأصل .

وتوقّع الشهادة غيّبها ، وعاموا بالخيل راجعين بعد الخوف ، ولكن الله سلم ، وظميت الخيل وهي عائمة [١٦٣ /ا] وكيف لا والماء أكثره دم .

ولما صار السلطان في البر الشامي بلغه أن[1] العدو الذي كان نازلاً على البيرة ، وهو دُرْباي[2] هربوا وتركوا أزوادهم والمجانيق التي معهم ، ورموا النار في بعض ذلك ، ونزل أهل البيرة وحملوا من ذلك شيئاً كثيراً إلى البيرة وزاد الله هذا الثغر قوة إلى قوته ، ومنعة إلى منعته ؛ فنزل السلطان على جبل مشرف قريب البيرة من الجانب الشامي ، وتوجه إليها على الجسر الذي مده العدو ، وهو جسر كبير تحته المراكب والصواري والسلاسل بجماعة من الأمراء ، وشاهدها ، وأعطى النائب بها ألف دينار ، والصروي المجرد بها من حلب ألف دينار ، وعم بالتشاريف والإحسان جميع من في الثغر ومن جملة ما أنعم به على أهل الثغر مئة ألف درهم ، وجرد بها جماعة زيادة على ما كان بها ، وعاد إلى مخيمه ، وسار إلى دمشق فدخلها في ثالث جمادى الآخرة والأسرى بين يديه .

قال مؤلف السيرة : ومما يناسب هذه الواقعة أن سعداً — رضي الله عنه — لما نزل بهُرَسِير[3] وهي المدينة القصوى التي كان كسرى ينزلها وجد السفن قد جعلوها من جهتهم ، فلما طال عليه ذلك جمع الناس ، وحمد الله وأثنى عليه وقال : « إن عدوكم قد اعتصم بهذا البحر فلا تخلصون إليه وهو يخلص لكم متى شاء ؛ ألا وإني قد عزمت على قطع هذا البحر عوماً » . فقالوا جميعاً : « عزم الله لنا ولك على الرشاد » . وسميت تلك الكتيبة

---

١ « أن » وردت مكررة .

٢ « دريا » مفضل ٣٨٠ .

٣ « نهر سير » في الأصل .

كتيبة الأهوال وأذن للناس في الاقتحام ؛ وقال : « قولوا : نستعين [١٦٣/ب] بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل ، لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم » . وألقى نفسه في الماء ، وتلاحقت الناس ، فعاموا بخيولهم ، وان دجلة لترمي بالزبد ، وانها لمسودة ، وان الناس ليتحدثوا[1] في عومهم ، وقد اقترنوا أكثر مما كانوا يتحدثون في مسيرهم على الأرض ؛ ففاجأوا[2] أهل فارس بما لم يكن في حسابهم ، فهربوا على وجوههم . ودخلها المسلمون في صفر سنة ست عشرة ، واستولى على ما بقي في بيوت كسرى . وقال سلمان في ذلك اليوم : « الإسلام جديد ، ذللت لهم والله البحور كما ذللت لهم البرور » . وكان يدعى ذلك اليوم يوم الجواثيم[3] . ونظم في ذلك الأمير ناصر الدين حسن بن النقيب الكناني :

نهضت لها ولم تخش العثارا[4] ، ولا خفت الثلوج ولا القطارا
وواصلت السرى بالسير حتى قطعت لها المغاور والقفارا
وأوردت الفرات مضمرات ، وأسقيت السيوف دماً ممارا
فلما جزته خلناك موسى ، وكم دمرت فرعوناً دمارا
وآيتك المراكب فوق بر ، تسير ، وإن في ذاك اعتبارا
فقل للبيرة اتئدي وقري ، فقد وافاكِ مفتك الأسارى
أتاك الظاهر السلطان ركضاً على صهوات خيل لا تجارى
وجاء يجر جيشاً أحمدياً ، يذكر من رآه بجيش دارا [١٦٤/أ]

---

١ كذا بدلا من « ليتحدثون » .
٢ « ففاحو » في الأصل .
٣ أو الجراثيم . راجع في هذه لسان العرب والطبري ٥/١/٢٤٣٨ .
٤ « ولم تبد اعتذارا » شافع ٣٢ .

كمثل الموج في عـدد ومدّ ، ومثل السيل إن دهم الديارا
يدك به جبال الروم دكـّا ، فتنسفها وتجعلها غبارا
عساكر تملأ الدنيا خيولاً ، وفرساناً ، وأسلحة ، ونارا
أقام بجلق عشراً شهورا ، ولم يسأم لما طلب انتظارا
توهمت التتار ربيع مصر سيمنع خيله يوماً مغارا
فعاثت[1] وهي خائفة سراه ، ولم تطق الهدوّ ولا القرارا
وكم بعثت إليه الرسل طرقا ، وكم طلبت رضاه بها مرارا
وكان الخوف ألجأها اضطرابا ، وكان الذل أحوجها اضطرارا
فلما لم يجبها في سؤال جفت من أرضها سكنا ودارا
ونازل خوفه منهم نفوساً ، فذاقت في جسومهم الحصارا
فما أنساهم طرحاء صرعى ونار الحرب تستعر استعارا
وثامن عشر يوم من جمادى أحاط بهن[2] جيشك واستدارا
وغنت في رقابهم سيوف ، فأرقصت الهوادج والمهارى
طلعت عليهمُ كالصبح يجلو بطلعته من الظلم اعتكارا
فلما أن رأوك فما استطاعوا ثباتاً ، لا ولا ملكوا اصطبارا
وولّوا هاربين بلا عقول ، وباتوا خائفين وهم حيارى
فهذا قد رقى جبلاً ، وهذا ، لشدة بأسك ، حازعارا [١٦٤/ب]
فكنتَ الليث أبصره ابن آوى وكنت الصقر شاهده الحبارى
وما جهلوك ، بل عرفوك ، لكن دنوّ الحين ساقهم اغترارا
وكان الله للإسلام عوناً ، وكان الله للسلطان جارا

---

١ « لعلها فباتت » .

٢ يبدو هنا أثر محو يدل على تحويلها من « بهم » إلى « بهن » .

وسار السلطان إلى الديار المصرية ، فدخل قلعته خامس عشر جمادى الآخرة وفي السابع والعشرين منه أفرج عن الأمير عز الدين الدمياطي ، وأنزله بدار الوزارة ، ورتب له الرواتب وفي رجب خلع على الأمراء والوزراء والقضاة والمقدمين ، وعم بذلك الذين كانوا مسافرين والمقيمين .

ذكر تجهيز رسل الملك منكوتمر

في شعبان من هذه السنة جهز السلطان رسل منكوتمر ، وجهز صحبتهم الأمير سيف الدين الصوابي المهمندار ، وبدر الدين بن عزيز الحاجب ، وجهز صحبتهم هدايا ، وعقاقير ، وما كان منكوتمر طلب إتحافه به . وكتب إلى منكوتمر بحديث أبغا وحضور رسله ، ومحاصرة عسكر البيرة والنصرة عليهم .

ذكر فتوح بقية حصون الدعوة

قد ذكرنا[1] ما فتحه الله على يد السلطان منها ، وكان أهل الكهف والمنيقة [١٦٥/أ] والقدموس امتنعوا من تسليمها ، فجعل السلطان صاحب حماه متحدثاً في أمر الكهف ، والمليّن لعريكتهم ؛ وتوالت مكاتباته إليهم

---

١ راجع ما سبق الورقة ١٤٠ .

وأمرهم يزيد عن الوصف ويتناومون وناهيك بنوم أصحاب الكَهف ، وكلما سير إليهم من كتبه رَقيماً غدا أمره وَأمرهُم عَجَباً[1] ، وكلما طلبهم للطاعة لَم يَستَطع لَهُم طَلَباً[2] ، وكلما هون عليهم التسليم قالوا إنه غير هين ، وكلما اتخذوا من أوثان زعمائهم آلهة مختفية أتاهُم بسُلطان بَيّن ، وبقي الملك المنصور صاحب حماه يَقُصُ عَلى السّلطان نَبَأهُم بالحَق ، ويحمل نفسه في مجاهدتهم بالقول على الأمر الأشق ، والشيطان يَربِطُ عَلى قُلُوبِهِم فَيَقُولُون شَطَطاً ، ويَغلظُون ولا يُظهرون غلظاً ؛ وصاروا لا يحققون أن الأمير شمس الدين بن الصاحب نجم الدين قد ساءت به الأحوال ، ويحسبون أنه مخلا يَزّاوَرُ عَن كَهفِهِم ذَاتَ اليَمينِ وإذَا غَرَبَ يَقرِضُهُم ذَاتَ الشّمال[3] ، حتى ساءت أحوالهم من مجاوريهم نواب السلطان أخذاً وسلباً ، وصاروا كما قال الله تعالى : ﴿ لو اطلَعتَ عَلَيهِم لَوَلّيتَ مِنهُم فِراراً ولمُلِئتَ مِنهُم رُعباً ﴾[4] . واعتبرت[5] مراسم السلطان بمضايقتهم حتى عَلِموا أنّ وَعدَ الله حَق ، وأنّ سَاعَتَهم لا رَيبَ فيها[6] ، فعمدت جماعتهم إلى ما ينجيها ؛ وسيروا مفاتيح الكهف صحبة رسلهم ، ورسل صاحب حماه ، ووصل كتاب الأمير جمال الدين أقوش الشهابي أحد أمراء الشام بأنه تسلمها في ثاني وعشرين ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وستمئة .

---

١ راجع الآية « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا » الكهف ٩ .
٢ راجع الآية « أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً » الكهف ٤١ .
٣ راجع الآية « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال » الكهف ١٧ .
٤ القرآن الكريم ، الكهف ١٨ .
٥ « واعثرت » في الأصل .
٦ راجع الآية : « ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة أتية لا ريب فيها » الكهف ٢٠ .

قال [١٦٥/ب] مؤلف السيرة : قد ذكر في الكتب أنه حصن الكفّ بغير « هاء » ، وكان به والي من المصريين ، فعمل عليه الأمير ليث الدولة بن عمرون وأخذه،وبقي إلى ولاية سيف الدولة بن عمرون فذبح على فراشه ليلة الاثنين سنة تسع وعشرين وخمسمئة ، وتولى الحصن ولده وهو خائف مما جرى على والده فالتجأ إلى الاسماعيلية واستدعى قوماً منهم أسكنهم معه في الحصن يتكثّر بهم ، ويتقوى على بني عمه الذين يقصدونه فاستضعفوه وأخرجوه من الحصن وملكوه إلى هذا الوقت .

وأما المنَّيقة فتسلمها نواب السلطان في ثالث ذي القعدة من هذه السنة .

وأما القدموس فحضر جماعة من أكابر أهلها ، وبذلوا الطاعة ، وتسلمت في ثامن ذي القعدة ، وتكملت بها قلاع الدعوة ، وأقيمت بها الجُمع ، وترضى عن الصحابة ، وعفيت المنكرات ، وأظهر شعائر الإسلام .

قال مؤلف السيرة : وحصن القدموس هذا كان في يدي بني محرز بعد ولاية المصريين ؛ وكان آخر بني محرز منير الدولة حمدان بن حَش[1] بن محرز ، فتوفي وملكه بعده ابنه علم الدولة يوسف بن حمدان بن حَش[1] بن محرز ، فضعف عن حفظه ، فسلمه للاسماعيلية في يوم الجمعة ثاني عشر سنة ثلاث وعشرين وخمسمئة ، وبقي معهم إلى هذا الوقت .

وحصن المنيقة في جبل الرواديف ؛ كان رجل يعرف بنصر بن مشرف [١٦٦/أ] الروادفي قد استولى على جميع المسلمين الساكنين في جبل الرواديف وما يليه ، واستفحل أمره ، واتفق أنه أُخذ وحمل مقيداً إلى أنطاكية واستُتيب ، وأطلق ، فعاد إلى أذية المسلمين والروم ، فأُخذ ، فطلب

---

[1] كذا في الأصل .

العفو وأعطى ولده رهينة ، وتنصح للروم بأن[1] في آخر عمل الروم من آخر جبل الرواديف ضيعة تعرف بالمنيقة ، ومكانها يصلح أنه يكون به حصن ليحفظ جميع الأعمال ، فأجابوه إلى ذلك ؛ فقال لهم نصر : « ان المسلمين لا يمكنونكم [من بنائه][2] ، وإنما أنا أدفع المسلمين عنه ، وأفهمهم أنني أبنيه لنفسي ، فإذا بنيته سلمته إليكم » . فاغتر الروم بقوله وأعانوه ، فلما بناه استعصى به وشرع في بناء حصن آخر أمنع منه . ثم انه[3] نيقيطا[4] قطبان[5] أنطاكية أتى إلى المنيقة فحاصرها فلم يتم له فيها شيء ، وذلك في سنة اثنين وعشرين وأربعمئة ، ثم عادوا إليه وملكه ، وخرب أبرجته إلى الأرض ؛ ثم عمرت وصارت بعد ذلك للاسماعيلية .

وأما حصن الخوابي من جبل بهرا فإن محمد بن علي بن حامد سلمه للروم في شوال سنة إحدى عشرة وأربعمئة .

ذكر كسر بلبوش أحد عربان برقة

قد ذكرنا[6] اهتمام السلطان بأمور برقة واستمالة من بها من العربان للطاعة ، واستخراج الزكاة منهم ، إلا ما كان من بلبوش ، فإنه أبى

---

١ كذا في الأصل ولعلها : « بأن بني في » .

٢ كذا في النهاية ٦٤ .

٣ كذا في الأصل ولعلها « ثم ان » .

٤ راجع ما سبق ١٣١ ب .

٥ « قبطان » النهاية ٦٤ .

٦ راجع ما سبق الورقة ٨٩ .

إلاّ جماحاً فؤاده ، ونفوراً قياده ، وقدحاً زناده ؛ فاجتمع أمراء العربان ، وهم عطا الله [١٦٦ /ب] ومقَدَّم بن عزاز وغيره من العربان ، وتوجهوا إليه في ثالث عشر ذي الحجة ، وكان معه رجالة مقدار خمسة آلاف راجل ، خارجاً عن الخيالة ، فكسره العرب الذين في الطاعة ، ثم نخاهم النساء ، واستمر القتال إلى آخر النهار ، وأسر بلبوش وأحضر إلى القاهرة المحروسة . ولما حصل الاستيلاء عليه أخذت في بلاده أبراج تسميها العربان بالحصون تكون ستين أو سبعين حصناً . ولهذا بلبوش ثلاثون جدا ملاك برقة ، وما أطاعوا أحداً قط .

قال مؤلف السيرة : وهذه برقة بلاد عظيمة بها عدة مدن ، وكان لها عساكر وكانت تسمى انطابلس ، وفيها مدن على البحر ، ولكل مدينة ميناء يدخلها المواكب بالبضائع وخيولها البرقية معروفة ، وتجلب منها الجمال الجيدة والأغنام والعسل والشمع والقطران ، وبها الأخشاب العظيمة ، وأشجارها عظيمة ، ومسافة بلادها التي بها الأشجار حول عشرة أيام ، وكان عسكرها قريب الثلاثة آلاف فارس ؛ وأكبر مدنها المرج ، وهي ذات مياه ، ومروج وزراعات ، وهي بعيدة عن البحر أقل من مسيرة يوم ، وهي أكثر هذه البلاد أمناً . ومن المدن هناك طلميثا ، وأكثر أهلها يهود ، وهناك مدينة طرف ، لها ميناء ومرسى للمراكب ؛ وهناك مرسى بني غازي .

ولما عاد السلطان من الشام أحسن إلى الأمير بلبوش ، واستحلفه ، وكتب له بالإمرة ، وتقدم بعوده إلى بلاده ، فصادفته المنية ، فانتقل إلى رحمة الله تعالى .

وفي هذه السنة [١٦٧/أ] تواردت الأخبار بقصد الفرنج ثغور الديار المصرية فحصل الاحتفال بأمر الشواني ، ونصب المنجنيقات على أسوار

الاسكندرية ، وورد كتاب والي اسكندرية مضمونه أنه نصب بها وهيّأ للنّصب مجانيق كثيرة تقارب المائة منجنيق .

ذكر ابتداء حديث النوبة

كان صاحب النوبة المسمى داود ابن أخت مرتشكر الذي أضر بصره قد سولت له نفسه ما غره فيه الشيطان ، فورد كتاب والي قوص يذكر أنه ركب من أسوان في صفر ، وساق إلى أن بقي بينه وبين دُنقُلَة مسافة عشرين يوماً وقتل وأسر ونهب وحَرق .

وفي يوم عرفة من هذه السنة تنجزت عمارة قبة الصخرة الشريفة ؛ وكان السلطان توجه إليها وجمع الصناع لعمارتها ، فأجرى الله هذه الحسنة في أيامه .

وفي ذي الحجة من هذه السنة كان السلطان متصيداً بجهة الأهرام ، قال مؤلف السيرة : فرأيته وقد نزل يسبح وهو لابس زردية مسبلة ، وقد عمل سفرة كبيرة ملاها بسطاً ، وأركب عليها الأمير حسام الدين الدوادار ، والأمير علاء الدين ايدغدي أستاذ الدار ؛ وجرّ هذه السفرة وجر فرسين ، وهو يعوم لابس الزردية من بر بحر قناطر الأهرام إلى البر الآخر .

واستهلت سنة اثنتين وسبعين وستمئة [١٦٧/ب]

ذكر فتوح كينوك

كان قد كثر فساد أهل كينوك ، وتعديهم على التجار والقصاد ، وكتب إلى صاحب سيس بذلك فلم يفد فيه المكاتبة ؛ وصار الأرمن يلبسون السراقوجات [١] ويخرجون على القوافل ؛ فجرد الأمير حسام الدين العين تابي ، مقدم عسكر حلب إلى كينوك ، فوصلها ثالث المحرم ، فأخذوا الحوش البراني ، ودخل الأرمن إلى القلعة [٢] ، وقاتلهم المسلمون ، وأخذوا القلعة، وقتلوا الرجال التي بها [٣] ، وسبوا الحريم ، وأتم العسكر إغارته إلى أطراف طرسوس ونهبوا وسبوا .

قال مؤلف السيرة : وهذه كينوك هي الحدث الحمراء التي بناها سيف الدولة بن حمدان ، ومعنى تسميتها بكينوك يعني المحرقة ، وكان البيل المتحكم في سيس وهو المسمى بقسطنطين جد صاحب سيس الآن قد أخذها من الروم السلجوقية ، وأحرقها ؛ وهي التي يقول المتنبي عند بنائها يمدح سيف الدولة بن حمدان في قصيدته التي أولها : « على قدر أهل العزم تأتي العزائم » :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها ... وتعلم أي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغرّ قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجم

---

١ غطاء الرأس عند المغول .

٢ « إلى القلة » في النهاية ٨٦ .

٣ كذا بدلا من « الذين » .

بناها عليّ والقنا يقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ... ومن جثث القتلى عليها تمائم
طريدة دهر ساقها فرددتّها ... على الدين بالخطي والدهر راغم[١٦٨/١]

وكان من خبرها أن سيف الدولة بن حمدان سار لبنائها ، وكان أهلها سلموها بالأمان للدمستق ملك نصارى الروم ، وذلك في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة[١] ، فنزلها سيف الدولة في يوم الأربعاء ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة[٢] ، فحط الأساس من يومه ، وحفر أوّل الأساس بيده ، وأقام حتى كمل بناءها في يوم الثلاثاء ثالث عشر رجب .

ذكر الطلسم الذي ظهر بأحد أبواب القصر
بالقاهرة في هذه السنة

كان قد [رسم بنقض][٣] أحد أبواب القصر المسمى بباب البحر ، قبالة دار الحديث الكاملية[٤] ، فظهر صندوق في حائط وجد فيه صورة من نحاس أصفر على كرسي ، شكل هرم ، ارتفاعه مقدار شبر بأرجل نحاس ، والصنم جالس عليه ويداه مرتفعة تحمل[٥] صفيحة يكون دورها مقدار ثلاثة

---

١ راجع ابن الأثير ٣٦١/٨ .
٢ راجع ابن الأثير ٣٨١/٨ .
٣ مطموسة في الأصل ، وكملت من النهاية ٥١ .
٤ أسسها الملك الكامل بن العادل عام ٦٢٢هـ . حي ما بين القصرين في القاهرة ، المواعظ٣١٤/٢ .
٥ كذا بدل « مرتفعتان تحملان » .

أشبار ؛ وفي هذه الصفيحة أشكال ناتئة ، الأوسط صورة رأس بغير جسد ، وعليه دوائر مكتوب عليها بالقبطي وبالقلفطيريات ، وإلى جانبها في الصفيحة شكل له قرنان يشبه السنبلة ، وإلى الجانب الآخر شكل على رأسه صليب ، وآخر في يده عكاز ، وتحت أرجلهما أشكال طيور ، وفوق رؤوس الأشكال كتابة كثيرة ؛ ووجد مع الصنم في الصندوق لوح من الألواح التي يكتب فيها في المكاتب فيه كتابة [١٦٨/ب] قد تقشط أكثرها ، وقد بلي اللوح ، الوجه الواحد مكتوب بالقبطي فيه اسم الملك يزجر وفيه طارد لكل سوء ، وفيه بيبرس ، وبقية الظاهر من الكتابة لا يتركب كلامها لأجل ما تقشط مما بينها . وقيل إن اللوح بخط الحاكم خليفة مصر ، والعجب كون فيه اسم السلطان وهو بيبرس ومضمونه طلسم عمل الظاهر بن الحاكم ، وفيه أسماء الملائكة ، وأكثره حرس لديار مصر وثغورها ، وصرف الأعداء عنها .

قال مؤلف السيرة : رأيت في كتاب عتيق سماه مصنفه : « وصية الإمام العزيز والد الإمام الحاكم لولده المذكور » ؛ وقد ذكر فيه الطلسمات التي على أبواب القصر ، وقال : أوّل الكواكب الحمل ، وهو قلب المريخ ، وله القوة لأنه صاحب السيف ، والمستولي لقوة روحانية على مدينتنا عندما بنيناها ، وقد أقمنا طلسماً لساعته ويومه لقهر الأعداء » .

ذكر توجه السلطان إلى الشام

وكانت الأخبار قد وردت بحركة أبغا ملك التتار ، فخرج السلطان في ليلة السادس والعشرين من المحرم ، وصحبته جماعة من أمرائه الخاصة [1] ، فحمل كلفهم في هذه السفرة . وفي أثناء الطريق قوي الخبر بحركة التتار ، فكتب بخروج العساكر جميعها والعربان من الديار المصرية [١٦٩/أ] صحبة الأمير بدر الدين الخزندار ، ورسم بأن جميع من في مملكته ممن له فرس يركب للغزاة ، وأن يخرج أهل كل قرية بالشام من بينهم خيالة ، على قدر حال أهل القرية ، ويقومون بكلفهم ، ودخل دمشق في سابع عشر صفر من هذه السنة ؛ وكان رحيل العساكر من مصر في العشرين من صفر من هذه السنة ، فوصلوا يافا ، وورد المرسوم على الأمير بدر الدين الخزندار بالنزول قريباً من يافا .

ذكر حضور السلطان إلى يافا

ولما علم السلطان خروج العساكر من مصر وحضورهم ركب من دمشق [2] السلطان في جماعة يسيرة مقدار أربعين نفراً جرائد ، ولم يستصحبوا ركاب داراً من دمشق ولا غيره ؛ فوصلوا وقد طلّبت العساكر ، وقاربت

---

١ كتبت كلمة « الخاصة » في آخر السطر بخط يختلف عن الخط الذي كتبت به الصفحة .

٢ كتبت كلمة : « من دمشق » على الهامش ، وأشير إلى مكانها هذا من النص ولعلها : « ركب السلطان من دمشق » .

المنزلة ، فاعترضهم السلطان وجماعته ملثمين ، فاعتقدهم الحجاب تركمانا ، فرسموا لهم بالترجل ، فما ترجلوا ؛ وساق السلطان منفرداً ، وجاء من خلف السناجق ، وحسر اللثام عن وجهه ، فعرفه السلاح دارية ، ودخل وساق في موكبه ، فنزل الناس ، وقبلوا الأرض ؛ وساق ونزل بدهليزه ، فرتب مصالح . وأصبح في اليوم الثاني ركب في موكبه ، ونزل فقضى أشغال الناس ولما أمسى ركب هو ومن حضر معه ، وعاد إلى دمشق المحروسة . وأصبح فركب في موكبه ؛ وفي مدة غيبته رتب الأمير [١٦٩/ب] سيف الدين الدوادار - رحمه الله - بدمشق ، وجعل عنده علائم على أوراق بيض ليكتب فيها أجوبة البريد .

ذكر ما فعله السلطان في هذه المدة

من ذلك قضية الملك شمس الدين بهادر المعروف بابن الملك فرّح ، أمير الطست للسلطان جلال الدين خوارزم شاه .

- كان هذا الملك شمس الدين بهادر المذكور ملك شميصات ، وكان والده أمير طست جلال الدين خوارزم شاه قد ملك بعد جلال الدين قلعة كيران وستة قلاع أخر في ناحية نقجوان ؛ ووصل أبوه إلى الروم ، فأقطع أقصرا فاتفق أن هذا شمس الدين بهادر وهو بشميصات كاتب السلطان وراسله ، وتقرب إليه بالإعلام بحقيقة أخبار العدو المخذول ، وذلك في سنة إحدى وسبعين وستمئة ؛ وسير مملوكاً من جهته فاستوثق من السلطان ؛ واتفق السلطان معه على نكتة غريبة عملت على الجاثليق النصراني الذي كان قد

أهان المسلمين ببغداد ، وسكن مواطن الخلافة ، وأفسد أمور المسلمين بها ؛ وأحواله أشهر من أن تذكر ، وذلك أن السلطان كتب كتاباً إلى هذا الجاثليق مضمونه : « قد عرفنا محبتك ، وتوصيتك على النصارى الذين في بلادنا ، لأجلك قد أكرمناهم [1] ، وعرفنا أخبار المغل الباطنية التي أشرت إليها » . وذُكر في الكتاب أمور موهمة لا أصل لها وهي : [١٧٠ / ا] « ان الذي التمسته لمن أشرت قد أجبنا إليه ، وتسليم الأمكنة التي عيّنت على عمارتها لمن ذكرته قد حلفنا على تسليمها ، والدواء الذي تقرر السعي في استعماله لمن أشرت إليه قد عُلم ، والله يقدر ذلك ! والذي طلبته من دهن البلسان ، والآبار المسيحية قد سيرناها ، وسيرنا قطعة من صليب الصلبوت ؛ وجهزنا ذلك إلى الرحبة ، وسيرنا إلى النائب بها إمارة حسبما قررته ، فسيّر من تثق إليه بالإمارة ليتسلم ذلك » . وسير هذا الملطف إلى النائب بالبيرة ، وقيل له : « جهّز به أرمنيا يوصله إلى الجاثليق ، وإذا جهزته سيّر عرّف الملك بهادر » . فلما اعتمد ذلك سيَّر بهادر من وقف لهذا القاصد على طريقه ، فأمسكه وسيره هو والملطف إلى أبغا بن هولاكو ، وقال : « هذا الجاثليق الذي اعتمدتم عليه ، هذا اعتماده في حقكم » . فلما وصل إليه الملطف كان فيه هلاك الجاثليق .

وتقرب هذا صاحب شميصات إلى السلطان بأشياء كثيرة من نسبة هذه الأمور ، ففطن العدو له ، ولكن بعد أن فعل فعلاته التي فعلها وأوصلها ووصّلها ، فأمسكوه وتوجهوا به إلى الاردو ، وهربت حاشيته ومماليكه إلى باب السلطان ، وهم يزيدون عن ألفي نفر من مماليك وأجناد وغيرهم ، فأحسن السلطان إليهم ، ورتب لهم الرواتب ؛ وأما الملك شمس

---

[1] « وقد أكرمناهم لأجلك » النهاية ٥٣ .

الدين بهادر فإنه هرب من العدو ونجا بنفسه ، وحضر إلى البيرة [١٧٠/ب] فتلقاه أهلها ، وسيروه إلى السلطان ، وذكر أنه أقام سبعة أيام ما استطعم شيئاً . ولما وصل تلقاه السلطان ، واعطاه الإقطاعات بالديار المصرية ، وأحسن إليه .

ومن ذلك الظفر بملك الكرج وسببه استطلاع السلطان للأخبار ، فبلغه في هذه المدة أن ملك الكرج حضر مختفياً لزيارة البيت المقدس ، فتيقظ السلطان لترصده ؛ فحضر ، وكان شخص يعرف حليته ، فسير لإمساكه ، فأمسك هو وثلاثة نفر من أعيانهم من بين الزوار ، وسُيروا إلى السلطان وهو بدمشق ، فطيب قلوبهم ، وعرفهم تيقظه لمن يدخل إلى[1] بلاده ، واحترز عليهم . ولما سكتت الأخبار عاد السلطان والعساكر فدخل إلى قلعته في رابع عشرين جمادى الآخرة من هذه السنة .

وفي شعبان من هذه السنة رسم السلطان بعمارة جسرين قناطر قريباً من الرملة لعبور العساكر ، وأحضرت لها الأصناف من كل جهة .

وفي ذي الحجة منها وصل الأمير عمرو بن مخلول ، من أكابر أمراء العربان ، من بلد العدو ، وكان السلطان قد اعتقله في عجلون ، فهرب منها ، وراح إلى التتار ثم طلب الأمان ؛ فقال السلطان ما يؤمنه إلى أن يحضر إلى عجلون ، ويقعد في المكان الذي كان محبوساً فيه ؛ فما وسعه إلاّ أن حضر يحث السوق ، وتطوق بما كان مطوقاً به من الحديد ، فما قال أحد : شبّ [١٧١/أ] عمرو عن الطوق ؛ وقعد في محبسه ، فطولع السلطان بذلك ، فعفا عنه .

---

١ كتبت كلمة « إلى » على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

ذكر طهور الأمير نجم الدين خضر

في شهر رمضان سنة اثنين[1] وسبعين وستمئة تقدم السلطان إلى جماعة من عساكره بالتأهب للعب القبق ، ورمي النشاب ، فركب من كل عشرة نفران ، فبهروا العيون بومضان الحديد ، وتهادت الخيول في أحسن حللها تهادياً يغيظ الكفار ، ويستوقف النواظر ويحيّر الأفكار ، وركب السلطان من مماليكه في ألوف كالنجوم أنواراً ، وكالأسود توثباً :

ويختال بك الطرف كما يختال نشوان
تراه وهو لا يدري درى أنك سلطان

ودخلوا في الطعن بالرماح ، وأخذ الحلقة ، ورمي النشاب ، وجعل لمن أصاب من الأمراء فرساً من خيله الخاص بتشاهيره ، والحلقة والبحرية بغلطاقا ، واستمر ذلك أياماً ، فصرف جملة من الخيل والبغالطيق ؛ وتنوع في دخوله وخروجه ، تارة بالرماح ، وتارة بالنشاب وبالدبابيس ، وساق يوماً على عادته في اللعب ، وسلّ سيفه ، وسلّ مماليكه سيوفهم ، وحمل هو ومماليكه الخواص حملة رجل واحد ، فلم ير الناس إلاّ سيوفاً تبرق ، وصدمات تطرق وهال الناس ذلك المنظر العجيب ، وكادوا يهلكون رعباً لولا أن قال لهم عفوه : « لا تَتْرِيب » .

ذاك يوم لها عن اللهو فيه وتغنّى عن مطربات الأغاني [١٧١/ب]
بصليلٍ لمرهف ، وصهيلٍ لجواد ، ورنةٍ لأذان
كل أفعاله إلى الجد تعزى ، يوم سلم ، أولا ، فيوم رهان

---

[1] كذا بدل « اثنتين » .

لا تراه في السلم والحرب إلاّ بين رمح وصارم وسنان
طرب للقسي إن هي أنّت ، ولقصف الرماح عند الطعان
ليس أوتاره سوى وتر القو س ، ولا عوده سوى العيدان
لا كما تفعل الملوك قديماً في سرور وفرحة وتهاني
بين دفّ ، وبين جنك تراهم ودنان مملوة وقناني

وفي أثناء ذلك أطلق ما لا سمع أن ملكاً أطلقه من التشاريف ، ولم يبق ملك في خدمته ، ولا أحد من أبناء الملوك ، ولا وزير ، ولا أمير كبير ولا صغير ، ولا مقدم من مقدمي الحلقة والبحرية ، ومقدمي مماليكه ، ولا مفردي ، ولا أحد من مقدمي بيوتاته ، ولا صاحب شغل ، ولا أحد من خواص كتابه ، إلاّ وشرّفه على قدر منصبه ؛ وكذلك القضاة ، وأرباب الوظائف . وفي يوم العيد طهّر الأمير نجم الدين خضر وجماعة من أولاد الأمراء فعمل في ذلك :

يا مالك الدنيا ومن بعزمه الدين نُصر
هُنيت بالعيد وما على الهنا اقتُصر
بل إنها بشارة لها الوجود مفتقر
بفرحة قد جمعت ما بين موسى والخضر
قد هيأت لوردكم ماء الحياة المنهمر
فَرِد وَرُدْ مهنأ بطول عمر قد قدر [١١٧٢]

وجرى السلطان على سجيته ، فلم يكلف أحداً تقدمة ، ولا هدية يغرمها ولم يبق من لا شمله الإحسان والتهاني ، غير أرباب الملاهي والمغاني ، فإنه لم ينفق لهم في أيامه سلع ، ولا لهم بالأرزاق بذلك طمع [١] .

---

١ راجع ما سيأتي ١٨٥ أ .

ذكر توجه الملك السعيد إلى الشام

في هذه السنة رأى السلطان أنه لا يخلي مملكة من ممالكه من تشريف دست سلطانها بحلول صاحبه ، ولا من يقوم بواجبه ؛ وكانت الأخبار متواردة بحركة التتار ، فرسم السلطان لعيسى بن مهنا الإغارة ، فوصل إلى الأنبار ، فوجد بها جماعة من عسكر التتار ، وكان السلطان قد اختفى خبره ، فلما وصل عيسى إلى الأنبار توهموا أن السلطان دهمهم ، فعدّوا إلى ذلك البر ، واقتتل عيسى وخفاجة ، وأقام القتال نصف نهار . وكانت هذه الإغارة في ثامن عشر شعبان . ووصل هذا الخبر إلى أبغا ، فدخل بعسكره ناكصاً على عقبيه ، وانهزم على أسوإ الأحوال ، ﴿ وَرَدَّ اللهُ الذينَ كَفَروا بِغَيْظِهِم لَمْ يَنالوا خيراً وَكَفَى اللهُ المُؤمِنِينَ القِتال ﴾[1] .

وجرد الأمير شمس الدين ، استاذ الدار ، وجماعة من أكابر الأمراء والخواص صحبة الملك السعيد ، فتوجه ليلة الثاني عشر من رمضان بعد عشاء الآخرة ، ولم يعلم بذلك أحد [١٧٢ / ب] .

قد أرعبوا طيف الخيال ، وروّعوا وفد النسيم فلا يخبّر عنهمُ
وحموا من الورق الأراك فلا ترى بين الغصون حمامة تترنم

وفي سادس وعشرين منه دخل المدينة عَلى حِين غَفلةٍ مِن أهلِها ، ولم يدر نائب السلطنة بالشام به إلاّ وهو بينهم في سوق الخيل ، فقبلوا الأرض

---

[1] القرآن الكريم ، الأحزاب ، ٢٥ .

ودخل قلعته كما يدخل الغمض بين الأجفان ، أو كما تعود العافية إلى جسد الإنسان .

وتأنست بالقادمين منازل كانت عليها وحشة مذ بانوا

وأراد أن يلعب القبق فتأخر من أجل كثرة الأمطار .

ملك أينما توجه يلقاه سحاب ورحمة ورخاء
فهو غيث الثرى وغوث البرايا أينما حلّ حلت النعماء

وفي ليلة العيد خلع على أمراء الشام والمقدمين والمفاردة والأكابر ،وخرج متصيداً بالمرج ، ثم توجه إلى الشقيف وصفد شاهدهما وعاد إلى مصر فوصلها في حادي عشرين شوال .

ما سمعنا من قبلهم بملوك يسبق الريح وفدهم حين يسري
بينما قيل إنهم في شآم وإذا هم يرون في أرض مصر
كيف راحوا ؟ وكيف جاؤا يرانا[1] حيرة في أمورهم ليس ندري
أتراهم ملائك أم ملوك في عفاف وفي اختفاء ونصر[2]

---

١ كذا في الأصل ولعلها « ترانا » .
٢ كذا في الأصل ولعلها « ونشر » .

ذكر أمور تخللت هذه المدة

منها نكتة غريبة: [١٧٣ / ا] ورد كتاب الغرس بن شاور ، والي الرملة ، يذكر أنه في هذه السنة حصل لأهل البلاد مرض وحمايات من شرب مياه الآبار ، وزاد ذلك ، فحضر إليه رجل نصراني فقال هذه الآبار قد حاضت كما جرى في السنة التي جاء التتار فيها إلى الشام ، وأن الفرنج نفذوا[١] إلى قرية تسمى عابود في الجبل أخذوا من مائها ، وسكبوه في الآبار فزال الوخم . فلما سمع ابن شاور ذلك سير إلى الضيعة المذكورة أخذ منها ماء وسكبه في الآبار التي بيافا ، وكان الماء قد كثر فيها ، فلما سكب الماء فيها نقصت إلى حدها المتعارف . وقيل إن هذه[٢] الآبار إناث تحيض وآبار الجبل ذكور ، ومنها الآبار التي في عابود .

وفي سلخ شوال وردت كتب النصحاء بأن الفرنج أقاموا انبرُوراً في بلد الأمانية اسمه المركيس رُودَلف دفريترْكو[٣] . وفي ذي القعدة وردت الأخبار بأن يَغْمراسن ، صاحب تلمسان ، توفي ، وهو الذي كان يجاهد الفرنج من تلك الجهات ، وأن يعقوب بن عبد الحق ، ملك بني مرين أخذ مكانه ، وأخذ مدينة سبتة بالحصار والجوع .

١ « نقدوا » في الأصل .

٢ « هذا » في الأصل .

٣ « دفريركوا » في الأصل والمقصود ردولف أوف هبسبرج اختير ملكاً في أول يوم من اكتوبر ١٢٧٣ وتوج في ٢٤ منه .

واستهلت سنة ثلاث وسبعين وستمئة

في المحرم من هذه السنة وصل الملك المنصور ، صاحب حماه ، إلى خدمة السلطان ، فأحسن إليه وإلى ولده وأخيه ، وعاد إلى بلاده .

ذكر توجه السلطان إلى الكرك [١٧٣ / ب]

في ثامن صفر توجه السلطان على الهجن من طريق البدرية ، فوصل إلى الكرك والشوبك ، وأقام بالكرك ثلاثة عشر يوماً ، وعاد إلى قلعته في ثاني وعشرين ربيع الأوّل .

ذكر رمي الملك السعيد البندق

في هذه السنة توجه السلطان إلى العباسة ، والملك السعيد في خدمته ، فصرع الملك السعيد في ثامن وعشرين جمادى الآخرة أوزة خَبيّة ، وقيل له : « لمن تدعي ؟ » فقال : « لمن أدعو بحياته ، ومن أتقرب إلى الله بدعواته ، الذي حسبي افتخاراً أن أقول : والدي ، ومن يتمرن لصرع أعدائه ساعدي » . فقبله والده قبولاً حسناً ، ووهبه من كل شيء ولو استطاع لوهبه من عينه وسنا[1] .

---

[1] كذا في الأصل ولعلها « من عينه سنى » .

في هذه السنة ورد الخبر بموت زيتون [1] في عكا ؛ وكان من أكبر كنود الفرنج من جو البحر ، وكان حضر بجماعة كبيرة إلى عكا ، وقد ذكرنا وقعته مع السلطان في المرج [2] .

ذكر سرقة رؤساء شواني المسلمين من عكا

قد ذكرنا أسر الفرنج لهم بقبرس [1] ، وكان السلطان قد سير الأمير فخر الدين المقري الحاجب إلى صور لابتياعهم ، فتعالى الافرنج في الرؤساء وقالوا : « هؤلاء جمرة البحار ، وفرصة الأعمار » . وأما القواد والرماة فإن جماعة من الفرنج اشتروا منهم وفادوا بهم أسرى [١٧٤/أ] وأطلق السلطان لهم بهم جماعة ، وبقي الاحتفاظ على الرؤساء ، وهم ستة نفر منهم رئيس اسكندرية ، ورئيس دمياط ، وأبو العباس المغربي وغيره ؛ وجعلهم الفرنج في حبس حصين في قلعة عكا ، فرسم لسيف الدين خطلبا أحد النواب بصفد بسرقتهم ، فأرغب المتوكلين بهم بالمال حتى دخل إليهم بمبارد ومناشير ، فسُرِقوا من جب القلعة ، وخرجوا في مركب ، وكان لهم خيل واقفة فركبوها ، ولم يدر بهم أحد في عكا ، فوصلوا إلى القاهرة ، وقامت فتنة بعكا بسببهم .

في هذه السنة ورد كتاب صاحب الحبشة واسمه مَحْرا ملك بطلب

---

١ أوليفر Oliver .

٢ راجع ما سبق ١٣٩ .

٣ راجع ما سبق ١٥٢ .

مطران ، وانه يسير إلى صاحب اليمن ما يلزمه ليرسله صاحب اليمن إلى السلطان .

قال مؤلف السيرة : أما امحرا فإنه إقليم من أقاليم الحبشة وهو الإقليم الأكبر ، وصاحبه يحكم على أكثر الحبشة السحرت إلاّ القليل مثل بلاد الدانوب والجرل[1] ، وصاحب بلاد امحرا يسمى حطى يعني الخليفة ، وكل من ملكها يسمى بهذا النعت ؛ ومن ملوك الحبشة يوسف بن ارسماية ، صاحب بلاد حداية وشوا وكلجور وأعمالها وفوقهم ملوك مسلمون . وأما بلاد الزيلع وقبائلها فما فيها ملوك إلاّ قبائل ، وهم سبع قبائل مسلمون ، وخطباؤهم يخطبون باسم مقدميهم . وقصد صاحب اليمن أن يبني عندهم جامعاً ليخطب [١٧٤/ ب] له به فما مكن من عمارته . والطريق إلى امحرا من مدينة عوان ، وهي ساحل بلاد الحبشة وعساكرهُ كثيرة ويحكم هذا الملك على أكثر ملوك الحبشة .

ذكر الإغارة على مرعش

في هذه السنة توجه عسكر حلب صحبة الأمير حسام الدين العين تابي إلى جهة مرعش ، وأغاروا على بلاد سيس ، وحازوا غنائم كثيرة ، وقلعوا أبواب ربض مرعش ، وغرق ربيعة بن الطاهر بن غنام في عبر هناك .

توفي الأمير فارس الدين الأتابك [رحمه الله تعالى !] في تاسع جمادى الأولى من هذه السنة ؛ وأحسن السلطان إلى مخلفيه .

---

١ « الجرلي » مفضل ٣٨٦ .

ذكر غزوة سيس

وكان صاحب سيس قد قطع الهدايا المقررة عليه ، وخالف شروط الهدنة من أنه لا يجدد بناء ، ولا يحصّن قلعة ، وصار لا يطالع بخبر صحيح ، كما تقرر معه بمقتضى الايمان ، ويلبس الأرمن السراقوجات ، ويخيف بهم القوافل ، ويدعي أنهم عسكر القان ؛ وحصلت أذيّة للتجار من جهة كينوك وسيّر السلطان من خرّب كينوك — كما ذكرنا [1] — وتضور صاحب سيس من ذلك ، فقيل له : « ذلك بما قدمت يداك ، وواحدة بواحدة جزاء » . وسير السلطان عرفه انه قاصد سيس ، وصار يستميل الفرنج إلى التتار ويقلل المسلمين في عيونهم ؛ ومما اعتمده أن تركماناً [١٧٥ / ا] تجاراً وصلوا من الروم ، ومعهم خيل وبغال ، فطلع عليهم أهل كينوك ، فقالوا لهم هذه الخيل للسلطان ، فقاتلوهم .

ولما كثر منه العناد والضرر للبلاد والعباد ، وعمّ الممالك فسادهم ، ﴿ والله لا يُحبُّ الفَساد ﴾ [2] ، انتخى السلطان للأمة ، وعادت الرحمة التي في قلبه على المذكور نقمة ، والمصالحة مكافحة ، والموادعة منازعة ، والهدنة أهنة ؛ واسر في نفسه قصده ، ولم يبده لأحد ، بل أظهر الحركة إلى الشام ، وقرر عرض عسكره راكبين جميعهم في يوم واحد ، تحت قلعته ؛ ولبس السلطان ، ولبست مماليكه لامة الحرب والخود المذهبة ، حتى لم يعرف السلطان من بينهم ، وصار يمر على طُلب طُلب يستعرضهم ؛ وساقوا

---

١ راجع ما سبق ١٦٧ ب .

٢ القرآن الكريم ، البقرة ٢٠٥ .

ونزلوا في المخيم بباب النصر ، وطلب المقصرين في عددهم ممن لم يكن لجوشنه أفخاذ وأكمام، وأعطاه ما يكمل به جوشنه . وخرج في ثالث شعبان من هذه السنة ، ووصل إلى دمشق في سلخ شعبان ، وكان يوم ثلج ألبس الأرض أثواباً ، ﴿وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَت أبوَاباً﴾[1] ، وخرج عسكر الشام ملبسين أيضاً . وخرج السلطان في سابع رمضان ، ولما وصل حماه خرج السلطان الملك المنصور ، صاحب حماه ، في خدمته بعسكره ، وركب السلطان مختفياً ، فما أحس به صاحب حماه إلاّ وهو سائق في موكبه خدمة له ، وإقامة لحرمته في بلده . ثم سار السلطان وفي خدمته العساكر وجميع العربان وعرضهم ركباناً ، [١٧٥ /ب] وجرد منها ابن عيسى ، وحسام الدين العين تابي إلى جهة البيرة بصورة جاليش العسكر المنصور ، فوصلوا إليها . وأما السلطان فإنه لما وصل إلى نيرب سرمين رحل منه على جهة الدربساك وأخر الثقل وبعض العسكر صحبة الأمير شمس الدين سنقر جاه الظاهري بنيرب سرمين ؛ وجرد الأمير عز الدين الأفرم ، أمير جاندار ، ومبارز الدين الطوري لتمهيد جوانب النهر الأسود ، وقطعته العساكر بمشقة : ووقف السلطان حتى عدى بأكثر الناس ونزل بين الدربساك وبغراس ، وأمر جماعة من مقدمي الألوف أن يتوجه كل منهم إلى جهة ، فطلعوا الجبال ، وأمر الناس بوقود الشموع ، واقتحم الناس الجبال ، فما سأل أحد عن طريق ، ولا بالى بمضيق ؛ ومروا وعليهم جبال من الحديد لامعة ، وسنابك الخيل تتلوى على الجبال : ﴿إذا وَقَعَتِ الواقِعَةُ ، لَيسَ لِوَقعَتِها كاذِبَةٌ ، خافِضَةٌ رافِعَةٌ﴾[2] . والأرضُ تَرُجُّ رَجّاً ، والجِبالُ تبُسُّ

---

١ القرآن الكريم النبأ ١٩ .

٢ القرآن الكريم ، الواقعة ١ — ٣ .

بسّاً ، وتَغْدو هَباءً مُنْبَثّاً [1] ، والكتائب المنصورة كما قال البحتري :

سيوف لها في كل دار غداً رحى   وخيل لها في كل دار غداً نهب
علت فوق بغراس فضاقت بما جنت   صدور رجال حين ضاق بها الدرب
وما شك قوم أوقدوا نار فتنة   وسرت إليهم أن نارهمُ تخبو

وكان السلطان قد حمل ثلاثين مركباً لأجل التعدية، ونزل [١٧٦ / ١] السلطان داخل باب اسكندرونة ، خلف السور الذي كان البيل هَيْتُوم ، والد ليفون صاحب سيس ، قد بناه ؛ ثم رحل إلى قريب المثقب ؛ وملكت العساكر جسر المصِّيصَة ، وملكوا المصِّيصة ، وغلبت العساكر على ما فيها ، وقتلوا من وجدوه بها ؛ وغنم الناس ما لا يحصى كثرة من الجاموس والبقر والغنم ، وحضر إلى الطاعة جماعة كبيرة من التركمان والعربان بمواشيهم وخيولهم فجهزهم إلى البلاد ، وساق مطلباً في تاسع وعشرين رمضان ، فوصل سيس فعدل عنها ، وأرسل الأعنة ، وكشف ما على الكنائن من الأمكنة ؛ ووصل دربند الروم ، ووجد شباباً وبقايا حريم للتتار أُخذن ؛ وعاد السلطان فبات في تلك الجبال الشم ، وناداها فأسمعت حوافر خيله منها الصم . وعيّد بمدينة سيس ، وهي كرسي المملكة ، والأصل في الأمور المهلكة ، وبها بستان متملكها ومناظره التي تذهل الناظر ، ويحقق المؤمن أنها جنة الكافر ؛ ونزل السلطان بربعه فساء صباحاً ، وكان بستاناً فصار أرضاً براحاً ؛ وعادت الأطيار التي كانت به تغني عليه تنوح ، والمياه الجارية به كأنها له دمع مسفوح ؛ وكنائسه كنست ، ومعالمه طمست ، وانتهبت مدينة سيس وهدمت وأحرقت ؛ وتحصن أهلها بقلعتها . هذا وكتب

---

[1] راجع القرآن الكريم ، الواقعة ٦ .

البريد متواصلة حيث حل السلطان [١٧٦ / ب] .

ولما فرغ من إحراق مدينة سيس ، وهدم قصور التكفور ، وتشويه منظر مناظره ، وهتك ستّر ستائره ، وعادت الجاليشية بما غنموه من حريم للمغل وأولاد وسيقت الغنائم كأنها قطع الليل المظلم عاد السلطان ، وشرعت العساكر في رعي الزروع ؛ ووصل الأمير جمال الدين المحمدي ، والأمير عز الدين الدمياطي إلى طرطوس ، وجدوا بها من الخيل والبغال مقدار ثلاثمئة رأس فاستاقوها ، وتوجه مبارز الدين الطوري وعز الدين كرجي إلى قريب البحر ، وقاتلوا جماعة من العدو ، ووجدوا مراكب في البحر ، فدخلوا إليها وأخذوها وقتلوا من فيها ؛ ووصل الأمير سيف الدين الزيني إلى قلعة البرزين ووصل الأمير بدر الدين الأيدمري إلى آذنة ، وغنموا نساءً وأطفالاً ؛ وأغارت العساكر في تلك الجبال ، وقتلوا رجالة كثيرة ؛ ووجد العسكر الشامي جماعة من افرنج وأرمن ، فقتلوا الجميع ، ووصل الأمير بدر الدين بيسري والأمير سيف الدين ايتمش السعدي إلى إياس ، وكان خبر العساكر قد وصل إليهم من جهة الفرنج ، فنقلوا أموالهم إلى المراكب ، وأحرقت العساكر وقتلت جماعة كبيرة في البر والبحر ، وحضر بعد ذلك كتاب والي إسكندرونة[١] متضمناً أن العساكر لما قصدت إياس ركب جماعة منها من فرنج وأرمن قريب من ألفي نفس هاربين ، فغرقوا [١٧٧ / ا] جميعهم ؛ فانظر إلى سعادة هذا السلطان كيف البحار لا تنجي له عدوّاً ، والقفار لا تخفي له رواحاً ولا غدوّا ،

« ومن لم يمت بالسيف مات بغيره »

---

١ النهاية ، ٨٧ ب وفي الأصل « اسكندرية » .

وأخذ الأمير بدر الدين ، أمير سلاح ، جشارات خيول للمخذولين .

هذا ما يتعلق بغزوة سيس ، وأما العسكر والعربان المتوجهون إلى البيرة فوصلوا رأس عين ، وغنموا غنيمة كبيرة ، ووقع الرعب في التتار فولوا منهزمين ؛ وكان هذا قصد السلطان أنه يشغل تلك الجهة . وعاد العسكر سالماً منصوراً .

ووصل السلطان إلى المصيصة، وأحرقت من الجانبين. ولما تكامل حضور الأمراء بالغنائم، وخروج التركمان والعربان الواصلين إلى الطاعة من الدربندات رحل السلطان ؛ وعبر على بحيرة بها أغصان ملتفة مثل الغابة ، بها جزائر ، وقد تحصن فيها جماعة من تلك البلاد ، ونقلوا إليها حريمهم وأموالهم ، فرمى العسكر نفوسهم فيها عوماً بالخيل ، وقتلوا وسبوا ؛ ثم عبر على تل حمدون ، وعلى قلعة النقيرة ، وعاثت العساكر فيهما . وخرج من الدربندات ، فشاهد الغنائم قد ملأت المروج طولاً وعرضاً ؛ ووقف بنفسه وفرق الغنائم ، وهي ألوف لا تحصى ، وما نسي منها صاحب علَم ولا رب قلم ، وما أخذ لنفسه شيئاً من تلك الغنائم . ولما فرغ من القسمة سار فنزل بدهليزه بحارم . وعمل مؤلف السيرة في ذلك :

يا مالك[1] الأرض الذي عزمه   كم عامر للكفر منه خرب
قلبت سيسا فوقها تحتها   والناس قالوا سيس[2] ما تنقلب [١٧٧/ب]

وقال أيضاً :

---

١ « ملك » في الأصل .
٢ النهاية ٨٨ وفي ابن الفرات ٣١/٧ « لا تنقلب » .

أي يوم بنصره قد حبينا وبه الله قد أقر العيونا

يوم جزنا بلاد سيس وقلنا : « أي نصر من ربنا قد جزينا »

إذ تبدى السلطان بين نجوم من بني الترك يعشقون المتونا

يركضون الجياد في حلبة النصر فأكرم بمثلهم راكضينا !

كل شقراء كالسلاف ، وصفرا ء كتبر قد سرّت الناظرينا

وجياد من الأداهم والشهب ترينا ليلاً وصبحاً مبينا

وكميتٍ كم راح حي كميتٍ ، من عدو بها لدى الغابرينا[1]

فوقها من بني الحروب رجال لم يزالوا لربهم شاكرينا

كم أذلّوا القروم نهباً وأسراً في انتصار وكم أعزوا القرونا

فتحوا المدن والحصون وكفوا كافريها وسلموا المسلمينا

بسطا سيد الملوك ومن قد صار حصناً للمسلمين حصينا

ركن دين الإله بيبرس والظا هر خير الملوك دنيا ودينا

أسد الله في الوجود لما[2] أتاها بالسطا منه أخذه[3] الظالمينا

وتولى ليفون منه حسيراً خائباً خائفاً لعيناً مهينا

وكذاك[4] التتار خوفاً ورعباً قد تولوا من بأسه هاربينا

آم لو أنهم أقاموا ، فقالوا : « أي يوم لشره قد خبينا [١٧٨/ ا]

أنذروا بالجيوش أبغا ، فولى هارباً لا يكذب الناقلينا

وترامت كل البلاد وقالت : « ليتنا مثل سيس كنا غزينا »

---

١ « العابرين » ابن الفرات ٣٢/٧ .

٢ « لما » هنا زائدة كما يبدو .

٣ « اخذل » ابن الفرات ٣٢ .

٤ كذا في ابن الفرات ٣٢ وفي الأصل « وكذلك » . ولا يستقيم به الوزن .

ليت جيش السلطان وافى إلينا ! ليت أنا بخيله قد وطينا !
ليت أنا في حكمه وفداه ، كل ما للأنام أودع فينا !
ليت أن السلطان جاء إلينا ، ليرانا لحكمه طائعينا !
لو قدرنا نأتي إليه أتينا ، ولكنّا من جملة الوافدينا
جعل الله عمره في امتداد يتفداه سائر العالمينا !

وقال أيضاً :

يا ويح سيس أصبحت نُهبة ، كم عوق الجاري بها الجارية
وكم بها قد ضاق من مسلك يستوقف الماشي بها الماشية

وما نظمه أيضاً قبل ذلك عند مهادنة التكفور :

ما هادن الأرمنَ سلطانُنا إلاّ لأمر فيه إذلالهم
حتى له تكثر أموالهم وللظّبي تكثر أطفالهم

ذكر ما تضمنه التاريخ من بلاد سيس

المصيصة : بناها عبد الملك بن مروان ، ذكره ابن عساكر في التاريخ الكبير ، وذلك في أيام أبيه في سنة أربع وثمانين للهجرة النبوية ، وغزا بلاد الروم [١٧٨/ ب] في سنة اثنتين ، وسنة ثلاث وثمانين ، والبناء كان في سنة أربع .

وأما طرسوس : فإنها من المدن القديمة ، وخُبِّرت أنه الآن على بابها

مكتوب بناها[١] . ذكر ذلك الطبري . وبها قبر المأمون عبد الله بن هرون الرشيد الخليفة ، لأنه كان قد وفد عليها غازياً مرة بعد أخرى ، فمات في موضع يعرف باليذندون[٢] ، قريب طرسوس في سنة ثمان عشرة ومائتين[٣] ، ودفن في طرسوس في دار خاقان الخادم[٤] ، وقبره الآن معروف هناك . وتسمى المصيصة بعين زربة ، وطرسوس وآذنة وما يليها تسمى قيليقا . والمصيصة بلد بقراط الحكيم ، وقيل بلده حمص .

وأما نهر جهان فهو نهر جيحان ، والأرمن تجعل الحاء هاء[٥] ، وهذا النهر أحد الأنهار[٦] الثلاثة وهي سيحان وجيحان وبردان ، وهي أنهار بطرسوس والمصيصة وآذنة ، وتخرج من بلاد الروم ، ثم يفضن في البحر الملح . وأما جيحون فهو النهر الذي ينحدر متبحراً إلى خوارزم. وأوّل نهر جيحان عند طول ستين جزء[٧] يتحدر نحو الجنوب حتى يمر بركن مدينة سيسمة من بلاد الروم ، ويمر بين جبلين منحرفاً نحو المغرب إلى أن يصير إلى مدينتين كانتا للروم يقال لهما برسا[٨] وزبطرة ، فيمر بينهما ، ثم يمر بين جبلين راجعاً إلى ما كان عليه من قصد ناحية الجنوب حتى يمر بثغر المصيصة فيما بين هذا الثغر وبين جبل اللكام ، ثم يصب إلى البحر الشامي ؛ وطول هذا النهر

---

١ لعلها « مكتوب اسم من بناها » .

٢ « بالبدندون » مفضل ٣٩٢ وهو الصحيح .

٣ مفضل ٣٩٢ وفي الأصل « ثمان عشرة وثمانين » وهو خطأ .

٤ راجع الطبري ٣/٢/١١٤٠ .

٥ « تجعل الهاء حاء » في الأصل .

٦ « أجل الانهار » مفضل ٣٩٢ .

٧ « جزفا » مفضل ٣٩٢ .

٨ « ترسا وزبطرة » مفضل ٣٩٢ .

من ابتدائه إلى [١/١٧٩] مصبه سبعمائة ونيف وثلاثون ميلاً . والجبل المحيط بسيس وبلادها يسمى جبل اللكام ، وطوله مئة ميل ، والميل من الأرض منتهى مد البصر ، والفرسخ ثلاثة أميال .

ذكر استيلاء بيت لاون على بلاد سيس

وهذا بيت لاون هم بيت هذا التكفور . وكانت هذه البلاد يحميها متملك[١] الروم ، ويحفظها بجنده ، فاستولى عليها مَليح بن لاون ، وذلك لأن السلطان الشهيد نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله ! كان يشد منه ، ويعينه ؛ وكان قصده أن يسلط الكفرة على الفجرة . فقوى مليح على البلاد ، فامتعظ متملك الروم ، وسيّر نسيبه باندر نيقوس[٢] في جماعة من جيوش الروم فكسره مليح ، وأسر من مقدميهم ثلاثين أسيراً ؛ وكانت هذه الوقعة في يوم الأحد آخر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وخمسمئة . وبلغ هذا الخبر إلى الشهيد نور الدين فأحسن إليه وخلع عليه ، وكتب إلى بغداد يعظم أمر الروم ، ويذكر أن هذا مليح الأرمني من جملة غلمانه ، وأنه كسر الروم ، ويمت على أهل بغداد بهذا القدر . ومن ذلك الوقت ثبتت قدم بيت التكفور في هذه البلاد نيابة عن الشهيد لا غير ، واستمر على ذلك[٣] .

---

١ « يحمها ملك » مفضل ٣٩٤ .
٢ صحتها اندرو نيقوس .
٣ راجع ابن الأثير ٢٥٥/١١ .

قال مؤلف السيرة : « وما زالت بلاد سيس [١٧٩ / ب] هذه تعرف بالدروب وتعرف بالعواصم ، وبها كان الغزو ، وهي الثغر ، وفيها كانت الملاحم والحروب ، وأهلها هم أهل الرباط والغزو والجهاد والمثاغرة . وكان أمرها مضافاً إلى مملكة مصر ، وقد أحضر [١] أحمد بن طولون ، أمير مصر فافتتح أنطاكية في محرم سنة خمس وستين ومئتين من سما [٢] الطويل ، ومضى أحمد إلى طرسوس فدخلها في شهر ربيع الأوّل من السنة المذكورة ، وهي يومئذ في بلاد الإسلام ، ونزل بها فضاقت على عساكره ، وغلا السعر بها فشق على أهلها [و] قالوا : « نحن في ثغر ، وقد آذيتنا واستنفدت الأقوات التي عندنا ولو حاصرنا عدو ما جرى علينا أكثر مما جرى علينا منك من المضايقة في المساكن والأقوات » ، وشهر أهلها السلاح ، وقاتلوه فأمر أصحابه بالهزيمة بين أيديهم ، فانهزموا ، وغنم أهل الثغر أمواله ، وقماشه [٣] . وكان مقصود أحمد بن طولون أنه يفهم العدو قوة أهل طرسوس ، وأنهم أصحاب منعة وقوة ، وأن مثل الأمير أحمد بن طولون انهزم بين أيديهم وعساكره ملأت الأرض ، لتنكف أطماع العدو عنها ، ثم إنه سير إلى أهلها يفهمهم الصورة ، وولّى والياً من جهته اسمه طخشى بن بلبرد [٤] ، وكان عزمه إقامته في هذه الثغور لكن بلغه خروج ابنه في مصر عن طاعته ، فعاد إلى مصر ؛ ثم بعد ذلك عاد أحمد إلى طرسوس : وكان لما وصل إلى المصيصة عصى عليه بازمان الخادم ، فبعث أحمد جيشاً فيه [١٨٠ /أ] أكابر أصحابه ، يدعوه إلى الطاعة ، ويؤمنه على نفسه ، ولا يؤاخذه بما جرى منه ؛ فما

---

١ كذا في الأصل ولعلها « حضر » .
٢ كذا في الأصل وفي الطبري ٤/١٩٢٩ « أوقع أحمد بن طولون بسيما الطويل » .
٣ راجع ابن الأثير ٧/٢١٦ – ٢١٧ .
٤ كذا في الأصل .

أجاب ؛ ووجده قد تحصن ، واستظهر بنصب المنجنيقات على الأسوار ؛ فجاء أحمد بجنوده ، ونزل عليها ، وكان البرد شديداً والأمطار دائمة ، والثلوج كثيرة ، فعمل بازمان الخادم مكيدة ، وذلك أنه سيّب الماء على العسكر ، فصاروا يعتقدون أنه مطر ، فما فطنوا بذلك حتى غرقوا وتلف كل شيء لهم ، فرحل أحمد منهزماً إلى آذنة ، فاقام بها ، ثم ارتحل إلى المصيصة ، وحصل له مرض ، فعاد إلى مصر ، فتوفي [1] .

وفي أيام كافور الاخشيدي الخادم الذي كان سلطان مصر حصل التهاون في أمر الثغور ، وقصدها الملك النقفور [2] الرومي ، فاحتمت عليه ، فحرق ضياعها ، وقطع أشجارها ، وخرّب ما حولها من البلاد ؛ واتصل ذلك بكافور فتهاون ، فرأى ليلة في المنام كأنه طلع إلى السماء ، ومعه قدوم ، فصار يهدم في السماء بيده ؛ فلما أصبح أحضر المفسر وقص عليه هذا المنام . فقال : « أنت رجل تهدم الدين ، وتبطل الجهاد » . فعند ذلك استيقظ كافور لنفسه ، وجهز مقدماً يعرف بابن الزعفراني ومعه جماعة ، وقال : « ابصروا ضيعة كبيرة لها دخل مثل بلاد طرسوس التي خربت ، ويكون لهذه الضيعة سوق وحمامات ، حتى احبسها على طرسوس » . فقالوا : « بوصير المادراي » .

---

١ العبارة التالية مكتوبة على الهامش : « ووجدت بخط شمس الدين بن خلكان – رحمه الله ! – ترجمة ابن طولون ذكر فيها أنه توفي سنة سبعين ومئتين .

٢ « التقفور » في الأصل .

ذكر نزول السلطان في مرج انطاكية [١٨٠ / ب]

ثم إن السلطان رحل ، وخيم بمرج أنطاكية ، وانبثت العساكر في تلك المروج ، وأقام حتى رعت العساكر تلك الأعشاب ، وحتى سيرت المواشي والغنائم . وجرد الأمير شمس الدين سنقر شاه الظاهري ، وشمس الدين سنقر الألفي ، والأمير سابق الدين ، أمير مجلس الناصري ، إلى عين تاب واستطلعوا الأخبار ، وحضروا بعد رحيل السلطان .

ذكر منازلة حصن القصير

هذا الحصن مما لم يفتتحه صلاح الدين [رحمه الله !] ، لما وصل إلى تلك الجهات ، وافتتح ما افتتح منها مثل بغراس والدربساك ، ومهادنة انطاكية وذلك في سنة أربع وثمانين وخمسمئة . وما زال هذا الحصن لمن يكون بابا رومية الذي هو خليفة الفرنج ، وأمره راجع إلى بطرك انطاكية والفرنجية تميزه وتؤثره ، وأهله أهل شره وفساد ؛ وكان مضرة على الفوعة وتلك الجهات . ولما فتح السلطان انطاكية سأل أهل القصير الهدنة فأجيبوا إلى ملتمسهم ، فما وقفوا عند الهدنة ، وصاروا يحيفون في مناصفة البلاد التي للقصير ، ويظهرون خلاف ما يسرون ، وَيُخادِعونَ اللهَ وَرَسولَهُ ﴿وَما يَخدعُونَ إلاَّ أنفُسَهُم وَما يَشعُرونَ﴾[1] .

---

١ القرآن الكريم ، البقرة ٩ .

ولما وصل صمغار[1] إلى جهة حارم كان أصحاب القصير أدلاء الكفار ، وضربوا البشائر على الأسوار ، ولما توجه السلطان في هذه السنة إلى البلاد الأرمنية أمرهم [١٨١/ا] أن لا يبيعوا خمراً على أحد من العساكر المنصورة ، فخالفوا المرسوم في ذلك . وكان قد رسم الأمير سيف الدين الدوادار بالتردد إلى كليام[2] ، النائب بالقصير ، وإظهار مصافاته فاعتمد ذلك، وتوجه الأمير سيف الدين المذكور إليه في خامس عشر شوال ، ومعه جماعة من السلاح دارية بصورة أصحاب له ، فوصلوا القصير ، وأظهر الأمير سيف الدين غضباً بكونه ما خرج للقائه ، وقصد الرجوع ، فبلغه ذلك ، فخرج مسرعاً ليسترضيه ويرده ، فرجع الأمير سيف الدين بعد أن استدرجه في البعد عن القلعة بصورة امتناع من العود ، ولما واجهه كارشه ، وتسلمه واحد بعد واحد حتى خرجوا به ولعب السيف بمن كان معه ؛ وأغلق باب الحصن ، وأتى بكليام إلى السلطان ، فكتب إلى أصحابه بالتسليم ، فما التفتوا على كلام كليام ؛ وجرد جماعة من أمراء حلب ، وهم : سيف الدين الصروي ، وشهاب الدين مروان ، والي أنطاكية ، وجماعة رجالة ، فنازلوا القصير ؛ وتوجه السلطان إلى دمشق ، واستصحب كليام معه ، وكان شيخاً كبيراً ، وكان أبوه[3] في الأسر ، فمات كليام بدمشق بعد اجتماعه بأبيه . ولما اشتد الحصار على القصير ، وعدموا الأقوات سلموا الحصن المذكور في ثالث وعشرين جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وستمئة ، وحمل أهله إلى الجهات التي قصدوها .

---

١ قائد قوات المغول في آسيا الصغرى . راجع ما سبق ١٥٨ ب .

٢ جيوم Guillaume .

٣ كذا .

قال مؤلف السيرة : ورأيت في كتاب من إنشاء[1] القاضي الفاضل ما يدل على أنه [١٨١/ ب] حصن أنطاكية ، وأن السلطان صلاح الدين كان صالح عليه وهو من كتاب إلى متملك الروم يذكر فيه حديث ملك اللمان : « وقد علم الملك ان صاحب أنطاكية لما ورد عليه ملك الأمان بدا بمن استنجده ، وفتح له بلده ، وأمن إليه مغتراً ، ووثق به متخيراً لا مضطراً ؛ واستولى على أنطاكية ، وحاز قلعتها ، وأنزل منها صاحبها ؛ وذلك حصن القصير الذي فيه البطرك ، وفيه الذخائر التي خرج بها الفرنج في ذمة وفائنا والذهب والفضة التي وقفنا فيها عند أيماننا ؛ فندم من كان يستنجده ، وأخرج من يده ما كانت تحويه ، وعرف أن الذي أبقيناه عليه بالوفاء لم يبقيه[2] تلك[3] الأمان عليه بالغدر » .

ذكر وفاة الابرنس ، صاحب طرابلس

وما جرى بعد وفاته

في تاسع شهر رمضان توفي الابرنس بيمند بن بيمند ، صاحب طرابلس ، ووصل ملك قبرص ، وهو ابن عم البرنس ، إلى طرابلس لتعزية ولده ؛ وكان السلطان قد كتب إلى ابن البرنس ، وهو يقول له : « ان اللاذقية ما برحت للمسلمين ، ولما راح صاحب حلب تغلب أبوك وأخذها ظلماً

---

١ كتبت عبارة « من إنشاء » على الهامش وأشير إلى مكانها من النص .

٢ كذا بدل لم يبقه .

٣ يبدو أنها « ملك » أي « ملك الألمان » وهو فردريك أوف هو هنستازفن .

وعتواً ؛ ونحن لنا في اللاذقية النصف ، فنترك النصف الآخر فإنه من حقوق المسلمين » . فلما سمع الفرنج ذلك قووا البرج ؛ وخاف المسلمون عاديتهم ، فرسم السلطان لركن الدين ، النائب في بلاطنس ، بنقل المسلمين الذين باللاذقية [١٨٢/ا] [إلى البلاد السلطانية ؛ فوصل كتاب نائب البرنس الذي باللاذقية][1] يذكر بأنهم ما برحوا في الطاعة وقد عز عليهم خروج من عندهم . ووردت رسل ملك عكا، وهو يشفع عند السلطان في استمرار الصلح ؛ فترك السلطان الحديث في اللاذقية . وكان قد سير عسكراً للحوطة على عرقا ، ومغل بلادها ، فسير ملك عكا وقبرس يتوسل في أمرهم ، وسأل إنفاذ من يوثق به لأجل الدعاوى ، ويكون منه إلى نواب السلطان ، ومن ملك عكا إلى نواب البرنس ، فسير الأمير سيف الدين الدوادار ، لأن الأمور جرت على يديه ، فتوجه إلى عرقا ، وأقام بها ، واجتمع عنده نائب بعلبك ، وولاة البر ، ومشائخ البلاد ، ومستخدميها[2] ونواب الفرنجية ؛ وأظهر الأمير سيف الدين تجملاً كثيراً ، ورتب التفقدات للنواب وللولاة وللفرنج ، وخلع على جماعة إقامة لحرمة السلطان وتحقيراً للفرنج . وكتبت الدعاوى وترددت الرسل؛ واتفقت وفاة الأمير صارم الدين قيماز الكافري، النائب بحصن الأكراد، فبقي الفرنج يعتذرون به، وأنكروا الدعاوى، وكانوا يخافون مهاجمة السلطان من عيون القصب ، فلما علموا أنه وصل دمشق سكن خوفهم ، فتوقفت الأمور ، وسأل الملك حضور الأمير سيف الدين إلى طرابلس ، فدخلها في ثامن المحرم بحمل[3] كبير من المماليك السلطانية

---

١ النهاية ٨٩ .

٢ «كذا بدلا من» مستخدموها» .

٣ « في تجمل» النهاية ٨٩ .

ومماليكه وأجناده ، وتلقاه أبناء الملوك بها ، واجتمع بالملك ، وسلم [١٨٢/ب] إليه كتاب السلطان ، وما برح الحديث بينهم حتى قرر عليهم القيام بعشرين ألف دينار صورية ، وعشرين أسيراً ، وهذه جملة ما سمع أن الفرنج سمحوا بمثلها .

ذكر ما تجدد في بيروت

وفي هذه المدة بلغ السلطان أن ملك قبرس وعكا عمل حيلة على صاحبة بيروت ، وأنه بلغته وفاة زوجها جوا البحر ، فطمع فيها ، وسيرها إلى قبرس ؛ وبقيت مملكتها بغير صاحب ، فكتب السلطان إلى عكا ، وقال : « هذه الملكة بيني وبينها هدنة ، وما سافر زوجها حتى أودعها عند جاهي ، وعادتها إذا سافرت تستودعني بلادها ، وفي هذه المرة ما سيرت لي رسولاً ، ولا بد من حضورها ، وأن تتوجه رسلي وتشاهدها ، وإلا أنا أحق ببلادها » . فلما بلغهم ذلك انزعجوا له[1] ، وعلم ملك عكا أن بيت الديوية أعواناً عليه ، فتحدث مع الأمير سيف الدين في ذلك ، وأن بيروت داخلة في هدنته ، فصمم السلطان على أنه لا بد من حضورها ، وكتب إلى اللكات[2] ، نائب الباب[3] بعكا بأن يسير خطه وخط الفرنج بما يقتضيه دينهم في ذلك ، فما أجابوا عنه بشيء ، وأعاد الأمير سيف الدين الدوادار إلى دمشق ليسكن هذه القضية .

١ راجع حجتهم في أن زوجها قد لحقه دين هي مطالبة بدفعه ، شافع ١٣٨ .

٢ Legate .	٣ المقصود « البابا »

ذكر توجه السلطان إلى دمشق [١٨٣ / ١]

ولما فرغ السلطان من الأمور المتعلقة بالقصير ، توجه إلى دمشق ، فدخلها في منتصف ذي الحجة ، وفرق العساكر في الجهات طلباً لرخص الأتبان والأسعار ، فأقامت جماعة منهم في بانياس ، وجماعة في عجلون ، وجماعة في نوى وغيرها ، وبقي الأمراء في خدمته .

ذكر أمور جرت في بقية سنة ثلاث وسبعين وستمئة

منها أن منارة اسكندرية كان قد تداعى[1] أركانها ، ووقع من كثرة السنين جانب كبير من بنيانها ، وما فطن لذلك أحد من الملوك ؛ وفي هذه السنة توجه السلطان متصيداً ، ودخل اسكندرية ، فرسم بناء ما انهدم منها ، ورتب البناء من على الممشى الذي حولها من أسفل وهم طالعون . وفي القاب السلطان اسكندر الزمان وقد تحقق في مشاركته ببنائه الآن .

---

١ لعلها « تداعى أحد أركانها » .

ودخلت سنة أربع وسبعين وستمئة

ذكر حضور الملك السعيد إلى دمشق

وفي الرابع والعشرين من المحرم من هذه السنة رسم السلطان للأمير بدر الدين الخزاندار بالتوجه إلى الديار المصرية لإحضار الملك السعيد ، وتقدم إلى الأمراء بإحضار أولادهم ؛ فتوجه الأمير بدر الدين الخزاندار على خيل البريد ، ووصل مصر ، فسيّر له الملك السعيد ألف دينار وتشريفاً ، وجهزت بيوت الأمراء وأولادهم ، وخرج الملك السعيد من مصر على خيل البريد سلخ المحرم[1] [ووصل إلى دمشق في سادس صفر ، وركب السلطان للقائه ، وحضر بعدَ ذلك طلبه ومماليكه][2] .

[نقص في الأصل]

[لعل الصفحات الناقصة كانت تحتوي على وصف للاستعداد لزواج الملك السعيد على ابنة قلاوون ونص عقد الزواج . راجع النهاية ٢٩ — ٥٦ —٥٧]

. . . . . .[3] [١٨٣ /ب] للعب ، ولبست المماليك السلطانية الجواشن والخوذ ، وعملت الأبرجة الخشب على الأفيلة ، ودخلوا في أخذ الحلقة أحسن دخول ، وساقوا أجمل سوق ؛ ثم نصب القبق ، ورموا بالنشاب ، وجُعل لكل

---

١ بدء نقص في الأصل .

٢ النهاية ٥٥ .

٣ يبدو أن هنا نقصاً لا يقل عن ورقة .

من يصيب القبق فرساً من الجنائب الخاص بتشاهيره ، والسلطان

« يسعى به البرق إلاّ أنه فرس في صورة البدر إلاّ أنه رجل »

وتنوع في لامات حربه :

« ملك إذا ادّرع الدلاص حسبته لبس الغدير وسلّ منه جدولا »

وصار السلطان يأخذ بقلوب الناس ، ويخلع عليهم ويعطيهم ؛ وساق بالرمح أحسن سوق .

« تضحي الأنابيب إن ضاقت مذاهبها ورَاءه[1] سالكات أوضح السبل »

وعجب الناس من فروسيته وشجاعته .

« وافتنّ فيه الناظرون فإصبع تومي إليه ثم عين تنظر »

وانقضى هذا اليوم على هذا الترهب . وفي اليوم الثالث ركب ولعب ورمى في القبق ، والسلطان يطاعن بالرمح ، وهو كقول الشاعر :

« طلق كماء المزن طيب مذاقة والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع عمن جنى ، والسيف غير حليم
كالليث إلاّ أنه متبرقع بوسامة ، والليث غير وسيم [١/١٨٤]
كالدهر إلاّ أنه ذو رحمة والدهر قاسي القلب غير رحيم »

وفي يوم الأحد ترتب العسكر من جهتين ، واصطدم الجيشان ، وتطاعنت الفرسان ، والسلطان بينا يرى آخراً قد شوهد أولاً :

---

[1] في الأصل : وراه .

« مليك تردى بالجمال وضاعف الـ جميل فأمسى يجتدى ثم يجتلي »

وهو لا يسأم الكر والفر .

« قالوا وينظم فارسين بطعنة يوم الوغى ويعدّ ذاك قليلا
لا تعجبوا فلو آن طول قناته ميلاً إذاً نظم الفوارس ميلا »

وشاهد الناس من هذا السلطان وولده الملك السعيد، الأسد وشبله، والسهم ونصله ، والرمح وسنانه ، والكف وبنانه ، والطرف وإنسانه واستبشرت بالملك السعيد الأمم ، وجرى بسعادته القلم ،

« طروبٌ بوقع الظبي في الطلا ، كأن صليل المواضي نغم »

وهو ثاني والده إذا كافح ، وتالي علمه إن طارد أو طارح ؛ وملبي ندائه إن دعي نزال ، ومرتمى أمره ان تفوه بمقال ؛ يتقرب بالإحسان إلى من ساوقه ، ويتباعد عمن سابقه ،

« لا كما يسبق المجاري المجارى بل كما يسبق الشباب المشيبا »

وتواصل الطعن بغير جراح ، وتحاربت الأجساد، وتحاببت الأرواح ، وكأن الرماح في أيديهم تذكرت عهدها القديم من التبريح بهبوب [١٨٤/ ب] النسيم ؛ وصار الطعن في هذا الميدان أكثر من الطعن في الحرب ، ولم يعدم في هذه الأيام من أيام المعارك غير سفك الدماء والضرب ؛ والسلطان بين تلك الصفوف لا يخاف دركاً ولا يخشى ، ولا مكيدة تعمل أو تنشأ .

وفي يوم الثلاثاء أنعم على جميع أكابر دولته من الأمراء والمقدمين والوزراء والقضاة والكتاب بالتشاريف ؛ وكان على السلطان تشريف كامل بشربوش أنعم به على الأمير سيف الدين قلاون الألفي ، ولعبوا وكأنهم

زهر الربيع الواناً مختلفة ، وزهر النجوم أنواراً مؤتلفة ،

« مثل الغصون قدودهم ولباسهم مثل الخمائل
وكأن طرزهم ظلا ل الزهرِ في وقت الأصائل »

والبشائر بسرّها تبوح ، والمسرة في كل وجه تلوح ؛ وحصل الاهتمام بأمر السماط ، ونقل بسببه من أصناف الحوائج ما لا يعد ولا يحد ؛ وسيق له من الأغنام ألوف كثيرة ، ومدت الأسمطة ، وحضر السلطان والناس في خدمته ؛ ولما أخذ الناس حاجتهم من تلك الطرف ، وفرغوا من أكل الشرف والسرف أبيحت الأطعمة والحلاوات للعالم ، فأخذوا ونقلوا واطلطخوا [1] بعد أن اقتتلوا ؛ وأحضرت التقادم ، فبقي السلطان يقبل ذلك استحساناً ، ويرده جوداً وإحساناً ، ويأخذه بنظره ، وينعم به على محضره ؛ وجبر قلب بعض المكثرين بأخذ الشيء اليسير مثل تفصيلة [١/١٨٥] أو رمح، أو شيء لطيف ؛ وقام من مجلسه وقد أنعم بذلك في وقته . ودخل الملك السعيد بيته ، وكان الأمير سيف الدين قد حصل من عجائب الطرف ، وأخاير الذخائر ، ولُمَح الملح ؛ وأحضر ما تدعي خزائن القصور عنه القصور ، وكم جهد ما [2] يهدي القطر إلى البحر ، ولكن نور على نور ؛ وختم ذلك بتفرقة الصدقات المبرورة ، فكم أطعم من جائع وكُسي عاري الجسد ، وكم أطلق محبوس واهي الجسد ، وكم عم سرور حتى ما بقي همٌّ يدور في خلد ، وكل ما جمعه القلم ، وفرقه الكرم ، ما سمع أن أحداً ظلم فيه بمثقال ذرة ، ولا سمع أن أحداً من أهل الطرب ارتزق بشيء في هذا المهم .

---

١ لعلها « واصطلحوا » .

٢ كذا ولعلها « من » .

ذكر غزوة الروم

كان السلطان لما حضر إلى الديار المصرية رعى للأمراء الروميين هجر الأوطان بتلك الهجرة ، وصار يخولهم كل شيء يتموّل ويتنوّل ، وجلبوا معارفهم إليهم ، فصاروا ألوفاً ممن خشي الفوت ، وممن حضر حذر الموت . ولما عزم السلطان على السفر أعطاهم الخيول والخيام وكل ما يصلح أمور المسافرين ، وخرجوا صحبة العساكر المنصورة ، وكان توجه السلطان من قلعته يوم الخميس العشرين من شهر رمضان من هـذه السنة ، وسار فما نزل بمملكة إلاّ استصحب عسكرها وخزائنها وأسلحتها ؛ ووصل حلب . . . .[1]

[نقص في الأصل]

[[[2] هذه نسخة رسالة أنشأها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر — رحمه الله !] بفتح [الملك الظاهر] لقيسارية من بلاد الروم ، واقتلاعها من أيدي التتار واستيلائه على ملكها ، وجلوسه على تخت بني سلجوق ، ثم العود منها إلى مملكة الديار المصرية ، كتب بها إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا ،

---

[1] هنا نقص بين هذه الصفحة وما بعدها في الأصل .

[2] استعين بكتاب « صبح الأعشى » لتعويض النقص الحاصل بسبب فقدان بعض الأوراق بين صفحتي الورقة ١٨٥ ، صبح ١٤/١٣٩ .

وزير السلطان الملك الظاهر ، ومعرفة ما كان في تلك الغزوة ، وما اشتملت عليه تلك السفرة ، وهي :

« يقبل الأرض بساحات الأبواب الشريفة السيدية الصاحبية البهائية – لا زالت ركائب السَّيَّر تحث إلى أرجائها السَّير ، وصروف الزمن تسالم خدامها وتحل الغِير بالغير ؛ ولا برحت موطن البر ، ومعدن الجود ، وبحر الكرم ، وعكاظ الخير ! – وينهي بعد رفع أدعيته التي لا تزال من الإجابة محوطة ، ولا تبرح يداه بها مبسوطة ان العبيد من شأنهم إتحاف مواليهم بما يشاهدونه في سفراتهم من عجائب ، وإطلاعهم على ما يرونه في غزواتهم من غرائب ؛ ليقضوا بذلك حقوق الاسترقاق ، وتكون نعم ساداتهم قد أحسنت لأفواههم الاستنطاق ؛ ويتعرضوا لما عساه يعن من مراحمهم التي ما عِندَهُم غَيرها يَنْفَدُ وَما عِندَها باقٍ [1] .

ولما كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد ، وأصبح كم له قصيد في مدح هذا البيت الشريف كل بيت منها بقصيد بيت القصيد ؛ وأن في مأثره الرسائل التي قد شاعت ، وضاعت نفحاتها في الوجود ، وكم رسالة في غيره ضاعت – رأى أن يتحف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بلمح يختار منها من يؤلف ، ويسند إليها من يؤرخ أو يصنف ؛ وإنما قصد أن يتحف بها أبواب مولانا مع بسط القول ، واتساع كلماته ، لأن الله قد شرف المملوك بعبودية مولانا ، وَاللهُ أعلَمُ حَيْثُ يَجعَلُ رِسالاتِهِ [2] ؛ فإن كان المملوك قد طول في المطارحة ، فمولانا يتطول في المسامحة ؛ وإن

---

١ راجع الآية : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » القرآن الكريم ، النحل ٩٦ .

٢ راجع الآية : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » الأنعام ١٢٤ .

قال أحد : « هذا هذى » . فما زال شرح الوقائع مطولا كذا ؛ وتالله ما ورخ مثلها في التواريخ الأوّل ، ولعمري إن خيراً من سيرة ذاك البطال سيرة هذا البطل ، والأمر أعلى في قراءتها واستماعها والتمهل في حجلها حتّى تسفر نقابها ، وترفع مسدول قناعها . . . . . .

قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزمات الشريفة السلطانية ، وأنها استصحبت ذلك حتّى تصفحت المهالك ؛ وسرنا لا يستقر بنا في شيء منها قرار ، ولا يقتدح من غير سنابك الخيل نار ، ولا نمرّ على مدينة إلاّ مرور الرياح على الحمائل في الأصائل والأبكار ؛ ولا نقيم إلاّ بمقدار ما يتزيد الزائر من الأهبة ، أو يتزود الطائر من النغبة ؛ نسبق وفد الريح من حيث ننتحي ، وتكاد مواطىء خيلنا بما تسحبه أذيال الصوافن تمتحي ؛ تحمل همنا الخيل العتاق ، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق؛ وكل يقول لسلطاننا — نصره الله :

« أين أزمعت أيهذا الهمام ؟ نحن نبت الربا وأنت الغمام »

ومَرّ لا يفعل السيف أفعاله ، ولا يسير في مَهمهٍ إلاّ عمه ، ولا جبل إلاّ طاله : تسايره السواري والغوادي ، ولا ينفكّ الغيث من انسكاب في كل ناد ووادي ،

« فباشر وجهاً طالما باشر القنا وبلّ ثياباً طالما بلّها دَمُ »

وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بادراع لامات حربهم وحمل آلات طعنهم وضربهم ،

« فجاز له حتى على الشمس حكمه وبان له حتى على البدر ميسم

يمد يديه في المفاضة ضيغم وعينيه من تحت التريكة أرقم »

ورحلوا من حلب في يوم الخميس ثاني ذي القعدة جرائد على الأمر المعهود قد خفضوا كل شيء حتى البنود والعمود ، فسرنا في جبال نشتهي فيها سلوك الأرض ، وأودية تهلك الأشواط فيها إذا ملئت الفروج من الركض ؛ نزور دياراً ما نحب مغناها ، ولا نعرف أقصاها من أدناها واستقبلنا الدرب فكان كما قال المتنبي :

«رمى الدرب بالخيل العتاق إلى العدا وما علموا أن السهام خيول
شوائل تشوال العقارب بالقنا لها مرح من تحته وصهيل
فلما تجلّى من دلوك وصنجة علت كل طود راية ورعيل
على طرق فيها على الطرق رفعة وفي ذكرها عند الأنيس خمول»

ومررنا على مدينة دلوك ، وهي رسوم سكانها ، ضاحكة عن تبسم أزهارها ، وقهقهة غدرانها ؛ ذات بروج مشيدة ، وأركان موطدة ، ونيران تزاويق موقدة ، في عمد من كنائسها ممدّدة ؛ وسرنا منها إلى مرج الديباج نتعادى ، وذلك في ليلة ذات أندية ، وإن لم تكن من جمادى ؛ ظلماتها مدلهمة ، وطرقاتها قد أصبح أمرها علينا غمة ، لا يثبت تربها تحت قدم المار ، وكأنما سالكها يمشي على جرف هار ؛ فبتنا هناك ليلة نستحقر بالنسبة إلى شدتها ليلة الملسوع ، وتتمنى العين بها هجمة هجوع ؛ وأخذنا في اختراق غابات أشجار تخفي الرفيق عن رفيقه ، وتشغله عن اقتفاء طريقه ؛ ينبري منها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه ، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه ؛ حولها معاثر أحجار كأنها قبور بعثرت ، أو جبال تفطرت ؛ بينها مخائض ، لا بل مغائض ، كأنها بحار فجرت ؛ ما خرجنا منها إلاّ إلى

جبال قد تمنطقت بالجداول ، وتعممت بالثلوج ، وعميت مسالكها فلا أحد إلاّ وهو قائل : ﴿ فَهَل إلى خُرُوجٍ مِن سَبِيل ﴾[1]، أو إلى سبيل من خروج ؛ تضيق مناهجها بمشي الواحد ، وتلتف شجراتها التفاف الأكمام على الساعد ؛ ذات أوعار زلقة ، وصدور شرقة ، وأودية بالمزدحمين مختنقة ؛ بينما يقول منتحيها : « قد نلت السماء بسلم » من هذه]][2] [١٥٨ / ب] الشواهق ، إذا هو قد هبط في مأزق متضائق ؛ لم تزل هذه الجبال تأخذنا وترمينا ، وتلك المسارب تضمنا ، وتلك المشارب[3] لفرط بردها تضمينا ، حتّى وصلنا إلى الحدث الحمراء ، المسماة الآن بكينوك ، وقد تقدم ذكرها ؛ وانثنينا وخيلنا مبثوثة فوق الأحيدب كما نثرت الدراهم فوق العروس ، وحوافرها على الوكور في أعلى القنن تدوس ؛ إذا زلقت تمشي على صلد الصفا كالأراقم على البطون ، وتعيا فيجر بعضها بعضاً بالصهيل « والحديث شجون ؛ وخضنا مخائض سوافح ، كأنما لعوم الخيل سمي كل جواد سابح ؛ كلما قلنا هذا بحر قطعناه ، اعترض لنا جبل ، وكلما قلنا هذا جبل طلعناه بان لنا واد نستهون دون الهُوِيّ فيه نفاد الأجل . ووصلنا كوكصو ، وهو النهر الأزرق ، ومنه رد الملك الكامل سنة الدربندات ، وهذا النهر بين جبال هو مهوى رجامها ومثوى غمامها ، فللوقت عبرناه ركضاً ، وأعجلت الخيل فيه ، فما درت هل خاضت لجة ، أم قطعت أرضاً ، وسارت العساكر متسللة في تلك الجبال الشم ، ووقع السنابك تسمع من تلك الجبال الصم ، ووصلوا اقجى دربند، وتمرنت الخيل على الاقتحام والازدحام في التطرق،

---

١ القرآن الكريم ، غافر ١١ .

٢ آخر الجزء المقتبس من صبح الأعشى ، راجع ما سبق ، الورقة ١٨٥ أ .

٣ « المسارب » في الأصل .

وتعودت عادة الاوعال في التسرب والتسلق ؛ فصارت تنحط انحطاط الهيدب ، ، وترتفع [١٨٦/أ] ارتفاع الكوكب ، وتسري سريان الخيال ، وتمكر حوافرها ، فتزول منه الجبال ؛ وخرج من اقجادربند[١] ، وبات في وطاة هناك ، وسمحت السحب بما شاءت من بَرْد وبَرَد ، وجاءت الرياح بما أوهن الجِلْد وأوهى الجَلَد .

وقدم الأمير شمس الدين سنقر الأشقر في جماعة من العساكر جاليشا ، فوقع على ثلاثة آلاف فارس من التتار مقدمهم كراي ، فانهزموا بين يدي المسلمين ، وأخذ منهم من قدم السيف السلطان ، فأكل منهم وأسار[٢] ، واستمرت تلك سنة في كل تترى يوسر ، وبات الناس على أجمل ترتيب ، والتتار على كتمان لا يعلم كثير عددهم أو قليل ، وبعيد مكانهم أم قريب ، ولم يتحققوا قدوم السلطان في جيوش الإسلام ، ولا أنه حضر بنفسه ليقوم في نصرة الدين المحمدي هذا المقام ؛ ثم وصل الخبر بأن العدو قد قربوا ، وثابوا ووثبوا ،

« وقد تمنوا غداة الروع في لجب[٣] أن يبصروه ، فلما أبصروه عموا »

ورتب السلطان جيشه اللجب على ما يجب ، وأراهم من نوره ما لا يخفى على بصر ولا يحتجب ؛ فطلعت العساكر من جبال مشرفة على صحراء هوني من بلد أبلستين ؛ وكان العدو ليلته تلك بايتاً على نهر جهان ، — وهو نهر جيحان ؛ فأقبل المسلمون من علو الجبال ، وترتب المغل أحد عشر

١ راجع الورقة السابقة حيث وردت « اقجى دربند » .
٢ « من قدم للسيف السلطان فأكل نهمته وأسار » صبح ١٤/١٤٤ — .
٣ في الأصل : الحب .

طلباً كل طلب يزيد على ألف مقاتل ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الروم طلباً واحداً بمفرده . ولما شاهدوا السناجق [١٨٦ / ب] السلطانية ومن حولها من المماليك الظاهرية ، وعليهم الخود الصفر المذهبة نقضوا ما عقدوه من العزائم وحلّوا ، وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، ﴿ وأقبَلَ بَعضُهُم عَلى بَعضٍ يَتَساءَلون ﴾ [1] . فانصبت الخيل عليهم انصباب السيل ، وبطلت الحيلة منهم وبقي الحيل ؛ فشمروا عن السواعد ، ووقفوا وقفة رجل واحد . وكان أبغا قد اختارهم من عسكره ؛ وكان فيهم جماعة من المقدمين الكبار ، فوقف السلطان ، وتقدم إليهم من مماليكه وخواصه :

« بيض العوارض طعانون من لحقوا من الفوارس شلالون للنعم
قد بلغوا بقناهم فوق طاقتهم وليس يبلغ ما فيهم من الهمم
في الجاهلية إلاّ أن أنفسهم من طيبهن [2] به في الأشهر الحرم »

فأخلدت فرقة منهم إلى الأرض وقاتلت ، وعاجت المنايا على نفوسهم وعاجلت ، وجاء الموت إلى العدو من كل مكان ، وأصبح ما هال منهم وقد هان ؛ وللوقت خذلوا وجدوا ، ولبطون السباع وحواصل الطيور حصلوا ؛ وصاروا مع عدم ذكر الله بأفواههم وقلوبهم يقاتلون قِياماً وَقعوداً وَعَلى جُنوبِهِم [3] ؛ فكم منهم من شجاع ألصق ظهره إلى ظهر صاحبه ، وحامى وناضل ، ورامى ؛ وكم فيهم من شهم ما سلم قوسه وقد بقي في

---

١ القرآن الكريم ، الصافات ٢٧ ، الطور ٢٥ .
٢ « من طينهن » في الأصل .
٣ راجع الآية « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً ، والآية : « فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم » النساء ١٠٣ .

كنانته سهم . وأما العدو فاشتدت [١٨٧ / ا] فرقة منهم في جهة الميسرة معرجين على السناجق من خلفها ، ومنقلبين بصفوفهم على صفها .

« فلزهم الطراد إلى قتـال أحدّ سلاحهم فيه الفرار »

وثاب السلطان إليهم ووثب عليهم ، وضحى منهم بكل أشمط ، وأفرى الأجساد وأفرط ، ولحق من قصد منهم التحصن ، فأخذهم الأخذة الرابية ، وقتلهم ﴿ فَهَل تَرى لَهُم مِن باقية ؟ ﴾[1] :

« وما الفرار إلى الأحباب من أسد يمشي النعام به في معقل الوعل »

وانهزمت جماعة يسيرة منهم طمع فيهم من العوام من لا كان[2] يدفع عن نفسه ،

« مضوا متسابقي الأعضاء فيهم لأرؤسهم[3] بأرجلهم عثار
إذا فاتوا الرماح تناولتهم بأرماح من العطش القفار »

وقصدت ميمنة عسكرنا جماعة من المغل ذو بأس شديد ، فقاتلهم حتى ضجر الحديد؛ وتقاسمت الأيدي ما يمتطيه العدو من صواهل وصوافن ، وما يلبسونه من دروع وجواشن ؛ وغنم المسلمون جميع ما هنالك ، وتسلم من استشهد من المسلمين رضوان ، وأخذ من هلك من الكفار مالك ؛ واستشهد من المسلمين في هذا اليوم شرف الدين قيران العلاّني ، أحد مقدمي الحلقة ، وعز الدين ، أخو المحمدي ؛ وجرحت[4] جماعة يسيرة قليل ما هم ،

---

١ القرآن الكريم : الحاقة ٨ .
٢ صحتها « من كان لا » .
٣ لعلها « لأرجلهم بأرؤسهم » .
٤ راجع صبح ١٤/١٤٨ في الأصل « وخرجت » .

وعدل السلطان إلى المنزلة التي كان العدو نازلاً بها فنزلها [١٨٧ / ب] ، وإلى أموالهم فتمولها :

« وصبحهم وبسطهم حرير ومساهم وبسطهم تراب »

وأصبح الأعداء لا ترى منهم إلاّ أشلاء مطروحة ، ودماء مسفوكة مسفوحة ؛ كأنما جزر أجسادهم جزائر يتخللها من الدماء السيل ، وكأنما رؤوسهم المجموعة لدى الدهليز أكر تلعب بها الصوالج من أيدي الخيل .

« ألقت إلينا دماء الروم طاعتها فلو دعونا بلا ضرب أجاب دم »

كم شوهد منهم من رؤوسهم مهيب الهامة ، قد فض الرمح فاه ، فقرع السن ندامة :

« ووجوهاً أخافها منه وجه تركت حسنها له والجمالا »

وكثرت الأسارى من المغل فاختار السلطان من كبرائهم البعض ، وعامل[1] بقيتهم بقول الله تعالى : ﴿ مَا كانَ لِنَبِيٍّ أن يَكُونَ لَهُ أسرَى حَتَّى يُثْخِنَ في الأرضِ ﴾[2] . فجعلوا عرضة السيوف ، ونجا[3] المأسورين من كل مخوف :

« وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا »

وأسر من الأمراء الروميين مهذب الدين بكلار[4] نكى بن البرواناه ،

---

١ « وعمل » في الأصل .

٢ القرآن الكريم ، الانفال ٦٧ .

٣ لعلها « ونجى » .

٤ « مهذب الدين بن معين الدين البروانا وبيغت بكلاربكي ، يعني أمير الأمراء» ابن شداد ٢/١١٠ .

حاكم الروم ، ومعه ولد أخته ولد خواجا يونس ، والأمير نور الدين بن جاجا وسيف الدين سنقر جاه الزوباشي ، ونصرة الدين صاحب سويس[1] ، والأمير كمال الدين عارض الجيش بالروم ، وحسام الدين نولناول[2] ، قريب البرواناه ، وسيف الدين بن علي شير التركماني [١٨٨ /أ] ومن أمراء المغل مقدمي الألوف : يربزك[3] ، صهر أبغا ، وسرطق ، قرابته ، وجركر[4] ، وسردلر[5] ، وتماديه . والذين حضروا في الإحسان : الأمير سيف الدين جاليش ، النائب بالروم ، وهو ذو نباهة، وهو أمير دار - يعني أمير للعدل عن المظالم ، وظهير الدين متوّج ، مشرف الممالك ، ومرتبته دون الوزارة ، والأمير نظام الدين أوحد بن الأمير شرف الدين بن الخطير ، وإخوته ؛ قاضي القضاة بالروم حسام الدين ، ومظفر الدين جحاف ، وأولاد الأمير ضياء الدين بن الخطير ، وجماعة من أصحابهم ، وسيف الدين كحلماء[6] ، الجاشنكير ، ونور الدين المنجنيقي ، وأولاد رشيد الدين ، صاحب ملطية كمال الدين وإخوته ، وأمير علي ، صاحب كركر ، وأكثر هؤلاء أحضروا بيوتهم وأولادهم .

وأما البرواناه فإنه شمر الذيل ، وامتطى هرباً أشهب الصبح ، وأحمر الشفق ، وأصفر الأصيل ، وأدهم الليل ؛ ولم يخبر من خلفه بما تم ، وهمّ لما داخله الهم :

---

١ « صاحب سيواس » ابن شداد ٢/١١٠ .
٢ « كيا واك » » » »
٣ « زيرك » » » »
٤ « جبركر » » » »
٥ سركده » » » »
٦ « بكحكا » ابن شداد ٢/١١٠ .

« فنحن في جذل ، والروم في وجل   والبر في شغل ، والبحر في خجل »

وحقيق بالبرواناه قول أبي الطيب :

« نجوت بإحدى مهجتيك جريحة   وخلفت إحدى مقلتيك تسيل
أتسلم للخطّي ابنك هارباً ،   ويسكن في الدنيا إليك خليل؟ »[١٨٨/ب]

ودخل البرواناه قيسارية ، فأفهم غياث الدين سلطانها ، والصاحب فخر الدين وزيرها ، والأتابك مجد الدين ، والأمير جلال الدين المستوفي ، والأمير بدر الدين النائب ، والطغرائي ، وهو ولد أخي البرواناه ، بأن الإسلام أسروا بعض المغل ، وبقية المغل منهزمون ، ويخشى أن المغل تدخل قيسارية وتتلف من يكون بها حنقاً على الإسلام ، فأخذهم وأخذ زوجته بنت غياث الدين ، صاحب أرزن الروم ، وتوجهوا كلهم إلى تُوقَات ، ولهذه كرجي خاتون أربعمائة جارية ، استصحبهن معها لما خرجت ؛ وكان لها من الأموال ما لا كان لصاحب الروم . وكانت أم هذه كرجي خاتون ملكة الكرج ؛ وتوقات مكان حصين مسيرة أربعة أيام من قيسارية .

وجرد الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بجماعة لإدراك من فات من المغل والتوجه إلى قيسارية ؛ وكتب بتأمين أهلها ، فمر بفرقة من التتار معهم البيوت ، فأخذ منهم جانباً ، ودخل الليل فمر كل منهم في جهة ذاهلاً ذاهباً .

ورحل السلطان يوم السبت حادي عشر الشهر من مكان المعركة ، نزل قريباً من القرية المعروفة برمان[1] ، وهي قريب الكهف والرقيم حقيقة لا ما يقال من أن أهل الكهف والرقيم من عمل حسبان والبلقاء [١٨٩/١] ؛

---

١ « ريان » صبح ١٤/١٥٠ .

وقرية رمان هذه مبنية بيوتها حول سن جبل قائم كالهرم ، ويطوف بها جبال كأنها أسوار بل سوار ، ويتفرع منها أنهار كأنها بهبوطها كثيب قد انهار ، ذات قناطر لا تسع غير راكب ، فنزلنا قريباً منها ، حتى تخلص من تخلص ، وحضر من كان في المضايق بصعوبتها تربص ، ورحلنا عنها ، وكانت السماء قد حيت تحايا أمطارها ، وأغرقت الهوام في أجحارها[1] ، والطيور في أوكارها ؛ وأصبحت الأرض تزلق عليها أرجل النمل ، وتضع بها من الدواب كل ذات حمل ؛ وسرنا على هذه الحالة نهارنا كله ، إلى قريب الغروب ؛ ونزلنا بوطاة من أعمال صاروس[2] العتيق ، وبقربها معدن الفضة ، وبينما نحن قد شرعنا في أهبة المبيت ولمّ بعض الشمل الشتيت وإذا بالنذير رافعاً عقيرته بأن فوجاً من التتار في فجوة هناك قد استتروا ، وفي نجوة لغرة قد انتظروا ، فركب السلطان والعسكر بالسلاح ، وعزموا على المطار فعاقهم القطار ، وكيف يطير مبلول الجناح . ثم عاد السلطان ونمنا بليلة السليم ، وصارت أفكارنا شاعرة في كل واد تهيم . وأصبحنا فسلكنا جبالاً تنحط إلى جنادل ، يضعف عن الانحطاط إليها الاجادل ؛ ومررنا على قرية اوتراك ، ومنها على خان قريب من حصن سمندو[3] ، وهو الذي ذكره أبو الطيب بقوله :

« فإن يقدم فقد زرنا سمندو وإن يحجم فموعده الخليج »

وكان السلطان قد سير كتاباً إلى نائبها ، فقبله وقبّله ، وأذعن للنزول

---

١ « أحجارها » في الأصل .

٢ « أصاروس » صبح ١٤/١٥١ .

٣ « سمندوا » في الاصل .

عنها لأمر السلطان إن استنزله ، فشكر له حسن الإجابة ، ووفاه من الإحسان حسابه ؛ وكذلك والي قلعة دَرَندا ، ووالي دوالو ، أجابوا إلى الطاعة ، وأشرفنا على خان قرطاي بعد ذلك ، وهو دال على همة نائبه وطلب ثواب الله فيه ، وهو مبني بالحجر المنحوت الأحمر الذي كأنه رخام وله مغلات متسعة ، ودواوين متفرقة ومجتمعة ، ونزلنا قرية قريبة من قيسارية شرقي جبل عسيب ، وفيه قبر امرىء القيس ، وهو الذي يقول فيه :

« أجيرتنا إن الخطوب تنوب وإني مقيم ما أقام عسيب
أجيرتنا إنا مقيمان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب »

ويعلو هذا الجبل جبل أرجاس ، وهو الذي يضرب المثل بتساميه ، وتتضاءل الجبال في جميع الدنيا لتعاليه ، لا ينسحب السحاب[1] إلاّ دون سفحه ولا يعرف من ثلوجه ومن الأبخرة المتصاعدة به ، شتاء [ولا][2] صيفاً [ولا][2] عشاؤه من صبحه .

وفي يوم الأربعاء نصف ذي القعدة ركبت العساكر ، وركب السلطان في زمرته ، وذوى أمره وأمرته : [١٩٠ / ١]

« تظل ملوك الأرض خاضعة له تفارقه هلكى وتلقـاه سجدا »

وخرج أهل قيسارية العلماء والأكابر والنساء والأطفال ، فتلقوا السلطان ، وحصل لجماعة من الفقراء حالات وجد مطربة . وكان دهليز غياث الدين ، صاحب الروم ، وخيامه قد نصبت في وطاة كيخسرو قريباً من المناظر التي

١ « للسجاب » في الأصل .
٢ زيدت بين الأسطر .

لملوك الروم ، فنزل به السلطان ، وارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير ، وترجل في الركاب الشريف كل مأمور وأمير ؛

« رجا الروم من ترجى النوافل كلها لديه ، ولا ترجى لديه الطوائل »

وضُربت نوبة آل سلجوق على العادة ، وحضر أصحاب الملاهي فما ظفروا بغير النواهي ؛ فهذه الهناة لا تتفق هنا ، وما هذا موضع الغناء بل موضع العَنَاء ؛ وشرع السلطان في انفاق اللّهى ، وعين لكل جهة شخصاً وقال : « أنت لها » ، وحكم وحكّم ، واعتمد على الأمير سيف الدين جاليش في النيابة ، وكتب إلى أولاد قرمان ، أمراء التركمان ، وهم ألوف ، وما فيهم للتتار ألوف ، وأكد عليهم في الحضور ؛ واستمال النازحين فما خرج البرواناه عن المخاتلة والمطاولة ؛ فلما علم السلطان أنهم لا يفلحون ، ولغير التتار لا يصلحون ركب في يوم الجمعة سابع عشر ذي القعدة ، وعلى رأسه جتر بني سلجوق ، فشاهد الناس منه صاحب القبة والسبع ، ودخل [١٩٠ /ب] قيسارية ، وكانت دار السلطنة قد هيئت لنزوله ، وتخت آل سلجوق قد نصب لحلوله ؛ وهي قصور أنيقة المبنى ، يشرف جانبها على بساتين حلوة الجنى ، جدرانها مصفحة بأحسن أصناف القاشاني ونقوشه ، فجلس في مرتبة السلطنة في أسعد وقت ، ونال التخت بحلوله أعظم بخت :

«وما كان هذا التخت من حين نصبه	لغير المليك الظاهر الندب يصلح
مليك على اسم الله ما فتحت له	صوارمه البيض المواضي وتفتح
آتته وفود الروم، والكل قائل :	« رأيناك تعفو عن كثير وتصفح »
فأوسعهم حلماً ، وأولاهم ندى	وأمسوا على منّ وأمن وأصبحوا
ولو أنهم لم يجنحوا لمنكّب	عن الحق ، والنهج القويم لأفلحوا»

وأقبل الناس على السلطان يهنونه ، وعلى بساطه يقبلونه :

« تقبل أفواه الملوك بساطه ويكبر عنها كمه وبراجمه »

وحضر القضاة والفقهاء والوعاظ والقراء والصوفية ، وأعيان قيسارية ، وذوو المراتب على عادة السلجوقية في أيام الجمع . ووقف أمير المحفل ، وهو عندهم ذو حرمة ومكانة ووسامة ، ويلبس أكبر ثوب وعمامة ؛ فرتب المحفل على قدر الأقدار ، وانتصب بين يدي السلطان منتظراً ما به يشار ؛ وقرأت القراء أحسن قراءة ، وارتفعت أصواتهم من التلحين بكل نغم [١٩١ / ا] عجيب ؛ ولما فرغوا أنشد أمير المحفل بالعربية والعجمية مدائح في السلطان ، ومد السماط ، ثم أحضرت دراهم عليها الصكة الظاهرية ؛ وخطب له الخطباء في جوامع قيسارية وهي سبع جوامع ، وظهر لمعين الدين سليمان البرواناه وزوجته من الموجود كل نفيس ، واستولى السلطان على ملك سليمان وعرش بلقيس .

ولما أقام في قيسارية هذه المدة ، فكر في أحوال عساكره بما لا يعرفه سواه ، ونظر في أمرهم بما أراه الله ، وذلك أن الأقوات قلت ، وقيسارية ألقت ما فيها من المؤن وتخلت ، والسيوف من المصادمة قد مالت وملت ؛ وأنه ما بقي بالروم من التتار من يغزى ، ولا من بجزاء السوء يجزى ؛ وأن السيف الصقيل الذي قتلوا به في يد القاتل ، وانهم إن كان حجبهم عامهم فيعودوا[1] إلى الروم في قابل . فرحل الثاني والعشرين من ذي القعدة بعد أن أعطى خواصه من الأمراء ما حضر إليه من الأعنة والأزمة ، وما يطلق على تموله اسم النعمة .

---

[1] لعلها « فليعودوا » .

وحضر رسول البرواناه يستوقف السلطان عن تحريكه فعرفه السلطان أنه وفى بعهده ، وأجاب دعاهم من أقصى ملكه مع بعده ؛ وما وقفوا عند الشروط المقررة ، ولا وفوا بمضمون الرسائل المسيرة ؛ وكلما جاء الحق وزهق الباطل طلبوا نظرة إلى ميسرة ، وأعنتهم للكفر مسلمة ، ومنذ استولى التتار على الروم هم أصحاب المشأمة .

وعلم السلطان أن ما في عسكر الروم ما [١٩١/ب] يستخلصه لنفسه ، ولا من يقاتل التتار في غد[1] . . . على أمسه ؛ وأنهم أصحاب طيب عيش ، لا زعماء جيش ؛ فرد إلى سليمان البرواناه هديته ، وعرّفه بمن أسره من أهله ، وقال : « يكفينا من النصر الوجيز قوله تعالى : ﴿ ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصرُه ، إنَّ اللهَ لقَوِيّ عَزِيز ﴾[2] . وما كل من قضى فريضة الحج تجب عليه المجاورة، ونحن فقد ابتغينا مما[3] آتانا الله بحقن دماء أهل الروم الدار الآخرة ، وما كان جلوسنا في تخت آل سلجوق لزيادة تبجح ، بل لنعلمكم أنه لا عائق لنا عن أمر من هذه الأمور ، وأن أحداً لا ينبغي أن يأمن لنا سطوة ، فليتحقق كل أحد أن مسافة جمعة لنا — والحمد لله ! — خطوة ؛ وكم في ممالكنا كرسي مملكة نحن آية ذلك الكرسي ، وكم لنا فتح والحمد لله في الانافة الفتح القدسي .

« من كان فوق محل الشمس موضعه فليس يرفعه شيء ولا يضعه »

وسار السلطان ، وسير الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري إلى قرية

---

١ هنا بعض المحو وأوردها الأعشى « في غده خوفاً مما شاهده كل منهم في أمسه » ١٤/١٥٩ .
٢ القرآن الكريم ، الحج ٤٠ .
٣ « فما » في الأصل .

رمانة ، فحرقها ، وقتل الأرمن الذين كانوا بها ، وسبى حريمهم ، لأنهم كانوا أخفوا جماعة من المغل ، وفتكوا بجماعة من المسلمين .

ولما رحلنا من منزلة زوزان كودلو عارضنا نهر في وطاة خلف حصن نمند[1] ومن طريق غير الطريق التي كان السلطان يوجز[2] فيها إلى قيسارية ويعرف هذا النهر بقزل صو[3] ، ومعناه النهر الأحمر ، وهو بعيد المستقى لا يجد السالك [١٩٢/ا] من أحوال حافته إلاّ صعيداً زلقاً[4] ؛ ووقف السلطان بنفسه وجرد سيفه حتى أخذت جملة من اللبابيد الحمر بسطها تحت حوافر الخيل ، وأخفاف المطي ، ووقف راجلاً يعبر الناس ، أولا فأولا ؛ ولما خفت البرور ، ولم يبق إلاّ المرور ، ركب وعبر الماء ، والألسن له داعية ، وعليه من الله واقية . ونزل في واد فيه مرعى ولا كالسعدان ، ومرأى ولا كشعب بوان ؛ ثم رحل إلى صحراء قراجا[5] ، قريبة من بازار بلو ، وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض ، ويباع فيه كل شيء يجلب من الأقاليم . وسار منها إلى وطاة ابلستين ، وعبر على مكان المعركة لمشاهدة رمم التتار كيف تعاقبت عليهم من العقبان كواسرها ، وكيف نهشتهم من النسور مياسرها ؛ وكيف أصبحوا لا يندبهم إلاّ البوم ، وكيف تحققوا أن التي أهلكتهم زرق الأسنة لا زرق الروم فرآهم عبرة ، « وَعُرِضوا عَلَى رَبهم صَفّا »[6] ، وجاؤوه كما خلقوا أوّل مرة؛ وأبصر

---

١ « سمندو » صبح ١٦١ .
٢ لعلها « توجه منها » .
٣ « كك صو » مفضل ٤٣٢ .
٤ « زلقى » في الأصل .
٥ « قراحصار » مفضل ٤٣٢ و « قراجار حصار » صبح ١٦٢/١٤ .
٦ راجع الآية ؛ : « وعرضوا على ربك صفاً » الكهف ٤٨ .

الرياح لأشلائهم متخطفة ، والهوام في أجسادهم متصرفة ، وشاهدهم وقد هزأ بهم كل شيء حتى الوحوش والرياح ، فهذه في صدورهم متكرعة وهذه عليهم متقصفه :

« قد سودت شجرَ الجبال شعورُهم فكأن فيه مسفة الغربان »

وحضر جماعة من أهل البلستين[1] ، فاستخبروا عن قتلى التتار ، فقالوا : ﴿ فاسألِ العادّينَ ﴾[2] من أبناء السبيل ؛ وقال قائل منهم : ﴿ رَبّي أعلَمُ بِعِدَّتِهِم ، ما يَعلَمُهُم إلاَّ [١٩٢/ب] قَليل ﴾[3] ؛ وقالَ رَجُلٌ مِمَّن عِندَهُ عِلْمٌ مِن أهلِ الكتاب[4] : « أنا عددت ستة آلاف وسبعمائة وسبعين نفراً من المغل وضاع الحساب » ؛ هذا غير من أوى إلى جبل يعصمه من السيف ، فما عصمه ، وغير من اعتقد أن فرسه يُسلّمه فأسلَمه :

« فلَقد غدوا خلل الرماح كأنما غضبت رؤوسهم على الأجسام
أحجار ناس فوق أرض من دم ونجوم بيض في سماء قتام »

وتقدمت الخزائن صحبة الأمير بدر الدين الخزاندار إلى أقجادربند وتأخر السلطان ساقة :

« فهو يوم الطراد أوّل سابق وهو عند القفول آخر سائق »

وانتظر في هذين اليومين صيد من العدو يعن[5] ، أو دم منهم إلى السيف

---

١ راجع ما سبق الورقة ١٨٦أ حيث سماه أبلستين .
٢ القرآن الكريم ، المؤمنون ١١٣ .
٣ القرآن الكريم الكهف ٢٣ .
٤ راجع القرآن الكريم ، النمل ٤٠ .
٥ « تعين » في الأصل .

يحن ، فلم يحضر أحد ، فرحلت العساكر ، ودخلت الدربند ، فساق طريقاً من الأوعار يبساً ، وصعدت قنن جبال كأن كلاً منها جبل من الأنجم قبسا ؛ وساقوا ولكن على مثل حد السيف ، وتسلكوا ولكن سل حوافر الخيل كيف ، وهبطوا من جبال يستصعبها طارق الطيف ، يقرب من تلك الجبال جبل يُعرف بسقر ، ﴿وَمَا أدرَاكَ ما سَقر ، لا تُبقي وَلا تذر﴾[1] ، له عقبة ﴿لَوَّاحَةٌ لِلبَشَر﴾[1] ، أعان الله على الخروج منها ، وفاز من زحزح عنها . وعدينا النهر الأزرق ، وبتنا عند جبل هناك [١٩٣/أ] رعت خيول الناس فيه شجر البلوط ، وبيعت[2] عليه الشعير بخمسة عشر درهماً[3] . وسرنا إلى أن وصلنا قريباً من حارم . ووصلت قصاد الأمير شمس الدين محمد بن قرمان ، أمير التركمان بالروم ، بكتابه متضمناً أنه جمع التركمان وحضر في عشرين ألف فارس وثلاثين ألف راجل متركشة ، فوجد السلطان قد أعاد ، وتوافد التركمان . وحضر أمراء بني كلاب . ونزلنا بالقرب من أنطاكية ، وألقينا عصا التسيار ، وتقسمت العساكر تلك الأعشاب كما تقسمت أفاق السماء النجوم ، ووقف كل منهم في مقامه ، وقال : ﴿وَما مِنّا إلاّ لَهُ مَقامٌ مَعلومٌ﴾[4] ، فكم هنالك من مروج أعشبت وأربت على زهر النجوم حين اهتزت وربت :

« تصد الشمس أنى واجهتها فتحجبها ، وتأذن للنسيم »

ولما صوحت الأعشاب رحل السلطان .

---

١ القرآن الكريم : المدثر ، ٢٧ — ٢٩ .

٢ كذا في الأصل .

٣ « بخمسة عشر درهماً كل مد » صبح ١٤/١٦٣ .

٤ القرآن الكريم ، الصافات ١٦٤ .

واستهلت سنة ست وسبعين وستمئة

وفي الخامس من المحرم دخل السلطان دمشق ، وقد ترنح للنصر أعطافه وروى من دماء الأعداء أسيافه ، وقدامه مقدمو التتار ، قد ركبوا دهم القيود عوض شهب الجياد ، وبعد أن كانوا مقربين صاروا مقرنين في الأصفاد . ونزل بقصره بالميدان الأخضر ، معتقداً أن الدنيا في يده قد حصلت ، والبلاد التي حلها ركابه عنه[1] ما انفصلت[2] ؛ وأن سعده استخلص له الأيام [١٩٢/ب] وأصفاها ، والممالك شرقاً وغرباً لو لم يكن بها غيره لكفاها ؛ وإذا بالمنية قد أنشبت أظفارها ، والأمنية قد وضعت حربها أوزارها ؛ والعافية وقد شمرت الذيل ، والصيحة[3] وقد قالت لطبيبه : « أهلك والليل » ؛ ورماح الخط وقد قالت لأقلام الخط : « أصبت في لبس الحداد من المداد » ، والقلوب وقد قالت عند شق الجيوب : « نحن أحق منك بهذا المراد » ، والحصون وقد قالت لقصره الأبلق : « ما كان بناؤك على هذه الصورة إلاّ فالاً بما تسود الجدران به عن الفجائع من السواد » ؛ فآهاً لها فجيعة ما قدر أحد يتأوه من أجلها ، ومصيبة ما مكنت المصلحة الحاضرة من إظهار ما يجب لمثلها . لقد عظم على الوحوش في الفلوات ، وعلى الطيور في الوكنات ، قطع أرزاقها بموته ، وفاتها في القفار كل قوت بفوته ؛ ولقد فدحت[4] صدور المنابر ، وأفواه المحابر ، من رزئه بفادح جليل ، ولقد

---

١ كذا في ابن الفرات ٨٧/٧ وفي الأصل « عند » .

٢ بعضها محو .

٣ كذا في الأصل ولعلها كما في النهاية « الصحة » .

٤ كذا في ابن الفرات ٨٧/٧ وفي الأصل « افرحت » .

فجعت الأقاليم فيه بفجيعة لا يقضي حقها دمع الفرات ولا دمع النيل ؛ فأي عين لم تبك[1] بدموع محاجرها ، حتى عيون الأرض ، وأي قلب لم يأس عليه حتى من رضي بطاعته ومن لم يرض ، لقد كان يصلح له من كل شيء ، شق الأكباد ، ويليق بالفجيعة فيه كل جزع حتى لا يبقى لأحد فؤاد ؛ فحق على الأسود أن تحزن عليه ، لأنه رفع قدرها حين شكلها في ملابسه وأعلامه ، وعلى الملائك أن تتأسف [١٩٤/ا] على فقده ، لأنها كانت من نُجده في ليالي جهاده وأيامه ؛ لقد عمت الفجيعة به كل كاتب حسنات حتى كاتب اليمين ، ولقد أرخصت رزيته بإجراء المدامع قيمة الدر الثمين .

وكان ابتداء مرضه الذي اعتل به الوجود ، وتباشرت به الأكفان واللحود ، ليلة السبت خامس عشر محرم ؛ فإنه ركب وقت العصر من يوم الجمعة رابع عشره ، وكأنه يودع لأخدانه ، ورؤية موكبه ، وركوب حصانه . ونزل والتاث جسمه تلك الليلة بعض الالتياث ، وأصبح وليس عنده ذلك الانبعاث ، ودخل خواصه ورأوه مرة ومرة ، وما من زيارة يستزيرهم فيها إلاّ ويزيدهم حسرة بعد حسرة ، وأعيا دواء الموت كل طبيب ؛ فلما انقضت مدة أجله ، وانطوت صحيفة عمله ، قبض الله روحه الزكية ، وَرَجَعَت إلى رَبّها راضيَةً مَرْضِيّة[2] ، وذلك بعد الزوال من يوم الخميس سابع عشرين محرم ، وكأن نفوس العالم كانت نفساً ، وأنزل الله السكينة ، ﴿ فلا تَسمَعُ إلاّ هَمساً ﴾[3] ؛ واستصحبت مهابته السكون ، وخادعت العقول ، حتى إن

١ « فأي عبر لم تبكي » في الأصل .
٢ راجع الآية ؛ « ارجعي إلى ربك راضية مرضية » الفجر ٢٠ .
٣ القرآن الكريم . طه ١٠٨ .

ما كان من وفاته كاد كلّ يحلف أنه ما يكون ، وحمل في محفته[1] إلى قلعة دمشق في تلك الليلة ، وسكتت الشفاه والألسنة ، وتناومت العقول من غير نوم ولا سنة . وجعل في بعض القاعات بالقلعة على سرير يوماً [١٩٤/ب] إليه بالترحم والسلام ، ولا يزوره غير الملائكة الكرام .

وكانت مدة مرضه – قدس الله روحه ! – ثلاثة عشر يوماً ، وهي مدة مرض الشهيد صلاح الدين – رحمه الله تعالى ! .

وأول ما فتحه السلطان بنفسه قيسارية ، وآخر ما فتحه قيسارية ؛ وأوّل جلوسه [في] مرتبة السلطنة يوم الجمعة سابع عشر ذي القعدة ، وآخر جلوسه في تخت سلطنة آل سلجوق بقيسارية الروم يوم الجمعة سابع عشر ذي القعدة ؛ وأوّل من بنى أنطاكية – على ما تقدم ذكره – اسمه بالعربية « الملك الظاهر » وآخرمن ملكها وأخربها هذا الملك الظاهر ؛ وكان القائم بالدولة التركية السلجوقية السلطان ركن الدين طُغرلبك ، وهذا السلطان ركن الدين هو الذي أقام الدولة التركية من حين المنصورة ؛ وركن الدين ذاك هو الذي رد الخلافة لبني العباس نوبة البساسيرى ، وركن الدين هذا رد الخلافة لبني العباس – رضي الله عنهم ! – بإقامة الخليفتين ، وهما المستنصر ، والإمام الحاكم بأمر الله ، أمير المؤمنين ؛ والخطبة في الدولة المصرية كانت للظاهر بعد الحاكم أمير المؤمنين ، والخطبة لهذا الظاهر بعد الحاكم أمير المؤمنين ؛ وهذا من عجيب الاتفاق .

---

١ كذا في النهاية ١٩٤ وفي الأصل « محافاته » .

ذكر نقله إلى تربته المباركة [١٩٥ / ١]

واستمر الشهيد بقلعة دمشق إلى أن ابتاع ولده الملك السعيد دار العقيقي ، وبناها له تربة ، وأنفق عليها ربع ملكه .

« صاح : هذا ضريحه بين جفني فزوروا من كل فج عميق
كيف لا وهو من عقيق دموعي دفنوه منها بدار العقيق

وحمل إلى تربته ليلة الرغائب من رجب سنة ست المذكورة ، وتولى حمله الأمير عز الدين ، نائب السلطنة بالشام ، وعز الدين الدوادار ، وصفي الدين جوهر الهندي :

« خرجوا به فوق[1] الرقاب وساروا تهديهمُ من وجهه الأنوار
وسروا به ليلاً ليخفوا قبره والليل لا تخفى به الأقمار
لم سارعوا نحو التراب بنقله وقبوره الأسماع والأبصار
لكنه ركن أقاموه بها كي يستقر لها بذاك قرار »

وألحده القاضي عز الدين الشافعي :

« قضى وله على الدنيا أياد يصح بها من الزمن السقام
فراح من الملائك في صفوف لهم من حول تربته زحام
يقول الناس : هل ملَك كريم ثوى في القبر أم ملك همام
كأن صعيده مذ حل فيه نوافج فض عنهن الختام »

١ كلمتا « به فوق » عليهما أثر محو .

وتجدد الأسف عليه ، فكأن العالم فجعوا بأبيهم الشفوق ، وقضوا[1] [حق التعزية][2] [وأنّى يقضي أحد ما له من الحقوق][3] .

---

[1] نهاية مخطوطة الأصل .

[2] كتبت في آخر الصفحة الأولى لتدل على بدء الصفحة التالية مفقودة .

[3] من ابن الفرات ٧/٩٨٠ .

الفهارس

فهرس الأعلام

فهرس الأمكنة

فهرس المواضيع

فهرس الأعلام

ت

ج

ح

ش

غ

ف

ن

هـ

و

ي

فهرس الأمكنة

ب

ت

ج

ح

د

ر

ز

س

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

فهرس المواضيع